الرسائل الجامعية (٢)

جهود الشيخ

عبد الرحمن بن قاسم

- رحمه الله -

في تقرير عقيدة السلف

إعداد

عبد الله بن عوض الحربي

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحربي، عبد الله عوض بدر العلوي

جهود الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في تقرير عقيدة السلف/

عبد الله عوض بدر العلوي الحربي- الدمام؛ ١٤٣٢هـ

٥٩٢ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٦ - ٥٦١ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ - ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد ١٣١٩- ١٣٩٢. أ- العنوان

ديوي ٩٢٢.٥٨٤   ١٤٣٢/٧٣٤٥

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٧٣٤٥

ردمك: ٦ - ٥٦١ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١١م

الصف والإخراج والمراجعة بدار القاسم للنشر والتوزيع

المكتب الرئيس: هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٤٠٣٣١٥٠

فروع دار القاسم

السويدي، هاتف ٤٢٤٣٥٥٥ - فاكس: ٢٦٧٦٧٠٩

جدة، هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١

بريدة، هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ - فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨

الدمام، هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١

خميس مشيط، هاتف: ٢٢٢٢٢٦١ - فاكس: ٢٢٣٣٠٥٠

موقعنا على الإنترنت: WWW.dar-alqassem.com

البريد الإلكتروني: Sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل الكتاب رسالة ماجستير تقدم بها الباحث لجامعة أم القرى - قسم العقيدة - وحازت على تقدير امتياز بإشراف فضيلة العلامة عبد الله بن محمد الغنيمان حفظه الله، وكان ذلك بتاريخ ١٩/٦/١٤٣١هـ.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم أما بعد:

فإن علم التوحيد أشرف العلوم وأفضلها، وأرفعها مكانة وأجلها، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، ولا أشرف من معرفة الله تعالى ومعرفة ما يجب له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وإدراك حقوقه تعالى على عباده، والالتزام بذلك علمًا وعملاً، إذ العبد كلما كان بهذا أعرف، وله أتبع، كان إلى ربه أقرب، ونال بذلك النجاة والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولما كان من فضل الله عليّ أن جعلني أحد طلبة الدراسات العليا في قسم العقيدة لمرحلة الماجستير؛ وكان لزاماً على الطالب اختيار موضوع للبحث في مرحلة الماجستير، من أجل ذلك بذلت وسعي لاختيار موضوع ينفعني الله به، وينفع به غيري، وبعد استخارة الله تعالى، ثم استشارة بعض المشايخ الفضلاء من أهل العلم، وقع اختياري على الكتابة في موضوع: «جهود الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في تقرير عقيدة السلف»، وذلك لمبررات، وأسباب سأذكرها في أهمية الموضوع، وأسباب اختياره.

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تظهر أهمية الموضوع ـ وهو الذي دفعني إلى اختياره ـ فيما يلي:

١ . أهمية دراسة جهود الأعلام المشهورين، وأئمة الدين المعروفين، الذين لهم قدم صدق في نشر علوم الإسلام، ومن هؤلاء الأعلام الإمام العلامة: عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن قاسم النجدي، فقد كانت له مكانة علمية رفيعة بين علماء عصره، وأئمة دهره، وشيوخ مصره، ولا غرو في ذلك فهو صاحب الجهود العظيمة في العلم تعلُّماً، وتعليماً، وتصنيفاً، وجمعاً، ودراسة، وتحقيقاً، وطباعة،

وإشرافاً، شهد له بذلك أهل العلم ممن عاصره، أو أتى بعده.

٢. غزارة علم الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، وكثرة كتبه، وتعدد مؤلفاته، وتنوع معارفه، وإحاطته بفنون متعددة؛ مما يدل على مكانته العلمية.

لم يكن موقف الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ من كل كتبه المؤلفة موقف الناقل المجرد، بل برزت فيها مقدرته العلمية، وظهرت فيها معرفته بأقوال أهل العلم، ومذهب السلف، والراجح من المسائل العلمية الخلافية، وهذه مزية عظيمة، ومنقبة كبيرة، لمن تصدى للتأليف والتدريس، ونشر العلم وتعليمه، يقول عنه ولده محمد: «استفاد من هذا الجمع ـ أي: جمعه لفتاوى ابن تيمية ـ أن اطلع على ترجيحات شيخ الإسلام، واستدلاله، حكايته الإجماع، والخلاف، وغير ذلك، فأضاف الوالد ذلك إلى مؤلفاته، فاكتسبت ميزة وصبغة تحقيق بسبب عمله المبارك في هذا المجموع»[1].

٣. التزامه منهج السلف الصالح في العقيدة، وهذا واضح جلي لا يحتاج إلى بيان، ولا تدليل وبرهان، وحسبك به إخراج: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، والدرر السنية في الأجوبة النجدية لأئمة الدعوة السلفية، وهي تزخر بتقرير العقيدة السلفية، والرد على المخالفين من أهل البدع.

فكيف إذا زدت على هذا كتابه: حاشية كتاب التوحيد، وكتابه: السيف المسلول على عابد الرسول، وغيرها من كتبه المشهورة، فلا أظن أنه يبقى شك أننا أمام جبل من علماء العقيدة، وإمام من أئمة السلف، الذين تربوا على النبعين الصافيين، والوحيين الخاتمين: الكتاب والسنة.

٤. عدم تعصبه لمذهب أو إمام معين، بل مذهبه الدليل، وديدنه الراجح، يدور معه حيث دار، ويذهب معه حيث يذهب، وهذا ما أوضحه وبينه بقوله: «والواجب على المسلم أن يكون أصل قصده طاعة الله، وطاعة رسوله، يدور على

---

(١) مقدمة مجموع الفتاوى (١/ د).

ذلك ويتبعه أينما وجده»[١].

٥. الدقة المتناهية في عباراته وألفاظه في كتبه، فلا تجد حشواً، ولا تكلفاً، ويتضح ذلك جليًّا في: حاشية كتاب التوحيد، وحاشية الدرة المضية وهذا منهجه، وتلك طريقته، وقد بينها بقوله: «إثبات المسألة بدليها تحقيق، وبدليل آخر تدقيق، والتعبير عنها بفائق العبارة ترقيق، وبمراعاة علم المعاني والبديع في تركيبها تنميق، والسلامة فيها من اعتراض الشرع توفيق، ونسأل الله بأسمائه الحسنى الهداية والتوفيق؛ لما اختلف فيه من الحق إلى أقوم طريق»[٢].

٦. إن الموضوع بهذا الشكل يشمل جل أبواب العقيدة، إن لم يكن كلها، وهذا يعني أنني سأمر على معظم مباحث ومسائل العقيدة، مما يعود عليّ بالنفع والفائدة، خصوصاً في هذه المرحلة.

٧. إن هذا الموضوع لم يتناوله أحد بالبحث، حسب علمي، وما وصل إليه جهدي، ولم يسبق لأحد أن قام بتسجيله.

ثانياً: الدراسات السابقة:

لم يتناول أحد بالبحث ـ حسب علمي ـ جهود الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في تقرير عقيدة السلف، سواء كان رسالة علمية، أو تأليفاً، سوى كتاب بعنوان "الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﵀ حياته وسيرته ومؤلفاته"، وهو من تأليف فضيلة الشيخ عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن حفيد الشيخ ﵀، وهو عبارة عن ترجمة مشتملة على حياته وسيرته ومؤلفاته.

ثالثاً: منهج البحث:

المنهج الذي سرت عليه في بحث هذا الموضوع، كما يلي:

أولاً: جمعت أقوال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﵀ في المسائل العقدية التي

---

(١) حاشية الروض المربع (١/ ١٩).

(٢) حاشية الروض المربع(١/ ٩).

نص عليها، أو ذكرها في كتبه، ورتبت هذه المسائل على حسب خطة البحث.

ثانياً: قد يتكرر نقل الكلام الواحد للشيخ ابن قاسم في عدة مواطن لاشتماله على عدة فوائد كل بحسب الموضع الذي ورد كلامه فيه.

ثالثاً: أدرس المسائل العلمية التي تضمنها كلام ابن قاسم كالأتي:

١. أما ما يتعلق بالمسائل العلمية وكلام ابن قاسم فيها، فكل مسألة لها وضعها الخاص، فقد أقدم بتمهيد مناسب لكلام الشيخ، وقد أقدم كلام الشيخ ابن قاسم لوضوحه وأهميته واستقصائه المسالة التي تكلم عليها حسب السياق والحاجة.

٢. وقد أؤيد كلام الشيخ بنقول لأهل العلم لأهمية المسألة، أو لأن كلام ابن قاسم ﵀ في المسألة كان مجملاً وتفصيله موجود في كلام أهل العلم، وكل هذا حسب ما أراه مناسباً للمسألة التي أعلق عليها.

رابعاً: كنت أعبر عن الشيخ عند النقل عنه بقولي: ابن قاسم، أو قال ﵀، أو الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، أو الشيخ، وأحياناً أقول: قال الشيخ ﵀:

خامساً: كما حرصت على مقابلة أبناء الشيخ، وأحفاده الموجودين - حفظهم الله - حيث سافرت إليهم في المدينة والرياض، واستقيت منهم بعض المعلومات التي تفيدني في البحث مثل: ابنه الشيخ/ سعد، وحفيده الدكتور عبد المحسن بن محمد بن عبد الرحمن، أمام وخطيب المسجد النبوي، وحفيده الدكتور عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن، وحفيده الدكتور يوسف بن أحمد بن عبد الرحمن، فجزاهم الله خير الجزاء.

سادساً: لم أحاول التوسع في مفردات الرسالة منعاً للحشو والإطالة والإملال.

سابعاً: عزو الآيات القرآنية الواردة في البحث بذكر السورة، ورقم الآية في المتن، وكتابتها بالرسم العثماني.

ثامناً: أما ما يتعلق بحواشي البحث فهي كالآتي:

١. تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مظانها، فإن كان الحديث في

الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالإحالة إليهما، وإن كان في غيرهما، ذكرت من أخرجه دون استقصاء، مع بيان درجته إن تيسر ذلك مستعيناً بأقوال أهل العلم.

٢. نسبة الأقوال إلى أصحابها من مظانها ما أمكن.

٣. الترجمة للأعلام غير المشهورين، ولا يخفى أن الشهرة أمر نسبي، والأمر فيه اجتهاد بحسب غلبة ظن الباحث.

٤. التعريف بالفرق والطوائف التي ورد ذكرها في البحث بما يوفي بالغرض.

٥. التعريف بالأماكن غير المعروفة التي يرد ذكرها في البحث.

٦. شرح الغريب من الكلمات التي يرد ذكرها أثناء البحث.

٧. وضع فهارس تخدم البحث في آخر الرسالة كما هو موضح في الخطة.

وفي الختام أحمد ربي وأشكره على آلائه وأفضاله عليّ، وعلى توفيقه لي في اختيار هذا الموضوع المفيد، ثم أشكر منسوبي جامعة أم القرى، ويمثلهم في ذلك مشايخي في كلية الدعوة وأصول الدين، وأخص بالثناء أعضاء هيئة التدريس في قسم العقيدة على ما أجده ويجده غيري من إعانة، ونصح، وتوجيه في سبيل التحصيل العلمي وإنارة دروب البحث.

وأختم بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ العلامة الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن محمد الغنيمان، المشرف على هذه الرسالة على ما قام به من نصح، وتوجيه، وأسأل الله سبحانه أن يعلي درجته، وأن يبارك له في علمه وعمله وعمره.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للشيخين الكريمين أ. د عبد الله علي سمك، ود سعد علي الشهراني اللذين قبلا مناقشة هذه الرسالة، فجزاهما الله خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسناتهما.

وأشكر أيضاً جميع من أعانني في بحثي هذا بإشارة، أو إعارة، من مشايخي وزملائي، الذين كانوا لي نعم العون بعد الله في ذلك.

وإني في ختام هذه المقدمة لأعتذر لكل من قرأ هذه الرسالة عن التقصير في هذا

البحث، وذلك لقلة البضاعة، وعدم الخبرة في ذلك ولست أقول كما قال القائل:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل(١)

ولكني أقول كما قال الآخر:

يا ناظراً فيه سد الخللا فجل من لا عيب فيه وعلا(٢)

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

---

(١) لأبي العلاء المعري.
انظر: الحماسة المغربية(١/ ٧٦)، موسوعة الشعر الإسلامي (٢٩٢ / ١).

(٢) للحريري انظر: البداية والنهاية (١٤/ ١٨٣).

التمهيد
في التعريف بالشيخ عبد الرحمن بن قاسم
المبحث الأول
حياته الشخصية

وفيه مطالب:

المطلب الأول: نسبه، ونشأته:

نسبه:

هو: الشيخ، الإمام، العالم، العلامة، العامل، المحقق، المدقق، المجتهد، المتفنن، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم من آل عاصم من قحطان القبيلة المشهورة في نجد(١).

ولد رحمه الله في عام ١٣١٢هـ في بلدة البير التي تقع على بعد ١٢٠كلم شمال غربي الرياض، مجاورة لبلدتي ثادق وحريملاء(٢).

وكان منشأ قبيلتهم الأول بلدة القصب من منطقة الوشم، ومنها إلى رغبة، والبير، وثادق، والرويضة بالمحمل، والحريق والوشم، جميع هذه القرى تابعة إداريًّا منطقة الرياض حالياً، وتقع في الجهة الشمالية الغربية منها، يتراوح بعدها عن الرياض على طريق السريع الرياض القصيم ١٤٥كم.

---

(١) مقدمة الشيخ عبد الله بن جبرين على حاشية الروض، لابن قاسم (١/ ٣)، انظر: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، للقاضي (١/ ٢٣٥)، علماء نجد خلال ثمانية قرون، للبسام (٣/ ٢٠٢)، المبتدأ والخبر لعلماء القرن الرابع عشر، لإبراهيم السيف (٢/ ٢٩٥)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته، لعبد الملك القاسم (٢٠).

(٢) انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٢)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٢).

ووالده: محمد توفي مبكراً عام ١٣٢٤هـ، وعمر الشيخ ما يقارب اثنتي عشرة سنة.

وجده: عبد الله بن قاسم، فارس شجاع، عرف بذلك، قتل ظلماً وغدراً خارج بلدته، حيث كان يرافق بسلاحه من يذهب من بلدته إلى القرى المجاورة، له ملك زراعي من أفضل مزارع البلد.

ووالدته: هي هيا بنت عباد بن حمد بن علي بن محمد بن حمد العباد، ووالدتها سلمى بنت عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ابنة عمته، وكانت ذات يسار وأملاك، ورثتها في بلدان البير وحريملاء والصفراء، وكانت تدفعه إلى طلب العلم، وترسل له ما يحتاج، وصيتها التي كتبت في عام ١٣١٧هـ تنبئ عن ذلك[١].

نشأته:

شب وترعرع رحمه الله في مسقط رأسه بلدة البير أول عمره، في بيت عرف أهله بدين وصلاح واستقامة، وبها أخذ مبادئ القراءة والكتابة، وقرأ القرآن مجوداً على يد مقرئ بقريته، وحفظ القرآن عن ظهر قلب، وهو في سن صغيرة لم يتجاوز التاسعة من عمره، ثم قرأ مبادئ العلوم على مشايخ بلدته، ثم انتقل مع والده إلى القصب، وبعدها انتقل إلى الرياض[٢]، وأقام بها حتى كان عام ١٣٦٦هـ حيث غرس رحمه الله مزرعته في أول طريق العمارية والمسماة "المغيدر".

وبنى له فيها بيتاً متواضعاً سكن فيه هو وزوجته وأولاده، وكانت له غرفة صغيرة تحت الأرض هي مكتبته ومساحتها لا تتجاوز٤م٢، وفيها دولاب لكتبه رحمه الله، وقد أمضى في هذا المسكن بقية عمره، قبيل وفاته بستة أشهر، أي: ما يقارب

---

(١) استقيت هذه المعلومات من ابن الشيخ فضيلة الشيخ/ سعد بن عبد الرحمن، في يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ ومن حفيده د.يوسف بن أحمد بن عبد الرحمن القاسم، في يوم الأحد، الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٠-٢١).

(٢) انظر: روضة الناظرين (١/ ٢٣٥)، علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٢)، حاشية الروض المربع(١/ ٣).

من ستة وعشرين عاماً، وقد زاره في هذا المنزل الملك سعود بن عبد العزيز وجمع من الأمراء، ثم انتقل إلى بيت طيني جديد في نفس المزرعة، بعد إلحاح شديد من أولاده، وبقي في هذا المنزل إلى وفاته من شهر شعبان، سنة ١٣٩٢هـ[١].

وقد كانت زوجته نورة بنت محمد الزومان، نعم المعين بعد الله له في طلبه للعلم وبذله، فقد كانت ذات عقل ورزانة وورع وعبادة وعفاف وقراءة للقرآن.

تقول رحمها الله: كنت أنزعج كلما أراد السفر، خاصة أنه يغيب شهوراً متواصلة، فلما قلت له يوماً في ذلك، قال لي: لك مثل أجري، فارتحت وانشرح صدري، فما عدت أقول له شيئاً بعد ذلك.

وكانت حريصة على تربية أبنائها والمحافظة عليهم، ومن ذلك أنها كانت تحفظهم كتاب الله ﷻ وهي تعمل وقد جعلتهم بجوارها.

وقد عانت من فراق الزوج كثيراً حتى إنها ذكرت ما يشبه أحاديث السلف، فقالت رحمها الله: إنه كان يسافر وقد حملت بحمل في بطني ثم يعود، وإذا بالحمل قد وضعته، بل ويجري ويستقبل والده.

وقد توفيت رحمها الله في ٣٠ شعبان، وصلي عليها ليلة رمضان ١/ ٩/ ١٤١٨ هـ وقد صلى عليها جمع من العلماء والمشايخ، منهم الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله، ودفنت في مقبرة العود بالرياض رحمها الله رحمة واسعة[٢].

المطلب الثاني: صفاته الخَلقية، والخُلقية:

كان رحمه الله قمحي اللون يميل إلى البياض، متوسط الشعر، حسن السمت، كريم النفس، دمث الأخلاق، مترفعاً عن سفاسفها، حلو الشمائل، كريماً سخيًّا، مستقيماً في دينه وخلقه، غيوراً على محارم الله، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر،

(١) استقيت هذه المعلومات من حفيده، د. يوسف، في يوم الأحد، الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٨٥).

(٢) استقيت هذه المعلومات من ابن الشيخ فضيلة الشيخ/ سعد بن عبد الرحمن يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٨٢- ٢٨٤).

يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، مهاباً ومحبوباً وقريباً من الصغير والكبير، والغني والفقير، يتعاهد المحتاجين، قال عنه محمد القاضي: «وكان رحمه الله طويلاً، نحيفاً، قمحي اللون يميل إلى البياض، متوسط الشعر، دمث الأخلاق، لا يحب المظهر والشهرة، سخيًّا، لين العريكة، حلو الشمائل، واصلاً للرحم، مستقيماً في دينه وخلقه»(١).

وقال عنه العلامة الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله: «وكان رحمه الله غيوراً على حرمات الله، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، ثم هو مع ذلك حسن السمت، دمث الأخلاق، دائم البشر، كريم النفس، متعزز عن رذائل الأمور، وسفاسف الأخلاق، وكان متواضعاً لربه لا يستنكف، ولا يرفع نفسه عن إجابة الصغير والكبير، ومحادثة الغني والفقير، مع ما رزقه الله من الهيبة والاحترام في قلوب الخاص والعام»(٢).

وقال الشيخ حمد الجاسر: «كان رحمه الله من أرق من عرفت من العلماء نفساً، وألطفهم خلقاً، وأسخاهم يداً. اهـ

وله في ذلك قصص معروفة، يضيق المقام بذكرها، وقد زار حفيده عبد الملك الشيخَ حمد الجاسر مع بعض طلبة العلم يوم الخميس أواخر شهر رجب عام ١٤١٨هـ ولما عرفه تحدث عن الشيخ ابن قاسم وقال كلاماً طويلاً في الثناء عليه، وذكر فضائله، منها قوله: إنه كريم النفس، كريم اليد، وكان هو الوحيد الذي تعاهدني بالسؤال والهدايا من مزرعتكم حين تركني الناس»(٣).

وقال الشيخ عبد الله بن بسام: «كان على جانب كبير من الأخلاق، حلو الشمائل مستقيماً في دينه وخلقه»(٤).

---

(١) روضة الناظرين (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) حاشية الروض المربع، لابن قاسم (١/ ٣-٤).

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٦٠) بتصرف.

(٤) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٦).

وقال حفيده عبد الملك: «امتازت أخلاقه بسمو النفس، وعلوها، وحسن الخلق، وطيبه، زاد ذلك إيمان وتقى وورع، وكان رحمه الله غيوراً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، له في ذلك مراسلات مع الملوك والأمراء. وقد ذكر أحد أحفاده أنه قال له يوماً: يا أبي، لماذا ترسل وأنت ترى أنه لا يرد على رسائلك؟ فقال رحمه الله: «ما أرسلت ليرد على رسائلي، ولكن أرسلت براءة للذمة ونصيحة للأمة»[1].

وقد امتاز ابن قاسم بصفات جليلة، نذكر أبرزها، على وجه التفصيل، وهي ما يلي:

الأول: ورعه:

كان الشيخ ابن قاسم رحمه الله من العلماء الربانيين، الذين آثروا الآخرة على الدنيا، فكان مضرب المثل في ورعه وزهده ومن ذلك:

١. أنه كان رحمه الله يتحرج من الفتوى، مع أنه ألف حاشية الروض في سبع مجلدات، ويستطيع أن يفتي من قرأها، كيف بمن عكف عليها أربعين سنة؟!

٢. كان رحمه الله يدفع من جيبه لتعبئة قلمه بالحبر، مع أنه كان مديراً للمكتبة السعودية بالرياض، وكان عنده دواة للحكومة وأخرى له، فملأ الموظف قلمه من دواة الحكومة فغضب عندما علم، وقال له: تريد أن تدخلني النار!، وهذا ورع منه.

٣. ومن شدة ورعه رحمه الله أنه إذا ركب مع الناس في سيارة أجرة لتنقله خارج الرياض كان يعطي الأجرة مثل غيره من الركاب، وإذا عرفه صاحب السيارة رفض أخذ الأجرة منه، فيقوم إذا نزل بإلقائها عليه ويسرع ماشياً.

٤. كان رحمه الله يسكن في بيت طين متواضع في مزرعته، ولما زاره الملك سعود رحمه الله قال له: نريد أن نبني لك بيتاً غير هذا، وكان البيت مبنياً من الطين في وسط المزرعة، فقال رحمه الله: قد بنيت لي داراً وأنتظر الرحيل إليها، فسكت الملك سعود رحمهم الله جميعاً.

٥. وبعده رحمه الله عما يخالف الشرع، فعندما زاره أحد العلماء وهو بمرتبة وزير،

---

(١) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٦١-٢٦٢) بتصرف.

وكان معه بعض القانونيين كره جلوسهم معه في المجلس، ونهرهم، وذكرهم بحكم الشرع وتحكيمه، فقاموا.

٦. وقد أوصى رحمه الله أن تمزق صورته في حفيظة النفوس إذا مات.

٧. ومن ورعه رحمه الله أنه لم يدخل التلفاز والمذياع في بيته[(١)(٢)].

الثاني: تواضعه:

التواضع سمت العلماء الربانيين، وقد كان ابن قاسم رحمه الله: «متواضعاً مستكيناً لربه، ظهر ذلك في معاملته للناس عامة وللفقراء والمحتاجين خاصة، وكان لا يرضى أن يسمى شيخاً، ودائماً يقول: لست شيخاً، المشايخ في الرياض، ويرفض أن يقبل رأسه.

ومن تواضعه رحمه الله أنه كان يأكل مع عمال المزرعة جميع الوجبات، بل لم يتميز بوجبة خاصة إنما كان الطعام مشتركاً، وكان يمازحهم ويحادثهم ويعلمهم أمور دينهم، ويسألهم عن ذلك.

وقد ذكر الشيخ عبد العزيز بن محمد أخو ابن قاسم رحمه الله أنهم عندما قدموا إلى الرياض مروا بمزرعة شخص ذي كرم وضيافة على الطريق، يقال له ابن دغيم[(٣)]، تقع في أعالي الدرعية قرب الملقا، قال: فلما عرف أن أخي الشيخ أراد أن يقوم، فمنعه أن يكرمه بشيء زايد عن عمال المزرعة، ورفض ذلك بشدة قال العم: فلما أكلنا معه وعماله، أقسم على أخي أن ينام في سطح المنزل فقبل»[(٤)].

الثالث: صبره وجلده:

أُعطي الشيخ صبراً وجلداً عظيماً في طلب العلم، وفي جمع المخطوطات،

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢٤٤، ٢٤٦، ٢٦١).

(٢) فقد كانت في عصره رحمه الله مستجدة، وكان أكثر العلماء في وقته يحرمونه.

(٣) من قبيلة السبيع، عرف عنه الصلاح والعبادة، توفي في عام ١٣٨٧هـ، استقيت هذه المعلومات من ابن الشيخ فضيلة الشيخ/ سعد بن عبد الرحمن يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

(٤) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٤٧)، بتصرف.

والفتاوى، وترتيبها، وفي التأليف مع ما أصابه من مرض، ومن أمثلة ذلك:

طلبه العلم:

فقد ذكر أخوه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن القاسم بعض أخباره في طلبه للعمل، حيث قال: «إنهم ساروا من بلدتهم البير إلى الرياض على أقدامهم لمدة ثلاثة أيام ليدركوا دروس العلم فيها، قال الشيخ عبد العزيز: مشينا من بلدتنا البير قبل المغرب وعمري ١٧ سنة، وكان أخي عبد الرحمن أكبر مني، ولما نزلنا على بلدة الصفرة وقد غابت الشمس قلت له: نذهب لأبناء خالك الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عباد - طالب علم وإمام مسجد - قال: لن نذهب لأحد، واستمررنا في المشي حتى أدركنا المبيت في الخلاء، وقبل الفجر مشينا ووصلنا إلى بلدة حريملاء ضحى، قلت له: نروح لزميلك عبد الرحمن بن خريف، قال: ما بيننا وبين بلدة سدوس إلا ذراع، ومشينا حتى انتصفت الضحوة، قلت له: نروح لعبد الرحمن ابن معمر أمير سدوس قال ﷺ: ما بيننا وبين بلدة العيينة إلا مسافة قليلة، واستمررنا في السير إلى صلاة العصر، حيث وصلنا بلدة الجبيلة، ولما أتى المغرب وإذا بنا في بلدة الملقا، ثم استمرينا نمشي حتى وصلنا الدرعية، ثم أرحنا في الفوارة "الفاخرية"، ثم جاء الليل، ولما أذن الفجر وإذا بنا عند دروازة آل سويلم، وهي من أبواب الرياض في ذلك الحين، استفتحنا فلم يفتحوا لنا وبعد الإلحاح استيقظ أحد الحراس الذين يعرفون أخي، وكانت الرياض تغلق أبواب سورها ليلاً، فعرف صوته أحد الحراس، وقال: هذا الشيخ عبد الرحمن بن قاسم افتحوا له، ففتحوا له، ودخل مع فتحة يسيرة في الباب، وكان ممسكاً بيدي فردوا الباب، وصاح: هذا معي ادخلوه!

قال: فدخلت وقد بلغ مني التعب، وسرنا إلى الجامع وقد أذن المؤذن فصلينا، واستندت إلى سارية بالمسجد ولم أع إلا وقد ارتفعت الشمس! وتفرق الطلاب فنظرت إلى قدمي انتفخت وبلغ مني التعب مبلغه، فلم أستطع أن أسير إلى الغرف

المجاورة للمسجد، قال: وأخي أدرك الدرس بعد الفجر ثم ذهب الضحى لدرس آخر، وأتاني بعد الظهر، وكأنه لم يمش تلك المسافة الطويلة»[١].

رحلته في جمع فتاوى شيخ الإسلام، وجمعه للرسائل والمسائل النجدية:

ومن ذلك جلده وصبره على إخراج كتب ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية مع صعوبة قراءتها، وجمعه للرسائل والمسائل النجدية، تحمل من أجله مشاق السفر، وبحث ونقب في مكاتب كثيرة في الدول العربية وغيرها، وجمع كل ما وجده من مؤلفات ابن تيمية رحمه الله ثم سعى في ترتيبه وتنقيحه وتصحيحه وذلك برحلات عديدة.

كما قام بمجهود كبير آخر لجمع الرسائل والمسائل النجدية، فصار لهذين المجهودين أثرهما الطيب وبقيا لسان ذكر له في العالمين، فهذان من الأعمال الجليلة التي صبر عليها رحمه الله، وبذل في سبيل تحقيقها الوقت الطويل، والبحث المتواصل، فجزاه الله عن الأمة كل خير[٢].

الرابع: محافظته على الوقت:

العلماء هم أحق من يعرفون أهمية الوقت، ولذلك فهم أسعد الناس بالاستفادة منه، والأخذ به، قال السخاوي عن شيخه ابن حجر: «... إنما كان همته المطالعة والقراءة والسماع والعبادة والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يخلي لحظة من أوقاته عن شيء من ذلك، حتى في حال أكله وتوجهه وهو سالك، كما حكى لي ذلك بعض رفقته الذين كانوا معه في رحلته، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه...»[٣].

واقتدى ابن قاسم بأولئك العلماء الأجلاء فكان رحمه الله يقرأ ويكتب حتى في حال مرضه، ناهيك عن حال صحته، وعافيته، وسفره، وإقامته، وقد ذكر ابنه الشيخ

---

(١) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٥١-٢٥٢) بتصرف، كما سمعت هذه القصة من ابن الشيخ سعد بن عبد الرحمن، في يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

(٢) انظر: روضة الناظرين (٣/ ٢٣٦-٢٣٧)، وسيأتي زيادة إيضاح حول جمعه للفتاوى ضمن ذكر أعمال الشيخ (٢٩)، ورحلاته (٣٧)، وذكر بعض مؤلفاته "مفصلاً" (٤٢).

(٣) الجواهر والدرر (٤٨).

سعد، أمراً عجباً منه رحمه الله فقال: «كان لدينا في المزرعة عمال يحفرون بئراً، فلما زاد الحفر والعمق، وكأن همتهم ونشاطهم قلّ، كان رحمه الله ينزل بكتبه وهم يحفرون البئر، ويقول: أنتم تعملون وأنا أعمل»[١].

«وكان رحمه الله يكتب في كل وقت وينقل كتبه وأوراقه معه أينما ذهب، ولا تراه إلا في عبادة أو جالساً لإكرام ضيف أو يكتب، وكان يكتب بعد الفجر والظهر والعصر حتى أذان المغرب، ولا يكتب في الليل إلا قليلاً لعدم توفر الإضاءة بشكل كاف، وكان له محفظة يضع فيها أوراقه وينقلها معه في كل مكان حتى إنه يرقى على مرتفع من الأرض ليشرف على أعمال المزرعة ويكتب.

وكان رحمه الله يقرأ في الليل، ثم يطفئ السراج لينام، فإذا به يعود ويشعل السراج مرة أخرى، ليكتب، وهكذا ينام ويستيقظ»[٢].

خامساً: عبادته:

ومما ذكر عنه رحمه الله أنه «كان عابداً ورعاً تقيًّا، يختم القرآن في كل أسبوع، وله في رمضان ختمة في كل يوم ونصف، أي يختم في رمضان عشرين ختمة.

وذكر عبد الرحمن بن عبد العزيز القاسم: أنه كان يمشي معه من بلدة البير إلى الرياض سيراً على الأقدام، وكان سريع المشي يتقدمه في السير، لا يدركه إلا إذا سجد. اهـ، ومعنى ذلك أنه يقرأ القرآن الكريم وهو يمشي وكلما أدركته سجدة سجد وعندها يدركه.

وذكر الشيخ سعد حفظه الله أنهم كانوا يسيرون معه في نواحي المزرعة فإذا به يهوي ساجداً!، ومعنى ذلك أنه كان يقرأ القرآن وهو يسير حتى في مزرعته.

(١) وذلك في مقابلة له في منزله بالرياض يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٥٦).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٥٧) بتصرف.

وفي مرض موته في المستشفى كان يقرأ القرآن كاملاً من صدره، وإذا مر بآية سجدة أومأ إيماء حيث كان لا يستطيع السجود[(١)].

وقد ذكرت زوجته رحمها الله أنه سأل مرة: أين المصحف؟ كي يقرأ فيه، ولم يكن المصحف قريباً فقالت متسائلة: ألست بحافظ للقرآن؟ قال: ﷫: بلى، ولكن اشتقت لحروفه.

وكان ﷫ يذهب إلى المسجد قبل ساعة من غروب الشمس يوم الجمعة رغبة في إدراك ساعة الإجابة، وله نصيب من قيام الليل منذ حداثة سنه، قالت زوجته: كنت أصلي - أي في الليل- ويصلي لكنه كان كثير البكاء»[(٢)].

سادساً: الغيرة على محارم الله:

ومما يتصف به العلماء غيرتهم على محارم الله، وإنكارها، ولهذا كان ﷫ غيوراً على محارم الله أن تنتهك، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر في عامته وخاصته.

ومن عجيب قصصه نفرته الشديدة من الشرك، وإن كان شركاً أصغر، فقد سمع عاملاً، أتى: إليهم في المزرعة، يقول: والنبي فقال: لا يبقى عندي، ويعلم التوحيد قبل أن يرجع به[(٣)].

وقد ذكر الشيخ عبد الله بن جبرين ﷫ عن الشيخ، فقال: «وكان ﷫ غيوراً على حرمات الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائمة»[(٤)].

وقال الشيخ عبد الله آل بسام متحدثاً عن غيرته ﷫ على محارم الله: «وكان عنده غيرة على حرمات الله، ويكره جدًا مساكنة الكفار، وجوارهم، وكان يخشى ويتخوف دائماً بسبب الأوضاع الدينية في الدول العربية والإسلامية أن يصيبها

---

(١) كما سمعت هذه القصة مباشر من الشيخ سعد يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷫ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٧٠-٢٧١) بتصرف.

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٦٨).

(٤) حاشية الروض(١/ ٣-٤).

السوء بسبب معاصيها وبعدها عن الله»[١]؛ وذلك مما يشاهده هناك من خلال سفراته للعلاج من العقائد المنحرفة وأنواع المعاصي الظاهرة، فماذا يقول لو شاهد عصرنا الحاضر، والله المستعان؟!!

ومما ذكره حفيده د.يوسف، حيث قال: أنه عُرف عنه الصدع بكلمة الحق، فقد كان قوّالاً لها، لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد امتحن بسبب كتاب له في تحريم حلق اللحى، ورسائل جمعها يحتوي بعضها على تحريم أخذ المكوس؛ وقصة ذلك: أنه أنكر على رجل لا يتورع عن أخذ الرشوة، وكان يعمل كاتب ضبط عن أحد القضاة، فغضب عليه هذا الرجل ووشى به، معرّضًا بكتابه ورسائله عند من يهمه الأمر، فأُدخل السجن، ومكث فيه عشرين يومًا!! اهـ[٢].

سابعاً: النصيحة:

النصيحة الصادقة من القلب الصادق، تصل إلى القلب، وينتفع بها المنصوح، وكان للشيخ مشاركة في بذل النصيحة شفقة على الأمة ورفقاً بالخاصة والعامة، فقد كان يتعاهد العلماء بالنصيحة والتواصي على الحق، والصبر، وله مراسلات مع الملوك في النصيحة، فقد كان ﷺ يرسل نصائح للملك سعود، ثم الملك فيصل، بخطابات يسلمها إليهم بوساطة أحد المقربين منه.

فقد ذكر ابنه الشيخ سعد شيئاً من مناصحته للملوك، حيث يقول: كان يتواصل مع الملوك بالنصيحة، وذكر أنه في أواخر سنوات عمره في عام ٩٠ أو ١٣٩١هـ كتب نصيحة للملك فيصل من صفحتين، ثم سأل أبناءه ومن حوله من يسلمها للملك فيصل؟ قلت: أنا قال: هناك رجل عند الملك فيصل اسمه ابن حسين، اسأل عنه ودعه يدخلك على الملك، وسلم الخطاب للملك يداً بيد، قال: فذهبت وكان الاستقبال بعد المغرب، وعندما وصلت إلى قصر الملك، وقفت مع الناس، وكان

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٦)، انظر: حاشية الروض المربع (١/ ٣).

(٢) وذلك في مقابلة له في مدينة الرياض، في يوم الأحد، الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ.

عددهم من خمسين إلى سبعين رجلاً، قال: فلمحني رجل، وقال: أنت ابن قاسم؟ قلت: نعم، قال: أنا ابن حسين ماذا لديك؟ قلت: الوالد أرسلني بخطاب إلى الملك فيصل، فأخذ بيدي وأدخلني، وسلمت الخطاب للملك فيصل يداً بيد[(١)].

ومن مناصحته أيضاً مراسلته لطلبة العلم، ومن يشفق عليه ويحبه، ومنهم الشيخ حمد الجاسر حيث كان يحبه في شبابه وبداية طلبه للعلم الشرعي، وله منزلة في قلبه حين بدأ في طلب العلم، لما يتوسم فيه من النجابة والنباهة[(٢)].

ثامناً: طرائفه:

مجالس العلماء مليئة بالعلم والفائدة، قال عنه رحمه الله الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله: «فلا يخلو حديثه من فائدة دينية، أو مسألة فقهية، أو استشهاد بآية، أو حديث»[(٣)].

وقال حفيده عبد الملك: «كان رحمه الله صاحب طرفة ونكتة، لا يتجاوز حدود الأدب والسمت والوقار، ولكنه كان يتبسط مع الناس، ويتواضع لهم، ويحدثهم بما يفهمون؛ ولهذا أحبه العلماء والعامة، ومن تلك الطرائف:

أنه في مرحلة قوة الإخوان كانوا يقابلون من يدخل إلى الرياض ويسألون في الأسواق: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وكان حظهم في أحد الأيام الجد رحمه الله، وهم لا يعرفونه فاستوقفوه، وسألوه الأسئلة الثلاثة.

فقال رحمه الله أولاً: «أنا أسألكم ثم أجيب، قالوا له: اسأل قال أنتم دخلتم في الدين، أم الدين دخل فيكم، فاحتاروا وتركوه!»[(٤)].

---

(١) وذلك في مقابلة له يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ، انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٧٧).

(٢) حدثني بذلك حفيده الشيخ د. عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن في داره -دار القاسم- وذلك في يوم الخميس الموافق ٢٦/ ١٠/ ١٤٣٠، وزودني بصورة من رسالته للشيخ حمد الجاسر، وذكر ذلك في كتابه "الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته" (٢٧٧).

(٣) حاشية الروض(١/ ٣).

(٤) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٥٨).

تاسعاً: سخاؤه وكرمه:

عرف ﷾ بالسخاء والكرم، وتعاهده للفقراء، والمحتاجين، وطلبة العلم بما يجود به، قال حفيده عبد الملك: «كان منفقاً ذات اليمين والشمال على الفقراء والمحتاجين، وعندما ضرب البرد مزرعة جاره، وهو الذي حدثني بالقصة، وكان له الكثير من الأبناء الصغار، ذهب إليه ﷾، ومعه ما يقارب (٨٠٠٠) ريال وقال له: هذه لك، ثم قال لي: ففرحت بها فرحاً شديداً، وسد الله بها فاقتي، وحاجاتي، وكان ثمن محصولي لا يتجاوز هذا المبلغ، وكان في حينه كبيراً.

وكان له ﷾ عناية بأقاربه ومعارفه، يكرمهم ويدعوهم إلى مزرعته ويلح عليهم في ذلك، ويرسل سيارته إلى الرياض لإحضار من يرغب المجيء إليه»[(١)].

عاشراً: مشاركته في الدعوة ونفع الناس:

تعد الدعوة ذات أهمية في نفع المجتمعات، وإصلاحها كيف والعلماء ورثة الأنبياء؛ ولهذا كان للشيخ مشاركات في ذلك، حيث درس في المسجد، ووعظ، وخطب، وألف الكتب، وجمع الرسائل، وسافر لجمع المخطوطات، وشارك في وسائل الإعلام، وكتب في الصحف، خاصة في الفترة التي كان يعمل فيها بمكة، حين طبع «الدرر السنية» حيث كانت تطبع في المطابع الحكومية التي تصدر منها جريدة أم القرى، ولعله توقف عن الكتابة بعد عودته إلى بلده[(٢)].

الحادي عشر: خدمته لدينه الحنيف والشرع المطهر:

بذل الشيخ حياته كلها لخدمة دينه تعليماً وتعلماً وكتابة وجمعاً وتأليفاً، «فجميع مؤلفاته باستثناء كتاب التاريخ - الذي أخرجه في أول حياته - تدور حول العقائد والأحكام وعلوم القرآن، وحسبك جمعه لفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ﷾،

---

(١) المصدر السابق (٢٧٩)، بتصرف، كما حدثني بهذا الشيخ سعد، وذكر لي اسم صاحب هذه القصة، ورأيت عدم ذكر أسمه لعدم الإحراج، وكان ذلك يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

(٢) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷾ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣٠).

وجمعه لرسائل علماء نجد - الدرر السنية في الأجوبة النجدية - في حقبة اندثرت فيها أكثر تلك الرسائل العظيمة، وحسبك به إخراج حاشية الروض المربع في الفقه وغيرها من المؤلفات الشرعية.

وقد جمعت صفحات كتبه التي طبعت حتى الآن فإذا بها تقارب (٤٠.٠٠٠) صفحة، ومعنى ذلك أنه إذا حسبنا عمره (١٣١٢-١٣٩٢) ثمانون عاماً، وأنه كان رحمه الله يكتب كل يوم بعد بلوغه العشرين، فمعنى ذلك أنه يكتب في الستين سنة الباقية من عمره يوميًّا ما معدله ورقتين تقريباً رحمه الله، وأجزل له المثوبة، فقد كان من العلماء المجاهدين.

قال الحسن البصري[1]: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء[2]»[3].

الثاني عشر: مقدرته العلمية:

نظراً لقوة شيخ الإسلام العلمية فإن كل من تتلمذ على كتبه اكتسب قوة العلمية في ذلك، وعرف كيف يتعامل مع النصوص، وكيف يرجح، لقد استفاد الشيخ ابن قاسم من جمعه فتاوى شيخ الإسلام فائدة عظيمة، وتحقيقاً جيداً، قال ابنه الشيخ محمد في مقدمة الفتاوى: «واستفاد من هذا الجمع أن اطلع على ترجيحات شيخ الإسلام واستدلاله، وحكايته الإجماع، والخلاف، وغير ذلك، فأضاف الوالد ذلك إلى مؤلفاته، فاكتسبت ميزة وصبغة تحقيق بسبب عمله المبارك في هذا المجموع...»[4].

---

(١) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ وشب في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣)، الأعلام (٢ / ٢٢٦).

(٢) قال المناوي: أسانيده ضعيفة، لكن يقوي بعضها بعضاً. انظر: كشف الخفاء (٢/ ٥٤٣)، برقم(٣٢٨١)، وذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة وشرحه بكلام نفيس، يرجع إليه (١/ ٨٠).

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢١٧)، بتصرف.

(٤) مقدمة مجموع الفتاوى (١/ د).

الثالث عشر: حسن الخط وسرعة الكتابة:

وقد ساعد ابن قاسم على كثرة كتبه، وتأليفه التي أظهرت مكانته العلمية حسن خطه، وسرعة كتابته، مع ما رزقه الله من قوة الصبر على مشاق الجمع، والتأليف، قال الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله: «... وكان حسن الخط سريع الكتابة فنسخ بيده شيئاً كثيراً ورزقه الله الصبر والقوة بحيث لا يعتريه ملل ولا سآمة، فأكب على المطالعة والبحث والاستفادة والتنقيب عن أفراد المسائل وأماكن الأدلة حتى نال ما تمناه...»(١).

المطلب الثالث: علاقته بالعلماء:

كانت علاقة الشيخ بأهل العلم في زمانه علاقة مودة، واحترام، وكان يصلهم ويصلونه، ولا أدل على هذا من شهادة أهل العلم له بذلك، ومن ذلك:

ما قاله الشيخ عبد الله بن بسام، بعد أن ذكر بقاءه في مزرعته: «ولكن العلماء وطلاب العلم ممن يعرفون فضله وجهوده يترددون عليه للاجتماع به والتباحث معه...»(٢).

وقال الشيخ محمد القاضي: وهو يتحدث عن مجالسه «وكانت مجالسه مجالس علم وبحث شيقة وممتعة للجليس، وله نكت حسان وعلى جانب كبير من الأخلاق العالية...»(٣).

وقال الشيخ حمد الجاسر: «وكان رحمه الله من أرق من عرفت من العلماء نفساً، وألطفهم خلقاً، وأسخاهم يداً...»(٤).

وقال الشيخ عبد الملك القاسم: «وكان رحمه الله يجل علماءه ومشايخه، ويثني

---

(١) حاشية الروض المربع(١/ ٣).
(٢) علماء نجد خلال ثمانية قرون(٣/ ٢٠٦).
(٣) روضة الناظرين (١/ ٢٣٧).
(٤) مجلة العرب، عدد ١٦٣ (ص٨).

عليهم وحسبك بالمجلد السادس عشر من الدرر السنية لترى ذلك جليًا واضحاً في ترجمته للعلماء، كما ترى ذلك أيضاً في حاشية كتاب التوحيد عندما يقول: قال شيخنا(١).

وقد كان ﷺ إذا أتى إلى الرياض يزور العلماء، وقد ذكر فضيلة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان رئيس مجلس القضاء الأعلى، وكان في حينها في المحكمة الكبرى بالرياض: «أنه كان يزورهم، وكانوا يقولون له: لك الحق يا شيخ، فيقول: أنتم مشغولون.

فرحم الله ابن قاسم وأعلى منزلته، فقد كان للعلماء قدر كبير عنده، ويفرح بزيارتهم ويسر، ويعطيهم من ثمار مزرعته، لا يترك أحداً يذهب إليه إلا وقد أخذ شيئاً منه، ويتفقد ذلك بنفسه»(٢).

فقد ملك ﷺ محبة الناس له، وهي من صفاته التي كتب عنها مترجموه، وليس له مع أقرانه خصومة، أو عداوة، أو مع أحد من الناس(٣).

المطلب الرابع: أعماله:

قام ﷺ بأعمال جليلة، أخذت الكثير من وقته وجهده، ونفع الله بها الخلق، ويتضح ذلك فيما يلي:

١. جمع الفتاوى:

ومن أعماله الجلية، جلده وصبره في حالة مرضه على إخراج معظم كتب ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية مع صعوبة قراءتها، والدرر السنية في الأجوبة النجدية، وهذا من أجل أعماله؛ بل تعتبر من مناقبه التي انفرد بها، وقد ذكر الشيخ محمد بن عثمان القاضي، ذلك فقال: «وقام بجهود جبارة في التأليف وغيره، ومن

---

(١) انظر: حاشية كتاب التوحيد(٢٨٥).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٦٤-٢٦٦) بتصرف.

(٣) انظر: روضة الناظرين (١/ ٢٣٧)، حاشية الروض المربع (١/ ٤)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٦٧).

ذلك عنايته واهتمامه التام بجمع التراث العلمي من مصادره، فقام بنشاط يشكر عليه، تحمل من أجله مشاق السفر، وبحث ونقب في مكاتب كثيرة في الدولة العربية وغيرها، وجمع كل ما وجده من مؤلفات ابن تيمية ﷺ، ثم سعى في ترتيبه وتنقيحه وتصحيحه وذلك برحلات عديدة...

كما قام بمجهود كبير آخر لجمع الرسائل والمسائل النجدية التي كان صاحب المنار قد طبعها على نفقة الملك عبد العزيز إلا أنها غير مرتبة، فقام بترتيبها أحسن ترتيب، وتقريب لقارئها وصححها ونقحها، وجاءت اثني عشر مجلداً، فطبعها وسماها الدرر السنية في الأجوبة النجدية»[(١)]، فهذان من الأعمال الخالدة التي صبر عليها ﷺ، وبذل في سبيل تحقيقهما الوقت الطويل، والبحث المتواصل، ويعتبران غرة في جبين الدهر، وزينة لأهل الإسلام، وميداناً للباحثين، فجزاه الله عن الأمة كل خير.

٢. جمع الزكاة:

خرج مع عمال الزكاة لجلبها، بأمر من الملك عبد العزيز لمدة سنوات، وذلك في بداية خدمة الوظيفية عام ١٣٤٢هـ[(٢)].

٣. الإشراف على طبع الكتب:

ثم أشرف ﷺ على ما يطبع في مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، سنة ١٣٥٢هـ حتى عام ١٣٦٢هـ[(٣)].

---

(١) روضة الناظرين (٣/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٢) انظر: وثيقة التقاعد الشيخ ابن قاسم، الصادرة من المكتب الخاص لمفتي ورئيس القضاء والكليات والمعاهد العلمية برقم ٣٢٧/ ٨٥/ ٢، بتاريخ ٢/ ٨/ ١٣٨٤هـ علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٥)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته، ومؤلفاته (٢٣٥).

(٣) انظر: وثيقة التقاعد الشيخ ابن قاسم، الصادرة من المكتب الخاص لمفتي ورئيس القضاء والكليات والمعاهد العلمية برقم ٣٢٧/ ٨٥/ ٢، بتاريخ ٢/ ٨/ ١٣٨٤هـ، علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٦)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣٦)، المبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر (٢/ ٣٠١).

٤. قيماً على مكتبة القصر الملكي:

ثم قيّماً على مكتبة القصر الملكي (المربع) في الرياض من عام ١٣٦٩هـ حتى عام ١٣٧٠هـ.

٥. التدريس:

ثم مدرساً في مسجد الشيخ الجامع، براتب وقدره ثلاثمائة ريال شهريًا، وذلك في سنه ١٣٧٣هـ وتتلمذ على يديه عدد من مشايخ الأجلاء؛ لأن كثير من الطلاب انصرفوا إلى المعاهد العلمية(١).

٦. إدارة المكتبة السعودية في الرياض:

ثم تولى رحمه الله إدارة المكتبة السعودية في الرياض، من عام ١٣٧٤هـ حتى أحيل إلى التقاعد في جمادي الأول عام ١٣٨٤هـ وكان مرتبة وظيفته وقت إحالته إلى التقاعد (الثالثة)(٢).

وقد جمع الشيخ عبد الله بن جبرين أعماله التي تولاها، من إشراف، وإدارة مكاتب، وتدريس بقوله: «وأما أعماله الإدارية فقد تنقل مدة تزيد على اثنين وثلاثين عاماً بين التدريس في المساجد وإدارة المكاتب والإشراف على طبع الكتب، ونحو ذلك، وقد أدى جهداً كبيراً وأنتج ثمرة يانعة، لا يزال أثرها باقياً بين المسلمين»(٣).

٧. التأليف:

أما في ما يتعلق بجانب التصنيف والتأليف، ونشر الرسائل الدعوية فقد بذل

---

(١) انظر: وثيقة التقاعد الشيخ ابن قاسم، الصادرة من المكتب الخاص لمفتي ورئيس القضاء والكليات والمعاهد العلمية برقم ٣٢٧/ ٨٥/ ٢، بتاريخ ٢/ ٨/ ١٣٨٤هـ الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته، ومؤلفاته (٢٣٥)، المبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر (٢/ ٢٩٨).

(٢) انظر: وثيقة التقاعد الشيخ ابن قاسم، الصادرة من المكتب الخاص لمفتي ورئيس القضاء والكليات والمعاهد العلمية برقم ٣٢٧/ ٨٥/ ٢ بتاريخ ٢/ ٨/ ١٣٨٤هـ، روضة الناظرين (١/ ٢٣٨)، المكتبات في عهد الملك عبدالعزيز، أ.د/ سالم السالم (٢١٢).

(٣) حاشية الروض المربع (١/ ٥-٦)، انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٦).

رحمه الله جل وقته في التأليف في شتى العلوم، فتجده فقيهاً في حاشيته على الروض المربع، ومحدثاً في كتابه أحكام الأحكام، وفرضيًا في شرحه على الرحبية، وأصولياً في حاشيته على الثلاثة الأصول، ونحويًا في شرحه للآجرومية[١]، وقد ذكر الشيخ عبد الله بن جبرين أنه «قبل وفاته بثماني سنين طلب الإحالة للتقاعد، فهناك تفرغ للكتابة، وإتمام ما ابتدأ فيه من المؤلفات»[٢].

وقد ذكر حفيده د. يوسف، حيث قال: «أن عناية جد عبد الرحمن بن قاسم لم تقف عند حد عنايته بالعلوم الشرعية والعربية، بل كان مؤرخًا بارعًا ونسّابة كبيرًا، ولهذا كان يتعاهده بالزيارة بعض المؤرخين والنسّابة كما حدثني بذلك العم ناصر، من أمثال الأديب عبد الله بن خميس، والمؤرخ حمد الجاسر، واشتهر عنه أنه قال عن ابن قاسم: «كان أستاذي في التاريخ!» اهـ بل كان له كتاب في التاريخ والأنساب، من عدة مجلدات، أحرقه أمام ابنه ناصر، وبعض الحاضرين، بعد صلاة العصر، وقال لهم: إن المؤلف يجب أن يكون أمينًا فيما يكتب وينقل ويدون، فيسجل الحسنات والسيئات...، أو يعرض عن ذلك كله»، وقد نما هذا الخبر إلى المؤرخ الكبير خير الدين الزركلي!!، فقال: «وأولع في أوليته بالتاريخ، والأنساب، والجغرافية، ووقعت له قضية بسبب التاريخ، فأحرق كثيرًا من أوراقه» اهـ[٣]، والحقيقة أنها لم تكن أوراقًا، بل كانت عدة مجلدات!!»[٤].

أما القضاء فقد عرض عليه مراراً فامتنع تورعاً منه، وإن كان أهلاً له؛ ولكنه آثر السلامة، وقال محمد القاضي: «فقد رشح للقضاء مراراً فامتنع تورعاً منه»[٥].

وقد ذكر حفيده د.يوسف، فقال: عُرض عليه القضاء فرفض، ومن شديد

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته، ومؤلفاته (٦).

(٢) حاشية الروض المربع (١/ ٥-٦)، انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٦).

(٣) انظر: كتابه الأعلام (٣/ ٣٣٦).

(٤) وذلك في مقابلة له في مدينة الرياض، في يوم الأحد، الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ.

(٥) روضة الناظرين (١/ ٢٣٨).

زهده، وكبير ورعه اهـ[١]، ثم طلبت والدته الملك عبدالعزيز إعفاء ابنها من القضاء، وقد ذكر ذلك ابنه الشيخ أحمد ﵀، فقال: «إن والدة الشيخ عبد الرحمن طلبت من الملك عبد العزيز إعفاء ابنها من القضاء، فأبى الملك عبد العزيز، وبعد امتناعه ﵀ من القضاء مع الحاجة إليه في ذلك الزمان، فخرج مع عمال الزكاة بأمر من الملك عبد العزيز لمدة سنوات»[٢].

وقد ذكر ابنه الشيخ سعد حادثة وقعت له وقال بعد ما رشح للقضاء مع الملك عبد العزيز، أنه كتب له كتاباً، وقال فيه: من عبد الرحمن بن قاسم إلى الملك عبد العزيز، وبعد: قال ﷺ: «من استعاذ بالله، فأعيذوه»[٣]، فأستعيذ بالله منك يا أيها الملك عبد العزيز، ثلاثاً، فأعفاه من القضاء[٤].

المطلب الخامس: مرضه ووفاته:

أصيب ﵀ في حادث سيارة في العام ١٣٤٩هـ، وأثر في رأسه تأثيراً بالغاً والتأم بعد ذلك وعوفي فلما ضعف جسمه وصار مسنًّا عاوده الألم بشدة وأصيب بعد ذلك بسنوات بحادث سيارة آخر ولكنه لم يؤثر عليه بشيء والحمد لله، ثم لم يزل ﵀ مكبًّا على إخراج كتبه ومؤلفاته مع ما أصابه في حياته من ألم شديد في الرأس.

وفي أواخر أيامه ضعف بصره ﵀ من كثرة ما يقرأ ويكتب وهذه حال العلماء، وذكر ابنه أحمد أن الشيخ عبد الرحمن رأى قبل وفاته شيخ الإسلام يضع تاجاً على رأسه، وقد رأى ﵀ رؤياً قبل وفاته أنه أذن المؤذن فدخل المسجد للصلاة، ورأى شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام أحمد بن حنبل وجمعاً من العلماء واقفين في الصف فقدموه للصلاة!، وقال: ما أراه إلا أجلي قريب، فما بين الأذان والإقامة إلا قليل. اهـ.

---

(١) وذلك في مقابلة له في مدينة الرياض، في يوم الأحد، الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﵀ حياته وسيرته، ومؤلفاته (٢٣٥).

(٣) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب الألباني(١ / ٢٣٤)، برقم (٩٦٧).

(٤) وذلك خلال مقابلتي له في منزله في حي السويدي بالرياض، في يوم الخميس، بتاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

ثم أدخل ﷺ المستشفى، وكانت شفاهه تتحرك بقراءة القرآن ويومئ برأسه حين يمر بسجدة، ولم يلبث إلا قريباً من أسبوعين حتى وافاه الأجل في مدينة الرياض ٨/ ٨/ ١٣٩٢هـ، ودفن في مقبرة العود، وكان في مقبرة العود بجوار قبر الشيخ سعد بن عتيق رحمهما الله[(١)].

وقد ذكر لي ابنه الشيخ سعد أنه كان حاضراً لوفاته: فقال: إنها كانت ليلة السبت الموافق ٨/ ٨/ ١٣٩٢هـ بعد المغرب يوم الجمعة بربع ساعة تقريباً، وقد أخطأ الممرض في صرفه العلاج له، وحين أبى أن يبتلع الحبوب، فضربه بإبره مع رجله بزعمه أنها عوض عنها، فآلمته شديداً حتى خرجت روحه، وبهذا يظهر لي أنه السبب في قتله، وكان يحب أن يموت شهيداً اهـ[(٢)].

وحزن عليه العلماء، وطلبة العلم، وقد كتبت عنه الصحف، والمجلات المحلية، وعدَّدت مناقبه، وأشادت بأعماله، وفضله[(٣)] رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه في جنات عالية، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وقد رثي ﷺ بقصيدة مطلعها:

مصاب على الإسلام بين العوالم ... على العلم والدين القوي الدعائم
رحيل رجال العلم والمجد والتقى ... أولي الصدق والإخلاص من كل عالم
نجوم الهدى والرشد والحق والعلى ... رجوم العدا من كل غاو وآثم
فكم فاضل.... حبر جليل مهذب ... حكيم حليم ثابت الجأش حازم
تصرمت الأيام...أيام عمره ... وبات بأطباق الثرى المترادم

(١) انظر: روضة الناظرين (٢٣٨)، علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٦)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٨٨ -٢٩٣).
(٢) في مقابلة له يوم الجمعة في منزله في حي السويدي بالرياض الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.
(٣) انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون(٣/ ٢٠٦)، المبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر (٢/ ٣٠١).

وفي اليوم ذا... تجري الدموع غزيرة	كهتان وبل من خلال السواجم
وتتقد الأحشاء حزناً ولوعة	تجيش بها الأشجان مثل الضرائم
لفقد التقي الألمعي أخي الوفا	أخي السبق في شأو العلا والمكارم
هو العابد الرحمن...نجل محمد	أكيد الإخا الشيخ الأديب ابن قاسم
هو الصالح المحبوب والناصح الذي	يسير على النهج المنير المعالم
على الأصل والتقوى وحسن عقيدة	وصحة إيمان ورشد القوادم
عفاف وزهد صادق وتورع	وحسن اعتناء في الأدا والتفاهم
ونصح وإرشاد وحزم وغيرة	بحكمة داع مشفق...غير ناقم
وحرب على (الإلحاد) والغي والردى	وكل انحراف زائغ..أو جرائم
سخاء ونبل فائق وسماحة	وعون مع الإخوان أوفى مساهم
وترتيل آيات الكتاب تدبراً	وخشية رب بالسرائر عالم[1]

(١) ديوان زاهي الأزهار في مليح الأشعار، (٤٤)، بقلم/ محمد بن عبد العزيز بن هليل.

المبحث الثاني
حياته العلمية

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: طلبه العلم ورحلاته:

وفيه فرعان:

الفرع الأول: طلبه العلم:

نشأ ابن قاسم في بلدتي ثادق وحريملاء، وبهما أخذ مبادئ العلم والقراءة والكتابة على أيدي علمائها، وقرأ وحفظ القرآن مجوداً على يد مقرئ بقريته، وهو في سن صغيرة لم يتجاوز التاسعة من عمره(١)، و«بعد أن تلقى العلوم الأولية من أهل بلده، تاقت نفسه إلى التضلع من العلم الشرعي كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأكمل أنواع طلب العلم أن تكون همة الطالب مصروفة في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ وفهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه واتباع ذلك وتقديمه على غيره اهـ، سمت همته إلى طلب العلم خارج بلده فرحل رحمه الله إلى موطن العلماء في عصره حيث سافر إلى الرياض قبلة العلماء في حينه، وتلقى العلم على أيدي جملة من العلماء فيها»(٢).

الفرع الثاني: رحلاته:

وكانت له رحلات طويلة وكثيرة في طلب العلم، وتلقيه، وجمع شتات كتب أهل العلم، حتى إنه كان يغيب عن زوجته وأولاده شهوراً عدة، بل وتزيد عن السنتين أحياناً، ومن أشهر رحلاته:

---

(١) انظر: روضة الناظرين (١/ ٢٣٥)، علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٢)، حاشية الروض المربع (١/ ٣).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣)، انظر: إلى المرجع نفسه (٢٥١-٢٥٢).

١. رحلته لجمع فتاوى شيخ الإسلام:

تحمل من أجل جمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية مشاق السفر، حيث كان يبحث وينقب في مكاتب كثيرة في الدولة العربية وغيرها، وجمع كل ما وجده من مؤلفات ابن تيمية رحمه الله، ثم سعى في ترتيبه وتنقيحه وتصحيحه وذلك برحلات عديدة، فمنها:

أ- سفره إلى القاهرة في عام ١٣٦٥هـ وكان بصحبته ابنه محمد، الذي ساعده على ذلك، وبحث مع علماء الشام ومصر، ودار على الكتب المطبوعة، وخزانات المخطوطات الأثرية؛ للوصول إلى الهدف الذي آلى على نفسه بلوغه.

ب- قام برحلة ضمن العلاج إلى القاهرة في عام ١٣٧٣هـ ودار مكتباتها مرة ثانية.

ت- وفي عام ١٣٧٧هـ قام برحلة إلى القاهرة للعلاج مرة ثالثة، ولما تماثل للشفاء دار كالأولى على مكتباتها، وعكف على مكتبة الأزهر، ودار الكتب بشارع محمد علي، ونقب عما فيهما من مؤلفات الشيخ ابن تيمية.

ث- سفره إلى فرنسا للمعالجة في باريس في العام نفسه، فأجرى عملية في رأسه الذي يعاوده عاماً بعد عام، ولما تماثل للشفاء دار على مكتباتها، ثم على مكتبات أوربا في هذه الرحلة للتنقيب عن هذه المؤلفات في مظانها.

وهذا خاص بمجموع فتاوى شيخ الإسلام، وقد استمرت مدة الجمع لهذا المجموع مدة تزيد عن أربعين عاماً، ولم يشغله مرضه العضال الذي سافر هذه الرحلات من أجله عما هو بصدده من الجهود الكبير ة التي طالما تعطش إليها أهل العلم[1].

٢. رحلته لجمع الدرر السنية في الأجوبة النجدية:

وقد بذل رحمه الله جهداً في استقصائها وتتبعها في مناطق نجد وأطرافها، وصبر على ما لقي من صعوبات، ونفقات، وأخطار، ومشقة، وأسفار في البحث، والنسخ،

(١) انظر: روضة الناظرين (٣/ ٢٣٦-٢٣٧)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٢٣-٢٢٤).

والمقابلة، والتصحيح، وقد مكث ﵀ في مكة يطبعها، ويصححها ويراجعها اثني عشر عاماً، فأجزل الله مثوبته ورحمه(١).

المطلب الثاني: شيوخه:

أدرك ابن قاسم ﵀ الكثير من مشايخ أئمة الدعوة، وقد نهل من العلم، وتروى من معينهم، حتى اشتهر بينهم بالتفوق، والتقدم على زملائه، ونبغ في شتى العلوم كالتوحيد، وعلوم العقيدة، والفقه، والعقيدة، والنحو، وغيرها، ومن أشهرهم:

١. **العلامة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف**(٢): وتلقى عنه علوم التوحيد والعقائد والتفسير والحديث والفقه وغيرها.

٢. **العلامة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري**(٣): قاضي المجمعة، وقد لازمه حتى كان أخص تلامذته.

٣. **الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الطيف**(٤): درس عليه أصول الدين، وفروعه، والحديث، والتفسير.

٤. **الفقيه محمد بن محمود**(٥)، أخذ عنه الفقه، والفرائض.

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﵀ حياته وسيرته ومؤلفاته (٨١، ٢٢٣، ٢٢٤)، روضة الناظرين (٣/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٢) هو: عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن ابن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: فقيه خطيب، عالم من أشهر علماء نجد، ولد في الهفوف، سنة ١٢٦٥هـ وبرع في كل العلوم واشتهر بالكرم والعلم والدهاء السياسي والحنكة، توفي بالرياض سنة ١٣٤٠هـ. الأعلام للزركلي (٤/ ٩٩).

(٣) هو: عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الرحمن العنقري التميمي النجدي، قاض حنبلي كانت لأسلافه إمارة في «ثرمداء» من قرى «الوشم» بنجد، وولد بها، وكف بصره في السابعة من عمره، فحفظ القرآن ولازم العلماء في بلده ثم في الرياض وولي القضاء بسدير فسكن المجمعة، وتوفي سنة ١٣٧٣هـ. انظر: علماء نجد (٤/ ٢٦٥) الأعلام (٤/ ٩٩).

(٤) هو: محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقيه حنبلي، كان المفتي الأول للبلاد العربية السعودية، ولد سنة ١٣١١هـ وتوفي سنة ١٣٨٩هـ. الأعلام (٥/ ٣٠٦).

(٥) محمد بن محمود بن عثمان الضالع نسباً القصيمي أصلاً، البغدادي مولدًا ومنشأ، الحنبلي مقاماً ومماتاً ولد سنة ١٢٥٩هـ وتوفي سنة ١٣٣٧هـ. علماء نجد (٦/ ٣٨٠).

٥. الشيخ سعد بن عتيق[١]: درس عليه التوحيد والحديث.

٦. الشيخ سليمان بن سمحان[٢]: درس عليه التوحيد والحديث.

٧. الشيخ حمد بن فارس[٣]: درس عليه علوم اللغة وغيرها.

٨. الشيخ عبد الرحمن بن راشد[٤].

٩. الشيخ محمد بن عبد العزيز مانع[٥]، مدير المعارف سابقاً بالمملكة، ودرس عليه علوم اللغة[٦].

---

(١) هو: سعد بن حمد بن عتيق، من علماء نجد، تولى القضاء، ولد في مدينة الأفلاج، سنة ١٢٦٧هـ ورحل إلى الهند لطلب العلم، فاتصل بصديق حسن خان، وعاد إلى بلاده في فترة استيلاء ابن الرشيد على نجد، فانكمش في داره، ثم ولي القضاء والتدريس في الرياض. وتوفي بها سنة ١٣٤٩هـ. علماء نجد (٢/ ٢٢٠)، الأعلام (٣/ ٨٤).

(٢) هو: سليمان بن سمحان بن مصلح بن حمدان بن مسفر بن محمد بن مالك الخثعمي، ولد سنة ١٢٦٦هـ في بلدة آل تمام القدة في أبها عسير نشأ في طلب العلم، وعرف بإجادته الردود على أعداء الدعوة شعراً ونثراً، وتوفي سنة ١٣٤٩هـ علماء نجد (٢/ ٣٩٩).

(٣) هو: حمد بن فارس بن محمد بن محمد بن فارس بن عبد العزيز بن محمد الرباني، ولد سنة ١٢٦٣هـ نشأ في طلب العلم، وتضلع في علوم العربية حتى صار مرجعاً لطلاب العلم في زمانه، وتوفي سنة ١٣٤٥هـ انظر: علماء نجد (٢/ ٩٢).

(٤) هو: عبد الرحمن بن راشد بن محمد بن توفيق الخراص النجدي، العالم والعابد، الأديب، انتفع به خلق كثير وتوفي سنة ١٢٣٠هـ، علماء نجد (٣/ ٤٩).

(٥) هو: محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مانع ابن شبرمة الوهيبي التميمي: فقيه، غزير المعرفة بالأدب، ملم بتاريخ نجد الحديث، ولد سنة ١٣٠٠هـ ونشأ في عنيزة من القصيم بنجد، ورحل في طلب العلم إلى بريدة فالبصرة سنة ١٣١٨ هـ فبغداد، واستقر في الأزهر، بمصر فلازم دروس الشيخ محمد عبده، وعاد بعد وفاة الشيخ إلى دمشق فقرأ على الشيخ جمال الدين القاسمي، وانتقل إلى بغداد فأكثر من ملازمة محمود شكري الآلوسي، ورجع إلى بلده عنيزة سنة ١٣٢٩ هـ ودعاه الملك عبد العزيز آل سعود (سنة ١٣٥٨) فدرس في الحرم المكي، وولي رئاسة محكمة التمييز بمكة، ثم عين مديراً للمعارف بها، ورئيساً لهيئة تمييز القضاء الشرعي.
وطلب حاكم قطر من السعودية انتدابه للعمل فيها سنة ١٣٧٧هـ فأقام في قطر إلى أن مرض وسافر إلى بيروت، مستشفياً فتوفي بها سنة ١٣٨٥هـ ونقل إلى قطر. علماء نجد (٦/ ١٠٠)، الأعلام (٦/ ٢٠٩).

(٦) انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، (٢٠٢-٢٠٣)، روضة الناضرين، (٢٣٥)، المبتدأ والخبر
=

المطلب الثالث: تلامذته:

كان الشيخ ابن قاسم محبًا للعلم حريصاً على بذله، وعندما افتتحت المعاهد العلمية بالرياض، طلب منه التدريس فيها، فقال إذا كان ابن باز وابن حميد فيها فلا بأس، ودرس في الجامع الكبير أشهراً في زاد المستقنع، وممن درسهم في المسجد تلك الفترة القصيرة:

١ . الشيخ عبد الله بن جبرين.

٢ . الشيخ عبد الرحمن بن فريان(١).

٣ . الشيخ فهد بن حمين(٢).

٤ . الشيخ عبد الرحمن بن مقرن(٣).

٥ . ابنه الشيخ محمد بن عبد الرحمن(٤).

= لعلماء في القرن الرابع عشر (٢/ ٢٩٥)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣)، حاشية الروض المربع (٣).

(١) هو: عبد الرحمن بن عبد الله آل فريان، سكن الرياض، وتعلم العلم في صغره، وكان والده ثريًا، وأخذ العلم عن الشيخ ابن باز، ثم اختاره الشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ ابن باز رئيساً لجمعية تحفيظ القرآن والمدارس الخيرية، وتوفي سنة ١٤٢٦هـ. انظر: ابن فريان بين القرآن والدعوة، لإبراهيم العيد (٤-٥).

(٢) هو: الشيخ فهد بن حمّين بن حمد بن فهد، وينتهي نسبه إلى الأساعدة من الروقة من قبيلة عتيبة، ولد الشيخ رحمه الله في قرية القوير إحدى قرى منطقة الزلفي وذلك سنة ١٣٤٩هـ، وكان رحمه الله منذ صغره حُبب إليه العلم وأهله، وتتلمذ على محمد بن إبراهيم وابن باز وتوفي ١٤٢٨هـ وكان رحمه الله يثني ثناء عظيماً على الشيخ ابن قاسم. من مذكرة عندي كتبها أحد تلامذته ولم يذكر اسمه.

(٣) هو: الأمير: عبد الرحمن بن محمد بن مقرن آل سعود، كان متواضعًا، طالب علم، تتلمذ على الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان له اعتناء خاص بالكتب. انظر: إعداد د. محمد بن عبد الله المشوح، جريدة الجزيرة، الجمعة ٩ شعبان ١٤٣٠هـ العدد ١٣٤٥٥.

(٤) الشيخ محمد تخرج من كلية الشريعة، لازم الشيخ محمد بن إبراهيم خمساً وعشرين سنة، واشتغل بالتدريس بالمعهد العلمي، ثم كلية الشريعة وأصول الدين بالرياض، وهو الذي ساعد والده في جمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه في آخر مراحلها، وأخرج فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن =

٦. ابنه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن[١]. وغيرهم[٢].

وكان غالب اهتمام ابن قاسم بعلم العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، وكان مجلسه للدرس مرة في اليوم، ثم رأى التفرغ للتأليف، فاستقر في مزرعته عندما ساءت صحته، ولعله أخذ برأي ابن الجوزي[٣] رحمه الله حيث قال: «رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحصى، ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدون من مشايخهم»[٤].

هذا ما عمل به الشيخ ابن قاسم فكثر من التأليف والجمع والشروح ونحو ذلك حتى كانت من المراجع المهمة للطلاب، بل للمدرسين الذين يدرسون في المساجد والكليات، ومن تأمل في حال طلابه اليوم يجد أن طلاب الجامعات،

=

إبراهيم في ثلاثة عشر مجلداً، وله المستدرك على فتاوى شيخ الإسلام في خمس مجلدات، وغيرها من المؤلفات، رشح وزيراً للعدل، وعضواً في هيئة كبار العلماء، ولكنه اعتذر، توفي يوم الثلاثاء ٧/ ٦/ ١٤٢١هـ، وكانت جنازته مشهودة. انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣٥-٢٣٨).

(١) درس على الشيخ محمد بن إبراهيم، وعمل أميناً لمكتبته، ثم أميناً لمكتبة كلية الشريعة، وتقاعد سنة ١٤٠٨هـ، وتوفي في ٧/ ٧/ ١٤٢٩هـ أفادني بذلك ابنه د. يوسف، في يوم الأحد الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ.

(٢) ومن تلامذته الذين اعتنى بهم منذ الصغر الشيخ حمود بن حمود العقلاء الشعبي، وله قصة مؤثرة غيرت مجرى حياة الشعبي رحمهما الله. انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣٨-٢٤٣).

(٣) هو: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، أبو الفرج، البغدادي الحنبلي الواعظ، صاحب التصانيف منها زاد المسير، وتذكرة الأريب في اللغة، وفنون الأفنان، ويصل مجموع تصانيفه نحو مائتين وخمسين كتاباً، وتوفي ليلة الجمعة الموافق ١٣/ ٩/ ٥٩٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/ ٣٦٥) الوافي بالوفيات، للصفدي (١٨/ ١٠٩).

(٤) صيد الخاطر، للجوزي (١ / ٢٤١).

والمعاهد الشرعية، الذين يدرسون ما ألف وجمع وكتب، ويجد أن العلماء يصدرون عن تأليفه وكتبه رحمه الله فهذه حاشية الروض المربع تدرس في كليات الشريعة، وتلك فتاوى العلماء تدبج بقول شيخ الإسلام رحمه الله، وبأقوال أئمة الدعوة التي بذل جهده في جمعها وترتيبها.

ولهذا شاهد آخر من حرصه على التأليف، فعندما رشح ابنه محمد رحمه الله أن يكون وزيراً لوزارة العدل إبان نشأتها، قال له رحمه الله: عليك بالكتب، فأخذ بوصيته واعتذر عنها[١].

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه:

للشيخ ابن قاسم مكانة علمية رفيعة، وجهد بالغ، وعمل عظيم في خدمة علوم الشريعة الإسلامية، مع ما يتحلى به من حسن خلق، مما أكسبه الثناء العاطر من الأئمة الأعلام الأخيار، وإشادتهم بفضله وتمكنه، ونعته بالأوصاف الحميدة، والخصال النبيلة، وهنا نسوق بعض أقوالهم في ذلك:

قال الشيخ محمد بن إبراهيم متعجباً منه: «عجبت من هذا الرجل زرته في مرضه، فوجدت عنده الكتب، يقرأ، ويحرر»[٢].

وقال الشيخ عبد الله البسام بعد ما ذكر ما أخذه من علوم في العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والنحو من مشايخه: «فأجاد هذه العلوم إجادة تامة»[٣].

وقال الشيخ بكر أبو زيد: «كان من أوعية العلم، جلداً في سبيل الطلب، فقيهاً،

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٣٥-٢٣٨)، كما أفادني بذلك د. عبد المحسن بن محمد بن عبد الرحمن، في يوم الجمعة، الموافق١٤/ ٩/ ١٤٣٠هـ، كما اطلع على ترجمة كاملة، وراجعها، فأثنى عليها، فجزاه الله عنا كل خير.

(٢) تاريخ من لا ينساه التاريخ، لإسماعيل بن عتيق (٢٩).

(٣) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٣).

نسابة، مؤرخاً...»[١].

وقال الشيخ عبد الله بن جبرين: «اشتهر هذا الشيخ في وسط القرن الرابع عشر الهجري حيث رزقه الله تعالى الفهم والعلم الصحيح والصبر وقوة الجلد على التعب في جمع العلم، فأدرك الكثيرين من مشايخ أئمة الدعوة، وقد نهل من العلم، وتروى من معينهم حتى اشتهر بينهم بالتفوق، والتقدم على زملائه، ونبغ في شتى العلوم كالفقه والتوحيد والعقيدة والنحو، وغيرها»[٢].

وقال أيضاً: «ولم يزل مكبًا على الدراسة والحفظ والاستفادة حتى حصل على جانب كبير في أكثر العلوم وتضلع في علم التوحيد والفقه والحديث ونحوها من العلوم الدينية»[٣].

وقال الشيخ محمد بن عثمان القاضي: «وكان مشايخه معجبين بفرط ذكائه ونبله، وكان كثير المطالعة في كتب الفروع والأصول والعربية لا يسأم منها، وأكب على كتب الشيخين ابن تيمية، وابن القيم، فكانت كتبهما صبوحه وغبوقه[٤]، وأدرك بسببهما إدراكاً تامًا، وكان قوي الحفظ سريع الفهم ذا موهبة وجواب حاضر على البديهة، نبغ في فنون عديدة حتى صار مثار الإعجاب بين جلسائه»[٥].

وقال الشيخ عبد الرحمن البراك: «الشيخ عبد الرحمن رحمه الله له باع طويل في فنون العلوم الشرعية في: التوحيد، وعلوم القرآن، والحديث، والفقه، والفرائض، والنحو، وله في هذه الفنون مؤلفات يعول عليها العلماء، وطلاب العلم»[٦].

---

(١) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٥).

(٢) المصدر السابق (٢٣-٢٤)، انظر: حاشية الروض المربع (١/ ٣).

(٣) انظر حاشية الروض المربع (١/ ٣).

(٤) المقصود صباحاً ومساءً: أي أنه يفطر عليها ويتعشى، فالصبوح ما يتناوله صباحاً، والغبوق ما يتناوله مساء، وهي كلمة عربية.

(٥) انظر: روضة الناظرين (١/ ٢٣٦).

(٦) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٥).

المطلب الخامس: مؤلفاته:

لقد شغل التصنيف حيزاً كبيراً من حياة الشيخ ابن قاسم، وله مؤلفات كثيرة، ومصنفات عديدة، لاقت قبولاً واستحساناً من أهل العلم، بل تعتبر مصدراً من أهم مصادرهم، وقد تنوعت تصانيفه ما بين تأليف، وتحقيق، وترتيب، ونشر في شتى فنون العلوم الشرعية، والعربية، حتى ذاع صيتها، وانتشر أثرها، وهي على الترتيب التالي:

الأول: جمعه وترتيبه وهي:

١. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ «٣٧ مجلداً».

٢. الدرر السنية في الأجوبة النجدية « ١٦ مجلداً».

الثاني: حواشيه على الكتب، وهي:

١. حاشية الروض المربع «٧ مجلدات».

٢. حاشية كتاب التوحيد «مجلد».

٣. حاشية الدرة المضية «مجلد».

٤. حاشية ثلاثة الأصول «مجلد».

٥. حاشية مقدمة التفسير «مجلد».

٦. حاشية مقدمة الرحبية «مجلد».

٦. حاشية الآجرومية «مجلد».

الثالث: الكتب مستقلة، وهي:

١. السيف المسلول على عابد الرسول «مجلد».

٢. متن أصول الأحكام «مجلد».

٣. شرح أصول الأحكام «٤ مجلدات».

٤. مقدمة في أصول التفسير «مجلد».

٥. وظائف رمضان «مجلد».

٦. تحريم حلق اللحية «كتيب لطيف».
٧. كتاب التاريخ «مجلدان»[(١)].

المطلب السادس: بعض ما ذكر حول مؤلفاته:

١. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية:

فقد قام الشيخ ابن قاسم بجمع وبترتيب مجموعة رسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في نجد، والحجاز، بعد عام ١٣٤٠هـ[(٢)]، فنقّب عنها، وفتش وهو في ريعان شبابه، وعنفوان نشاطه، حتى جمع منها مجلدات كثيرة[(٣)]، بل كان على وشك طباعتها لولا أنه نما إلى علمه وجود مسائل لشيخ الإسلام في دار الكتب المصرية، ولذا أجّل طبعها[(٤)] ثم تيسر له السفر إلى بعض الدول العربية والغربية بصحبة ابنه محمد[(٥)]، حيث سافر إلى مصر، والشام، ولبنان، ودار على الكتب المطبوعة، وخزانات المخطوطات الأثرية بها في عام ١٣٦٥هـ، ثم عاود الرحلة مرة أخرى في عام ١٣٧٣هـ، ثم عاد إلى القاهرة في عام ١٣٧٧هـ للمرة الثالثة، وتنقل بين مكتباتها، ثم عكف على مكتبة الأزهر، ونقب عما فيها من مؤلفات لشيخ الإسلام، ثم واصل سفره إلى فرنسا للمعالجة في عاصمتها باريس فأجرى عملية في رأسه، ولما تماثل للشفاء دار على مكتباتها، ثم على مكتبات أوروبا منقباً عن مؤلفات شيخ الإسلام في مظانها، وكانت هذه الرحلات من أجل العلاج مع هذا لم يثنه ما هو بصدده، ثم رتبها وقسمها فنوناً، وأبواباً، وأضاف إليها المطبوع من الرسائل الصغيرة والفتاوى، فكانت حقاً موسوعة عظيمة، فلا تجد بحثاً، أو

---

(١) انظر: روضة الناضرين (١/ ٢٣٧)، علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٣-٢٠٤)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٧).

(٢) انظر: مقدمة مجموع الفتاوى (ص ب).

(٣) انظر: مقدمة المجموع الفتاوى (ص د).

(٤) انظر: مقدمة المجموع الفتاوى (١/ د).

(٥) انظر: مقدمة مجموع الفتاوى (١/ ب-ك).

كتاباً إلا وقد كانت من أهم مصادره؛ لاحتوائها على العديد من كتب العقيدة، والتوحيد، والفقه، والأصول، والحديث، والتفسير، وغيرها من العلوم الأخرى في ٣٥ مجلداً، ثم عمل عليها ابنه محمد ﷺ فهرساً مفصلاً كان كالتقريب لها، ويقع في مجلدين ضخمين، وقد استغرق هذا الجهد الكبير أكثر من أربعين عاماً، وبدأت طباعتها في عام ١٣٨١هـ وقد تجاوزت العشر سنوات في طباعتها.

ومن فضل الله على الشيخ ابن قاسم أنه أمر الملك سعود، والملك خالد، والملك فهد - رحمهم الله - بطبع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه وتوزيعها على العلماء والعامة في داخل المملكة وخارجها، فانتشرت بين طلاب العلم والعلماء وغيرهم فصار لها أكبر الفائدة، وأعظم النفع، وهي الآن تطبع ضمن مطبوعات مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة[1].

وقد تكبد ابن قاسم مع ذلك من العناء والمشقة ما يرجى له به جزيل البر والأجر عند الله، قال حفيده عبد الملك: «فقد أخرج ﷺ مخطوطات وأوراقاً متناثرة، ضاعت في أروقة المكتبات، وتاهت في خبايا المنازل، كتبت بخط اليد منذ مئات السنين، أكل الزمن عليها وشرب، وكساها حلة من الغبار والفرقة، مع رداءة الخط وضعفه، والنقل باليد مباشرة لأكثر المجودات، ورزقه الله الصبر وطول النفس مع العزم والتصميم لاستخراج هذه الكنوز والدرر»[2].

قال الشيخ عبد الله بن جبرين ﷺ: «هذا ما عرفته عن شيخنا عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وفي أثناء عمله في تتبع رسائل أئمة الدعوة عثر على رسائل كثيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى متفرقة في مواضيع مختلفة منها ما هو بخط يد الشيخ، ومنها ما قد نسخ، ومنها ما هو مطبوع، فاستشار شيخه محمد بن إبراهيم

---

(١) استقيت هذه المعلومات من حفيده، د.يوسف، في يوم الأحد، الموافق ٢٤/ ١/ ١٤٣١هـ. انظر: روضة الناظرين(٣/ ٢٣٦-٢٣٧)، الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٣٥، ٢٢٣-٢٢٤)، علماء نجد (٣/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٢١)، بتصرف.

رحمهما الله تعالى في جمعها، وترتيبها، وطبعها، فشجعه الشيخ على ذلك، وفي أثناء بحثه وسهره وتعبه في الجمع والترتيب والتبويب أصيب من آثار ذلك بإذن الله بألم في رأسه تضرر منه، واحتبس عن مواصلة العمل فأشير عليه أن يبادر إلى العلاج فسافر إلى باريس عاصمة فرنسا، وصحبه ابنه محمد وذلك في آخر عام ١٣٧٥هـ(١)، وعولج هناك ونجحت العملية معه، ورجع سالماً بحمد الله، وهناك عثر على بعض المخطوطات القديمة لشيخ الإسلام ابن تيمية فصورها كلها، وضمها إلى تلك الموسوعة الكبيرة وهي مجموعة رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وقد أدخل في هذه المجموعة كتباً ورسائل عدة، منها ما سبق طبعه في مصر وغيرها، ومنها مخطوطات كثيرة لم يسبق أن طبعت، وقد لقي في ترتيبها ونسخها عرق القربة(٢)، حيث كتب بخط يده الكثير من الرسائل المتفرقة في مجموعة الرسائل الكبرى، والفتاوى المصرية وغيرها، وقد وفقني الله للاشتراك مع أبناء الشيخ في نسخ بعض المخطوطات القديمة، والأفلام المصورة، رغم صعوبة النسخ، ثم يتولى الشيخ محمد بن عبد الرحمن ﷺ تصحيحها، ووضعها في المكان الذي حدده من الأجزاء، وتولى تصحيح الطبع ومتابعته أبناء الشيخ ومعهم بعض الطلاب الذين اختاروهم من أهل الفهم وإدراك المعاني، حتى كملت هذه الموسوعة الكبيرة التي بذل هذا الشيخ فيها جهداً جهيداً»(٣)، هذا وأسأل الله ﷻ أن يجزيهم خير الجزاء على جهودهم طوال سنوات في جمع وإخراج هذا المجموع المبارك، فهم في رحلة طويلة وشاقة في طلب العلم، ونشره، وهذا ديدن العلماء وطريقتهم(٤).

* **ثناء العلماء على مجموع الفتاوى:**

وفق الله ابن قاسم ﷺ وأعانه على جمع فتاوى شيخ الإسلام، ذلك العالم الذي

---

(١) جاء في روضة الناظرين، (٣/ ٢٣٦-٢٣٧) أن رحلته إلى فرنسا في عام ١٣٧٧هـ، والله أعلم.

(٢) كناية عن التعب، لأن الذي يحمل القربة يعرق.

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ﷺ حياته وسيرته ومؤلفاته (٤٢-٤٣).

(٤) المصدر السابق (٤٣).

ملأ الدنيا بعلمه، ورفع راية السنة حتى انتفع بها كل من ينتسب إلى السنة، وأعجب الناس بجمع ابن قاسم وترتيبه وتبويبه، وأثنوا عليه، ومن ذلك:

قال سماحة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله رئيس مجلس القضاء الأعلى سابقاً: «وبين أيدينا الآن هذه الموسوعة الضخمة من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يعاد نشرها على نفقة جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية بعد أن تكاثر الطلب على هذه الفتاوى من علماء المسلمين من كل مكان، لما لمؤلفها رحمه الله من مكانة في نفوس الخاصة والعامة، وما وفق له من فهم لكتاب الله سبحانه وتعالى واستنباط لدقائقه، ومعرفة لناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومجمله ومبينه، ومعرفته بسنة المصطفى ﷺ وإدراك لعلوم الحديث، حتى قيل: إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث، ولما اشتملت عليه هذه الفتاوى من علوم جمة، وفوائد نادرة، كالرد على الملاحدة من القدرية، والجهمية، والفلاسفة وغيره، وبيان عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وغيرهم من أئمة المسلمين، ولما اشتملت عليه من ذكر شيء من أصول الفقه، وكثير من الأحكام الشرعية المحررة، والمقتبسة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من العبادات، والمعاملات، وأحكام النكاح والطلاق»[(١)]، وغيرها.

وقال العلامة بكر أبو زيد: «إن هذا المجموع المبارك مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لابن قاسم هو غرة في جبين الدهر، زينة لأهل الإسلام، لسان صدق للعلماء، عمدة للباحثين، نفع الله به أقواماً بعد آخرين، وقد انتشر في العالمين انتشار العافية، وكتب له من القبول والانتشار ما يعز نظيره في جهود المتأخرين، فالحمد لله رب العالمين»[(٢)].

وقد وصف الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه - علماء نجد - جهده في جمعه

---

(١) المصدر السابق (٦٣).

(٢) المدخل إلى آثار شيخ الإسلام، لبكر بن أبو زيد (١/ ٩٣).

لفتاوى شيخ الإسلام بقوله: «العمل الكبير الضخم النافع الذي قام به ويستحق عليه الثناء العاطر، والدعاء الخالص، هو عمده إلى رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وفتاويه ومختصرات كتبه في العقائد والتوحيد والتفسير والحديث والفقه وعلم السير والسلوك وأصول التفسير، وأصول الحديث وأصول الفقه، عمد إلى هذا التراث الكبير الكثير المطبوع منه والمخطوط، فحققه وقومه ورتبه، وفهرسه فهارس مقربة موضحة حتى صار منه موسوعة إسلامية كبرى، تقع في سبعة وثلاثين جزءاً، ثم أمر بطبعها وتوزيعها على العلماء في داخل البلاد وخارجها جلالة الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله فهذا من الأعمال الكبيرة الجليلة، الذي أنفق في سبيل تحقيقه الوقت الطويل والبحث المتواصل والجهد المضني، والذي ليس له جزاء إلا من الله تعالى»(١).

وقال الشيخ ناصر بن حمد الفهد: «فإن من أعظم الكتب التي طبعت في الأزمان المتأخرة مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى لجامعه الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه الشيخ محمد رحمهما الله تعالى وجزاهما عن الإسلام وأهله على ما قدماه خير الجزاء، وقد نفع الله بهذا العمل ورزقه القبول، فلا تكاد تجد مكتبة عامة أو خاصة تخلو من هذا المجموع على ضخامته، بل ولا أبالغ إن قلت: ولا تكاد تجد كتاباً شرعيًّا ألف بعد طباعة المجموع يخلو من النقل عنه، فهو بحق: من مفاخر القرون المتأخرة.

ويزيد من قيمة هذا المجموع بالإضافة إلى كونه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أمور:

الأول: أن من قام بجمعه وترتيبه من أهل العلم الأكابر الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وابنه رحمهما الله وعملهما كان بإشراف الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، وحسبك كتاب يقوم على جمعه وتصنيفه هؤلاء!

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٠٤-٢٠٥) بتصرف.

الثاني: أن الكتاب يعتمد على تحقيق النص وتصحيحه دون إثقاله بالحواشي؛ التي أغرم بها كثير من المعاصرين، والحال كما قاله الشيخ جامع الفتاوى عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله: وأعيذ بالله من قد يتولاه يعني رسائل شيخ الإسلام أن يحشي عليه فهو ذهب مصفى، حققه من قد علمت نزراً من مزايا فضله، فهو غني عن زعم تحقيق بعض العصريين الذين لم يبلغوا شأوه، غني عن عنونتهم وغيرها أثناء كلامهم وعن تعليقاتهم، فلبعضهم من الاعتراضات والسقطات ما يعرفه الناقد البصير.

الثالث: أن هذا المجموع المبارك لم يجمع في شهر أو شهرين بل ولا في سنة أو سنتين، بل استغرق جمعه أكثر من أربعين سنة، من بعد عام ١٣٤٠هـ إلى أن طبع كاملاً عام ١٣٨٦هـ، وجمعت مادته من نجد والحجاز والشام ومصر والعراق وفرنسا وغير هذه البلدان، واحتاج هذا الجمع إلى رحلات ونفقات ونساخ، وغير ذلك من الجهود العظيمة التي أنفقها الشيخان.

ولمعرفة بعض الجهد الذي قاما به(١) رحمهما الله تعالى وأسكنهما فسيح جناته، يكفي أن تعرف أن الشيخ عبد الرحمن كان في أغلب رحلات جمع الفتاوى مريضاً، كما في رحلاته إلى لبنان، ومصر وفرنسا، ويكفي أن تعرف أن الشيخ محمد بن قاسم رحمه الله مكث في جمع مسائل شيخ الإسلام من المكتبة الظاهرية في دمشق فقط مدة ستة أشهر تصفح خلالها تسعمائة مجلد من اثني عشر ألف مخطوط، ليجمع من هذا كله ثمانمائة وخمسين صفحة بخط شيخ الإسلام رحمه الله، وأكثر من ثلاثمائة وثلاث وخمسين مسألة.

الرابع: فهارسه التفصيلية التي وضعها الشيخ محمد رحمه الله فقد نفع الله بها أيما نفع، واختصر على طالب العلم كثيراً من الوقت والجهد، وقد بارك الله في جهدهما فانتشر هذا المجموع في الآفاق، وصار لا يستغني عنه العالم، ولا طالب العلم،

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٥١-٦١).

ومن حق هذين الشيخين على كل طالب علم استفاد من هذا المجموع، أن يدعو لهما بالمغفرة، والرحمة، فنسأل الله سبحانه أن يتقبل عملهما وأن يغفر لهما وأن يجزيهما خير الجزاء»(١).

٢. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ويقع في ١٦ مجلداً:

جمع الشيخ ابن قاسم رسائل أئمة الدعوة النجدية من زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى زمن المؤلف، وما أجابوه لمن سألهم والردود على أهل البدع «من بلدان نجد ومن المكتبات الشخصية في زمن ندرت فيه حركة الجمع والتأليف، وإنما هو إلهام من الله(٢)، وتأييد لنشر دينه، وسنة نبيه»(٣)، قال حفيده عبد الملك مبيناً جهده في ذلك: «وقد بذل رحمه الله جهداً في استقصائها وتتبعها في مختلف البلاد وصبر على ما لقي من صعوبات ونفقات وأخطار ومشقة وأسفار في البحث، والنسخ والمقابلة والتصحيح، ثم قسمها فنوناً ورتبها على الكتب والأبواب، فجاءت مجموعة ضخمة بلغت ستة عشر مجلداً في طبعتها الأخيرة، حوى آخر مجلد منها تراجم أصحاب تلك الرسائل والأجوبة، وقد أحسن في الثناء على أولئك المشايخ بما هم أهله، وقد مكث رحمه الله في مكة يطبعها ويصححها ويراجعها اثني عشر عاماً »(٤).

وقد ذكر الشيخ محمد بن عثمان القاضي، ذلك فقال: «وقام بجهود جبارة في التأليف وغيره، ومن ذلك عنايته واهتمامه التام بجمع التراث العلمي من مصادره، فقام بنشاط يشكر عليه.

ومن ذلك جمعه الرسائل والمسائل النجدية التي كان صاحب المنار قد طبعها على نفقة الملك عبد العزيز إلا أنها غير مرتبة، فقام بترتيبها أحسن ترتيب، وتقريب

(١) صيانة مجموع الفتاوى من السقط والتصحيف، لـ ناصر بن حمد الفهد (٥-٧).
(٢) والأولى أن يقول وأعانه الله في ذلك.
(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٢١).
(٤) المصدر السابق (٨١).

لقارئها وصححها ونقحها، وجاءت اثني عشر مجلداً، فطبعها وسماها الدرر السنية في الأجوبة النجدية، وترجم لهم بجزء مفرد خلد مآثرهم، وأبرز فيه كفاحهم في سبيل الدعوة إلى الله ونفع الخلق، وذلك بإضافة زيادات كثيرة عما جمعه قبلها في عام ١٣٥٦هـ بمطبعة أم القرى، فجاءت الطباعة الأخيرة بتاريخ ١٣٨٥هـ على أحسن ترتيب وتقريب على نفقة الشهيد الملك فيصل ﷺ بواسطة دار الإفتاء، فصار لهذين المجهودين أثرهما الطيب، وبقيا لسان ذكر له في العالمين»[١].

* ثناء العلماء على الدرر السنية:

قال الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ ﷺ في تقريظه لهذا الكتاب: «نظرت في هذا المجموع الفائق الرائق الذي جمعه ورتبه الابن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم فرأيته قد جمع علوماً مهمة ومسائل كثيرة جمة، مما أوضحه علماء أهل هذه الدعوة الإسلامية في مسائلهم ورسائلهم الساطعة أنوارها، الواضحة أسرارها؛ لمن أراد الله هدايته.

فإنهم رحمهم الله حرروا هذه المسائل والرسائل تحريراً بالغاً مشتملاً على مستنداته من البراهين والحجة، وعلى طريق الهداية إلى واضح السبيل والمحجة، لاسيما ما تضمنه من العقائد، والردود، والنصائح التي لا تظفر بأكثرها في مجموع سواه.

وقد رتبها الترتيب الموافق، وتابع بينها التتابع المطابق، لاسيما المسائل الفقهية، التي رتبها على حسب أبواب الفقه، وفرقها فيها من غير إخلال بشيء من المقصود؛ فكان هذا المجموع هو الدرة المفقودة، والضالة المنشودة»[٢].

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ: «ومن أحسن ما جمع بذلك

(١) روضة الناظرين، (٣/ ٢٣٦-٢٣٧) بتصرف يسير.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، لابن قاسم (١/ ٥-٦).

الأجزاء الأولى من الدرر السنية التي جمعها الشيخ العلامة عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله فإنه جمع فيها فتاوى أئمة الدعوة من آل الشيخ وغيرهم من علماء القرن الثاني عشر وما بعده، في العقيدة والأحكام، فأنصح بقراءتها ومراجعتها وغيرها من كتب علماء السنة لما في ذلك من الفائدة العظيمة»[١].

وأثنى الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله، على الدرر السنية، حينما حث على اقتناء كتب علماء الدعوة، فقال: «ومن أهمها الدرر السنية»[٢].

٣. كتب الشيخ ابن قاسم رحمه الله في العقيدة:

أ- حاشية كتاب التوحيد:

كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كتاب عظيم النفع، لم يؤلف في توحيد الألوهية على منواله، بدأه ببيان التوحيد وفضله، والحث عليه، ثم ثنى بالتحذير من الشرك، ووسائله وذرائعه بما لم يسبق إليه، فصار كل من يتعلم التوحيد يقرؤه، ويتعلمه، بل ويحفظه، ولذا كان للشيخ ابن قاسم المشاركة في شرحه، فشرحه في كتاب سماه حاشية كتاب التوحيد، ويشتمل على أربعمائة وعشر صفحات، ولقد أثنى عليه العلماء، ومن ذلك:

قال الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله: إنه «من أنفس ما كتب على هذا الكتاب»[٣].

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن السدحان حفظه الله: «هذه الحاشية للشيخ ابن قاسم رحمه الله لعلها من أحسن الحواشي على الكتاب يعني كتاب التوحيد وخاصة أن الشيخ ابن قاسم سلك فيها مسلك الاختصار غير المخل، وضمنها نقولات وفوائد نفيسة»[٤].

---

(١) مجموع فتاوي ومقالات متنوعة، لابن باز (٧/ ٦٦).

(٢) حلية طالب العلم، لأبو زيد (٧٧).

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته (١٣٤).

(٤) معالم في طريق طلب العلم، للسدحان (٧٦).

ب- حاشية ثلاثة الأصول:

كتاب الأصول الثلاثة له أهمية بالغة، فهو كتاب تربية وتعليم معاً، حيث بدأ بالتربية في المسائل الأربع، ثم ثنى بتوضيح المناهج الموجودة في المجتمع، ثم ثلث بالقدوة لما لها من أثر بالغ في التربية ثم بين المرتكزات التي يقوم عليها الدين، وهي الأصول الثلاثة (من ربك-ما دينك-من نبيك)، ثم عرج على ما بعد الموت من بعث وحساب وجزاء، وقبل النهاية حذر من المعوقات الداخلية، وختم الكتاب بالعلاج وهو حديث: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»[(١)]، ولهذا كثرت شروح العلماء لها، وكانت حاشية ابن قاسم هي «أول شرح موجود للأصول الثلاثة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب»[(٢)]، وتشتمل على مائة وثلاثون صفحة، قال ابن قاسم في المقدمة: «فإن ثلاثة الأصول لشيخ الإسلام والمسلمين، مجدد الدعوة والدين، محمد بن عبد الوهاب، أجزل الله له الأجر والثواب، قد جد الناس في حفظها، لعظم نفعها، وتشوقت النفوس لبيان معانيها، لرصانة مبانيها، فوضعت عليها حاشية، موضحة لمعناها، مشجعة لمن اقتناها، والله المسؤول أن ينفع بها، كما نفع بأصلها، إنه على كل شيء قدير»[(٣)].

وقد أثنى عليها الشيخ عبد الله بن جبرين فقال: «شرحها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله وأكرم مثواه بحاشية نفيسة، أوضح فيها مقاصد المؤلف، ودلالة النصوص»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه في كتاب الذبائح أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٥/ ١١)، برقم (٢٦١٦)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، في كتاب الجهاد (٢/ ٨٦)، برقم(٢٤٠٨).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (١٣٩).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول، لابن قاسم (٧).

(٤) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (١٤٠).

ت- حاشية الدرة المضية:

حاشية على كتاب الدرة المضية في شرح عقد الفرقة المرضية للإمام السفاريني، كتبها إجابة لطلب من يريد شرحها، وجاءت في مائة وتسعة خمسون صفحة، قال ابن قاسم في مقدمة حاشيته: «... فإنه لما عزم من وفق لبث العلوم الدينية، على نشر هذه العقيدة الجليلة، المتضمنة لجل عقائد الفرقة المرضية، طلب مني أن أكتب عليها حاشية وجيزة عجالة، فأجبته إلى ذلك رجاء المثوبة من الله، والاندراج في سلك أهل السنة والجماعة ونبهت على ما خالف المصنف فيه مذهب السلف، لتكون خير بضاعة.

وعرضتها على عالم الوقت المجتهد الثبت، الشيخ: محمد بن الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، وعلى غيره من العلماء الأفاضل، فجاءت بحمد الله غرة للطالبين، ومحجة واضحة للراغبين، مؤيدة بالبراهين، طبق عقيدة السلف، وأسأله السداد، وحسن الطوية، والزلفى لديه في الجنات العلية...»[(١)].

ث- كتاب السيف المسلول على عابد الرسول:

كتاب السيف المسلول على عابد الرسول أشتمل على مائتان وثمانية صفحات، وهو رد على علي بن محمد الرشيدي الجزائري في تحريم صرف شيء من العبادة للنبي ﷺ، كما ذكر ابن قاسم في مقدمة هذا الكتاب «فقد وقفت على وريقات، كتبها: علي بن محمد الرشيدي الجزائري، في الرد على ما نشرته، في جريدة أم القرى، تحت عنوان: «هل عبد رسول الله ﷺ؟»[(٢)] وسيأتي نص ما نشرته[(٣)]، عند ذكري زعمه أنه يفهم منه إنكار الشفاعة.

وقد تضمن رده: رد ما أنزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وأجمعت عليه

(١) حاشية الدرة المضية، لابن قاسم (٧).

(٢) انظر: مجلة أم القرى العدد (٧٦٤) سنة ١٦، عام ١٣٥٦هـ (ص٦).

(٣) انظر: السيف المسلول على عابد الرسول، لابن قاسم (٧٢).

الأمة، من إفراد الله سبحانه بالعبادة وتجويز عبادة غير الله ﷻ بالالتجاء إليه، والاستغاثة به، وطلب الشفاعة منه؛ وأكثر الطعن على من دعا الناس إلى توحيد الله، وكفرهم بمحض التوحيد، وزعم أنهم خوارج، سمى عباد الأنبياء والصالحين إلى ما لا يحتمله كلامي فالله المستعان...»[١].

المطلب السابع: منهج ابن قاسم في التصنيف:

لقد حظي الشيخ ابن قاسم بمكانة علمية واسعة ظهرت على تأليفه وجمعه لفتاوى سلف هذه الأمة، وقد تميز الشيخ بصفات العالم الزاهد، الورع المتقي المجاهد، ومن أبرز هذه الصفات:

أولاً: التزامه منهج السلف الصالح في العقيدة:

وتتضح فيما يلي:

١. إخراج كتب أئمة السنة الذين نشروها، ودافعوا عنها كمجموع فتاوى شيخ الإسلام والدرر السنية في الأجوبة النجدية، وهي تزخر بتقرير العقيدة، والرد على المخالفين.

٢. تقريره للتوحيد وبيان ضده، والرد على المخالف، ومن ذلك:

أ-ما حشاه على كتاب التوحيد، وتقريره لعقيدة السلف مع بيان ما يناقض كمال التوحيد، أو ينافيه.

ب- تقريره لمذهب أهل السنة والجماعة، ورده على المخالف، وذلك ما فعله عند شرحه للدرة المضية حيث قال رحمه الله في مقدمته: «...ونبهت على ما خالف المصنف فيه مذهب السلف...»[٢].

ج- رده على المخالف، في كتابه السيف المسلول على عابد الرسول، الذي كان رداً على علي بن محمد الرشيدي، حيث قال رحمه الله «...هلا كان نصرتك للحق،

(١) السيف المسلول على عابد الرسول (٥).

(٢) حاشية الدرة المضية (٧).

ودعوتك في رد العظائم، في جهتكم وغيرها، المضادة لأصل الإسلام، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من الشرك بالله، وأعظمها عبادة الأنبياء والصالحين وغيرهم، وأشهرها عبادة القبور، التي طبقت العالم إلا من شاء الله.

ولقد اتخذوها في هذه الأزمان معابد، وزخرفوها بالأبنية الضخمة، وموهوها بالذهب والفضة، وكسوها بأنواع الحرير، وازدحموا عندها يعكفون، ويطوفون، ويتمسحون، ويذبحون لها، وينذرون، ويخضعون لها، ويذلون، ويخشعون، بل يحصل لهم من الرقة والخشية والدعاء والمناجاة ما لا يحصل لهم إن قصدوا المسجد للصلاة، بل لا تكاد ترى عليهم من الخشوع والابتهال في الصلاة معشاره عند القبور.

ويعتقدون أن الصلاة عندها وفيها وإليها أفضل من الصلاة في بيوت الله عزوجل، ويقصدونها من الأماكن البعيدة، وربما تكون بحذائهم مساجد مهجورة معطلة، وإذا أدركوا الصلاة في تلك المساجد، كان عندهم أفضل، وهي ليست مقصودة، لكونها بيوتاً لله، بل لكونها مقامات ومشاهد، لمن نسبت إليه، من أهل تلك القبور، يدل على ذلك: أنهم لا يسمونها إلا مقامات، وحضرات، ومشاهد، وليس مقصودهم، إلا التقرب بالميت وبحضرته.

وكثير ممن زين لهم الشيطان أعمالهم، يصلون إلى الميت، ويدعو أحدهم الميت، فيقول اغفر لي، وارحمني، ونحو ذلك، ويسجد له، ومنهم من يستقبل قبره، ويصلي إليه مستدبر الكعبة، ويقول: القبر قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة.

قال بعض أهل التحقيق: وهذا يقوله من هو أكثر الناس عبادة وزهداً، يحبون آلهتهم أكبر من حب الله، يغضب أحدهم لهم ولحرماتهم أعظم مما يغضب لله ويستبشر بذكرهم، ويسربه، ويحن قلبه، ويهيج من لواعج التعظيم بذكرهم، والخضوع لهم، وإذا ذكر الله وحده لحقتهم وحشة وضيق وحرج، بل تراهم يقفون عندها أخشع من موقفهم في عرفات، ويفضلونها والحج إليها على حج بيت

الله الحرام، والسفر إليها على السفر للحج، وغير ذلك مما هو معلوم، عند جميع أهل العلم بدين الإسلام، أنه مناف لشريعة الإسلام.

وطائفة من علمائهم: صنفوا كتباً وسموها: مناسك حج المشاهد، وأما الكتب المصنفة باسم الزيارة، والمولد، والتحريض على التوسل بالأموات ودعائهم وإهداء النذور لهم والصدقات، فأكثر من أن تحصر، فأين نصرتك للحق والحالة هذه؟ بل تخطيت بالرد على من نهى عن ذلك...»[١].

٣. ثناؤه ﷺ على علماء السلف، ومن ذلك ثناؤه العاطر على شيخ الإسلام لنصرة مذهب السلف، فقال في مقدمة مجموع الفتاوى:

أما بعد: فإن شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الخضر بن تيمية النمري الحراني العالم الرباني، سيد الحفاظ، بحر العلوم، مفتي الأمة، قريعة الدهر، أعجوبة الزمان، حجة الله على عباده[٢]، الجامع بين العلوم النقلية بأنواعها، ومذاهب أهل الملل والنحل، وآراء المذاهب، ومقالات الفرق، ما لا يعلم مثله عن أحد من علماء الأرض لا قبله ولا بعده، مع بيان حقيقة الشريعة المطهرة على الوجه الصحيح وقوة الحكم»[٣].

ثانياً: اتباع الدليل:

كان الشيخ ﷺ يدور مع الدليل حيث دار، وإن كان يخالف ما يقوله مشايخه، أو مذهبه الحنبلي مستهدياً بالدليل من الكتاب والسنة، غير عابئ بأحد؛ لأن الحق يدور مع الرسول حيث دار، كما قال في مقدمة كتابه حاشية الروض المربع: «التعصب إلى المذاهب والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، والدعوى إلى ذلك، والموالاة عليه من دعوى الجاهلية، بل كل من عدل عن الكتاب والسنة فهو

---

(١) السيف المسلول على عابد الرسول (٧).

(٢) أما كلمة حجة الله على عباده فيها نظر؛ لأنها وصف للرسل عليهم السلام.

(٣) مجموع الفتاوى (١/أ).

من أهل الجاهلية، والواجب على المسلم أن يكون أصل قصده طاعة الله وطاعة رسوله، يدور على ذلك ويتبعه أينما وجده، ولا ينتصر لشخص انتصارًا مطلقاً إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً إلا لأصحابه، فإن الهدى يدور مع رسول الله ﷺ حيث دار، ويدور مع أصحابه دون غيرهم»[(١)].

ثالثاً: الدقة المتناهية في عباراته وألفاظه في كتبه:

الناظر في كتب الشيخ يجد دقة في العبارة، مع اختصار غير مخل، فلو تتبعت كتبه ما وجدت حشواً، ولا كلاماً زائداً، قال رحمه الله: «إثبات المسألة بدليلها تحقيق، وبدليل آخر تدقيق، والتعبير عنها بفائق العبارة ترقيق، وبمراعاة علم المعاني والبديع في تركيبها تنميق، والسلامة فيها من اعتراض الشرع توفيق، ونسأل الله بأسمائه الحسنى الهداية والتوفيق، لما اختلف فيه من الحق إلى أقوم طريق...»[(٢)].

رابعاً: مما تميزت به مؤلفاته، أن الله كتب لها القبول عند أهل العلم:

فها هي في أيدي العلماء، وطلاب العلم طبعت المرات تلو المرات، قال الشيخ عبد الملك القاسم: «ومن طرح القبول لمؤلفاته ما نراه الآن من جعلها مرجعاً للعلماء والمتعلمين، فلا يخفى كثرة عزو علماء المسلمين إليها والأخذ عنها والنهل من معينها، وقد ذكرت ثناء العلماء على مؤلفاته في مظانها.

كما أن في جعل كتابه: حاشية الروض المربع، منهجاً مقرراً على طلاب كلية الشريعة من طرح القبول لمؤلفاته»[(٣)].

وقال أيضاً: «ومن طرح القبول لها حفظها سنوات طوال وعقود متتالية، حتى خرجت إلى النور، قال العم الشيخ سعد: أتعجب من حفظ الله ﷻ لكتب الوالد عندما كانت مخطوطة وبقيت سنوات بعضها يزيد عن الأربعين سنة، وكان

---

(١) حاشية الروض المربع (١ / ١٩).

(٢) المصدر السابق (١ / ٩).

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٠٣).

يحفظها رحمه الله في دولاب خشب، ثم وضعها في صناديق حديد، وبقيت محفوظة، وبعضها وجدتها مدبوسة بمشابك، وأخرى بمسامير كبيرة اهـ.

ومن توفيق الله ﷻ أن سخر ابنه العم الشيخ سعد بن قاسم لمراجعة ونشر مؤلفاته بعد وفاته بسنوات تصل إلى الثلاثين عاماً وهو يسعى مشكوراً مأجوراً في مراجعتها وتصحيح بروفاتها ومطابقتها على الأصل. ومن توفيق الله ومنته أن سخر ابنه العم الشيخ ناصر بن قاسم إلى تبني طباعتها من ماله الخاص وبيعها بسعر يقارب سعر التكلفة مع كثرة الكتب المتبرع بها من قبله»(١).

خامساً: الثبات على المنهج:

إذا أجلت نظرك في مؤلفات الشيخ في العقيدة وغيرها، مع تنوعها وكثرتها، واختلاف أزمنة جمعها وتأليفها، من أول مؤلفاته حتى آخر مؤلفاته، وجدتها كلها متسقة متناسقة على منهج أهل السنة والجماعة في الألوهية، والأسماء والصفات، والقدر، واليوم الآخر، سار على ذلك المنهج حتى آخر حياته، يرى ذلك جليًّا من قرأ في كتب الشيخ، قال عبد الملك بن قاسم: «وهذه منة وفضل من الله ﷻ عليه، خاصة في زمن بدأ الانفتاح على هذه البلاد وتأثر الكثير بالأفكار الوافدة وظهور الترخص والبعد عن المظهر الواجب واتباع السنة، هذا إضافة إلى سفره للخارج سواء البلاد العربية، أو بلاد أوروبيه للعلاج وجمع الفتاوى، في زمن ندر من يسافر خارج بلدته، بل وإقامته الشهور الطويلة هناك، ومع ذلك كان مثالاً للمؤمن المتمسك بعقيدته المعتز بدينه، من ذلك أنه كان يسافر بلباسه المعتاد في بلده الثوب والشماغ(٢)، وقد ثبته الله ﷻ ثباتاً في حياته العامة ومؤلفاته وكتبه، فلله الحمد والثناء وعظيم الشكر»(٣).

---

(١) المصدر السابق (٢٠٤).

(٢) وهذا من الحفاظ على سمت العلماء، وليس من الثبات على الدين، فهو من الأعراف، فكل قوم وزمن له عرفه من اللباس.

(٣) المصدر السابق (٢٠٥).

المطلب الثامن: قيمة مؤلفاته والحاجة إليها:

إن مما يبقى وينتفع به المسلم بعد موته العلم النافع، كما قال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، وذكر منها: علم ينتفع به»[(١)]، ومما بقي من عمل الشيخ ابن قاسم علمه ومؤلفاته فقد كان للشيخ ابن قاسم القدح المعلى حيث كانت كتبه عمدة للدارسين والباحثين، وكان المشايخ يوصون بحاشية الشيخ ابن قاسم كل من أراد يتعلم كتاب التوحيد، قال عبد الملك القاسم: «مع انتشار التعليم والاتجاه نحو التخصص ظهرت الحاجة إلى مؤلفاته في العصر الحديث فـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام تسابق إليها العلماء، وطلبة العلم مثنى وفرادى، ويكفي أنه تم إجازة ما يقرب من عشرين رسالة ماجستير ودكتوراه حول هذا المجموع في داخل المملكة فحسب[(٢)].

وبعض الرسائل اشتملت على عشرات الصفحات فقط من مجلد واحد و(الدرر السنية في الأجوبة النجدية) كانت رماحاً وسهاماً في نحور أصحاب الوهن والمعتزلة والعقلانيين، وغيرهم من أصحاب البدع والأهواء.

وحاشية الروض المربع قررت كمنهج معتمد في كلية الشريعة، فلا يتخرج فيها طالب إلا وقد درس الحاشية كمنهج معتمد مقرر»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/ ١٢٥٥)، برقم (١٦٣١).

(٢) بل تزيد على هذا العدد.

(٣) الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله حياته وسيرته ومؤلفاته (٢٢٧).

الفصل الأول

جهوده في التلقي والاستدلال

المبحث الأول

مصادر التلقي والاستدلال عند الشيخ ابن قاسم

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما المصدر الرئيس للمسلم، في تلقيه للعقيدة الصافية، وغيرها من الأحكام الشرعية، ولا مجال له أن يختار أو يتردد، بل لا بد أن ينقاد، ويُسَلِّم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وعليهما صدر إجماع الأمة.

ومن هذا المنطلق، اعتمد ابن قاسم رحمه الله، على هذين المصدرين في تقريره مسائل العقيدة، وأوصى بهما، وبين أنهما عمدة الملة، فقال رحمه الله مبيناً أصل الأصول، تحت هذا العنوان: «أصول وقواعد وتنبيهات. (أصول الأحكام).

قال شيخ الإسلام[١] وغيره: أجمع المسلمون على أن الأصول ثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع، فأما الكتاب والسنة فهما أصل الأصول، وكلية الشريعة، وعمدة الملة، والغاية التي تنتهي إليها أنظار النظار، ومدارك أهل الاجتهاد، ولا طريق إلى الجنة إلا بالكتاب والسنة، وليسا بمحتاجين إلى تقريب واستدلال، والأصل الثالث الإجماع.

قال: ويجب تقديمه على ما يظن من معاني الكتاب والسنة، وعلى المجتهد أن

---

(١) قال ابن قاسم رحمه الله: «الشيخ: هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم، بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر ابن محمد بن الخضر، بن علي، بن عبد الله ابن تيمية، الحراني، العالم الرباني، مفتي الأمة بحر العلوم قامع البدع، صاحب المصنفات المؤيدة بالكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، وإذا أطلق الشيخ، أو شيخ الإسلام، فهو المعني رحمه الله» حاشية مقدمة التفسير (٧٧).

ينظر إليه أول شيء في كل مسألة، فإن وجده لم يحتج إلى النظر في سواه؛ لكونه دليلاً قاطعاً، ثابتاً في نفس الأمر، قالعاً للشواغب، لا يقبل نسخاً، ولا تأويلاً، ولا شك أن مستنده الكتاب والسنة، وأنه قطعي معصوم فإن أهل العلم بالأحكام الشرعية لا يجمعون على تحليل حرام، ولا تحريم حلال، وكثير من الفرائض التي لا يسع أحدًا جهلها إذا قلت: أجمع الناس لا تجد أحداً يقول: هذا ليس بإجماع، ومجرد النزاع لا يوجب سقوط استصحاب حكم الإجماع.

قال: ومعنى الإجماع أن يجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام، وإذا ثبت إجماع الأمة لم يكن لأحد أن يخرج عنه، فإنها لا تجتمع على ضلالة، فقد عصمها الله على لسان نبيه ﷺ، كما هو مضمون قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، ومفهوم: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**»(١)»(٢).

وقد لازم ابن قاسم منهج السلف، واستشهد بأقوالهم، واقتفى أثرهم، وتمسك بمذهبهم، ومن قرأ كلام ابن قاسم رحمه الله، ورأى استدلاله على المسائل، علم يقيناً التزامه التام في الاستدلال على المسائل بالكتاب والسنة، وأقوال السلف، التي هي في الحقيقة بيان للكتاب والسنة، فعند ما تكلم رحمه الله حول فضل الصحابة، وشرفهم، وعلو مرتبتهم، ومنزلتهم، استدل على هذا بالكتاب والسنة، فقال: «وليس في الأمة المحمدية المفضلة على سائر الأمم كالصحابة الكرام، العدول بنص الكتاب العزيز، والسنة المتواترة، وإجماع الأئمة، وسائر السلف، فهم الذين فازوا بصحبة خير البرية، قال الله تعالى خطاباً لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (٤/ ٤٢٩)، برقم (٩٨٦٤)، والترمذي في سننه وصححه، في كتاب الفتن، باب ما جاء في الأئمة المضلين (٤/ ٥٠٤)، برقم(٢٢٢٩)، وصححه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٥٩٣)، برقم (٨٦٥٣).

(٢) حاشية الروض المربع (١/ ١١).

﴿وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فليس في سائر الأمة مثل الصحابة في الفضل لما في الصحيحين: «لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[(١)]، وفيهما: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[(٢)]»[(٣)].

ولا غرو ولا عجب في أن يلتزم ابن قاسم هذا المنهج، كيف لا وهو القائل مبيناً أهمية الاعتناء بالكتاب والسنة: «يتعين الاعتناء بالكتاب والسنة، فقد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، في غير موضع من كتابه، أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، واعتنوا بهما، ففيهما الهدى والنور»[(٤)].

وقال أيضاً: «نتابع.في اعتقادنا الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسان، من أئمة أهل الأثر الذين هم على نهج الرسول ﷺ وعلى مقتضى القرآن، ونتبع ونقتدي بالآثار المأثورة عن الكتاب المنزل، والنبي المرسل، والصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الدين من أهل التحقيق والعرفان، فهم أهل الدراية والرواية، لا نتابع أهل الأشر من كل متحذلق ومتعمق من فروخ الجهمية[(٥)]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذ خليلاً، (٣/ ١٣٤٣)، برقم(٣٤٧٠)، مسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة ﷺ (٤/ ١٩٦٧)، برقم(٢٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، (٣/ ١٣٣٥)، برقم (٣٤٥١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٣)، برقم (٢٥٣٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢٣)، انظر: حاشية ثلاثة الأصول (٨٣-٩٤).

(٤) حاشية الروض المربع(١/ ١٧).

(٥) الجهمية: هم طائفة من أهل البدع، ينتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، المبتدع الضال، قتل سنة ١٢٨هـ ومن بدعهم: القول بنفي الأسماء والصفات عن الله تعالى، وان الإيمان إنما هو معرفة؛ لأنه لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون غيره من الجوارح، وأن العبد مجبور على فعله، ولا قدرة له ولا اختيار، وغيرها من البدع. انظر: التنبيه =

والمرجئة(١) والكرامية(٢)، والفلاسفة(٣)، والملاحدة(٤)، وغيرهم»(٥).

ولقد كان اعتماد السلف الصالح على هذين المصدرين العظيمين، وأخذوا

=

والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي (١/ ٩٩)، مقالات الإسلاميين، للأشعري (١/ ١٣٢)، الفرق بين الفرق، للبغدادي (١/ ١٩٩)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٢/ ١٥٩).

(١) المرجئة سميت بذلك؛ لأنهم أرجؤوا أي: أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان، وهم ثلاثة أصناف: صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية فهم معدودون في القدرية والمرجئة، كأبي شمر المرجئ، ومحمد بن شبيب البصري، والخالدي، وصنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان ومالوا إلى قول جهم في الإعمال والإكساب، فهم من جملة الجهمية والمرجئة، وصنف منهم خالصة في الإرجاء من غير قدر، وهم خمس فرق يونسية وغسانية وثوبانية وتومنية ومريسية. الفرق بين الفرق (١/ ١٩) بتصرف، انظر: التنبيه والرد (١/ ١٤٦).

(٢) وهي: فرقة من فرق المرجئة، ينتسبون إلى أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ، ومن بدعهم القول بالإرجاء، حيث يزعمون أن الإيمان الإقرار باللسان فقط دون القلب، وزعموا أيضاً أنه لا يحدث في العالم جسم ولا عرض إلا بعد حدوث أعراض كثيرة في ذات معبودهم. انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٤١)، الفرق بين الفرق (١/ ٢٠٤)، الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١٠٨).

(٣) الفلاسفة: هم طائفة ينسبون إلى الفلسفة، ولفظتها مأخوذة من اليونانية، وهي مركبة من كلمتين «فيلو»، ومعناها الحب، و«سوفيا»، معناها الحكمة، ومعناها بمجموع الكلمة: «محب للحكمة»، ومن آراء بعضهم القول بقدم العالم، وأن الله لم يتكلم بالتوراة ولا غيرها من الكتب الإلهية، ولا هو عالم بالجزئيات، ولا هو قادر أن يفعل بمشيئته، ولا يقيم الناس من قبورهم، وأنكروا النبوات، والبعث الجسماني، وغيرها. انظر: الملل والنحل (٢/ ٥٨) وما بعدها، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (١/ ٩١)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٦)، الجواب الصحيح، لابن تيمية (٤/ ١٤٧).

(٤) وهؤلاء الملاحدة انتشروا بعد القرون المفضلة، وغلاتهم الإسماعلية والخرمية أتباع بابك الخرمي، وقرامطة البحرين أتباع أبي سعيد الجنابي، وغيرهم، ومن آرائهم الضالة تجرد الرب سبحانه عن الماهية، وعن كل صفة ثبوتية، وكل فعل اختياري، وأنه لا داخل العالم، ولا خارجه ولا متصل به، ولا مباين له، وأن الحياة مادة، وهي مع ذلك قد أوجدت نفسها بنفسها عن طريق المصادفة!! انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٦١)، منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (١/ ٢٩٥)، (١/ ٣١٦).

(٥) حاشية الدرة المضية (٧٢)، بتصرف يسير.

منهما جميع مسائل العقيدة الصحيحة، ولم يلتفتوا إلى عقولهم، وأهوائهم، بل ما وافقها قبلوه، وما خالفها رفضوه، وحذروا الناس منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم؛ فيه نبأ من قبلهم وخبر ما بعدهم، وحكم ما بينهم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه، ولا يحرف به لسانه، ولا يخلق عن كثرة الترداد، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق، ولم يمل كغيره من الكلام، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل، ورأي، وقياس، ولا بذوق، ...ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها، وتنسخها، أو بسنة الرسول تفسرها فإن سنة رسول الله تبين القرآن، وتدل عليه، وتعبر عنه»[١].

وما وقع الانحراف في هذه الأمة إلا بعد أن تخلت عن هذين المصدرين، فاعتمدوا على عقولهم، وأهوائهم في أصول الاعتقاد، وبعد ما ادخلوا كتب اليونان، وفلسفتها، واستدلوا بها في مسائل الاعتقاد، التي شوهت هذه العقيدة، وانحرفت عما كان عليه سلف هذه الأمة، وقد شهدوا على أنفسهم بالحيرة،

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٣/ ٢٨ -٢٩).

والشك فيها، وأنهم لم يجزموا فيها بشيء، ولم يظفروا منها بعلم، ولا يقين، ورجوع بعض أئمتهم إلى مذهب السلف الصالح عبرة لأولي الألباب[١]، هذا ما أشار إليه الشيخ ابن قاسم بقوله إن «طوائف المتكلمين والمتفلسفة وأضرابهم هم أهل الشك والاضطراب، وتشريع دين لم يأذن به الله، غاية ما يقول أحدهم: إنهم جزموا بغير علم وصححوا بغير حجة، حتى اعترف حذاق أهل الكلام الأشعري وغيره: أن طريقتهم ليست طريقة الرسل وأتباعهم، وأنها طريقة باطلة، وأهل السنة والجماعة: يعلمون ويعلمون أنهم يعلمون»[٢].

وهذا إمام الحرمين[٣] ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني، وهأنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال عقيدة عجائز نيسابور[٤]، وكذلك

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم (٣/ ٨٤٨)، الحجة في بيان المحجة، للأصبهاني (١/ ٢٢٦).
(٢) حاشية الدرة المضية (٤٩).
(٣) هو: أبو المعالي، عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني شيخ الشافعية، ولد سنة ٤١٩ هـ صاحب التصانيف، منها كتاب نهاية المطلب في دارية المذهب والإرشاد في أصول الدين والرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية والشامل في أصول الدين والبرهان في أصول الفقه، وتوفي سنة ٤٧٨ هـ انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٨/ ٤٦٨)، الوافي بالوفيات (١٩/ ١١٧)، الأعلام للزركلي (٤/ ١٦٠).
(٤) هي مدينة في مقاطعة خراسان في شمال شرق ايران، بالقرب من العاصمة الإقليمية، وتعتبر نيسابور عاصمة مقاطعة خراسان قديمًا، كانت في العصر العباسي من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران، كانت جميلة في مستو من الأرض وأبنيتها من طين، وهي قديمة البناء، وقدر مساحتها ثلاثة أميال، وليس بخراسان مدينة أصح هواء ولا أرحب فناء ولا أشد عمارة ولا أمكن تجارة ولا أكثر سابلة ولا أغزر فائدة من نيسابور ولها حدود واسعة ورساتيق عامرة، ومدن معروفة، وعظمت أحوالها وشهر بالعلم رجالها. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار (١/ ٥٨٨)، معجم البلدان، للياقوت (٥/ ٣٣١).

خبر أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[١] حيث صرح: أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وكان ينشد:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها   وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر   على ذقن أو قارعاً سن نادم[٢]

(١) هو: محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، شيخ أهل الكلام والحكمة، أشعري المعتقد، وكان كثير المحفوظ قوي الفهم مليح الوعظ، وصاحب التصانيف، منها: نهاية الإقدام في علم الكلام، الملل والنحل، مصارعة الفلاسفة، توفي سنة ٥٤٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٨٦-٢٨٧)، شذرات الذهب، للعكري(٤/ ١٤٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣).

المبحث الثاني

موقفه من التقليد في مسائل الاعتقاد

لا يجوز التقليد في الأمور الاعتقادية الواضحة الجلية، التي لا يسع أحداً الجهل بها، حتى عامة الناس، كمعرفة الله، والإيمان به، وأنه مستحق للعبادة وحده، والإيمان بالرسل، والملائكة، واليوم الآخر، ونحو ذلك من الأصول التي لا يعذر الجهل بها، ومعرفة اعتقادها، والعمل بها، ولا يسوغ التقليد فيها، أما معرفة القدر الزائد منها؛ فإنه لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو من فروض الكفايات، كمعرفة عدد أبواب الجنة، والرسل، وغيره، هذا ما وضحه ابن قاسم بقوله: «معرفة دين الإسلام الذي تعبد اللهُ الخلقَ به بالأدلة[١] من الكتاب والسنة، ... وفيه إشارة إلى أنه لا يصلح فيه التقليد، بل إذا لقي الله فإذا معه حجج الله وبراهينه، وهذا المقدار من العلم يجب تعلمه، بل كيف يعمل المرء بشيء وهو لا يعرفه؟! وجهل الإنسان حقيقة ما أمر الله به من أعظم الإثم، والعمل بغير علم طريق النصارى، والعلم بلا عمل طريق اليهود، وقد أمرنا الله أن نسأله في كل ركعة أن يهدينا الصراط المستقيم، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين[٢].

وما كان تعلمه فرض عين في مسائل الأصول، فلا يصح فيه تقليد، بخلاف فرض الكفاية، وذلك بقوله: «والعلم الشرعي على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية، وما ذكر رحمه الله[٣]، فهو فرض عين على الذكر والأنثى، والحر والعبد، لا يعذر أحد بالجهل به... وإن أهم ما على العبد معرفة دينه، الذي معرفته والعمل به سبب

---

(١) قال ابن قاسم رحمه الله: «الأدلة: جمع دليل، والدليل: هو ما يوصل إلى المطلوب». حاشية ثلاثة الأصول (١١).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (١١).

(٣) يذكر قول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في ثلاثة الأصول. حاشية ثلاثة الأصول (١٠-١١).

لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، أعاذنا الله منها؟.

فما كان واجباً على الإنسان العمل به كأصول الإيمان، وشرائع الإسلام، ... ونحو ذلك مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب عليه العلم به، بخلاف القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعين فإنه من فروض الكفايات، الذي إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين»(١).

وما قرره ﷺ فقد قرره ابن قدامه بقوله: «وإنما الذي قيل إنه لا يجوز لهم التقليد هو الأمر الظاهر الذي قد علموه لظهوره من غير احتياج إلى تعب ولا فكر ولا نظر كتوحيد الله ﷻ ورسالة محمد ﷺ، ومعرفة وجوب الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وسائر الأركان، التي اشتهر وجوبها. وعلم ذلك بالإجماع عليها، فلا يحتاج فيه إلى بحث ولا نظر، فهذا لا يجوز تقليدهم فيه.

وأما دقائق الاعتقادات، وتفاصيل أحكام العبادات، والبياعات، فما يقول بوجوب اجتهادهم فيها إلا جاهل»(٢).

وحث ابن قاسم على تعلم الدين بأدلته، وطلب العلم في تحصيله من أفضل القربات؛ لأنه يتعدى نفعه إلى الغير، وذلك بقوله: «ثم إن طلب العلم فيما هو فرض كفاية أفضل من قيام الليل وصيام النهار، والصدقة بالذهب والفضة، قال أحمد: تعلم العلم وتعليمه أفضل من الجهاد وغيره مما يتطوع بها.

فإن العلم هو الأصل والأساس، وأعظم العبادات، وآكد فروض الكفايات، بل به حياة الإسلام والمسلمين، والتطوعات إنما هي شيء مختص بصاحبه لا يتعدى إلى غيره، وهو الميراث النبوي، ونور القلوب، وأهله هم أهل الله وحزبه، وأولى الناس به وأقربهم إليه، وأخشاهم له وأرفعهم درجات»(٣).

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (١٠ - ١١).

(٢) تحريم النظر في كتب الكلام، لابن قدامة المقدسي (١/ ٤٩).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (١٠ - ١١).

المبحث الثالث

موقفه من الدليل العقلي

العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم، والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك، وإنما هو غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها[١].

وأما عن موقف ابن قاسم رحمه الله من دليل العقل، فهو يرى أهمية العقل ومكانته العظيمة، ولكنه في نفس الوقت يراه عاجزاً عن إدراك تفاصيل النصوص، وإن كان يدركها إجمالاً، وأن الدليل العقلي الصحيح لا يمكن أن يعارض النقل الصريح الصحيح، وذلك بقوله: «وليس في العقل الصحيح ما يخالف النقل الصريح الصحيح، بل العقل الصحيح يوافق النقل الصحيح الصريح، وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن إدراكه.

وقد قال شيخ الإسلام: اعترف أساطين أهل الكلام بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية[٢]»[٣]، ثم قال رحمه الله: «وكون العقل أصلاً يعتمد في المطالب الإلهية قدح في الشرع، وإنما العقل تابع مصدق للشرع، ودلالته مشروطة بعدم معارضة الشرع»[٤]، ثم قال: «بل الذي عليه السلف: أن الله بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى(٣/ ٣٣٨- ٣٣٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥/ ٣٠).

(٣) حاشية الدرة المضية (٤٣).

(٤) المصدر السابق (١٥).

كالأمثال المضروبة، والبراهين القاطعة، والاعتقاد الصحيح، لا يثبت بمجرد الأدلة العقلية، بل بالأدلة الشرعية التي يفرق بها بين المؤمن والكافر»[١]، وبهذا يعرف أن العقل مهما وصلت مكانته، وارتفعت منزلته، فهو عاجز عن إدراك تفاصيل النصوص الشرعية، وبالجملة فإن ابن قاسم رحمه الله يرى أهمية العقل، لكنه تابع للنصوص الشرعية.

(١) المصدر السابق (٤٧)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٦).

المبحث الرابع

موقفه من القياس في مسائل الاعتقاد

الأصل في مسائل العقيدة أن نأخذها من الكتاب والسنة، والإجماع؛ لأن المصادر النقلية مأخوذة من الشرع فدلالتها قطعية، بخلاف القياس فإنه من الأدلة العقلية التي لا تستقل بنفسها؛ فدلالته ظنية؛ لأن العقل أداة للتمييز؛ ولذا فإنه تابع للنقل(١)، كما أن أركان القياس لا تنطبق على مسائل العقيدة؛ لأن القياس: «حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما»(٢)، فالقياس تسوية فرع بأصل وليست مسائل العقيدة من الفروع بل هي من الأصول التي لا تؤخذ بالقياس؛ لأن أصولها توقيفية مستمدةٌ من الكتاب والسنة، والمقصود أنه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة، والمساواة بين المقيس والمقيس عليه في الشُّئُون الإلهية، بخلاف العلوم الأخرى: كالفقه، ومسائله، وأحكامه فإنه يدخله القياس(٣).

ولذا بيّن ابن قاسم رحمه الله موقفه من القياس في مسألة الأسماء والصفات على وجه الخصوص، حيث قال مقرراً، وناقلاً لأقوال أهل العلم، إن: «القول المعتمد عند أهل الحق في أسماء الله الحسنى توقيفية بنص الشرع وورود السمع بها، واتفقوا على جواز إطلاق ما ورد به كتاب الله وصح عن رسول الله ﷺ»(٤).

وقال: «فلنا معشر أهل السنة باعتبار ثبوت التوقيف في أسماء الله من الشارع، أدلة عالية تفي بالمقصود؛ لأن ما لم يثبت منها لم يؤذن فيه، وأجمعوا: أنه تعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله ﷺ.

وقال ابن القيم: ما يطلق عيه تعالى في باب الأسماء والصفات، توقيفي، وما

---

(١) انظر: الإحكام للآمدي(١/ ٣٢٧)، روضة الناظر، لابن قدامه (١/ ١٣٠).

(٢) روضة الناظر(١/ ٢٧٥).

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، للهراس(٣١).

(٤) حاشية الدرة المضينة (٣٢-٣٣)، بتصرف.

يطلق في باب الأخبار، لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه[١]»[٢].

وقد حكى ابن عبد البر اتفاق السلف الصالح على نفي القياس في مسائل العقيدة بقوله: «لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة وهم أهل الفقه والحديث في نفي القياس في التوحيد وإثباته في الأحكام»[٣].

والقياس الذي نحن بصدده هو قياس التمثيل[٤]، وقياس شمول[٥]، الذي نفاه الله عن نفسه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فهو سبحانه لا يقاس بخلقه قياس تمثيل، ولا قياس شمول، وإنما يقاس سبحانه بخلقه قياس الأولى[٦]، قال ابن قاسم: «وكل كمال ثبت للمحدث، فالواجب القديم أولى به، وكل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات، فإنه يجب نفيه عن الله بطريق الأولى؛ بل هو سبحانه المبرأ من كل عيب ونقص وآفة، له الكمال المطلق من جميع الوجوه، باتفاق النبوات»[٧]، فهذه القاعدة استنبطها العلماء بقياس الأولى[٨].

وكانت طريقة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الرب تعالى

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (١/ ١٧٠).

(٢) حاشية الدرة المضيئة (٣٣).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٧٤).

(٤) القياس التمثيلي هو: حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما، وهو قياس علماء الأصول: كقياس النبيذ على الخمر. انظر: الإحكام، للآمدي (١/ ٣٢٧)، وروضة الناظر، لابن قدامة (١/ ١٣٠).

(٥) القياس الشمولي هو: قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر: كقولنا العالم متغير، وكل متغير حادث، فإنه قول مركب من قضيتين، إذا سلمتا لزم عنهما لذاتهما العالم حادث، وهو قياس علماء المنطق. التعريفات، للجرجاني (١/ ٢٣٢).

(٦) القياس الأولى هو: كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه. مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٥٠).

(٧) حاشية الدرة المضية (٣٨- ٣٩).

(٨) للمزيد انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (١/ ١٢٩ - ١٣١)، فقد أجاد في شرحها رحمه الله.

بذكر آياته، وإن استعملوا في ذلك القياس استعملوا قياس الأولى، ولم يستعملوا قياس شمول يستوي أفراده، ولا قياس تمثيل محض، فان الرب تعالى لا مثل له، ولا يجتمع هو وغيره تحت كلي يستوي أفراده[(١)].

«إذاً: يمتنع القياس بين الله وبين الخلق للتباين بينهما، وإذا كان في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز أو الجائز على الواجب ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

لو قال لك قائل: الله موجود والإنسان موجود، ونقول: وجود الله كوجود الإنسان بالقياس، فنقول: لا يصح لأن وجود الخالق واجب ووجود الإنسان ممكن.

فلو قال: أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق، نقول: لا يمكن، سمع الخالق واجب، لا يعتريه نقص، وهو شامل لكل شيء، وسمع الإنسان ممكن، إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم، والمولود سميعاً يلحقه نقص السمع، وسمعه محدود، إذاً: لا يمكن أن يقاس الله بخلقه، فكل صفات الله لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه لظهور التباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق»[(٢)].

وهذا خلاف قياس الأولى، فكل ما ثبت بغيره من كمال لا نقص فيه، فثبوته له سبحانه بطريق الأولى، وما تنزه عنه غيره من النقائص فتنزهه عنه سبحانه بطريق الأولى، وقد قرر هذه المسألة ابن القيم، بقوله: «كل كمال ثبت للمخلوق غير مستلزم للنقص فخالقه ومعطيه إياه أحق بالاتصاف به، وكل نقص في المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه كالكذب والظلم والسفه، والعيب، بل يجب تنزيه الرب تعالى عن النقائص والعيوب مطلقاً، وإن لم يتنزه عنها بعض المخلوقين»[(٣)].

---

(١) الرد على المنطقيين، لابن تيمية (١/ ١٥٠)، انظر: درء التعارض، لابن تيمية(٧/ ١٥٤)، مجموع الفتاوى(٥/ ٢٠١).

(٢) شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين(١/ ١٢٩ - ١٣١).

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/ ٧٦).

المبحث الخامس
موقفه من أقوال أهل العلم

بين ابن قاسم ﷺ أن أقوال أهل العلم مع أهميتها يحتج لها بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، ولا يحتج بها على الأدلة الشرعية، وذلك بقوله: «أقوال أهل العلم يحتج لها بالأدلة الشرعية، لا يحتج بها على الأدلة الشرعية، وتذكر وتورد في المعارضات والالتباس، والعلم بها من أسباب الفهم عن الله ورسوله، فإنهم قصدوا تجريد المتابعة للرسول ﷺ، والوقوف مع سنته، ولم يلتفتوا إلى خلاف أحد، بل أنكروا على من خالف سنة رسول الله ﷺ كائناً من كان»[1].

---

(١) حاشية الروض المربع (١/ ١٥ -١٦).

المبحث السادس

موقفه من التعصب

حث ابن قاسم على وجوب اتباع الكتاب والسنة، وحذر من التعصب لغيرهما، فقال: «يتعين الاعتناء بالكتاب والسنة، فقد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، في غير موضع من كتابه، أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، واعتنوا بهما، ففيهما الهدى والنور، وحذر عن مخالفتهما، فعلى المتمسكين بالمذاهب أن يعتنوا بالشريعة المطهرة أكثر، ويعرضوا أقوال الأئمة عليها، ليعلموا بذلك مذاهب أئمتهم الحقة، وعليهم أن يرجعوا إلى الأدلة الشرعية التي اشتهر العمل بها بين علماء المسلمين، خلاف ما لهج به غالب المتأخرين من أتباع الأئمة، من اقتصارهم على الكتب الخالية من الدليل، وإعراضهم عن الكتاب والسنة، وعن نقل بعض ما صح عن أئمتهم، المطابق للكتاب والسنة، وكثير من الآراء التي يعتقدونها مذاهب لأئمتهم، بعضها مخالف لمذاهب أئمتهم، فضلاً عن الكتاب والسنة، وما عليه جمهور الأمة، وما كان كذلك ليس بمذهب لأحد من الأئمة، كما علم ذلك عنهم»(١).

كما أكد على التحذير من التعصب للمذاهب والمشايخ، ورفض كل الطرق إلا طريق رسول الله ﷺ، فقال: «التعصب إلى المذاهب والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، والدعوى إلى ذلك، والموالاة عليه من دعوى الجاهلية، بل كل من عدل عن الكتاب والسنة فهو من أهل الجاهلية، والواجب على المسلم أن يكون أصل قصده طاعة الله وطاعة رسوله، يدور على ذلك ويتبعه أينما وجده، ولا ينتصر لشخص انتصارًا مطلقاً إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عامًّا إلا لأصحابه؛ فإن الهدى يدور مع رسول الله ﷺ حيث دار ويدور مع أصحابه دون غيرهم»(٢).

---

(١) المصدر السابق(١/ ١٧).

(٢) المصدر السابق (١ / ١٩).

الفصل الثاني
جهوده في تقرير مسائل الإيمان
المبحث الأول
تعريف الإيمان لغة، واصطلاحاً

المطلب الأول: تعريف الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة: مصدر آمن يُؤمن إيماناً فهو مُؤمن، أي مصدق، وذكر ذلك كثير من علماء اللغة وغيرهم(١)، قال الله تعالى حكاية عن قول إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، معناه ما أنت بمصدق لنا.

وذهب بعض المحققين إلى أن الإيمان بمعنى الإقرار لا مجرد التصديق فقط، كما قال الإمام الطبري: «الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل»(٢)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد»(٣)، ولهذا القول أوجه كثيرة، أهمها:

إن كان الإيمان في اللغة هو التصديق، فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «**والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»(٤).

أنه لو فرض أن الإيمان في اللغة التصديق فمعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (١٥/ ٣٦٨)، لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٣).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارحِ دون الفرج، (٥/ ٢٣٠٤)، برقم (٥٨٨٩).

بكل شيء، بل بشيء مخصوص، وهو ما أخبر به الرسول، وحينئذ يكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة[(١)].

وبناء على هذا فإن الإيمان ليس مجرد تصديق فحسب، وإنما هو تصديق وإقرار؛ لأن الإقرار يشتمل على أمرين:

قول القلب، وهو التصديق بالأخبار.

عمل القلب، وهو: إذعانه وانقياده للأوامر[(٢)].

المطلب الثاني: تعريف الإيمان اصطلاحاً:

ذكر ابن قاسم تعريف الإيمان عند السلف، بقوله: «والإيمان الشرعي قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فدخل فيه جميع المأمورات، سواء كان من الواجبات أو المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات، سواء كان ذلك المنهي ينافي أصول الدين بالكلية أولاً.

فإن تعريفه المذكور يشمل ذلك، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرم من المحرمات إلا وهو من الإيمان»[(٣)].

وقال ﵀ في موضع آخر، إن الإيمان هو: «قول باللسان، واعتقاد بالجنان[(٤)]، وعمل بالأركان، فإن من لم يقر بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن، ومن أقر بلسانه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق وليس بمؤمن، ومن لم يعمل بالقلب والجوارح فليس بمؤمن.

---

(١) الإيمان لابن تيمية (١٠٥، ١٠١) بتصرف، فقد أبطل ابن تيمية قولهم بنحو ستة عشر وجها، يستحسن الرجوع إليها.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٠ -٥٣١)، الصلاة وحكم تاركها، لابن القيم (١/ ٦٢)، زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، لعبد الرزاق البدر (٣٣-٣٧).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٦٠).

(٤) الجنان: بالفتح القلب. انظر: لسان العرب (١٣/ ٩٣)، مختار الصحاح، للرازي (١/ ٤٨).

فمذهب السلف: أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، ويقولون: الإيمان قول وعمل ونية، وبعضهم يزيد: واتباع السنة»[١].

وكل هذه العبارات صحيحة في تعريف الإيمان، فالاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وجه الجمع بين هذه الأقوال بما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: «والمقصود هنا أن من قال من السلف الإيمان قول، وعمل: أراد قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر، أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال: قول، وعمل، ونية، قال القول يتناول الاعتقاد، وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية، فزاد ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولاً فقط، فقالوا: بل هو قول، وعمل، والذين جعلوه أربعة أقسام فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري[٢] عن الإيمان ما هو فقال: قول، وعمل، ونية، وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة»[٣].

وما ذكره ابن قاسم في تعريف الإيمان موافق لما قرره السلف من أن الإيمان هو: اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧١).

(٢) هو: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري الساكن بالبصرة، صاحب كرامات وآيات صحب ذا النون المصري، توفي سنة ٢٣٣هـ. انظر: الأنساب، للسمعاني (١/ ٤٦٥)، طبقات الصوفية، للأزدي (١/ ١٦٦)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠)، صفة الصفوة، لعبد الرحمن أبو الفرج (٤/ ٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧١).

بالعصيان[١]، وهذا قول علماء السلف قاطبة، ومنهم الأئمة الثلاثة: مالك، وأحمد، والشافعي، وغيرهم من العلماء كابن تيمية.

قال الإمام مالك: «الإيمان قول، وعمل»[٢].

قال الإمام أحمد: «الإيمان قول، وعمل، ونية، وتمسك بالسنة»[٣].

وقد حكى الإجماع الإمام الشافعي عن الصحابة والتابعين، وذلك بقوله: «وكان الإجماع من الصحابة، والتابعين بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان قول، وعمل، ونية، لا يجزي واحد من الثلاثة بالآخر»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمأثور عن الصحابة، وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو: مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول، وعمل، يزيد، وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»[٥].

(١) انظر: لمعة الاعتقاد، لابن قدامة (١/ ٢٣).
(٢) شرح اعتقاد أهل السنة، للالكائي (٤/ ٨٤٨).
(٣) رسالة السنة: (٦٧).
(٤) شرح اعتقاد أهل السنة (٥/ ٨٨٦-٨٨٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥).

المبحث الثاني

الفرق بين الإسلام والإيمان

اختلف السلف في هذه المسألة إلى ثلاثة أقوال:

الأول: القول بالترادف بينهما، وأنهما اسمان لمسمى واحد، وهذا الرأي قال به جماعة من السلف منهم الإمام البخاري كما ذكر ابن حجر في فتح الباري[١]، والإمام ابن مندة[٢] في كتابه الإيمان[٣]، والإمام محمد بن نصر المروزي[٤] [٥].

الثاني: التفريق بين مسمى الإسلام والإيمان وأنهما متغايران، وهذا قول جماعة من السلف منهم الزهري[٦]، وحماد بن زيد[٧]، ورواية عن أحمد، وقال بهذا

---

(١) فتح الباري (١/ ١١٤).

(٢) محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة، أبو عبد الله العبدي الأصبهاني، الحافظ الكبير، الجوال، صاحب التصانيف، إمام كبير، جال الأقطار وانتهى إليه علم الحديث بالأمصار، توفي٣٩٥هـ. انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (٦/ ٦٦)، العبر في خبر من غبر، للذهبي (٣/ ٦١)، طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (٢/ ١٦٧)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٨).

(٣) الإيمان (١/ ٣٢١).

(٤) محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، أبو عبد الله، أحد أئمة الإسلام، الفقيه، العابد، العالم، إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، ولد ببغداد سنة ٢٠٢هـ ونشأ بنيسابور، وتفقه بمصر على أصحاب الشافعي، وسكن سمرقند، إلى أن توفي بها سنة ٢٩٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٣)، شذرات الذهب، للعكري (٢/ ٢١٧).

(٥) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٩).

(٦) محمد بن مسلم بن عبد الله ابن شهاب الزهري، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، ولد سنة ٥٦ هـ وتوفي سنة ١٢٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٦)، الأعلام (٧/ ٩٧).

(٧) حماد بن زيد بن درهم الإمام الأزدي، مولاهم البصري، أحد الأعلام السنة، وحفظة الحديث، مات سنة ١٧٩هـ. انظر: الوافي بالوفيات، للصفدي (١٣/ ٩٠)، طبقات الحفاظ، للسيوطي (١/ ١٠٣).

القول جماعة من الصحابة والتابعيين منهم عبد الله بن عباس، والحسن، ومحمد بن سيرين[(١)(٢)].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ضعف هذين القولين السالفين، بقوله: «وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل وسائر أحاديث النبي...»[(٣)].

الثالث: وهو تحقيق مذهب السلف الذي تجتمع عليه نصوص الشارع في هذا الموضوع، وهو أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

فمتى ما اجتمعا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالاعتقادات الباطنة «الأعمال القلبية» كما في حديث جبريل ﷺ[(٤)].

ومتى افترقا شمل أحدهما الآخر، ودخل فيه، كما يدل عليه حديث وفد عبد القيس حيث فسر الإيمان بما فسر به الإسلام[(٥)]، وكما في حديث عمرو بن عبسة

---

(١) هو: محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري، ثقة، ثبت، عابد، كبير القدر، كان لا يرى الرواية بالمعنى، مات سنة ١١٠هـ. تقريب التهذيب، لابن حجر (١/ ٤٨٣)، انظر: التاريخ الكبير، للجعفي (١/ ٩٠).

(٢) انظر: أقوالهم في الإيمان لابن منده (١/ ٣١١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٧٥-٣٨٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٧)، برقم (٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس(١/ ٢٩)، برقم(٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/ ٤٧)، برقم(١٧)، ونصه: (إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: من القوم، أو من الوفد؟ قالوا: ربيعة، قال: مرحباً بالقوم، أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان...).

حيث فسر الإسلام بما فسر به الإيمان[(١)] [(٢)].

وهذا القول هو الذي تعضده الأدلة وتدل عليه، وبه تجتمع النصوص والأدلة، ورجحه جمع من أهل العلم المحققين، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)]، وابن رجب[(٤)]، وغيرهم من أهل العلم[(٥)].

والذي رجحه ابن قاسم ونصره هو القول الثالث، وهو أنه إذا أُطلق الإيمان دخل فيه الإسلام وإذا أُطلق الإسلام يدخل فيه الإيمان، وإذا قُرنا فُسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة، حيث يقول: «ويفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة إذا اقترنا، وإذا افترقا فسر كل منهما بالآخر»[(٦)]، وقال أيضاً: «إذا أفرد الإيمان دخل فيه الإسلام، وإذا قرنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة»[(٧)].

وتقرير ابن قاسم في هذه المسألة هو الراجح والله أعلم؛ لما فيه من الجمع بين

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١١٤)، برقم (١٧٠٦٨)، وعبد الرزاق في مصنفه، باب الإيمان والإسلام (١١/ ١٢٧)، برقم (٢٠١٠٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٩)، (٣/ ٢٠٧)، وقال: رواه احمد رجاله ثقات.

(٢) للاستزادة لمعرفة الأدلة راجع كلام ابن رجب النفيس في كتابه جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨، ٢٩)، ونصه: قال: قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «أن يسلم قلبك لله ﷻ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان»، قال: وما الإيمان ؟ قال: «تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت»، قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: «الهجرة»، قال: فما الهجرة؟ قال: «تهجر السوء»، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد»، قال: وما الجهاد؟ قال: «أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم...».

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٢، ٥٥٣).

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٢٩).

(٥) للاستزادة ومعرفة أدلة كل فريق انظر: الإيمان لابن منده (١/ ٣١١-٣٢٦)، التمهيد، لابن عبد البر (٩/ ٢٤٧-٢٥٠).

(٦) حاشية الروض المربع (٣/ ٨٦).

(٧) حاشية الدرة المضية (٧١).

النصوص والأدلة، وهو: أنه إذا اجتمعا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة، وإذا أفرد الإيمان دخل فيه الإسلام.

وبهذا التفصيل الذي ذكرناه «يزول الاختلاف، فيقال: إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر، فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق، والتحقيق في الفرق بينهما: أن الإيمان هو: تصديق القلب، وإقراره، ومعرفته.

والإسلام هو: استسلام العبد لله، وخضوعه، وانقياده له، وذلك يكون بالعمل، وهو الدين كما سمى الله في كتابه الإسلام دينًا وفي حديث جبريل سمى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ديناً، وهذا أيضاً مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث قرن أحد الاسمين بالآخر فيكون حينئذ المراد بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل»(١).

* العلاقة بين الإيمان والإسلام:

الإيمان أعم من الإسلام من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، فدائرة الإيمان أعم من دائرة الإسلام، ودائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، ومرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام، ومرتبة الإسلام أدنى من مرتبة الإيمان.

وابن قاسم بين هذه العلاقة بين الإسلام والإيمان، والفرق بينهما، وأن الإيمان أعم من مرتبة الإسلام، وذلك بقوله: «وهي أعم من مرتبة الإسلام من جهة نفسها، وأخص من جهة أصحابها، وأهله هم خواص أهل الإسلام، وأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان، بخلاف العكس، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، فإن من حكمت له النصوص أنه مؤمن فإنه مسلم على كل حال فإن الإيمان وصف أعلى من وصف الإسلام. لأنه مشتق من الأمن فهو من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه، ويكون خفية؛ والإسلام من الأمور

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٢٨، ٢٩).

المدركة المحسوسة في الظاهر مشتق من التسليم أو المسالمة»[١].

وقال أيضاً: «وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في الإسلام، وكل خصلة من خصال الإسلام داخلة في الإيمان. فما كان من الأعمال الباطنة فوصف الإيمان عليه أغلب من وصف الإسلام، وما كان من الأعمال البدنية الظاهرة، كالشهادتين، والصلاة، وأنواع العبادات التي تظهر، ويطلع عليها الناس، فوصف الإسلام عليها أغلب من وصف الإيمان، فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان كما أن دائرة الإيمان أوسع من دائرة الإحسان»[٢].

* **الإحسان وعلاقته بالإيمان والإسلام:**

يحسن بي أن أذيل هذا المطلب بكلام نفيس ومختصر لابن قاسم حول الإحسان وعلاقته بالإسلام والإيمان وذلك بقوله: «المرتبة الثالثة من مراتب الدين وهي الإحسان، والإحسان نهاية الإخلاص. والإخلاص هو: إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن، بحيث يكون قائماً به في الباطن والظاهر على أكمل الوجوه، وهذا هو الإحسان، ولذا يفسر بالإخلاص[٣]، واشتقاقه من الحسن نهاية الإخلاص الناشئ عن حقيقة الاستحضار، ومن حيث الظاهر كمال المتابع، وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، فإنه من اتصف بذلك فإنه أكمل العمل في الظاهر والباطن.

فالإحسان أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسها وأخصها من جهة أصحابها، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه.

ولهذا يقال كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، وكل ما

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٦٠).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٤٨) انظر للمزيد: مجموع الفتاوى (٧/ ١٠)، وشرح العقيدة الطحاوية، لأبي ابن العز (١/ ٣٩٠).

(٣) قال الشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله: الإخلاص لا يختص بالإحسان، بل لا بد منه في جميع الأعمال القلبية والجوارحية، ولكن الإحسان هو الإتيان بالعمل على أكمل وجه.

أطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام.

فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام، ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، كدوائر كل واحدة منها محيطة بالأخرى.

ومعلوم أن من كان في دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام والإيمان، وإذا خرج من الأولى فهو داخل في الثانية، وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثالثة وهي دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان والعياذ بالله.

فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من قال: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً فلا يلزم من دخوله في الإسلام أن يكون داخلا في الإحسان والإيمان، وليس المراد أن من لم يكن في الإحسان والإيمان أن يكون كافراً، بل يكون مسلماً ومعه من الإيمان ما يصحح إسلامه، لكن لا يكون مؤمناً الإيمان الكامل الذي يستحق أن يثنى عليه به، فإنه لو كان مؤمناً الإيمان الكامل لمنعه من المعاصي والمحرمات.

وقيل: للنبي ﷺ أعطيتهم وتركت فلاناً وهو مؤمن...، فقال: «أو مسلم»[(١)]، وقال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»**[(٢)]، الحديث... وقال: **«والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»**[(٣)]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من قال إن الإيمان هو العمل (١/ ١٨) رقم (٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع (١/ ١٣٢)، برقم (١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه (٢/ ٨٧٥)، برقم (٢٣٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بِالمعاصِي ونفيه عن المتلبِس بِالمعصِية على إرادة نفي كماله (١/ ٧٦)، برقم (٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٥/ ٢٢٤٠)، برقم (٥٦٧٠).

فالنصوص ما نفت عنهم الإسلام بل أثبتت لهم أحكام الإسلام من عصمة الدم، وإذا ماتوا غسلوا: كفنوا وصلي عليهم.

فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، فإن أهل الإحسان كملوا عبادة الله إلى أن وصلوا إلى حد المراقبة»[١].

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٦٥-٦٦)، انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ١٠)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٩٠).

المبحث الثالث

مسألة زيادة الإيمان ونقصانه

من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص، وزيادته تكون بالطاعة، ونقصانه يكون بالمعصية.

وقد اتبع ابن قاسم أهل السنة والجماعة في تقرير هذه المسألة، وهو أن الإيمان يزيد وينقص، واستدل على هذا بالأدلة الشرعية، وذلك بقوله: «مذهب السلف: أن الإيمان تزيده التقوى، أي العمل الصالح، وينقص بارتكاب الزلل، أي: المعاصي؛ فيعبر السلف من الصحابة وغيرهم: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويتفاضل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]»[١]، وهذه الآيات نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد، ومفهومها أنه ينقص أيضاً كما استدل بها البخاري[٢] ﷫ على ذلك[٣].

ومن الأدلة على ذلك:

قوله ﷺ في النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»[٤].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧١)، انظر: حاشية كتاب التوحيد (٢٤٩).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه وقول الله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص (١/ ٢٤).

(٣) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي(٣/ ٢١٤)، تفسير القرطبي(٤/ ٢٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (١/ ١١٦)، برقم (٢٩٨).

شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير...»[(١)].

ففي الآيات إثبات زيادة الإيمان، وفي الأحاديث إثبات نقصانه.

ولأن «كل نص يدل على زيادة الإيمان فإنه يتضمن الدلالة على نقصه وبالعكس، لأن الزيادة والنقص متلازمان لا يعقل أحدهما بدون الآخر»[(٢)].

وأجمع على هذا سلف الأمة، قال الإمام البخاري رحمه الله: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[(٣)].

ولزيادة الإيمان أسباب، لأهميتها نذكر أهمها:

١. معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، فإن العبد كلما ازداد معرفة بها وبمقتضياتها، وآثارها ازداد إيماناً بربه وحباً له وتعظيماً.

٢. التأمل في آيات الله الكونية والشرعية، فإن العبد كلما نظر فيها وتأمل ما اشتملت عليه من القدرة الباهرة، والحكمة البالغة ازداد إيماناً ويقيناً بلا ريب.

٣. فعل الطاعة، فإن الإيمان يزداد به بحسب حسن العمل وجنسه وكثرته، فكلما كان العمل أحسن كانت زيادة الإيمان به أعظم، وحسن العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة. وأما جنس العمل فإن الواجب أفضل من المسنون، وبعض الطاعات أوكد وأفضل من البعض الآخر، وكلما كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم، وأما كثرة العمل فإن الإيمان يزداد بها؛ لأن العمل من الإيمان، فلا جرم أن يزيد بزيادته.

٤. ترك المعصية خوفاً من الله عز وجل، وكلما قوي الداعي إلى فعل المعصية كانت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/ ٢٤)، برقم (٤٤).

(٢) فتح رب البرية بتلخيص الحموية، لابن عثيمين (٦٣).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٧٣-١٧٤) بتصرف.

زيادة الإيمان بتركها أعظم؛ لأن تركها مع قوة الداعي إليها دليل على قوة إيمان العبد وتقديمه ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه[١].

وأما نقص الإيمان فله أسباب، أهمها:

١. الجهل بالله تعالى، وأسمائه وصفاته.

٢. الغفلة والإعراض عن النظر في آيات الله وأحكامه الكونية والشرعية؛ فإن ذلك يوجب مرض القلب، أو موته، باستيلاء الشهوات والشبهات عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

٣. «فعل المعصية: فينقص الإيمان بحسب جنسها، وقدرها، والتهاون بها وقوة الداعي إليها، أو ضعفه، فأما جنسها وقدرها فإن نقص الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر، ونقص الإيمان بقتل النفس المحرمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم، ونقصه بمعصيتين أكثر من نقصه بمعصية واحدة وهكذا.

وأما التهاون بها فإن المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه ضعيف الخوف منه كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلب معظم لله تعالى شديد الخوف منه لكن فرطت منه المعصية.

وأما قوة الداعي إليها فإن المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها؛ ولذلك كان استكبار الفقير، وزنى الشيخ أعظم إثماً من استكبار الغني، وزنى الشاب كما في الحديث: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**» وذكر منهم الأشمط؟ الزاني والعائل المستكبر لقلة داعي تلك

---

(١) انظر: زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه (١٨٣-٢٤٧)، الإيمان أركانه، حقيقته، ونواقضه، لابن ياسين (١٤٤-١٤٥).

المعصية فيهما[(١)]»[(٢)].

٤. ترك الطاعة فإن الإيمان ينقص بها، والنقص بها، على حسب تأكد الطاعة، فكلما كانت الطاعة أوكد كان نقص الإيمان بتركها أعظم، وربما فقد الإيمان كله كترك الصلاة.

ثم إن نقص الإيمان بترك الطاعة على نوعين:

أ- نوع يعاقب عليه، وهو ترك الواجب بلا عذر.

ب- ونوع لا يعاقب عليه، وهو ترك الواجب لعذر شرعي، أو حسي، وترك المستحب، فالأول كترك المرأة الصلاة أيام الحيض، والثاني كترك صلاة الضحى، والله أعلم[(٣)].

---

(١) إشارة إلى حديث مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، (١/ ١٠٢)، برقم(١٠٧) ونصه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يكلِمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم» قال أبو معاوية: «ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أَلِيم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائِل مستكبِر».

(٢) فتح رب البرية (٦٥).

(٣) انظر: زيادة الإيمان ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه. (٢٤٨-٢٧٦).

المبحث الرابع
مسألة الاستثناء في الإيمان

معنى الاستثناء في الإيمان هو أن يقول المرء مجيباً لمن سأله: أمؤمن أنت؟ أنا مؤمن إن شاء الله، ونحوها من العبارات التي تشعر بعدم القطع(١).

وترتبط هذه المسألة بمسألة زيادة الإيمان ونقصانه ارتباطًا وثيقاً؛ لأنه إذا كان الإيمان يزيد وينقص فيجوز للإنسان أن يستثني في إيمانه؛ لأنه لا يجزم بإتيانه بالإيمان المطلق؛ لأن الإيمان شعب متعددة(٢)، من الأعمال والواجبات، فلا يجزم الإنسان بأنه أدى ما عليه، بل يتهم نفسه ولا يزكيها، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لا من أصل الإيمان، فهذا لا يجوز الاستثناء فيه، بخلاف من يرى أن الإيمان شيء واحد، هو التصديق بالقلب، لا يزيد ولا ينقص، فلا يستثنون كالمرجئة، وإذا قلت: أنا مؤمن إن شاء الله؛ يقولون: هل تشك في إيمانك؟ ويسمون أهل السنة الشكاكة.

ومجمل ما ذكره ابن قاسم أنه يرى جواز الاستثناء في الإيمان باعتبار كماله، هو على أحد وجهين:

الأول: البعد عن تزكية النفس التي نهى الله عنها قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

الثاني: أنه ما من مسلم يقول إنه فعل جميع الواجبات وترك جميع المحذورات وإن فعلها قد لا تكون على الوجه اللائق بجلال الله.

أما إن كان الاستثناء عن شك من المرء في إيمانه، فإن ابن قاسم يرى عدم جواز الاستثناء بهذا الاعتبار، وقد قرر هذا بقوله: «فنحن معشر السلف يقول أحدنا: أنا

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٩).
(٢) انظر: حاشية ثلاثة الأصول (٦١).

مؤمن إن شاء الله، من غير شك منا في ذلك؛ بل للتقصير في بعض خصال الإيمان، والشك: التردد بين أمرين، لا مزية لأحدهما على الآخر...قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كان السلف يستثنون في الإيمان؛ لأن الإيمان يتضمن فعل جميع الواجبات، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك، كما لا يشهدون لهم بالبر والتقوى، فإن ذلك مما لا يعلمونه، وهو تزكية لأنفسهم»(١).

وبهذا بين ابن قاسم أن مذهب السلف - رضوان الله عليهم - جوازه باعتبار، ومنعه باعتبار، وتفصيل ذلك أنه يجوز الاستثناء؛ لأن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذا الحال، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة، فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذا الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون(٢).

ومنع السلف الاستثناء باعتبار الشك في أصل الإيمان من حيث الحكم والاسم؛ لأن من شك في أصل إيمانه فإنه لا يكون مؤمناً، وبهذا التفريق يتضح منهج السلف، ودقة عباراتهم.

ومما يزيد مأخذ السلف قوة وقبولاً في صحة الاستثناء في الإيمان قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح٢٧]، فالله استثنى وهو لا يشك ﷻ،

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى(٧/ ٤٤٦).

وقوله ﷺ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[(١)]، دلت هذه النصوص على أن الاستثناء يكون على اليقين ولا يقتضي شكا ولا ريباً.

وما قرره ابن قاسم في هذه المسألة موافق لما قرره السلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما الاستثناء في الإيمان بقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس فيه على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين، وهذا أصح الأقوال»[(٢)].

وكره السلف للإنسان أن يسأل غيره أمؤمن أنت؟ دون أن يترتب على ذلك فائدة شرعية، واعتبروا أن ذلك بدعة، فقد روى عن إبراهيم النخعي[(٣)]، قال: سؤال الرجل الرجل أمؤمن أنت بدعة[(٤)]، وسأله رجل أمؤمن أنت؟ فقال: ما أشك في إيماني، وسؤالك إياي عن هذا بدعة[(٥)]، وروى عبد الله بن أحمد أنه قيل لسفيان: رجل يقول: مؤمن أنت؟ قال سفيان: ما أشك في إيماني، وسؤالك إياي بدعة، ما أدري ما أنا عند الله ﷻ شقي، أو مقبول العمل أو لا[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (٢/ ٧٨١)، برقم (١١١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٢٩).

(٣) هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي، ويكنى أبا عمران، فقيه العراق، وتوفي سنة ٩٦هـ وله تسع وأربعون سنة على الصحيح. انظر: الوافي بالوفيات (٦/ ١٠٨)، الطبقات الكبرى، لابن سعد الزهري (٦/ ٢٧٠).

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١/ ٣٢١).

(٥) المصدر السابق (١/ ٣٣٩).

(٦) المصدر السابق (١/ ٣٤٦).

المبحث الخامس

حكم مرتكب الكبيرة، وفيه ستة مطالب

المطلب الأول: تعريف الكبيرة لغة واصطلاحاً، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الكبيرة في اللغة:

الكبيرة ضد الصغيرة، قال ابن فارس: «الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر»[1].

والكبيرة الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً العظيم أمرها كالقتْل والزنا والفرار من الزحف وغير ذلك وهي من الصِّفات الغالِبة وجَمْعُها الكبائر[2].

المسألة الثانية: الكبيرة اصطلاحاً:

عرف ابن قاسم الكبيرة اصطلاحاً، بقوله: «الكبيرة: كل معصية فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو لعن، أو غضب، أو عذاب، ومن برئ منه الرسول ﷺ أو قال: ليس منا»[3].

و ما ذكره ابن قاسم في بيان ضابط الكبيرة هو اختيار جمع من المحققين من أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن أبي العز [4].

وسبب اختيار ابن قاسم لهذا الضابط في حد الكبيرة، أوجه متعددة: «

أحدها: أنه المأثور عن السلف.

الثاني: أن الله قال ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ

---

(١) معجم مقاييس اللغة(٥/ ١٥٣).

(٢) تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ١١)، انظر: لسان العرب (٥/ ١٢٩).

(٣) حاشية الدرة المضية (٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى(١١/ ٦٥٠ -٦٥٥)، مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٣٢٨)، الكبائر، للذهبي(١/ ٨)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤١٨).

وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات، واستحقاق الوعد الكريم، وكل من وعد بغضب الله، أو لعنته، أو نار، أو حرمان جنة، أو ما يقتضي ذلك، فإنه خارج عن هذا الوعد، فلا يكون من مجتنبي الكبائر، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر؛ إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه...

الثالث: أن هذا الضابط يمكن التفريق به بين الكبائر والصغائر»[(١)].

المطلب الثاني: حكم مرتكب الكبيرة:

مذهب أهل السنة والجماعة وسط بين الفرق في حكم مرتكب الكبيرة، حيث قالوا: لا يخرج المؤمن من الإيمان بالمعاصي والذنوب، سواء كانت كبائر أو صغائر، ما دامت دون الشرك، وحكمه في الدنيا أنه مسلم ناقص الإيمان، ولا يعطى وصف الإيمان المطلق، فهو في دائرة الإسلام لا يخرج منها إلا بكفر، وحكمه في الآخرة تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه، خلافاً للخوارج[(٢)]، والمعتزلة[(٣)]، وخلافاً

---

(١) مجموع الفتاوى(١١/ ٦٥٤-٦٥٥) باختصار، وتصرف يسير.

(٢) الخوارج: طائفة من أهل البدع، حذر النبي ﷺ من فتنتهم وأمر بقتلهم، وأخبر بمروقهم من الإسلام، خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فقاتلهم، وقتل كبيرهم ذا الثدية، وهم فرق شتى، يكفر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضا، ويجمعهم القول بإكفار عثمان وعلي والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضي بالتحكيم، والإكفار بارتكاب الكبائر، ووجوب الخروج على الإمام الجائر.انظر: التنبيه والرد، للملطي (١/ ٤٧)، وما بعدها، مقالات الإسلاميين، للأشعري (١/ ٨٦)، الفرق بين الفرق، للبغدادي (١/ ٥٤-٥٥)، الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١١٤).

(٣) المعتزلة من الفرق الكلامية، العقلانية، المنتسبة للإسلام، وسلكت منهجاً عقلياً متطرفًا في بحث العقائد الإسلامية، وظهرت في أوائل القرن الثاني، وكان منشأها على يد واصل بن عطاء حينما اعتزل مجلس الحسن البصري ويجمعهم القول بالأصول الخمسة، وهي: التوحيد، والعدل، =

للمرجئة[١]، قال الشيخ ابن قاسم ﷺ: «وأي امرئ مذنب يدركه الموت وهو مصر على ذنوبه، لم يتب من الخطأ الذي ارتكبه، لم نحكم عليه بالكفر بارتكابه الذنوب، كما زعمت الخوارج، ونقول: أمره الذي يؤول إليه مفوض وموكول لصاحب الكرم والجود، فإنه ﷻ إن شاء عفا وتجاوز عنه، وعامله بفضله، وإن شاء عامله بالعدل وانتقم منه، ولا يخلد في النار إلا من مات على الشرك»[٢]، وقال: أيضاً: «لا يخرج الإنسان من دائرة الإيمان بمهلكات الذنب والعصيان، دون الشرك بالله والكفر بأي نوع من أنواع المكفرات، فإن ذلك يخرجه من الدين، لا مطلق المعاصي والكبائر، ولا يسلب المرء اسم مطلق الإيمان بذلك، كما أنه لا يعطى اسمه المطلق، بل يقال مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته»[٣].

وبهذا يتضح تقرير ابن قاسم لهذه المسالة، وأن العاصي لا يخرج من الإيمان لمجرد المعصية، بل هو تحت المشيئة، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه في النار، لكنه لا يخلد فيها، كما تقول الخوارج والمعتزلة والمعاصي تنقص الإيمان ويستحق صاحبها دخول النار إلا أن يعفو الله عنه، ومرتكب الكبيرة يكون فاسقاً

= والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. انظر: الملل والنحل (١/ ٤٣)، الفرق بين الفرق (١/ ٩٦)

(١) فمذهب الخوارج والمعتزلة في حكم مرتكب الكبيرة من المسلمين مذهب متشدد واخذوا بطرف الوعيد، حيث حكموا عليه بالخروج من الإسلام، ثم قالت المعتزلة: إنه ليس بمسلم ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين، وقال الخوارج: إنه كافر، واتفقوا على أنه إذا مات على تلك الحال أنه خالد مخلد في النار.

وقابلتهم المرجئة، وكذلك الجهمية، فتساهلوا في حكم مرتكب الكبيرة، وأفرطوا في التساهل معه، واخذوا بطرف الوعد، فقالوا: لا يضر مع الإيمان معصية؛ لأن الإيمان عندهم هو تصديق القلب فقط، أو مع نطق اللسان على خلاف بينهم، ولا تدخل فيه الأعمال، فلا يزيد بالطاعة، ولا ينقص بالمعصية، فالمعاصي لا تنقص الإيمان، ولا يستحق صاحبها النار إذا لم يستحلها. انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٥٦)، الملل والنحل(١/ ١٣٩)، مقالات الإسلاميين(١/ ٨٧ و١٣٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٦٦).

(٣) المصدر السابق (٦٥).

ناقص الإيمان، لا كما تقول المرجئة إنه كامل الإيمان، وكذلك لا يعطى له وصف الإيمان المطلق؛ لأنها سلبته من كمال الإيمان المطلق الذي لا يعطى إلا لمن فعل المأمورات واجتنب المنهيات، ولو أن معه مطلق الإيمان فهو في دائرة الإسلام، ولا يخرج منها إلا بإتيانه بأي نوع من المكفرات وأعظمها الشرك بالله، ويدل عليه، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقد علق ابن قاسم على هذه الآية، بقوله: «أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، أي عادل غيره به فيما يختص به سبحانه، وصارف خالص حقه لغيره، ومشبه المخلوق العاجز بمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وإذا كان من مات على الشرك لا يغفر له، وجب على العبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله، ومع كونه أعظم الذنوب عند الله سبحانه، ولا يغفر لمن لقيه به فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين... ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: يغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده.

فتبين بهذه الآية ونحوها أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وأما ما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة، إن شاء غفر لمن لقيه به، وإن شاء عذبه، ولا يجوز أن يحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ على التائب؛ فإن التائب من الشرك مغفور له بنص القرآن، وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بتخليد أصحاب الكبائر في النار»[(١)].

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٤٨-٤٩) بتصرف يسير.

المطلب الثالث: فسوق المسلم بالإصرار على الصغيرة:

بين الشيخ ابن قاسم رحمه الله متى يفسق[١] المسلم فقال: «يفسق بإتيانه الكبيرة، كذلك يفسق إذا أصر على الصغيرة، يقال أصر على الشيء إذا لزمه وداوم عليه، ومن أتبعه بالاستغفار فليس بمصر، وإن تكرر منه، وفي الحديث: **«ما أصر من استغفر»**[٢]، **ومن أصر فإنه يفسق حتى بالصغيرة، لأن الإصرار يصير الصغيرة في حكم الكبيرة**»[٣].

و بهذا أوضح ابن قاسم أن المسلم يفسق بالكبيرة، وبإصراره على الصغيرة، وهي ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة[٤]، والإصرار هو الإقامة على الذنب مع عدم الاستغفار، والندم عليها[٥].

وحذرَ كل الحذر من الإصرار على الصغيرة والمداومة عليها؛ **لأن ذلك يحولها إلى كبيرة**[٦]، وذلك بسبب استحقارها، والاستهانة بها، حتى تجتمع عليه فتهلكه، كما روى عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها»**[٧]، قال ابن عباس

---

(١) تعريف الفسق: قال ابن قاسم رحمه الله: «الفسوق: الخروج عن الاستقامة والجور، وسمي الفاسق فاسقاً لخروجه عن أمر الله» حاشية الدرة المضية (٦٤)، انظر: المفردات في غريب القرآن، لأبي قاسم (١/ ٣٨٠)، المطلع على أبواب المقنع، لمحمد البعلي (١/ ٥١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٨٤)، وأبي بكر في مسند ه، (١/ ١٨٧)، برقم (١٢٢)، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (١/ ١١٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (٦٤-٦٥).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤١٨)، انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠).

(٥) انظر: عون المعبود، لآبادي (٤/ ٢٦٥).

(٦) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٦٧).

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٠٢)، برقم (٣٨١٨)، والطبراني في معجمه الأوسط، (٣/ ٧٤)، برقم =

رضي الله عنهما: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»(١).

قال ابن القيم مبيناً سرّ خطورة الإصرار على الصغيرة، : «وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره»(٢).

وقال أيضاً: «والمسلم يجب أن لا يأمن مكر الله، وأن يبادر بالتوبة، والاستغفار، متى ما وقع منه ذنب، أو خطيئة؛ ولأن الإصرار من دون استغفار يتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه، وانتهاك حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب، قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمه»(٣).

ويجب على المسلم الخشية، والحذر من ذنوبه، حتى كأنها جبل يخشى أن يقع عليه، كما صوره لنا النبي ﷺ بقوله: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا**»(٤).

المطلب الرابع: حكم التوبة من الكبيرة:

التوبة من المعصية واجبة على كل مسلم، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة على وجوب التوبة من جميع الذنوب، إن كان ترك واجباً فبفعله، وإن كان فعل محرماً فبتركه، قال الشيخ ابن قاسم رحمه الله: «اتفق العلماء على أن التوبة واجبة من كل معصية على الفور، وأن من تاب توبة نصوحاً تاب الله عليه وبدل سيئاته حسنات،

=

(٢٥٢٩)، أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٩) فقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦/ ١٠٤٠)، برقم (١٩١٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٢٨)، انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٦٧).

(٣) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم (١/ ٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التوبة (٥/ ٢٣٢٤)، برقم (٥٩٤٩).

كما أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ»[١].

ويدل على وجوبها قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

وقد جاءت الأحاديث الحاثة على التوبة، ومغفرة الله للتائب، منها ما رواه ابن ماجه رحمه الله أن الرسول محمدًا ﷺ قال: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٢].

وفي قصة المرأة من جهينة لما زنت، وحملت، ووضعت، ثم شُدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرُجمت ثم صلى عليها النبي ﷺ، فقال عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: «**لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجَدْت أفضل من أن جادت بنفسها لله ﷻ**»[٣].

وبهذا يعلمُ المذنب أنّ الخالق غفور رحيم، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، وأنه مهما أسرف في الذنوب ثم تاب منها فإنّ الله يغفرها جميعًا، لقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والله سبحانه يقبل توبة العبد بفضله وكرمه سبحانه، قال ابن قاسم رحمه الله: «ويقبل الله بخالص الفضل والكرم من كل عبد مذنب تاب إليه توبة نصوحاً غير

---

(١) حاشية الدرة المضية (٦٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٢/ ١٤١٩)، برقم (٤٢٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير(١٠/ ١٥٠)، برقم (١٠٢٨١)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٢٢)، رقم (٣١٤٥) : حسن لغيره.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (٣/ ١٣٢٤)، برقم (١٦٩٦).

كافر بالله ورسوله منفصل عن الدين، أما بردة، أو كفر أصلي، فلا تقبل توبته من الذنوب، ما لم يتب من كفره، فيشهد الشهادتين ويتصف من بعد رجوعه عن الكفر بضده، أي: الإسلام، فإن كان مرتداً بإنكار ما علم من الدين بالضرورة فيرجع عن إنكار ذلك، ويقر ويذعن، وإن كان شركاً، فلا يقبل منه ما لم يرجع عن شركه الذي كان متصفاً به، وصده، أي: إعراضه عن الدين وانقياده للشريعة»[١].

المطلب الخامس: شروط التوبة:

للتوبة ثلاثة شروط، ويضاف شرط رابع إذا كان الأمر يتعلق بحق آدمي، هذا ما ذكره ابن قاسم بعد ما بين وجوب التوبة من الذنب، فقال: «واجب على المذنب وجوب لزوم لا بد منه أن يتوب، أي: يرجع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم على أن لا يعود إليه، وإن تعلق بآدمي بأن يرضيه»[٢].

وبهذا يعلم من كلام ابن قاسم أن للتوبة الصادقة التي وعد الله بقبولها شروطاً، لا تصح. ولا تقبل. إلا بها، وتفصيلها كالآتي:

١. الإقلاع عن المعصية أي: تركها فيجب على فاعل المعصية تركها لتُقبل توبته، أما قول: أستغفر الله. وهو ما زال على معصيته فهذا ليس بتوبة.

٢. العزم على أن لا يعود لمثلها أي أن يعزم في قلبه على أن لا يعود لمثل المعصية التي يريد أن يتوب منها.

٣. والندم على ما صدر منه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة»[٣].

٤. وإن كانت المعصية تتعلق بحق إنسان كانتهاك عرضه، أو أكل ماله ظلمًا،

---

(١) حاشية الدرة المضية (٦٦).

(٢) المصدر السابق (٦٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد باب ذكر التوبة، (٢/ ١٤٢٠)، برقم(٤٢٥٢)، وأحمد مسنده، (١/ ٣٧٦)، برقم (٣٥٦٨)، وصححه الحاكم في مستدركه في كتاب التوبة والإنابة، (٤/ ٢٧١)، برقم(٧٦١٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٢٣)، برقم (٣١٤٧): صحيح لغيره.

فلا بدّ من الخروج من هذه المظلمة إما برد المال أو استرضاء المظلوم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أَن لا يَكون دينارٌ ولا دِرهم**»(١).

المطلب السادس: أسباب سقوط العقوبة:

تسقط عقوبة الذنب عن العاصي بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة، وقد ذكر ابن قاسم بعضها، وبين أن الذنوب تسقط بالتوبة، وبغير التوبة بالحسنات الماحية، والعقوبات والمصائب التي تصيب العبد في الدنيا، ودعاء المسلمين له، وغيره، فقال ﷺ: «إن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، وهو إجماع في الجملة، لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(٢)، ولذلك لا يجوز إطلاق الوعيد على شخص عرف بفعل ذنوب توعد الشرع عليها بوعيد لذلك؛ ولأنها تكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً»(٣).

وقال أيضاً: «وللذنوب أسباب أيضاً تسقط العقوبة غير التوبة، منها الحسنات الماحية، والعقوبات، والمصائب وغير ذلك»(٤).

وما ذكره ابن قاسم موافق لما قرره السلف، وقد فصل في هذه المسألة شيخ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له... (٢/ ٨٦٥)، برقم (٢٣١٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه سننه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، (٢/ ١٤٢٠)، برقم (٤٢٥٣)، أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢)، برقم (٦١٦٠)، ابن حبان في صحيحه، في كتاب الرقائق، باب التوبة، ذكر تفضل الله جل وعلا على التائب بقبول توبته (٢/ ٣٩٤)، برقم (٦٢٨)، وحسنه الترمذي في سننه، في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في فضل التوبة والاستغفار (٥/ ٥٤٧)، برقم (٣٥٣٧).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٣١-٢٣٢).

(٤) حاشية الدرة المضية (٦٦).

الإسلام ابن تيمية، بقوله: «فإن الذنوب مطلقاً من جميع المؤمنين هي سبب العذاب؛ لكن العقوبة بها في الآخرة في جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب:

السبب الأول: التوبة، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب الكفر والفسوق والعصيان قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

السبب الثاني: الاستغفار فإن الاستغفار هو: طلب المغفرة وهو من جنس الدعاء والسؤال وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به.

السبب الثالث: الأعمال الصالحة؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

السبب الرابع: الدعاء للمؤمنين؛ فإن صلاة المسلمين على الميت، ودعاءهم له من أسباب المغفرة وكذلك دعاؤهم واستغفارهم في غير صلاة الجنازة.

السبب الخامس: دعاء النبي ﷺ، واستغفاره في حياته، وبعد مماته، كشفاعته يوم القيامة.

السبب السادس: ما يفعل بعد الموت من عمل صالح يهدي له، مثل من يتصدق عنه ويحج عنه ويصوم عنه، فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن ذلك يصل إلى الميت وينفعه، وهذا غير دعاء ولده؛ فإن ذلك من عمله قال النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**» رواه مسلم[1]، فولده من كسبه، ودعاؤه محسوب من عمله؛ بخلاف دعاء غير الولد فإنه ليس محسوباً من عمله، والله ينفعه به.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/ ١٢٥٥)، برقم (١٦٣١).

السبب السابع: المصائب الدنيوية التي يكفر الله بها الخطايا، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[١].

السبب الثامن: ما يبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة وفتنة الملكين.

السبب التاسع: ما يحصل له في الآخرة من كرب أهوال يوم القيامة.

السبب العاشر: ما ثبت في الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا، ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة[٢]»[٣].

السبب الحادي عشر: العقاب في الدنيا فهو كفارة عن صاحبها، قال ﷺ: «**أنه من عوقب في الدنيا فهو كفارة له**»، وقوله ﷺ: «**من أصاب حدًّا فعجل الله له عقوبته في الدنيا**»[٤].

***

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (٥/ ٢١٣٧)، برقم (٥٣١٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قصاص المظالم (٢/ ٨٦١)، برقم (٢٣٠٨).

(٣) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٠٥-٢٣٨)، انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٦٧-٣٧١).

(٤) رواه الترمذي (٢٨٣٥).

الفصل الثالث

جهوده في بيان أنواع التوحيد

التمهيد

تعريف التوحيد لغة واصطلاحاً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف التوحيد لغة:

التوحيد لغة: أصل مادة من (وَحَدَ)، وتدور معاني هذه المادة على الانفراد والاختصاص[١].

وقد بين ابن قاسم ذلك بقوله: «والتوحيد: مصدر وحده يوحده توحيداً، جعله واحداً: أي فردًا وحده»[٢].

وقال أيضاً: «فهو في الأصل من: وحده توحيداً، جعله واحداً، أي: فرداً، ووحده، قال: إنه واحد أحد، وقال: لا إله إلا الله، والواحد الأحد وصف اسم الباري لاختصاصه بالأحدية»[٣].

فوحدانية الله تعالى ذاتية له، فهو سبحان واحد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، واحدٌ في إلهيته وعبادته، فلا ند له[٤].

المطلب الثاني: تعريف التوحيد اصطلاحاً:

يعرف أهل العلم التوحيد بعدة تعريفات، ترجع إلى كون الله لا رب سواه، ولا مستحق للعبادة إلا إياه، وأنه واحد في أسمائه وصفاته، وبين ابن قاسم المراد

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٠)، انظر: تهذيب اللغة (٥/ ١٢٧)، لسان العرب (٣/ ٧٠).
(٢) حاشية الدرة المضية (١٣).
(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٢٣).
(٤) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (٥٧).

بالتوحيد بقوله: «وأن من أقر بما يستحقه سبحانه من الصفات، ونزهه عن كل ما نزه عنه، أقر أنه سبحانه خالق كل شيء؛ هو الموحّد، بل لا يكون موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده، يقر أنه وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادته وحده لا شريك له»[١].

وقد سار ابن قاسم على نهج هؤلاء العلماء[٢]، ومن ذلك قول ابن سعدي رحمه الله: «بأنه العلم، والاعتراف المقرون بالاعتقاد الجازم بتفرد الله عز وجل بالأسماء الحسنى، وتوحيده بصفات الكمال والعظمة، والجلال وإفراده وحده بالعبادة»[٣].

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩)، لوامع الأنوار البهية (١/ ٥٧).

(٣) القول السديد في مقاصد التوحيد، لابن سعدي (١٨).

المبحث الأول
بيان الشيخ لأنواع التوحيد

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وفي عرف علماء السلف، وذلك بالتتبع والاستقراء، والنظر، والتأمل في الآيات، والأحاديث، فوجدوا أن التوحيد لا يخرج عن هذه الأنواع الثلاثة:

الأول: توحيد الإلهية.

الثاني: توحيد الربوبية.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وقد ذكر ابن قاسم رحمه الله هذه الأنواع الثلاثة، بقوله: «أقسام التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية، وهو العلم والإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، والمدبر لأمور خلقه جميعهم.

والثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال، من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

والثالث: توحيد الإلهية، وهو: إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويتعلق بأعمال العبد وأقواله الظاهرة والباطنة»[1].

ثم ذكر رحمه الله تقسيماً آخر للتوحيد، فقال: «وإن شئت قلت كما قال ابن القيم وغيره: التوحيد نوعان:

١. توحيد في المعرفة والإثبات[2]، وهو: توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١١)، انظر حاشية الدرة المضية (١٣-١٤)، حاشية ثلاثة الأصول (٢٣).

(٢) سمي توحيد المعرفة؛ لأن معرفة الله ﷻ إنما تكون بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والإثبات: أي إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال. انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، للتميمي (٣٨).

٢. توحيد في الطلب والقصد[١]، وهو: توحيد الإلهية والعبادة.

وبهذا التوحيد ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، بل كل سورة في القرآن، فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل آية متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، وهو التوحيد العلمي الخبري.

وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد دونه، وهو الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن أهل التوحيد وجزائهم وأهل الشرك وجزائهم، فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه، وجزائه، وفي الشرك وأهله وجزائهم[٢]»[٣].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تقسيم آخر قريب من التقسيم السابق، وهو أن التوحيد نوعان هما:

١. التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي:

فهو خبري عن الله ﷻ وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، وهو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه توحيد الربوبية، وهما متلازمان[٤]، وسمي علميًا خبريًا؛ لأن اعتقاد صحة الخبر وتصديقه، والعلم بذلك علماً يقينيًا يستلزم صحة المعتقد، وحسن الانقياد[٥].

٢. التوحيد الإرادي الطلبي:

هو طلبٌ ودعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع لكل ما يعبد من دونه،

---

(١) سمي توحيد القصد والطلب؛ لأن العبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه بالعبادة لله وحده دون سواه. انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (٣٨-٣٩).

(٢) شرح قصيدة ابن القيم، لابن عيسى (٢/ ٢٦٠).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٢).

(٤) كما سيأتي في المبحث الثاني (١١٠).

(٥) انظر: حاشية الروض المربع (٢/ ١٨٨).

وفيه الأمر بأنواع من العبادات، ونهي عن المخالفات، وهو توحيد الألوهية والعبادة، وهو مستلزم للقسم الأول ومتضمن لَه أيضاً، وسمي طلبيًّا؛ لأنه مطلوب من العبد الإيمان به وتحصيله واعتقاده، وكذلك لأن العبد يطلب بتلك العبادات وجه الله سبحانه.

فمن نظر في كتاب الله وجد أن القرآن كله من أول سورة فيه، وهي فاتحة الكتاب إلى آخره سورة الناس، تقرير وبيان لهذين التوحيدين(١).

*** شبهة والجواب عنها:**

إلا أننا نجد من يثير شبهة على هذا التقسيم فيقول: هذا تقسيم محدث، لم يعرف إلا عن ابن تيمية ومن جاء بعده، فنجيب عن هذه الشبهة:

فنقول إن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام ثبت بتتبع واستقراء النصوص، وله دلائل كثيرة وبراهين عديدة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تُحصر، يعرفها من لديه أدنى إلمام بنصوص الكتاب والسنة؛ بل إن من يقرأ فاتحة الكتاب يجد فيها ما يشفي ويكفي من وضوح دلالةٍ، ونصوع برهان على هذا التقسيم.

فهذه سورة الفاتحة وهي أول سورة في المصحف، قد احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة، فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فيه توحيد الربوبية؛ لأن الآية أثبتت ربوبية الله لجميع العالمين، وهم كل ما سوى الله، والرب هو المالك المدبر، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٣ - ٤]، فيه توحيد الأسماء والصفات؛ لإثبات وصف الله في الآيتين بالرحمة والملك، وإثبات أسمائه: الرحمن، الرحيم، المالك، وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فيه توحيد الألوهية؛ لدلالة الآية على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ٢١٤).

وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، فهذه الآية على قصرها فقد احتوت أنواع التوحيد الثلاثة، فقوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، هذا توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾، توحيد الألوهية، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، فهذا توحيد الأسماء والصفات.

وهذا التقسيم معلوم لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن مندة، وابن جرير الطبري، وقرره شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والشنقيطي في أضواء البيان، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد في كل فن[1].

* وقد ذهب العلماء إلى تقسيم التوحيد إلى القسمة الثنائية، أو الثلاثية؛ لأمرين:

الأول: ناحية تقريبية، وتعليمية لإدراك مراد الله من عباده وسلوك أقرب السبل لفهم الدين.

ثانيا: البيان الواضح لدعوة الأنبياء والرسل، وأنهم جاؤوا لبيان توحيد الألوهية، وإفراد الله بالعبادة له وحده لا شريك له، وأن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يدخل أحداً في الإسلام، وأن هذه أقسام يجب أن يؤمن بها جميعاً؛ لأنها متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمتى أتى بنوع منها، ولم يأت بالآخر لم يكن موحداً، وهذا ما سأبينه في المبحث التالي إن شاء الله[2].

---

(١) انظر: القول السديد في الرد من أنكر تقسيم التوحيد، لعبد الرزاق العباد (١٧-٤٩)، التحذيرات من مختصرات الصابوني في التفسير، لبكرأبو زيد(٣٠)، التوحيد لابن مندة (١/ ٢٥)، مجموع الفتاوي (١/ ٢٣) ٣٠)، (١٠/ ٢٨٤)، التدمرية، لابن تيمية (٤-٥)، مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩-٤٥٠)، أضواء البيان (٣/ ١٧).

(٢) انظر: حاشية كتاب التوحيد (١١)، القول السديد في من أنكر تقسيم التوحيد (٢١-٢٢).

المبحث الثاني
بيان الشيخ العلاقة بين أنواع التوحيد

ذكر ابن قاسم في أكثر من موضع في كتبه أن أقسام التوحيد الثلاثة متلازمة، ولا ينفك بعضها عن بعض ومن لم يأت بها جميعاً لم يكن موحداً، فيقول مقرراً قاعدة عامة في هذا: «وأقسام التوحيد الثلاثة متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمتى أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر لم يكن موحداً»(١).

ثم فصل هذه القاعدة العامة بقوله: «كما أنه سبحانه وتعالى المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فهو وحده المستحق بأن يعبد وحده دون من سواه. وهذا مدلول كلمة الإخلاص لا إله إلا الله»(٢)، ثم استدل ابن قاسم بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، قال مبيناً هذه الآية: «أي: ومن كان هذا وصفه فهو المستحق أن تعبدوه وحده، لا تجعلوا له أندادًا: أمثالاً ونظراء بصرف شيء من أنواع العبادة لهم، وأنتم تعلمون أنها لا تماثله بوجه من الوجوه، أو كنتم تعلمون تفرده بإيجاد المخلوقات، وإنزال المطر، وجعل الأرض فراشاً والسماء بناء وأنه لا يرزقكم غيره. يحتج تعالى عليهم بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الإلوهية بأنه تعالى كثيراً ما يقرر في كتابه توحيد الألوهية بتوحيد ربوبيته. فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الألوهية»(٣).

ثم وضح أيضاً العلاقة بين نوعي التوحيد وأنهما متلازمان بعد قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١١).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول(٢٦).
(٣) المصدر السابق (٣٢-٣٣)، انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٤/ ٩٤٣).

﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، فقال: «أمر عباده أن يفردوه بالعبادة وحده، فكما أنه المتفرد بخلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وسائر المخلوقات، فهو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له»[(١)].

وبهذا يتبين التلازم بين هذه الأنواع من تقرير ابن قاسم، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الإلوهية يتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات يستلزم توحيد الألوهية، ويتضمن توحيد الربوبية.

ومعنى استلزام توحيد الربوبية للألوهية أي أن من أقر بأن الله هو الخالق الرازق والمحيي والمميت وهذه أفعال الله، لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، فيصرف عبادته لهذا الخالق، ا لرازق، المحيي، المميت.

ومعنى تضمن توحيد الألوهية للربوبية؛ لأنه من المسلَّم به أن من عَبَدَ الله، وصرف له جميع أنواع العبادة، فهو لا شك أنه قد اعتقد قبل ذلك أن الله ربه ولا رب له غيره، وأن مالكه ورازقه وخالقه هو الله، فلا مالك ولا رازق ولا خالق سواه، فهو يعبد الله معتقداً أن الأمر كله بيد الله وحده لا شريك له؛ لأن من لا يقدر على الخلق والملك والرزق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً.

ومعنى تضمن توحيد الربوبية والألوهية لتوحيد الأسماء والصفات، هو: أن الرب الذي يخلق ويرزق يستحق أن يعبد، والرب الذي يعبد يستحق أن يوصف بالكمال المطلق من جميع الوجوه، فله الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا تنبغي لغيره؛ لأن الناقص لا يصلح أن يكون إلهاً.

ومعنى استلزام توحيد الأسماء والصفات لتوحيد الألوهية، هو: أن الله سبحانه تعالى سمى نفسه بالأسماء الحسنى، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨]، ووصف نفسه بالصفات العلى فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا ينبغي لأحد غيره ومنزه

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٢٩).

عن كل العيوب والنقائص ومن أقر بذلك؛ لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، واستحقاقه للعبادة وحده.

ومعنى استلزام توحيد الأسماء والصفات لتوحيد الربوبية هو أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن نفسه أنه هو الرب العلي العظيم الخالق الرازق القادر العالم المدبر الحي القيوم الجبار المتكبر العزيز الحكيم الكريم الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ...﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٣]، فهو المستحق للربوبية، لإخباره عن نفسه بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ومعنى تضمن توحيد الأسماء والصفات لتوحيد الربوبية هو: أن كل اسم أو صفة من صفات الله تتضمن معنى من معاني الربوبية مثل اسم الخالق الرازق، فإنه يضمن معنى من معاني الربوبية هو الخلق والرزق.

و من أخل بتوحيد الأسماء والصفات، وألحد فيها، فقد هدم في بناء توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية قائم على الإقرار والاعتقاد السليم بتوحيد الأسماء والصفات، وحينئذ لن ينفعه الإقرار بالتوحيدين، فلن ينفعه القولُ بتوحيد الربوبية ولا الإقرار منه بتوحيد الألوهية، ومن أشرك في واحد منها فهو مشرك في البقية.

وتلك الأقسام مجملة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، حيث بين الله سبحانه التلازم بين كل أنواع التوحيد فالرب الذي يخلق ويرزق يستحق أن يعبد، والرب الذي يعبد يستحق أن يوصف بكل صفات الجمال والكمال وينزه عن كل نقص وعيب[(١)].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم(٢/ ١٣٥)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٨٧)، أضواء البيان (٣/ ١٩)، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، للفوزان (٣٤-٣٥)، رسائل في العقيدة، للحمد (٤٣، ١٨٧-١٨٨)، تهذيب اللغة (٥/ ١٢٧)، معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (٤١-٤٢).

المبحث الثالث

بيان الشيخ ركني التوحيد

التوحيد مشتمل على ركنين هما النفي والإثبات، فلا ينفع نفي من دون إثبات، ولا إثبات من دون نفي، وهذا ما يقرره ابن قاسم في كلامه، فعندما تكلم على كلمة التوحيد، وبين أنها مشتملة على ركنين وهما:

الأول: النفي، قال رحمه الله: «فالنفي في كلمة الإخلاص (لا إله) أي: لا إله يستحق أن يعبد إلا الله، فإذا قلت: لا إله كنت نافياً جميع ما يعبد من دون الله سوى الله.

والآلهة غير الله كثيرة طبق الأرض؛ ولكن بالباطل والضلال، وإنما الإله المستحق للعبادة هو الله وحده، وآلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله إنما هي مجرد ظن منهم، واتباع لهواهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣]»[١].

الثاني: الإثبات، قال رحمه الله: «والإثبات في كلمة الإخلاص (إلا الله)، هو المستثنى في هذه الكلمة العظيمة، ودلالتها على إثبات الإلهية لله وحده أعظم من دلالة قولنا الله، فلا نافية للجنس، وخبرها المرفوع محذوف تقديره حق، وإلا الله استثناء من الخبر المرفوع، فالله هو الحق، وعبادته وحده هي الحق. وعبادة غيره منفية بلا في هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]»[٢].

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٥١-٥٢).

(٢) المصدر السابق (٥٢).

ثم بين رحمه الله عظم شأن ركني التوحيد، وأنه لأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، فقال مفسراً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]: «فإنها تضمنت النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله، ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثبات، وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، النفي، وهذه طريقة القرآن يقرن النفي بالإثبات، فينفي ما سوى الله، ويثبت عبادة الله وحده، والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد، ففيها بيان عظم شأن التوحيد، وإقامة الحجة على العباد»(١).

ثم بين ابن قاسم مجمل الكلام على هذين الركنين بقوله: «والقرآن كله يدل على إثبات العبادة لله وحده، فلا إله إلا الله اشتملت على أمرين هما: ركناها النفي والإثبات، فلا إله نافياً وجود معبود بحق سوى الله، وإلا الله مثبتاً العبادة لله وحده دون كل من سواه، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض، فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات»(٢).

***

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٤).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٥٢).

الفصل الرابع

جهوده في تقرير توحيد الربوبية

المبحث الأول

تعريف توحيد الربوبية لغة، واصطلاحا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف توحيد الربوبية لغة:

لفظ الرب يطلق في اللغة على معان، منها: المالك والسيد والمدبر والمربي والمنعم[١].

وكل هذه المعاني صحيحة في حق الله تعالى؛ لأنه سبحانه رب كل شيء وخالقه ومالكه وإلهه، قال ابن منظور[٢]: «الرب هو: الله ﷻ، هو رب كل شيء، أي مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك، ولا يقال الرب في غير ه إلا بالإضافة»[٣].

وقرر ابن قاسم ما قرره أهل اللغة، فقال: «والرب المليك والسيد، ولا يطلق إلا على الله تعالى»[٤].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر، لأبو السعادات الجزري (٢/ ١٧٩)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي (١/ ١١١)، المصباح المنير، (١/ ٢١٤)، تهذيب اللغة، (١٥/ ١٢٨).

(٢) هو: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري الإفريقي، أبو الفضل، إمام لغوي حجة، ولد سنة ٦٣٠هـ في المحرم، صاحب لسان العرب في اللغة الذي جمع فيه بين التهذيب، والمحكم، والصحاح، وحواشيه، والجمهرة، والنهاية، وتوفي في شعبان سنة ٧١١هـ.

انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للعسقلاني (٦/ ١٥)، بغية الوعاة، للسيوطي (١/ ٢٤٨).

(٣) لسان العرب (١/ ٣٩٩).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٢٦).

ومن معاني الرب: المعبود، ومعنى المعبود هو: المألوه المستحق أن يعبد وحده دون سواه، بين ذلك رحمه الله بعد قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١]، فقال: «أي ومن معاني الرب، ومما يطلق عليه المعبود، كما أنه يطلق على الخالق والرازق والمالك والمتصرف ومربي جميع الخلق بالنعم، وإذا قرن بالمعبود شمل معاني عديدة، ومعنى المعبود المألوه المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه»[(١)].

ثم ذكر أن من معاني الربوبية: الخلق، والرزق، فقال: «أوجدنا بعد أن لم نكن شيئاً لعبادته ورزقنا النعم لنستعين بها على ما خلقنا له»[(٢)].

ولفظ «رب» لا يطلق على غير الله بدون إضافة، أو إذا عرف بالألف واللام؛ لأنه إذا أفرد كان معناه المعبود، وهو المألوه المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه، كما بينه رحمه الله بقوله: «والرب المالك والسيد، ولا يطلق إلا على الله تعالى.... فإن الرب إذا أفرد دخل فيه المعبود، فهو المالك المتصرف المعبود وحده دون كل من سواه»[(٣)]، قال ابن الأثير[(٤)]: «ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال: رب كذا»[(٥)]، أي: كـ رب الدار، ورب الأسرة، وغيره وكذلك لا يطلق على غير الله إذا أضيف إليه الألف واللام، قال

---

(١) المصدر السابق (٣٠-٣١).

(٢) المصدر السابق (١٦).

(٣) المصدر السابق (٢٦).

(٤) هو: القاضي العلامة أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ثم الموصلي، المشهور بابن الأثير، من مشاهير العلماء، وأكابر النبلاء، وأوحد الفضلاء، صاحب جامع الأصول، وغريب الحديث، وغير ذلك، مولده بجزيرة بن عمر في أحد الربيعين سنة ٥٤٤ هـ، ونشأ بها ثم تحول إلى الموصل، توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٠٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٨٨-٤٨٩)، بغية الوعاة (٢/ ٢٧٤).

(٥) النهاية في غريب الأثر (٢/ ١٧٩)، انظر: القاموس المحيط (١/ ١١١)، المصباح المنير (١/ ٢١٤).

الأزهري[١]: «ويقالُ: فلانٌ رَبّ هذا الشيء، أي: مِلْكه له، ولا يُقال الرّب بالألف واللام لغير الله، وهو رَبّ الأَرْباب، ومالك المُلوك والأمْلاك، وكُل مَن مَلك شيئاً فهو رَبُّه، قال تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: عند مَلِكك»[٢].

المطلب الثاني: تعريف توحيد الربوبية اصطلاحاً:

وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء، ومالكه، وخالقه، ورازقه، وأنه المحيي، المميت، النافع، الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك[٣].

وعرف ابن قاسم توحيد الربوبية بقوله: «توحيد الربوبية، وهو: العلم والإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، والمدبر لأمور خلقه جميعهم»[٤].

قال ﷺ عند قول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]: «والرب المالك والسيد، ولا يطلق إلا على الله تعالى، ورب مضاف والعالمين مضاف إليه، والمراد جميع المخلوقات، وهذه الآية هي أول آية في المصحف بعد البسملة في أول سورة، وآخر دعوى أهل الجنة، وفيها تفرده بجميع الخلق وربوبيتهم وملكهم، وتصرفه فيهم بما شاء، وهو معبود هم ليس لهم معبود سواه، فإن الرب إذا أفرد دخل فيه المعبود، فهو المالك المتصرف المعبود وحده دون كل من سواه»[٥].

---

(١) هو: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري، اللغوي الأديب الهروي الشافعي، ولد سنة ٢٢٨هـ، وأخذ عن الربيع بن سليمان، ونفطويه، وابن السراج، وكان رأساً في اللغة، أخذ عن الهروي صاحب الغريبين، توفي في ربيع الآخرة، سنة ٣٧٠هـ. انظر: بغية الوعاة (١/ ١٩-٢٠).

(٢) تهذيب اللغة(١٥/ ١٢٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد، لسليمان آل شيخ (١/ ٢٦).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (١١-١٢)، انظر: حاشية الدرة المضية (١٣).

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٢٦).

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي:

كل المعاني اللغوية للفظة الرب تدل على معناها في الشرع، وهو أن الله سبحانه هو المربي والخالق لهذا الكون العظيم، وهو مالكه، ومدبر لمصالحه، والقائم بحفظها، فهو سبحانه المستحق وحده لهذه العبادة، قال ابن القيم رحمه الله: «والرب هو السيد، والمالك، والمنعم، والمربي، والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول، والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له»[1].

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩٤٣).

المبحث الثاني

القلوب مفطورة على الإقرار بهذا التوحيد

الإقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري، فطر الله عليه الخلق، بل حتى المشركين، ولا يكاد ينازع فيه أحد من الأمم، حتى فرعون الطاغية الذي ادعى الربوبية يعترف بهذا التوحيد، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، بين سبحانه أن إنكارهم له من قبيل المكابرة، والجحود، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]، حتى إبليس كان مؤمناً بذلك، ومقراً به، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦]، وبالجملة فإن هذا التوحيد لا ينكره إلا معاند مكابر.

وقد بين ابن قاسم رحمه الله أن توحيد الربوبية قد أقر به المشركون، وذلك بقوله: «وقد أقر به المشركون، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[الزخرف: ٨٧]، وإنما الخلاف بينهم وبين الرسل في توحيد العبادة»[1].

وقال أيضاً: «أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون كأبي جهل وأضرابه، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]، أي أنه الذي يفعل ذلك، ولم ينازعوا فيه ولا امتنعوا من الإقرار به، بل احتج تعالى عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهة فقال تعالى: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]»[2].

(١) حاشية الدرة المضية (١٥).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٥٠-٥١).

وذلك أن المنطق العقلي يقتضي أن لا يخص بالعبادة إلا الخالق الرازق، الذي بيده مقاليد الأمور، أما صرفها إلى من لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرًّا ولا نفعاً، فهذا مما لا تقر به العقول السليمة، ولا تؤيده الفطر المستقيمة.

المبحث الثالث

الإقرار بهذا للتوحيد لا يكفي للدخول في الإسلام

الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام، والبراءة من الشرك، إلا بالإقرار بالعبادة له وحده؛ لأنه من أقر أن الله هو وحده الخالق، والرازق، والمدبر، فإنه يلزمه أن يفرده وحده بالعبادة؛ لأنهما متلازمان فلا يستحق أن يعبد إلا من كان خالقاً مالكاً قادراً على كل شي، ومن أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الضعيف شريكاً لله في العبادة، هذا ما قرره ابن قاسم في هذه المسألة، بقوله: «فكما أنه المتفرد في ملكه فهو يدل على أن يفرد بالعبادة، فإن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكاً لله في الملك شريكاً لله في العبادة، تعالى الله وتقدس، ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الإلهية»(١)، ولو كان الإقرار بتوحيد الربوبية يكفي في دخولهم في الإسلام، ما حاربهم رسول ﷺ، وأباح دماءهم، وأموالهم، وهم مقرون بهذا التوحيد، معترفون لله بالوحدانية، وانفراده بالخلق والإحياء والإماتة، وغيره من معاني الربوبية كما أخبر الله عنهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ولكن حكم الله عليهم بالشرك، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، أي: بين الله أنهم آمنوا بأن الله هو الخالق والرازق والمحيي المميت؛ ولكن أشركوا معه في العبادة.

وهذا لا يعني القول بأن توحيد الربوبية مما أقر به المشركون الأوائل أن

(١) المصدر السابق (٥٢-٥٣).

نضرب عنه الذكر، فإن جل ما ورد في القرآن الكريم من ذكر لتوحيد الربوبية من أجل تقرير توحيد الألوهية ليؤسس عليه الدعوة إلى عبادة الله وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده؛ لأنه لا يثبت توحيد الألوهية إلا على قاعدة مكينة صلبة من توحيد الربوبية، فإن من يرسخ يقينه بتفرد الله بالخلق، والملك، والرزق، والتدبير، لا بد أن يتوجه بدعائه، وعبادته إليه وحده؛ ولكن المؤسف كما قال ﷺ: «إن أكثر الناس اليوم بل كثير من علماء الأمصار لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، لم يعرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله، ويقولون: من قالها فهو المسلم، وإن فعل ما فعل»[1].

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٥١).

المبحث الرابع

أدلة الربوبية

قد دل القرآن الكريم ودلت السنة المطهرة على وجود الله ﷻ بعدة طرق، ومجمل ما ذكره ابن قاسم من طرق في إثبات وجود الرب سبحانه ما يلي:

الأول: دلالة الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

إذ من آياته الدالة على وحدانيته سبحانه دلالة الآفاق، التي يراها جميع الخلق، وما في هذه السماء من كواكب ونجوم ومجرات، وما في الأرض من بحار وأنهار وأشجار ونبات وجبال ورياح، ومخلوقات شتى، لو تأمل الإنسان فيها بعين البصيرة والتدبر والتفكر؛ لأدرك عظمة من أنشأها وأتقنها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وكلما تدبر العاقل في هذا الكون العظيم، وتغلغل فكره فيه، وتأمل صُنع الله، وإتقانُه، علم أن هناك خالقاً له ومدبراً، وهذا يقودنا إلى الإيمان بالله ﷻ، وعبادته، وقد بين ابن قاسم هذا، بقوله: «وكل شيء من آياته ومخلوقاته دال على وحدانيته وتفرده بالربوبية، كما قال الشاعر:

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد[1]

---

(١) من شعر أبي العَتاهِيَة. انظر: الحماسة المغربية (٢/ ١٤٢٠). انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٤٣).

وقال آخر:

تأمــــل في نبــــات الأرض وانظـــر إلـــى آثــار مــا صـــنع المليــك[1]

وقال آخر:

تأمــــل ســــطور الكائنـــات فإنهـــا مــن الملــك الأعلــى إليــك رســائل
وقــد خــط فيهــا لــو تأملــت خطهــا ألا كــل شــيء مــا خــلا الله باطــل[2]

فإيجاد هذه المخلوقات أوضح دليل على وجود الباري تعالى، وتفرده بالربوبية، والإلهية»[3].

و قد نص رحمه الله على بعض المخلوقات الدالة على ربوبية الله ﷻ، ومن ذلك:

١. دلالة الليل والنهار:

جعل الله من الليل والنهار آيتين من آياته الكونية الباهرة التي تدل على كمال قدرته، وبالغ حكمته، وبديع صنعه، فاختلاف هيئة كل من الليل والنهار في الظلمة والنور، وانتظام سيرهما على وتيرة منتظمة؛ ليدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقاً قادراً عليماً حكيماً، بهذا استدل ابن قاسم على وحدانية الله، ووجوده سبحانه، وذلك بقوله: «من أعظم آياته المشاهدة بالأبصار الليل والنهار، وكون الليل يأتي على النهار فيغطيه حتى كأنه لم يكن، ثم يأتي النهار فيذهب بظلمة الليل حتى كأن الليل لم يكن، فمجيء هذا وذهاب هذا بهذه الصفة، وهذه الصورة المشاهدة، دال أعظم دلالة على وحدانية خالقه وموجده»[4].

٢. دلالة الشمس والقمر:

بين ابن قاسم أن دلالة الشمس والقمر بجريانهما المتقن؛ تدل على وجود الرب

---

(١) من شعر أبو نواس. انظر: موسوعة الشعر الإسلامي (٢/١٣٥).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٣٥٦).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٢٧-٢٨).

(٤) المصدر السابق (٢٨).

سبحانه، فقال: «ومن أعظم آياته المشاهدة بالأبصار الشمس والقمر..، وكونهما يجريان هذا الجريان المتقن ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، دال أعظم دلالة على وحدانية موجدهما تعالى وتقدس»[١].

٣. دلالة السماوات السبع والأرضيين السبع:

إن من أعظم مخلوقات الله الدالة على وحدانية الخالق، وإخلاص العبادة له وحده، خلق السموات والأرض، وما احتوته من المخلوقات البديعة، والكائنات العجيبة، فجعل الله الأرض قراراً، وسيّر خلالها الأنهار، وثبتها بالجبال؛ أفلا يدل على الخالق سبحانه ؟، قال ابن قاسم ﷺ: «من أعظم مخلوقات الله الدالة على وحدانيته تعالى السماوات السبع وسعتها وارتفاعها، والأرضيين السبع وامتدادها وسعة أرجائها، وما في السماوات السبع من الكواكب الزاهرة، والآيات الباهرة، وما في الأرضيين[٢] السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات وسائر الموجودات، وما بين السماوات والأرض من الأهوية والسحاب وغير ذلك؛ دال على وحدانية الباري جل جلاله، وعلى تفرده بالخلق والتدبير»[٣].

وقال: «ومن أعظم الدلائل والمعرفات التي تعرف بها سبحانه على عباده خلق السماوات والأرض من غير مثال سبق، وتقدير أقواتها فيها في ستة أيام، وأصل الخلق إيجاد المعدوم على تقدير واستواء، وإبداعه من غير أصل سابق ولا ابتداء متقدم، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]»[٤].

---

(١) المصدر السابق (٢٨).
(٢) ولعله يرد الأرض المشاهدة.
(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٢٨-٢٩).
(٤) المصدر السابق (٢٩-٣٠).

كما قال بعض الأعراب، وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى، فقال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير[١].

و ما ذكره ﷺ من استدلالات ومعان لتوحيد الربوبية، قد دلت عليه نصوص كثيرة في كتاب الله الكريم، فقد بين الله في غير آية، أنه هو الخالق المدبر لهذا الكون العظيم، القادر على كل شي، المتصرف في شؤون خلقه كلها، ، إلى غير ذلك من معاني الربوبية، ووحدانيته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثاني: دلالة العقل:

إن العقول والفطر مجبولة ومخلوقة على الإقرار بوجود الله سبحانه، والإقرار بربوبية المستلزمة إخلاص العبادة لله وحده، قال ابن قاسم ﷺ مقرراً ذلك: «وقد دلت ضرورة العقل، والفطر على وجوده، والموجود إما موجود واجب بنفسه، وإما ممكن مفتقر إلى غيره، وإما قديم، وإما محدث، وإما قائم بنفسه، وإما قائم بغيره، والقائم بغيره من الصفات والأعراض يكون بحيث يكون غيره، والقائم بنفسه يجب أن يكون مباينًا لغيره، فيكون حيث لا موجود غيره، أو حيث لا قائم بنفسه غيره، وهو المعني بكون الله على العرش، وفوق العالم، لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته شيء من مخلوقاته، بل هو بائن من خلقه، والخلق

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩).

بائنون عنه، باتفاق الكتب والرسل»[١].

و بهذا يتبين من كلامه ﷀ أن وحدانية الله قد أتت بها جميع الكتب وأرسلت بها الرسل ولم ينكره أحد حتى المشركون، لم ينازع في ذلك إلا الدهريون[٢]، والملاحدة، وبيّن أن الوجود نوعان:

١. **واجب الوجود**: وهو ما كان وجوده ذاتياً، ثابتاً له في نفسه وليس مكسوباً من غيره، وهذا هو وجود الله ﷻ، فإن أوليته ليس قبلها شيء، وآخريته ليس بعدها شيء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فوجوده لم يسبقه فناء، ولا يلحقه عدم.

٢. **ممكن الوجود**: وهو الحادث بعد عدم، كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجبا بنفسه، ولا قديماً أزليًا، ولا خالقاً لما سواه، ولا غنيًا عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين أحدهما غني، والآخر فقير، وأحدهما خالق، والآخر مخلوق.

فهذا الذي لا بد من موجد يوجده وخالق يحدثه، وهو الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم كانوا معدومين ثم وجدوا؛ فعدمهم ينفي وجودهم، ووجودهم ينفي امتناعهم، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه، فلو كانت واجبة الوجود بنفسها لامتنع عدمها، فدل وجودها بعد عدمه أنها ممكنة الوجود والعدم معاً.

وبهذا يتضح ما ذكره ابن قاسم في مسألة واجب الوجود، وهذا مصطلح فلسفي، ذكر كثير من العلماء أنه يحمل إشكالات كثيرة، وإن كانوا قد تكلموا فيه

---

(١) حاشية الدرة المضية (١١).

(٢) الدهريون: هم قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، فرد الله عليهم في نفس الآية، بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٧)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٥-٢٥٦).

على حسن نية، أو في معرض الرد على الفلاسفة، لا تقرير المذهب السلف، ولكن تركه أولى[١].

وقد ذكر الله ﷻ، هذا الدليل العقلي والبرهان القاطع بقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، يعني أنهم لم يُخلقوا من غير خالقٍ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى، وهذا الاستدلال فيه غنية عن ما سواه.

وعلى هذا فلا حرج في الإخبار عن الله تعالى بأنه موجود؛ لأن دائرة الأخبار أوسع من دائرة أسمائه وصفاته فلا يسمى ولا يوصف إلا بما ورد وثبت[٢].

ويزيد هذا وضوحاً ودلالةً: دلالة الحوادث، وهي من الطرق العقلية التي توصل إلى معرفة الله ﷻ، فإن حدوث الأشياء ووجودها بعد ما كانت معدومة؛ ليدل أن لها إلهاً مدبراً، موجِداً لها، قال ﵀ مبيناً هذا بقوله: «دلت الحوادث دلالة عقلية قطعية، على وجود الباري تبارك وتعالى، فإن إيجاد الحوادث، أوضح دليل على وجود المحدث لها، والحوادث جمع حادث ضد القديم»[٣].

وهذا المنهج الذي وضحه ابن قاسم هو منهج سلف الأمة، وقد قرره الأئمة من قبله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لابد له من محدث، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة حتى للصبيان، فإن الصبي لو ضربه ضارب وهو غافل لا يبصره لقال من ضربني فلو قيل له: لم يضربك أحد لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير محدث، بل يعلم أنه لابد للحادث من محدث، فإذا قيل: فلان ضربك بكى حتى يضرب ضاربه، فكان

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٢/ ١٦٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٤١٧)، (٢/ ١١٦-١١٧)، مجموع الفتاوى (٣/ ٩-١٠)، (٥/ ٣٣٦ و٣٤٣)، (٦/ ١٤٢)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٧٧)، (١/ ١٠٢)، رسائل في العقيدة، للحمد (٤٨-٥٤).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢).

في فطرته الإقرار بالصانع وبالشرع الذي مبناه على العدل، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء أسارى بدر، قال: وجدت النبي يقرأ في المغرب بالطور، قال: فلما سمعت هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أحسست بفؤادي قد انصدع[1].

وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها، يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل فتعين أن لهم خالقاً خلقهم سبحانه وتعالى»[2].

ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يحث كثيراً في كتابه على التعقل والتبصر، ولا أدل على ذلك من كثرة الآيات التي تُخْتَمُ بمثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]؛ لأن الإنسان إذا تفكر تذكر، وعرف الحق، وإذا تذكر خاف واتقى وانقاد.

وبهذا يتبين أن وحدانية الله سبحانه تدرك وتعرف بالعقل، ولكن غير موجبة، فلا تتم الحجة البالغة على العبد بمجرد معرفته بعقله إذا لم تبلغه دعوة الرسل عليهم السلام؛ لأن التكليف لا يكون إلا بالشرع، وقد دل القرآن الكريم على هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

«وإذا تأمل العاقل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الطور (٤/ ١٨٣٩)، برقم (٤٥٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح (١/ ٣٣٨)، برقم(٤٦٣) بنحوهما.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٨-٣٥٩).

الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]»[١]، ثم قال ابن قاسم رحمه الله مبيناً ذلك: «بل الذي عليه السلف: أن الله بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه، كالأمثال المضروبة، والبراهين القاطعة، والاعتقاد الصحيح، لا يثبت بمجرد الأدلة العقلية، بل بالأدلة الشرعية التي يفرق بها بين المؤمن والكافر»[٢].

ثالثاً: دلالة الفطرة:

الفطرة هي الإسلام، وقال بذلك عامة السلف من أهل العلم، قال ابن عبد البر في التمهيد: «الفطرة هنا الإسلام، قالوا وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم، ... وذكروا عن عكرمة، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم، والضحاك، وقتادة، في قول الله عز وجل ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] قالوا: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ دين الله الإسلام ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، قالوا: لدين الله»[٣]، ورجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، وتلميذه ابن القيم[٥]، وجمع من أهل العلم[٦].

ويدل عليه قول النبي ﷺ ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم...، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١١٤).
(٢) حاشية الدرة المضية (٤٧).
(٣) التمهيد، لابن عبد البر (١٨/ ٧٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٥).
(٥) شفاء العليل (١/ ٢٨٩).
(٦) انظر: التمهيد (١٨/ ٧٢).

دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي»[١].

وما رواه أبي هريرة أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء[٢]، هل تحسون فيها من جدعاء»[٣]، ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]»[٤]، قال ابن عبد البر: «وممن ذهب إلى أن الفطرة في معنى هذا الحديث الإسلام أبو هريرة وابن شهاب»[٥].

وجه دلالة هذا الحديث هو أن رسول ﷺ ذكر ملل الكفر: اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يذكر الإسلام، فدل على أن الفطرة هي الإسلام، وزاد أبو هريرة دلالة حينما فسر الحديث بالآية، وقد سبق معنا أن المراد بالفطرة في الآية دين الإسلام.

فكل مولود يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية ويظل يصحبه في مختلف أطوار حياته، ما لم تفسد فطرته، وتنتكس بسبب العوارض الطارئة من الفسق والكفر، غيرهما، فإذا تاب منه رجع إلى الفطرة التي فُطر عليها وإلى الأصل الذي شذ عنه، وخرج عليه.

وما قرره سلف هذه الأمة، قد قرره ابن قاسم رحمه الله حيث بيّن أن معرفة الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧)، برقم (٢٨٦٥).

(٢) جمعاء أي: سليمة من العيوب والتأثيرات وصفت بذلك لاجتماع سلامة أعضائها لها. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للحميدي (١/ ٣٠١).

(٣) جدعاء أي: مقطوع الأطراف، وأكثر ما يستعمل في الأنف والأذن. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم (١/ ٧٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، (١/ ٤٥٦)، برقم (١٢٩٢). ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/ ٢٠٤٧)، برقم (٢٦٥٨)، واللفظ له.

(٥) التمهيد، لابن عبد البر (١٨/ ٧٦).

ضرورة فطرية، وذلك بقوله: «ومعرفة الخالق جل وعلا، ضرورية فطرية»[١]، وقال: «فإنه خلق الخلق لعبادته وحده ودلهم عليه بالفطرة»[٢]، وقال أيضاً: «ووجوده تعالى، ووجوب قدمه، ونفي الشريك عنه معلوم بالضرورة من الشرع والعقل والفطرة»[٣].

ومعنى ذلك كله: هو أن الإيمان بوجود الله سبحانه أمر فطري، لا يحتاج إلى دليل أو برهان، فالفطرة السليمة مجبولة على الإقرار بوجوده تعالى والإيمان به، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلاَّ من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها؛ لقوله ﷺ: «**ما من مولود إلا ويولدُ على الفطرة، فأبواهُ يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»[٤]، فبين النبي ﷺ إن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن، وأن العيب حادث طارئ.

ثم إن الإنسان مفطور على اللجوء إلى ربه، والاستغاثة به تبارك وتعالى عند الشدائد والمصائب والمخاطر، فإذا وقع لأي إنسان مؤمناً أو غير مؤمن حتى الكافر الملحد - في شدة، أو أحدق به خطر - فإن الاعتقادات والأوهام الباطلة تتطاير من ذهنه، ويبقى ما فطر عليه ليصيح بأعلى صوته، ومن قرارة نفسه، وعميق قلبه، منادياً ربه؛ ليفرج كربته وهمه، ويلجأ إليه وحده دون سواه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ففي الشدة تبدو فطرة الناس جميعاً كما هي في أصلها التي خلقها الله عليها، وعندما تمر المحنة، وتأتي العافية والنعمة، يعودون إلى

(١) حاشية الدرة المضية (١٤).
(٢) المصدر السابق(٥٥).
(٣) المصدر السابق (١٥).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات... (١/ ٤٥٦)، برقم(١٢٩٣)، مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرةِ وحكمِ موت أطفال الكفار وأطفال المسلمِين، (٤/ ٢٠٤٧)، برقم (٢٦٥٨).

مخالفة فطرتهم من جديد، وقد كرر الله تعالى هذا المعنى كثيراً في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٦٧].

ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلماً.

وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضى بذاتها الإسلام مالم يمنعها مانع، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ لأن الفطرة مع الحق مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة العارضة من تهود وتنصر وتمجس مثل حجاب، يحول بين البصر ورؤية الشمس، وكذلك أيضاً كل ذي حس سليم يحب الحلو إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مراً[(١)].

***

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٥ -٢٤٦)، منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٧١)، شفاء العليل (١/ ٢٨٩)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٨٢)، عقيدة أهل السنة والجماعة على ضوء الكتاب والسنة، لسعيد بن مسفر القحطاني (٨٠).

الفصل الخامس
جهوده في تقرير توحيد الألوهية

التمهيد:

التوحيد هو أس الإسلام، وبه يكون الدخول في الإسلام، وبه البقاء، وبه الخروج من الدنيا، قال ابن قاسم ﷺ مبيناً عظم شأن التوحيد: «إن أول شيء بدأت به الرسل قومهم هو التوحيد»(١)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ثم قال ﷺ: «فهذه دعوة الرسل، وزبدة الرسالة، وبه تعرف عظمة شأن التوحيد.

ومعرفتك عظمته بأن تصرف همتك إليه، وإلى معرفته والعمل به، غاية جهدك، وإلى معرفة ما يضاده، وما سواه من أنواع العلوم الفروعية بعد ذلك، فيهتم الإنسان غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين إجمالا قبل الواجب من الفروع، الصلاة والزكاة، وغير ذلك، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلابد من معرفة أصل الدين إجمالا، ثم معرفة فروعه تفصيلاً»(٢).

ثم استدل ابن قاسم بحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن معاذاً لما بعثه ﷺ إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة »(٣)، قال ﷺ: «وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به، فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة لا

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٩٦).

(٢) المصدر السابق (٩٦-٩٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، وشرائع الإسلام (١/ ٥٠)، برقم (١٩).

تنفع، ولا غيرها بدون التوحيد، فإنه لا يستقيم بناء على غير أساس، ولا فرع على غير أصل.

والأصل والأساس هو التوحيد، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر بالتوحيد بنحو عشر سنين، ومما يبين أن التوحيد هو الأصل كونه يوجد من يدخل الجنة، ولو لم يصل ركعة واحدة وذلك إذا اعتقد التوحيد وعمل به، ومات متمسكاً به، كأن يقتل قبل أن يصلي، أو يموت، والصلاة لا تنفع وحدها، ولو صلى وزكى وصام، إذا لم يعتقد التوحيد، وبذلك يعرف عظم شأن التوحيد، وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد والعمل به، وما دخل الشيطان على من دخل، ولا مزق عقول من مزق ولا وقع ما وقع إلا من آفة قولهم يكفي النطق بالشهادة، ومجرد المعرفة، حتى إن من علمائهم من لا يعرف التوحيد أصلاً، وذلك لكونهم ابتلوا بالشرك، وعبادة الأوثان، وكثرة الشبهات الباطلة، فبذلك خفي التوحيد على كثير ممن يدعي العلم، لعدم المعرفة به»[١]، وهذا كلام عظيم، وتقرير بديع.

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٩٦-٩٧).

المبحث الأول

تعريف توحيد الألوهية لغة، واصطلاحاً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف توحيد الألوهية لغة:

قال ابن فارس[1] مبيناً أصل الكلمة: «الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو: التعبد فالإله: الله تعالى؛ وسمي بذلك لأنه معبود، ويقال: تأله الرجل إذا تعبد»[2].

وبهذا عرف ابن قاسم الإله لغة، فقال: «الإله: فعال، بمعنى: مفعول، ككتاب بمعنى مكتوب، مشتق من: أله، يأله، إلهة، أي: عبد يعبد عبادة، لفظاً ومعنى، والإله هو: المعبود المطاع»[3]، وقال أيضاً: «الإله هو المألوه، المستحق للعبادة»[4].

المطلب الثاني: تعريف توحيد الألوهية اصطلاحاً:

عرف ابن قاسم توحيد الألوهية اصطلاحاً، بقوله: «هو إخلاص العبادة لله وحده بجميع أفراد العبادة»[5]، وقال أيضاً: «توحيد الإلهية، وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويتعلق بأعمال العبد، وأقواله الظاهرة والباطنة.

---

(١) هو: أحمد بن فارس ابن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي، والمشهور بابن فارس، الإمام، العلامة، اللغوي المحدث، أوائل القرن الرابع الهجري، ولم تذكر التراجم تاريخاً محدداً لميلاده، ومات سنة ٣٩٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠٣)، البداية والنهاية (١١/ ٣٣٥)، تراجم لتعسة من الأعلام، للحمد (٩).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ١٢٧).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٥١).

(٤) حاشية الدرة المضية(٢٩)، انظر: تهذيب اللغة(٦/ ٢٢٢)، لسان العرب (١٣/ ٤٦٧)، تفسير ابن كثير(١/ ٢١)، مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٩)، مدارج السالكين (٣/ ٤٦٠).

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٢٣).

خلاف ما زعمه المتكلمة[١] والصوفية[٢]، وغيرهم من أن المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وأنهم إذا أثبتوا ذلك فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأن من أقر بما يستحقه سبحانه من الصفات، ونزهه عن كل ما نزه عنه، وأقر أنه سبحانه خالق كل شيء فهو الموحّد، بل لا يكون موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده، ويقر أنه وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادته وحده لا شريك له»[٣]، وبهذا بين ﷺ غلط أهل الكلام في تعريفهم لتوحيد الألوهية.

---

(١) المتكلمة نسبة إلى أهل الكلام، وهم المنشغلون بهذا العلم الذي يبحث في إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية ثم إن أهل الكلام ليسوا صنفاً واحداً، بل يشمل كلاً من: الجهمية، والمعتزلة، والكلابية، والأشاعرة، والماتريدية. انظر: شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني (١/ ٥)، لوامع الأنوار البهية (١/ ٤، ٥)، موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، د/ سليمان الغصن (٢١).

(٢) الصوفية: هم طائفة من أهل البدع تنتحل الزهد والتعبد، ينسبون إلى الصوف لكثرة لبسهم له، وهم طوائف شتى، يجمعهم الزهد البدعي، والتعبد لله تعالى بما لم يشرع من الاحتفالات والرقص والسماع والأذكار البدعية، وغير ذلك. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي (١/ ٧٢)، والتعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي (١/ ٢١).

(٣) حاشية كتاب التوحيد(١١)، انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٢٧٧)، مدارج السالكين (٣/ ٥١٠)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٨).

المبحث الثاني

أهمية توحيد الألوهية وثمراته

المطلب الأول: أهمية توحيد الألوهية:

التوحيد هو دعوة الرسل؛ ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب[١]، قال ابن قاسم مبينا أهمية التوحيد بكلام واف شاف، لا مزيد عليه، وذلك بقوله: «النبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد، وذلك لأنه أساس الملة الذي تبنى عليها، وبدونه لا يبني شيء من الأعمال.

فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع عنه، فإذا زال الأصل زال الفرع، فأي بيان أبين من هذا؟ على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض، كونه ﷺ أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وينذر عن الشرك قبل أن تفرض عليه الفرائض»[٢].

ثم زاد هذا الأمر توضيحاً، بقوله: «عظم شأن التوحيد، وأنه أوجب الواجبات، وأنه أول فرض على المكلف علماً وعملا وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، التي أوجب الواجبات العلم بمعناها، والعمل بما دلت عليه، من إفراد الله بالعبادة والبراءة من الشرك وأهله، وصدور العبادة من غير توحيد لا يسمى عبادة وليس بعبادة، وإذا صدرت ممن أشرك فيها مع الله غيره فهي بمنزلة الجسد الذي لا روح فيه.

وإذا عبد الله تارة، وأشرك معه تارة، فليس بعابد لله على الحقيقة كما سمى الله المشركين مشركين وهم يعبدون الله ويخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار، وتلاطم الأمواج، يهربون ويفزعون ويلجأون إليه تعالى وحده،

---

(١) انظر: حاشية ثلاثة الأصول (٨٨).

(٢) المصدر السابق(٨٢).

ويعرفون أن تلك الآلهة ليست شيئاً في الحقيقة، وإنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سماهم الله مشركين[(١)]، بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية في غير موضع من كتابه، ولم يرد في العبادة إلا إفراده تعالى بجميع أنواعها، فمن أطاعه في جميع ما أمره به منها فقد وحده وإلا فلا، وكونه تعالى ربنا يفيد ويقتضي أن نعبده وحده، وأن لا نجعل له شريكاً في ربوبيته، ولا في ألوهيته وعبادته»[(٢)]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

ثم بين وجوبه على العباد، وذلك بقوله: «واجب على العباد جميعاً أن يوحدوا الله ويفردوه بالعبادة ويتبرؤوا من عبادة ما سواه...، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وفي الحديث: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»[(٣)] طاعة لله وامتثالاً لأمره»[(٤)].

ولما كان التوحيد بهذه المنزلة، فقد حث رحمه الله على تعلم التوحيد، وبيّن أنه أعظم مطلوب، وأشرف مقصود، وذلك بقوله: «علم التوحيد هو العلم العظيم القدر، الذي ينبغي ويجمل، بل يجب لكل شخص عاقل من ذكر وأنثى، أن يدأب في تحصيله، وإدراك معرفته، والاتصاف به، ليكون في دينه على بصيرة»[(٥)]، وخاصة في

---

(١) كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(٢) حاشية ثلاثة الأصول(٣١-٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار (٣/ ١٠٤٩)، برقم (٢٧٠١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، (١/ ٥٨)، برقم(٣٠).

(٤) حاشية الدرة المضية (٦١).

(٥) المصدر السابق (١٤).

زماننا هذا الذي كثرت فيه الصوارف التي تصرف عن توحيد العبادة، أو تضعفه.

ولذلك كانت الحكمة من خلق الخلق هي توحيد الله وعبادته، بين رحمه الله أن الله لم يخلقنا «مهملين معطلين سدى... لا نؤمر ولا ننهى، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]»[١]، وبهذا يعلم أن التوحيد هو أساس الملة، وهو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، ولأجله قامت السموات والأرض، وخلق الخلق، وهو الفيصل بين الخلق، فمن حققه دخل الجنة، ومن كفر به أدخل النار أعاذنا الله منها.

المطلب الثاني: ثمرات توحيد الألوهية:

توحيد الله، وإخلاص العبادة له، من أجل النعم، وأفضلها على الإطلاق، وثمراته وفضائله لا تعد ولاتحد، فثمرات التوحيد كثيرة، تتضمن خيري الدنيا والآخرة، ومن تلك الثمرات التي ذكرها ابن قاسم رحمه الله ما يلي:

١. أنه سبب الأمن والاهتداء التام في الدنيا والآخرة:

الموحد الذي أطاع الله ورسوله، وسلم من الشرك له الأمن والاهتداء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قال ابن قاسم معلقاً على هذه الآية: «أي: أخلصوا العبادة لله وحده، لم يخلطوا توحيدهم بشرك، ولبس الشيء بالشيء تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومنه سمي الشرك ظلماً، والمشرك ظالماً؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها»[٢].

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (١٦).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٣).

ثم بيّن أن من سلموا من ظلمة الشرك والمعاصي،«هم الآمنون في الدنيا والآخرة المهتدون إلى الصراط المستقيم، ولما نزلت هذه الآية شق على أصحاب رسول الله ﷺ، ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][(١)]، فبين ﷺ أن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان أيضاً من أهل الاصطفاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ﴾ [فاطر: ٣٢]، فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة:

١. الشرك.

٢. وظلم العباد في نفس، أو مال، أو عرض.

٣. وظلم نفسه بما دون الشرك.

كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، كما لو ظلمها ببخله ببعض الواجبات حبًّا للمال، أو أحب ما يبغضه الله حتى يقدم هواه على محبة الله ونحو ذلك.

وليس مراد النبي ﷺ بقوله: بشرك الشرك الأكبر، فيؤخذ منه أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام، والاهتداء التام، بل مراده ﷺ نفي نوعي الشرك، فإن أهل الكبائر معرضون للوعيد، مع أنها دون الشرك الأصغر بإجماع أهل السنة، ومع ذلك لم يحصل لهم الأمن التام، والاهتداء التام، كما وردت به

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلاً (٣/ ١٢٢٦)، برقم (٣١٨١).

نصوص الكتاب، والسنة، فصاحب الشرك الأصغر أولى بلحوق الوعيد له»[١]، وبهذا بين رحمه الله على أن من أشرك بالله عز وجل، فليس له أي أمن، أما من سلم من الشرك وارتكب بعض المعاصي فله الأمن من الخلود في النار، وهو معرض للوعيد لمعاصيه، أما من سلم من الشرك والمعاصي، فهذا له الأمن التام المطلق في الدنيا والآخرة.

٢. دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب لمن حقق التوحيد:

قال ابن قاسم رحمه الله عندما علق على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عند باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، فقال «فيه أدلة من الكتاب، والسنة تدل على أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب»[٢].

وذلك أن «تحقيق التوحيد قدر زائد على ماهية التوحيد، وتحقيقه من وجهين: واجب ومندوب.

أ- فالواجب: تخليصه وتصفيته عن شوائب الشرك، والبدع، والمعاصي.

فالشرك ينافيه بالكلية، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه، فلا يكون العبد محققاً للتوحيد حتى يسلم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي.

ب- والمندوب: تحقيق المقربين، تركوا ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وحقيقته هو انجذاب الروح إلى الله، فلا يكون في قلبه شيء لغيره، فإذا حصل تحقيقه بما ذكر، فقد حصل الأمن التام، والاهتداء التام»[٣].

وقد ذكر الله لنا مثلاً نقتدي به في كتابه، كيف نحقق التوحيد، كما في قوله تعالى عن

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٣-٢٤).

(٢) المصدر السابق (٣٧).

(٣) المصدر السابق(٣٧).

إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقد تكلم رحمه الله على هذه الآية، مبيناً كيف حقق إبراهيم عليه السلام التوحيد، فقال: «وصف الله خليله عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وأثنى عليه بها فقال: ﴿كَانَ أُمَّةً ﴾ أي: إماماً على الحنيفية، قدوة يقتدى به، معلما للخير، أو لما اجتمع فيه من صفات الكمال، الخير والأخلاق الحميدة ما يجتمع في أمة استحق اسمها، والقولان متلازمان، فإنه أمة على الحق وحده، وإمام لجميع الحنفاء، يقتدون به في ذلك»(١).

فحقق إبراهيم عليه السلام التوحيد بفراق قومه «بالقلب واللسان والبدن، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك، وما ذاك إلا من أجل تحقيقه التوحيد، بل ضم إلى ذلك البراءة من المشركين، وعاب ما كانوا عليه وكفرهم، كما قال الله عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦]، فتبرأ من العابد قبل المعبود، وضم إلى ذلك أن اعتزلهم، فلم يكن منهم بأي اعتبار كان.

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٤٨] إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ ﴾ [مريم: ٤٩]، فهذا هو تحقيق التوحيد...، حيث وصف خليله بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وقد أمرنا بالتأسي والاقتداء به، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]»(٢).

وذكر الله عز وجل بعض صفات المؤمنين الذين حققوا التوحيد، بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم

---

(١) المصدر السابق (٣٧)، انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١٠)، تفسير الطبري (٢/ ٣٣٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٧)، أضواء البيان (٢/ ٤٦٤).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٣٨) بتصرف.

مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦٠]، ثم علق رحمه الله على هذه الآية، مبيناً كيف حقق هؤلاء التوحيد، فقال: «وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة فأثنى عليهم بهذه الصفات الحميدة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، ثم طبع على أعمالهم الصالحة بطابع الإخلاص، وهو السلامة من الشرك قليله وكثيره، صغيره، وكبيره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا هو الأحد الصمد، ومن كان كذلك فقد بلغ النهاية من تحقيق التوحيد، الموجب لدخول الجنة بغير حساب، ومن لا فلا؛ وذلك لأن الأعمال من حيث هي لا تصح مع الأكبر، فإن سلم من الأكبر فإن الأعمال لا تزكو ولا تنمو إلا بالسلامة من الأصغر»[1].

وعند شرحه رحمه الله لحديث ابن عباس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب**»، ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج، فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟**

---

(١) المصدر السابق (٣٨-٣٩).

قال: نعم، فقام آخر فقال: أمنهم أنا ؟ قال: سبقك بها عكاشة»[١].

وهنا بين ﷺ العلة في دخولهم الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقال: «لتحقيقهم التوحيد»[٢]، ثم بين ﷺ معاني هذه الصفات، التي حقق بها المؤمنون التوحيد، ودخلوا بها الجنة، من دون حساب، ولا عذاب، وأن هذا كله بفضل الله منته على عباده:

فقوله ﷺ: **«هم الذين لا يسترقون»**، قال ﷺ: «أي لا يطلبون من يرقيهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء، وهكذا ثبت في الصحيحين[٣]، وفي رواية لمسلم: «ولا يرقون»[٤]، قال شيخ الإسلام: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «ولا يرقون»، وقد سئل ﷺ عن الرقى، فقال: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**[٥]، وقال: **«لا بأس بالرقى إذا لم تكن شركاً»**[٦] [٧].

وقد رقى جبريل النبي ﷺ[٨]، ورقى النبي ﷺ أصحابه[٩]، والفرق بين الراقي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥/ ٢١٥٧)، برقم(٥٣٧٨).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٤٣).

(٣) انظر: صحيح البخاري، في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، (٥/ ٢٤٩٦)، برقم(٦١٧٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩)، برقم (٢٢٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩)، برقم (٢٢٠).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة (٤/ ١٧٢٦)، برقم (٢١٩٩).

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقي (٤/ ١٠) برقم (٣٨٨٦)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، كتاب الطب، (٤/ ٢٣٦)، برقم (٧٤٨٥).

(٧) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٨٢).

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي (٤/ ١٧١٨)، برقم (٢١٨٥).

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ (٥/ ٢١٦٨)، برقم (٥٤١٢).

والمسترقي، أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن، وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم»[١]؛ لأن الرقية نوع من الدعاء، فلا يطلبون من أحد ذلك؛ لأن طلب الرقية من الناس سؤال للمخلوق، والسؤال للمخلوق فيه ذِلّة، فهم يستغنون عن الناس، ويعتمدون على الله سبحانه، وهذا من تمام التوحيد.

وأما رواية «لا يرقون»: فهي مخالفة لأمره لأمته بالدعاء، وأنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق، ولهذا جاء الترغيب بالدعاء للغائب؛ لأنه أعظم إجابة من دعاء الحاضر؛ لأنه أكمل إخلاصاً، وأبعد عن الشرك، فعن أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل»**[٢] فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه إلى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر؟[٣] بل «كيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان، وهذا بخلاف من رقى أو رقي من غير سؤال، فقد رقى جبريل النبي ﷺ، ولا يجوز أن يقال إنه ﷺ لم يكن متوكلاً في تلك الحال»[٤].

وقوله ﷺ: **«ولا يكتوون»**، قال ﷺ: «أي لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم، وقوله: **«ولا يكتوون»** أعم من أن يسألوا ذلك، أو يفعل بهم باختيارهم، والكي في نفسه جائز، كما في الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ: **«بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه»**[٥]، وكوى أنس من ذات

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٤٥)، انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٤/ ٢٠٩٤)، برقم (٢٧٣٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى(١/ ٣٢٨-٣٢٩)

(٤) تيسير العزيز الحميد (١/ ٨٦).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب (٤/ ١٧٣٠)، برقم (٢٢٠٧).

الجنب [١]، والنبي ﷺ حي رواه البخاري [٢]، وفي الصحيح عن ابن عباس مرفوعاً: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي» [٣]، وفي لفظ: «وما أحب أن أكتوي» [٤].

قال ابن القيم: قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله. والثاني: عدم محبته. والثالث: الثناء على من تركه. والرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينها؛ فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل وأكمل، أي في تحقيق التوحيد، فكأن النبي ﷺ قال: هم الذين أخلصوا أعمالهم، وتركوا ما لا بأس به، حذرا مما به البأس، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة اهـ [٥].

فمن تركهما توكلاً لا تجلداً ولا تصبراً فهو من كمال تحقيق التوحيد، ومن تركهما تجلداً وتصبراً لم يكن تركه من التوحيد في شيء فضلا عن أن يكون من تحقيقه » [٦]، فبين رحمه الله أن الكي مباح عند الحاجة، ولكن إذا طلبته من غيرك يكون مكروهاً؛ لأنه من سؤال الناس، وكذلك يكره الكي ذاته؛ لما فيه من تعذيب بالنار.

وقوله ﷺ: «ولا يتطيرون»، قال ابن قاسم: «أي: لا يتشاءمون بالطير، ونحوها» [٧].

وقوله ﷺ: «وعلى ربهم يتوكلون»، قال ابن قاسم: «فتركوا الشرك رأسا، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي، وإن كان يراد للشفاء، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله، وتفويض أمورهم إليه،

---

(١) هي: الدبيلة والدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب، وتنفجر إلى داخل، وقلما يسلم صاحبها، ولعلها: السل، والله أعلم. انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ذات جنب (٥/ ٢١٦٢)، برقم (٥٣٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث (٥/ ٢١٥١)، برقم (٥٣٥٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل (٥/ ٢١٥٢)، برقم (٥٣٥٩)

(٥) انظر: زاد المعاد، لابن القيم (٤/ ٦٥).

(٦) حاشية كتاب التوحيد (٤٥-٤٦).

(٧) المصدر السابق (٤٦)، انظر: بيان الطيرة (٢٣٤) من هذا البحث.

وثقتهم به، ورضاهم عنه، وصدق الالتجاء إليه، وإنزال حوائجهم به سبحانه وتعالى، والاعتماد بالقلب الذي هو نهاية تحقيق التوحيد، وهو الأصل الجامع الذي تفرعت عنه تلك الأفعال والخصال، وعطفه على تلك من عطف العام على الخاص؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل وهو أعم من ذلك.

والحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلا على الله: كالاكتواء، والاسترقاء، وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعاً[1]؛ لما في الصحيحين: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»**[2] وأخرج أحمد **«يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم»**[3].

قال ابن القيم: وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، والأمر بالتداوي[4]، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، بل

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٥/ ٢١٥١)، برقم (٥٣٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه، في كتاب الطب، باب ما جاء في الدَّواء والحث عليه (٤/ ٣٨٣)، برقم (٢٠٣٨)، ولفظ له، وأحمد بن حنبل مسنده (٤/ ٢٧٨)، برقم (١٨٤٧٧).

(٤) وقد ذكر الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب اختلاف العلماء في التداوي هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب، أو واجب؟

فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه، ولكن على ما تقدم لا يتم الاستدلال به على ذلك، والمشهور عند الشافعي الثاني حتى ذكر النووي في شرح مسلم أنه مذهبهم، ومذهب جمهور السلف، وعامة الخلف، واختاره الوزير أبو المظفر، قال: ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب، قال: ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه فإنه قال: لا بأس بالتداوي، ولا بأس بتركه، وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد. تيسير العزيز الحميد (١/ ٨٨).

لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب، وتعطيلها يقدح في التوكل، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً[(١)]»[(٢)].

٣. أن من مات على التوحيد كان مصيره إلى الجنة، إما ابتداء أو انتهاء:

قال ابن قاسم في شرحه لحديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**[(٣)]: «أي على ما كان فيه من صلاح أو فساد، وهذه الجملة جواب الشرط، أي من شهد إلى آخره أدخله الله الجنة بإخلاصه، وصدقه والإيمان برسوله، وما أرسل به، وإن كان مقرًا وله ذنوب، فهذه الحسنة العظيمة ترجح بجميع السيئات، فإنه يدخل الجنة على أحد ثلاثة تقادير:

ـ إما أن يلقى الله سالماً من جميع الذنوب فيدخلها من أول وهلة.

ـ أو يلقى الله وهو مصر على كبيرة أو ذنب، وهو بين أمرين إما أن يعفو الله عنه فيدخله الجنة.

ـ أو يجازيه بجرمه ثم يدخله الجنة، ففيه فضل التوحيد وذلك أن من مات على التوحيد فمصيره إلى الجنة بكل حال»[(٤)]، وهذا كله بفضل الله سبحانه ومنته على خلقه، ولكن بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار؛ مع أنه لا يكتفي بالنطق، فلا بد من عمل، كما سيأتي بيانه في شروط لا إله إلا الله[(٥)].

ومما استدل به ﷺ على دخول الموحد الجنة حديث البطاقة الذي أخرجه

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٥).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٤٦-٤٧)، انظر: حاشية الروض المربع (٣/ ٨) تيسير العزيز الحميد (١/ ٨٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، (٣/ ١٢٦٧)، برقم (٣٢٥٢).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٧-٢٨).

(٥) انظر (١٦٠).

الترمذي «وحسنه[١]»[٢] وفيه قال النبي ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك، فيخرج له بطاقة فيها أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[٣].

وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال: موسى ﷺ: يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به قال: قل يا موسى لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»[٤].

قال ﷺ مبيناً دلالة هذا الحديث: «أي: رجحت بهن، فدل على عظم شأنها، وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال، وأساس الملة، والدين، ولما يجتمع لقائلها من الذكر والدعاء، وما يحصل له من تكفير الذنوب والخطايا، فمن قالها بإخلاص ويقين وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك دخل الجنة، فإن هذه الحسنة لا يوازيها شيء»[٥]،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه وحسنه، في كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا (٥/ ٢٤)، برقم (٢٦٣٩) بنحوه.

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٣٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/ ١٤٣٧)، برقم (٤٣٠٠)، الحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب الإيمان (١/ ٤٦)، برقم(٩).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، في كتاب الدعاء (١/ ٧١٠)، برقم (١٩٣٦)، وأبي يعلى الموصلي في مسنده (٢/ ٥٢٨)، برقم (١٣٩٣).

(٥) حاشية كتاب التوحيد (٣٢-٣٣) بتصرف، انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦٠).

وهذا يدل على عظم هذه الكلمة، التي من حققها دخل الجنة بفضل الله وكرمه.

٤ - أنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله مخلصاً لله:

والمقصود من هذا أنه لا يخلد الموحد في النار إن دخلها، قال ابن قاسم في شرحه لحديث عتبان بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**فإن الله قد حرم على النار من قال لا إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»(١): «فإن من قالها يبتغي بها وجه الله لا بد أن يعمل بما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، فإن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: «**غير شاك**»(٢)، وفي الصحيح: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة**»(٣)، وفي رواية: «**ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار**»(٤)، ولمسلم: «**لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**»(٥)، وله أيضاً: «**من لقيت يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة**»(٦)، وفيهما مرفوعاً: «ما من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب المسَاجدِ في البيوت(١/ ١٦٤)، برقم(٤١٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، (١/ ٤٥٥)، برقم(٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٥)، برقم (٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم (١/ ٦٠)، برقم(١٢٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم (١/ ٥٩)، برقم (١٢٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٥)، برقم (٢٧).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٩)، برقم (٣١).

عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»[١]، فيحمل المطلق على المقيد، قال شيخ الإسلام وغيره: قالها بصدق وإخلاص ويقين ومات على ذلك، فإن حقيقة التوحيد انجذاب القلب إلى الله جملة بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقولها يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال...

وأكثر من يقولها اليوم لا يعرف معناها، ولا يعرف الإخلاص ولا اليقين، أو يقولها تقليداً أو عادة ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالبهم من يفتن عند الموت، وفي الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»[٢]، وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث؛ فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرًّا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرمه الله ولا كراهة لما أمر الله به، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة[٣]، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الثياب البيض صحيح البخاري (٥/ ٢١٩٢)، برقم (٥٤٨٨). ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة (١/ ٩٥)، برقم (٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس (١/ ٤٤)، برقم (٨٦).

(٣) سبق تخريجه(١٢٩).

رجحت سيئاته بحسناته، ومات مصرًّا على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة فيضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم.

فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها وقسا القلب، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غير الله، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، فلا يقوى قولها على محو السيئات، فترجح سيئاته على حسناته، قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال اهـ[(١)].

وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وأن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لله تعالى»[(٢)]، وبهذا بين ابن قاسم أن لا إله إلا الله تنفع صاحبها إذا استجمعت شروطها، وانتفت موانعها، وقد يتخلف عنه مقتضاها إما لفوات شرط من شروطها، أو لوجود مانع يمنع من مقتضاها، أما من أكمل مقتضاها فإنه يحرم على النار بفضل الله ورحمته.

هذه أربع ثمرات من ثمرات التوحيد، التي تتضمن خيري الدنيا والآخرة، وبها سعادة الدارين، ورضا رب العالمين، وبها تكفر الذنوب، ويدخل الجنة، جعلنا الله من أهلها، ويخرج من النار أعاذنا الله منها.

---

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٨٠)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٦٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٨-٣٠)، انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦٠)، معارج القبول (٢/ ٤١٩).

المبحث الثالث

معنى شهادة لا إله إلا الله
وأركانها، وشروطها، والدعوة إليها

و فيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: معنى شهادة أن لا إله إلا الله لغة واصطلاحا، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تعريف الشهادة في اللغة:

الشهادة في اللغة: تدل على الحضور، والعلم، والإعلام[١]، قال ابن قاسم رحمه الله: «وعبارات السلف في الشهادة تدور على الحكم، والقضاء. والإعلام، والبيان، والإخبار، وذكر ابن القيم وغيره أنه لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله، وتتضمن: إعلامه، وإخباره، وبيانه وأول مراتبها علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به، وتكلمه بذلك، وإعلامه غيره بما شهد به، وإلزامه بمضمونها، وشهادته سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط[٢]، تضمنت هذه المراتب الأربع:

١. علمه بذلك.
٢. وتكلمه به.
٣. وإعلام خلقه وإخبارهم به.
٤. وأمرهم وإلزامهم به.

فأما العلم فالشهادة تتضمنه ضرورة، ومن تكلم به فقد شهد به، ولفظ الشهادة يستعمل فيه الإعلام. وتدل على الأمر»[٣].

---

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٢٣٨-٢٤٠)، تهذيب اللغة (٦/ ٤٧)، معجم مقاييس اللغة (٣/ ٢٢١).

(٢) انظر: تفسير ابن القيم (١ / ١٧٨).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٤٨-٤٩)، انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٣).

وأما إذا«أطلق لفظ الشهادة على شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأنها أعظم شهادة في الوجود على أعظم مشهود به، فلا ينصرف الإطلاق إلا إليها»[١].

المسألة الثانية: تعريف الشهادة اصطلاحاً:

بيّن ابن قاسم معنى الشهادة اصطلاحًا، فقال رحمه الله: «ومعنى هذه الكلمة العظيمة شهادة أن لا إله إلا الله لا معبود، أي: لا مألوه بحق إلا الله وحده دون كل من سواه، بل كل مألوه سوى الله جل جلاله فإلهيته أبطل الباطل، وأضل الضلال»[٢].

المطلب الثاني: معنى وأدلة تفسير شهادة لا إله إلا الله:

بين ابن قاسم تفسير، ومعنى لا إله إلا الله، وهو أنه لا معبود بحق إلا الله وحده، فقال رحمه الله: «ففيها نفي الإلهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده...، لا كما يقوله بعض الجهلة إن معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، فإنها وإن دلت عليه بطريق التضمن فهي موضوعة لتوحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة، الذي أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب في تقريره وإيضاحه»[٣].

ولقد كان المشركون «يعرفون معناها، وأنها دلت على إفراد الله بالعبادة؛ ولهذا أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، وقالوا شتم آلهتنا، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص: ٥]، بل يريدون أن يجعلوا بينهم وبين الله وسائط وشركاء في العبادة، فإن نفوسهم وإحساسهم امتزجت بالشرك ونشأت عليه وألفته فصاروا كالمريض الذي فسد مزاجه، فإذا أتى بالطعام الحلو، قال: هذا مر وهو ليس بمر. ولكن الآفة من مزاجه الفاسد، بالنسبة إلى عقولهم الفاسدة، فكذلك الحق والنور المبين الذي جاء عن النبي ﷺ هو عندهم وأمثالهم مر بالنسبة إلى مزاجاتهم.

والمقصود أنهم عرفوا أن مدلولها أن يكون المعبود هو الله وحده، وبهذا تعرف

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٤٨).
(٢) المصدر السابق (٥٠).
(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٥٠).

أن مدلول لا إله إلا الله مطابقة هو إفراد الله بالعبادة»[١].

ثم بيّن أن هذه الشهادة العظيمة لا تنفع صاحبها إلا بعد فهم معانيها، وعمل بمقتضاها، وذلك بقوله: «الحاصل أن لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيا وإثباتا، واعتقد ذلك، وقبله وعمل به، وأما من قالها من غير علم بمعناها، ولا اعتقاد، ولا عمل بمقتضاها من نفي الشرك وإخلاص القول والعمل لله وحده فغير نافع بالإجماع، بل تكون حجة عليه. والمشركون الأولون جحدوها لفظًا ومعنى، فإنه ﷺ لما قال لهم: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[٢]، قالوا: أجعل الآلهة إلها واحداً.

ومشركو زماننا أقروا بها لفظاً، وجحدوها معنى، فتجد أحدهم يقولها ويأله غير الله بأنواع العبادة، بل يخلصون العبادة في الشدائد لغير الله، فهم أجهل من مشركي العرب، والمتكلمة وغيرهم يزعمون أن معنى الإله هو القادر على الاختراع، وأن من أقر بأن الله وحده خالق كل شيء فهو الموحد، وليس الأمر كذلك حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه سبحانه وحده هو المستحق للعبادة، ويلتزم بها»[٣]، وبه قال السلف[٤].

ثم انتقل رحمه الله إلى بيان وتوضيح أدلتها، فقال: «تفسير شهادة أن لا إله إلا الله الذي بينها بياناً تامًّا من القرآن، فإنه تعالى بينها في كتابه في غير موضع، ولم يوَكل

---

(١) المصدر السابق (٥١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، باب مسح باطن الأذنين وظاهرهما الرجلين (١/ ٨٢)، برقم (١٥٩)، ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، ذكر مقاساة المصطفى ﷺ ما كان يقاسي من قومه في إظهار الإسلام (١٤/ ٥١٧)، برقم (٦٥٦٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، في كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين (٢/ ٦٦٨)، برقم(٤٢١٩).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٥-٢٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٨١)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٠١)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٩٣)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٧).

عباده في بيان معناها إلى أحد سواه»[١]، ومن الآيات الدالة على تفسير شهادة لا إله إلا الله: قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

بين رحمه الله وجه دلالة هذه الآية على شهادة التوحيد، فقال: «أي لا معبود بحق في الوجود إلا هو وحده، فهو الإله الحق، ومن ادعيت فيه الألوهية سواه فهو أبطل الباطل، وأضل الضلال، فالله الإله الحق المستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه...

وشهادته سبحانه هي أعظم شهادة في الوجود أنه لا إله إلا هو المتفرد بالإلهية، من أعظم شاهد، وهو الله سبحانه وتعالى وتقدس، على أعظم مشهود به، وهو وحدانيته جل وعلا؛ فإنه لا شهادة أعظم ولا أجل ولا أثبت من شهادته تعالى لنفسه بالألوهية، وشهادة رب العالمين لا ينقصها شيء البتة، وذكر الكلبي[٢]: أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله هذه الآية فأسلما[٣]»[٤].

ثم لخص ما سبق، بقوله: «تضمنت هذه الآية الكريمة أجلّ شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها من أجلّ شاهد، بأجلّ مشهود به، وتضمنت توحيده تعالى، وعدله، وعزته، وحكمته»[٥].

ومن الأدلة أيضاً: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨] قال رحمه الله: «أي: وجعل كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله باقية

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٥٣).
(٢) هو محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النضر، الكوفي النسابة، المفسر، متهم بالكذب، ورمي بالرفض، مات ١٤٦هـ. تقريب التهذيب (١/ ٤٧٩)، انظر: تهذيب التهذيب (٩/ ١٥٧).
(٣) انظر: تفسير البغوي (١/ ٢٨٥).
(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٤٨-٤٩).
(٥) المصدر السابق (٥٠)، انظر: تفسير ابن القيم (١ / ١٧٧).

في نسله وذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذريته، لعلهم أي: لعل أهل مكة وغيرهم يرجعون إلى دين إبراهيم الخليل، والكلمة هي لا إله إلا الله بإجماع المفسرين[(١)]، فعبر عن معنى لا إله بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وعبر عن معنى إلا الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

فتبين أن معنى لا إله إلا الله هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله كما تقدم، وبين تعالى معنى لا إله إلا الله في آيات كثيرة من كتابه يتعذر حصرها، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفي ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾، ما في معنى لا إله، وقوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ هو الإثبات الذي أثبتته لا إله إلا الله، إذ لا يعبر عن الشيء إلا بمعناه، فبهذا ونحوها تعرف أن معنى لا إله إلا الله النفي والإثبات، والولاء والبراء، والتجريد والتفريد.

وهذه التفاسير ونحوها ترجع إلى معنى واحد، وهو تجريد غير الله عن الألوهية، وتفريدها لله وحده دون كل من سواه، والبراءة من تأله غير الله بالكلية، ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب، والسنة، وإجماع الأمة»[(٢)]، وبهذا أبطل الشيخ ابن قاسم ﵀ تفسير من فسر شهادة أن لا إله إلا الله بأنها لا قادر على الاختراع إلا الله، وغيره من التفسيرات الباطلة التي تثبت توحيد الربوبية فقط، ولو كان هذا حقًّا لكان المشركون الذين قاتلهم النبي موحدين لأنهم يقرون بهذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

---

(١) أنظر: تفسير البغوي (٤/ ١٣٧)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٨).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٥٣-٥٤)، انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٨١)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٠١)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٩٣)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٧).

المطلب الثالث: أركان شهادة لا إله إلا الله:

لا إله إلا الله لها أركان، بينها ابن قاسم بقوله: «والقرآن كله يدل على إثبات العبادة لله وحده، فـ(لا إله إلا الله) اشتملت على أمرين هما ركناها: النفي، والإثبات، فـ(لا إله) نافياً وجود معبود بحق سوى الله، و(إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده دون كل ما سواه، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض، فلابد الجمع بين النفي والإثبات»[(١)]، ثم بعد ما بين ﷺ أن شهادة لا إله إلا الله مشتملة على ركنين، هما: النفي والإثبات، فصل معنى هذين الركنيين:

الأول: النفي، وهو: نفي الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ، وهذا يقتضي الكفر بالطاغوت، وبكل ما يعبد من دون الله سبحانه، وبكل دين وملة غير ملة الإسلام، والبراءة من الشرك والكفر وأهله، وقد بيّن ﷺ ذلك بقوله: «النفي في كلمة الإخلاص (لا إله)أي: لا مألوه يستحق أن يعبد إلا الله، فإذا قلت: لا إله، كنت نافياً جميع ما يعبد دون ما سوى الله، يعني: والآلهة غير الله كثيرة طبق الأرض ولكن بالباطل والضلال، وإنما الإله المستحق للعبادة هو الله وحده، وآلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله إنما هي مجرد ظن منهم واتباع لهواهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]»[(٢)].

الثاني: الإثبات، وهو: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة لله ﷻ وحده، لا شريك له، وهذا يقتضي الإيمان بالله ﷻ، ومحبة أهل التوحيد، قال ﷺ: «الإثبات في كلمة الإخلاص قولك: (إلا الله) هو المستثنى في هذه الكلمة العظيمة، ودلالتها على إثبات الإلهية لله وحده، أعظم من دلالة قولنا: الله إله، فـ(لا) نافية للجنس، وخبرها المرفوع محذوف تقديره حق، فـ(إلا الله) استثناء من الخبر المرفوع، فالله هو الحق، وعبادته

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٥٢).

(٢) المصدر السابق (٥٢).

وحده هي الحق، وعبادة غيره منفية بـ(لا) في هذه الكلمة»[١].

فمن جمع بين الركنين فقد حقق التوحيد، وآمن بالله سبحانه؛ لأن النفي المحض تعطيل محض، وكذلك الإثبات المحض لا يمنع من مشاركة غيره معه، فلابد من الجمع بين النفي والإثبات.

المطلب الرابع: شروط شهادة لا إله إلا الله:

هذه الكلمة العظيمة - لا إله إلا الله - لا تنفع قائلها في الآخرة إلا بعد استجماع شروطها، وانتفاء موانعها، ومن اقتصر على النطق، ولم يحقق شروطها فلا يحصل له الانتفاع التام بها، وقد ذكر ابن قاسم شروطها بقوله: «وشروطها ثمانية: أحدها العلم المنافي للجهل، الثاني: اليقين المنافي للشك. الثالث: القبول المنافي للرد، الرابع: الانقياد المنافي للترك، الخامس: الإخلاص المنافي للشرك، السادس: الصدق المنافي للنفاق، السابع: المحبة المنافية لضدها، الثامن: الكفر بما سوى الله تعالى»[٢]، وتفصيل هذه الشروط كالتالي:

١. العلم: وهو العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل بذلك، قال الله ﷻ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

٢. اليقين: وهو اليقين المنافي للشك، وذلك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، لا يخالطه شك ولا ريب، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾ [الحجرات: ١٥].

٣. القبول: وهو القبول لما اقتضته هذه الشهادة بقلبه ولسانه، وذلك بعبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ

(١) المصدر السابق (٥١-٥٢)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٠١)، طريق الهجرتين، لابن القيم (١/ ٢٣٦) تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٨).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٥٢).

تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

٤. الانقياد: وهو التسليم والإذعان لما دلت عليه هذه الشهادة، المنافي لترك ذلك، قال الله ﷻ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢]، أي: بلا إله إلا الله.

٥. الصدق: وهو أن يقولها صدقاً من قلبه ولسانه، صدقاً ينافي الكذب ظاهراً، ويمنع من النفاق باطناً، قال الله ﷻ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢].

٦. الإخلاص: وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، والرياء والنفاق، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

٧. المحبة: ويقصد بها المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها، الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقضها، قال الله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]. الكفر بما سوى الله تعالى، واعتقاد بطلانه، ويدل عليه قول رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[١].

وهذه الشروط مأخوذة بالاستقراء، والتتبع للأدلة من الكتاب والسنة[٢]، قال ابن قاسم عند شرحه لقول النبي ﷺ: «فإن الله حرم على النار من قال لا إلا الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (١/ ٥٣)، برقم (٢٣).

(٢) انظر: معارج القبول(٢/ ٤١٩-٤٢٤)، رسائل في العقيدة، للحمد (١١٦-١٢٩)، المفيد في مهمات التوحيد، لـ د. عبد القادر بن محمد صوفي (٩٤-١٠٤).

يبتغي بذلك وجه الله»[١]: «هذا هو حقيقة معناها، فإن من قالها يبتغي بها وجه الله لا بد أن يعمل بما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، فإن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: «غير شاك»[٢]، وفي الصحيح: «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة»[٣]، وفي رواية «ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»[٤]، ولمسلم: «لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة»[٥]، وله أيضاً: «من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»[٦]، وفيهما مرفوعاً: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»[٧]، فيحمل المطلق على المقيد»[٨]، فهذه هي شروط لا إله إلا الله التي لا تنفع قائلها إلا باجتماعها، وانتفاء موانعها، ومن حققها، كان من أهلها، القائمين بها علماً وعملاً، وبهذا يستحق العبد محبة الله ﷻ، والتنعم بجناته جنات النعيم، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من أهلها، إنه ولي ذلك والقادر عليه..

---

(١) سبق تخريجه(١٥١).
(٢) سبق تخريجه (١٥١).
(٣) سبق تخريجه (١٥١).
(٤) سبق تخريجه (١٥١).
(٥) سبق تخريجه (١٥١).
(٦) سبق تخريجه (١٥١).
(٧) سبق تخريجه (١٥٢).
(٨) حاشية كتاب التوحيد (٢٨-٢٩)، انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦٠)، معارج القبول، للحكمي (٢/ ٤١٩).

المطلب الخامس: الدعوة إلى توحيد الألوهية:

لما ذكرنا فضل التوحيد وتحقيقه، ناسب أن نذكر الدعوة إليه؛ لأنه لا يتم إيمان المرء إلا به، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فإذا لم يكن مع التوحيد الدعوة إليه كان الإيمان ناقصاً، قال ابن قاسم رحمه الله: «لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، فإن الرجل إذا علم وجب عليه العمل، فإذا علم وعمل وجبت عليه الدعوة إلى الله، حتى يكون من ورثة الأنبياء، وعلى طريقهم، وطريق أتباعهم...

والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى توحيده، والإيمان به، وبما جاءت به رسله، وذلك يتضمن الدعوة إلى أركان الإسلام، وأصول الإيمان، والإحسان، بل الأمر بما أمر به، والنهي عما نهى عنه، ولا تتم إلا بذلك، وأول ما يبدأ به الدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى الشهادة، كما كان شأن المرسلين وأتباعهم كالمصنف رحمه الله[١]، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره»[٢].

وهذا الوجوب على مجموع الأمة، والذي يسميه العلماء فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن البقية، وإذا تركوه جميعهم أثموا، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وإنما يجب على المرء المعين من ذلك ما يقدر عليه، إذا لم يقم به غيره[٣].

وهي من آكد السنن التي حثنا الله عليها، وقد وصف الله أمته بها في غير موضع

---

(١) يقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٥٤)، انظر: حاشية ثلاثة الأصول (١٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٥-١٦٦).

في كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد أشار رحمه الله أن «النصوص في الدعوة إلى الله كثيرة كقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، وهي واجبة على من اتبعه، أن يدعو إلى الله كما دعا إليه.

* وذكر ابن القيم أن مراتب الدعوة ثلاثة أقسام، وذلك بحسب حال المدعو:

١. فإنه إما أن يكون طالباً للحق محبًا له مؤثرًا له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال.

٢. وإما أن يكون مشتغلا بضد الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

٣. وإما أن يكون معاندًا معارضاً، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجلاد إن أمكن[1].

* ولابد في الدعوة إلى الله من شرطين:

١. أن تكون خالصة لوجه الله، وأن تكون على وفق سنة رسول الله ﷺ.

٢. وأن يكون الداعي عارفاً بما يدعو إليه.

فإن أخل بالأول كان مشركاً، وأن خل بالثاني كان مبتدعاً.

وقال الشيخ: يحتاج إلى شروط كما في الحديث، ينبغي لمن أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، أن يكون فقيها فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، فالفقه قبل الأمر: ليعرف المعروف فيأمر به، ويعرف المنكر فينكره، والرفق عند الأمر:

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم (٤/ ١٢٧٦).

ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود، والحلم بعد الأمر: ليصبر على أذى المأمور المنهي[١]»[٢]، وبهذا بين ﷫ أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا بها.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٥٥-٥٦)، انظر: مدارج السالكين (٣/ ٣٤٨)، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٨١).

المبحث الرابع
تعريف العبادة، وشروطها، ومحركاتها و أنواعها، وحكم صرفها لغير لله

و فيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العبادة لغة واصطلاحاً، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تعرف العبادة في اللغة:

عرف ابن قاسم العبادة في اللغة، فقال رحمه الله: «العبادة لغة: التذلل والانقياد»(١)، وقال: «والعبادة في اللغة التذلل والخضوع، من قولهم طريق معبد، أي: مذلل قد وطئته الأقدام، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يفعلونها لله خاضعين ذالين»(٢).

المسألة الثانية: تعريف العبادة اصطلاحاً:

بيّن ابن قاسم رحمه الله أن للعلماء تعاريف عدة للعبادة، وأحسنها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، وذلك بقوله: «وللعلماء فيها تعاريف كثيرة، وأحسن وأجمع ما عرفت به هو ما عرفها به شيخ الإسلام، بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة(٣).

... وهو من أشمل ما عرفت به، فكل فرد من أفراد العبادة داخل تحت هذه العبارة، فيدخل فيها ما ذكر ويدخل فيها ما شمله الحد، فالعبادة شملت جميع أنواع الطاعات»(٤).

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٢).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٢٣)، انظر: تهذيب اللغة (٢/ ١٣٨)، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٠٥)، القاموس المحيط (١/ ٣٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٣٤)، انظر: حاشية كتاب التوحيد (١٢-١٣).

وقد عرفها رحمه الله في موضع آخر، فقال: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ومن أنواعها: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، وغير ذلك»[(١)]. فالعبادة تتضمن غاية الذل لله تعالى، بغاية المحبة له عز وجل؛ فمن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده وصديقه[(٢)].

والعبادة - إذاً - تتضمن غاية الحب، مع غاية الذلّ، كما قال ابن قاسم رحمه الله: «أصل العبادة التذلل والخضوع، قال الشيخ: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل اهـ، وعرفها ابن القيم فقال:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليها فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان[(٣)]»[(٤)]

المطلب الثاني: أدلة وجوب صرف جميع العبادة لله وحده:

جميع العبادات يجب أن تكون لله وحده، ولهذا بيّن ابن قاسم وجوب صرف: «جميع أنواع العبادة... لله وحده، لا يصلح منه شيء لغير الله عز وجل، لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلا عن غيرهما، ولا أضل ولا أظلم ممن يجعل لمخلوق مربوب منها شيئاً»[(٥)]، وأنها «أعظم فريضة فرضها الله على العباد علماً وعملاً، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب، وتستوجب الجنة، وينجى من النار»[(٦)].

ويدل على ذلك عدة أدلة، وقد علق ابن قاسم رحمه الله عليها، مبيناً دلالتها، منها:

(١) حاشية الدرة المضية (٦١).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٣).
(٣) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى (١/ ٢٥٣).
(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢١).
(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٣٤).
(٦) حاشية ثلاثة الأصول (٢٣).

١. قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، علق رحمه الله بقوله: «يأمر سبحانه عباده بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وقرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه، فدلت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة»[1].

٢. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، بين ابن قاسم وجوب توحيد العبادة، الذي جاء في هذه الآية، حيث قال مبيناً معناه: «هذا خطاب لجميع الخلق وهو أول أمر يمر بك في المصحف الكريم، كما أن أول فعل يمر بك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، تقديم المعمول هنا يفيد الحصر، أي: لا نعبد سواك كما أن أول شيء دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]...، ومعنى قول الرسل ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، ومعنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هو ما فسره ابن عباس، بقوله: كل موضع في القرآن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فمعناه وحدوا الله، وقال: عبادة الله توحيد الله يعني اعبدوه وحده دون كل من سواه، وهذا يفيدك، عظم شأن التوحيد، وأنه أوجب الواجبات، وأنه أول فرض على المكلف علماً وعملاً، وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، التي أوجب الواجبات العلم بمعناها، والعمل بما دلت عليه، من إفراد الله بالعبادة، والبراءة من الشرك وأهله، وصدور العبادة من غير توحيد لا يسمى عبادة، وليس بعبادة، وإذا صدرت ممن أشرك فيها مع الله غيره فهي بمنزلة الجسد الذي لا روح فيه، وإذا عبد الله تارة، وأشرك معه تارة فليس بعابد لله على الحقيقة كما سمى الله

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٥).

المشركين مشركين، وهم يعبدون الله ويخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار، وتلاطم الأمواج، يهربون ويفزعون ويلجأون إليه تعالى وحده، ويعرفون أن تلك الآلهة ليست شيئاً في الحقيقة، وأنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سماهم الله مشركين؛ بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية في غير موضع من كتابه، ولم يرد في العبادة إلا إفراده تعالى بجميع أنواعها، فمن أطاعه في جميع ما أمره به منها فقد وحده وإلا فلا، وكونه تعالى ربنا يفيد ويقتضي أن نعبده وحده، وأن لا نجعل له شريكاً في ربوبيته، ولا في ألوهيته وعبادته»[1]، وبهذا أوضح رحمه الله وجوب صرف العبادة جميعها لله تعالى، وأن صرفها إلى غيره شرك بالله سبحانه، وأن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة.

المطلب الثالث: شروط العبادة:

العبادة لا تقبل إلا إذا توفر شرطاها، وهما:

١. أن تكون خالصة لله تعالى من الشرك الأكبر، والأصغر.

٢. أن تكون صواباً على سنة رسول الله ﷺ.

وقد بين ابن قاسم هذين الشرطين، بقوله: «العمل المتقبل أن يكون خالصاً لله، وأن يكون صواباً على شريعة محمد ﷺ»[2]، ثم شرح وبين هذين الشرطين، رحمه الله بقوله: «ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذا المتابعة كما قال الفضيل[3] في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٣١-٣٢).

(٢) المصدر السابق (٣٨)، انظر: مدارج السالكين (١/ ٨٣).

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي، شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء الزهاد، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي، ولد في سمرقند عام ١٠٥هـ، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفي بها، سنة ١٨٧هـ انظر: تهذيب التهذيب(٨/ ٢٦٤-٢٦٥)، الأعلام للزركلي (٥/ ١٥٣).

ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة[١]»[٢]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال ﷺ معلقاً على هذه الآية، بقوله: «وهو ما كان موافقاً لشرع الله، مقصوداً به وجهه»[٣]، بهذا يتبين أن كل عمل بلا إخلاص ومتابعة، فإنه يزيد العامل بعداً عن الله سبحانه، فإن الله لا يعبد إلا بأمره، لا بالأهواء ولا بالأراء.

المطلب الرابع: محركات القلوب:

محركات القلوب ثلاثة، وهي:

الأول: المحبة.

الثاني: الخوف.

الثالث: الرجاء.

وهذه الثلاثة هي دوافع العبادة في قلب المسلم، فهو يعبد ربه محبة له، وخوفاً من عقابه، ورجاء لثوابه، وقد تكلم ابن تيمية بكلام نفيس في هذا الموضوع بقوله: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر، والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم، يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية

---

(١) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٨/ ٩٥)، تفسير البغوي (٤/ ٣٦٩).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٦٧).

(٣) المصدر السابق (٢٦٥)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣).

بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب، قلنا يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله ﷻ بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب: ٤١-٤٢].

الثاني: مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره؛ فلابد أن يثير ذلك عنده باعثاً، وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو»[(١)]، وهذه أركان العبادة إجمالاً، وتفصيلها على النحو التالي:

الأول: المحبة:

بين ابن قاسم المحبة عبودية التي لا تصلح إلا لله تعالى، فقال: «لما كان من المحبة محبة خاصة لا تصلح إلا لله ﷻ، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل، والخضوع، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، ولا يجوز تعليقها بغير الله أصلا، ومتى أحب العبد بها غيره تعالى كان مشركاً شركاً لا يغفره الله إلا بالتوبة منه»[(٢)].

وإذا كانت محبة الله هي حقيقة عبوديته، وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، ولهذا جعل الله تعالى أتباع رسوله علماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها،

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥-٩٦) باختصار يسير.

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٦).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ﷺ، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ، ودل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة[١].

أقسام المحبة:

قسم ابن قاسم المحبة من حيث اشتراكها واختصاصها إلى قسمين، فقال: «المحبة قسمان: مشتركة ومختصة»[٢]، ثم فصل القول فيها:

١. «محبة مشتركة، والمشتركة ثلاثة أنواع: طبيعية كمحبة الجائع للطعام، ومحبة إجلال، وإعظام، ومحبة إشفاق كمحبة الولد لوالده، والوالد لولده، ومحبة أنس وإلف كمحبة الشريك في تجارة، أو صناعة أو سفر، أو غير ذلك، فهذه الثلاثة لا تستلزم التعظيم، ولا يؤاخذ أحد بها، ولا تزاحم المحبة المختصة[٣]، فلا يكون وجودها شركاً في محبة الله، لكن لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه من تلك»[٤].

٢. محبة «مختصة، فهي محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع،

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٩٩).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٦).

(٣) هذا هو الأصل، ولكن قد تزاحم محبة الله سبحانه، كما هو شأن الذين آثروا الدنيا على الآخرة.

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٦-٢٣٧).

والتعظيم، والطاعة، والإيثار على مراد النفس، فهذه لا تصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبد بها غيره فقد أشرك الشرك الأكبر»(١).

ويدل على هذا القسم حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٢)، فقد علق ابن قاسم رحمه الله على هذا الحديث بقوله: «أي لا يؤمن الإيمان الواجب، والمراد كماله، ونفي اسم الشيء على معنى نفي الكمال عنه مستفيض في كلام العرب، ولابن حبان: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان**»(٣)، ومعنى الحقيقة هنا الكمال، حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين؛ لأن بسببه ﷺ الحياة الأبدية، والإنقاذ من الضلال إلى الهدى، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه، كما في قصة عمر لما قال له: «لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك، قال له عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي. فقال: الآن يا عمر»، رواه البخاري(٤).

ومحبته ﷺ تقتضي طاعته، واتباع ما أمر به، وتقديم قوله دون من سواه، قال شيخ الإسلام: وكل مسلم يكون محبًا بقدر ما معه من الإسلام، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق؛ لأن ذلك لا يحصل إلا

---

(١) المصدر السابق (٢٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ١٤)، برقم(١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل وَالوَلد وَالوَالد والناس أجمعِين (١/ ٦٧)، برقم (٤٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في صفات المؤمنين، ذكر البيان بأن نفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه إنما هو نفي حقيقة الإيمان لا الإيمان نفسه... (١/ ٤٧١)، برقم (٢٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٢/ ١٦١)، برقم (١٧٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦/ ٢٤٤٥)، برقم (٦٢٥٧).

لخواص المؤمنين، وفي هذا الحديث أن الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة من عمل القلب، وفيه أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها»[(١)].

ومما يلحق بمحبة الله محبة ما يحبه سبحانه، واستدل رحمه الله بحديث أنس عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[(٢)]، قال رحمه الله معلقاً على هذا الحديث، : «والمراد بالسوى هنا ما يحبه الإنسان بطبعه، كمحبة المال والولد والأزواج ونحوها، وثنى الضمير هنا لتلازم المحبتين، ومحبة الله تستلزم محبة طاعته؛ فإنه يحب من عبده أن يطيعه، والمحب يحب ما يحب محبوبه ولا بد»[(٣)]، وأن «**يحب المرء الذي يعتقد إيمانه وعبادته، لا يحبه إلا لله**، أي: لأجل طاعة الله، وكان الصحابة يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله ولله، وتقرباً إليه، قال الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، ومن لازم محبة الله محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده، ومحبة الله ومحبة من يحبه الله من كمال الإيمان، وحقيقة الحب في الله أن لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر... قال شيخ الإسلام: أخبر ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان[(٤)]؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً واشتهاه، إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، والسرور أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١٤)، برقم (١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/ ٦٦)، برقم (٤٣)، ولفظ للبخاري.

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٩).

(٤) سبق تخريجه في هذه الصفحة.

هو المحبوب أو المشتهى.

فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور:

١. تكميل هذه المحبة.

٢. وتفريعها.

٣. ودفع ضدها.

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب؛ بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار»[1].

ومن لوازم محبة الله سبحانه الحب والبغض فيه، قال ﷺ، وهذا «من لوازم محبة العبد لله، فمن أحب الله أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته، وأبغضهم، وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، وبضعفها يضعف، وهذه المراتب الأربع هي ثمرة الإيمان ودعائم الملة»[2] ثم استدل ﷺ بحديث أبي إمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[3]، فقال: «أي: أحب أهل الإيمان بالله، وطاعته من أجل ذلك، فالحب في الله من ثمرات حب الله، ومن موجبات الإسلام.

وأبغض في الله أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وعصاه؛ لارتكابه ما يسخط الله، وإن كانوا أقرب الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٧-٢٣٨)، انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٦)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٩٥).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٤١).

(٣) أخرجه أبو داود سننه، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، (٤/ ٢٢٠)، برقم (٤٦٨١)، والطبراني في المعجم الأوسط (٩/ ٤١)، برقم (٩٠٨٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ١٨١)، برقم (٤٦٨١).

﴿ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]»[١]، ثم بيّن أن هذه الموالاة «بالمحبة والنصرة بحسب القدرة»[٢].

ومن ثم قال رحمه الله: «إذا ضعف داعي الإيمان أحب دنياه، وأحب لها، وآخى لأجلها، وهذا هو الغالب على أكثر الخلق؛ فإنك لا تجد غالبهم إلا وهو يقدم محبة دنياه، ويؤثر ما يهواه على ما يحبه الله ورسوله، وإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون، فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك، والبدع، والفسوق، والعصيان، ووقع ما أخبر به ﷺ من غربة الإسلام، وأنه سيعود غريباً كما بدأ[٣]»[٤]، وإذا كان الشيخ يقول هذا في زمنه أجل ماذا تقول نحن في زماننا هذا ؟

الثاني: الخوف:

عرف ابن قاسم الخوف بقوله: «والخوف مصدر خاف إذا فزع ووجل؛ لكن الخوف يتعلق بالمكروه، والفزع بما فاجأ منه، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل، والوجل من غير متعد، والخوف من متعد»[٥].

فالخوف من العبادات القلبية، وهو ركن العبادة الأعظم قال ابن قاسم رحمه الله: «إنه عبادة من العبادات القلبية، بل هو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله الذي أمر الله به عباده إلا به»[٦]، وذلك لأن« الخوف من الله أجل مقامات

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٤٠-٢٤١).

(٢) المصدر السابق (٢٤١).

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط(٢/ ٢٦١)، برقم(١٩٢٥)، ونصه: عن أنس بن مالك أن رسول الله قال إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء أهـ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٣٤٧).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٤٢).

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧)، انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٢-٥١٣).

(٦) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧).

الدين، وأشرفها، وأفضلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى...، وقد ذكره الله في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وغير ذلك من الآيات»[(١)].

والخوف شرط في صحة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وهنا علق ‌رحمه الله على هذه الآية مبينا بأن الله جعل الخوف «شرطاً في صحة الإيمان[(٢)]؛ لأن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس، ولأن من عرف أن الخوف عبادة، وصرفه لغير الله شرك، لم يصرفه لغيره، وكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، قال المصنف[(٣)]: وفيه أن إخلاص الخوف من الفرائض»[(٤)].

أقسـام الخـوف:

والخوف ينقسم إلى أربعة أقسام، ذكرها ابن قاسم بقوله:

١. «خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله، من وثن، أو طاغوت، أو غير ذلك أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهو الواقع من عباد القبور ونحوها، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد»[(٥)].

وقال أيضاً: «إذا خاف غير الله خوف السر، مثل أن يخاف أن يفعل به شيئاً بسره، فإن الخوف أنواع منها خوف السر، فإذا خاف من غير الله فيما لا يقدر عليه

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٤٤).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧).
(٣) يقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه.
(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٤٤)، انظر: حاشية ثلاثة الأصول (٣٧).
(٥) حاشية كتاب التوحيد (٢٤٤).

إلا الله فهو مشرك كافر»(١).

٢. «أن يترك ما يجب عليه من جهاد، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر لغير عذر؛ خوفاً من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول الآية، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران: ١٧٣]...

٣. الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو، أو سبع، أو غير ذلك، فهذا لا يذم، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

٤. وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، ونحو ذلك، فهو أعلى مراتب الإيمان»(٢).

وأسباب وجود الخوف المحمود في قلب العبد ثلاثة، ذكرها ﷺ بقوله: «وخوف العبد ينشأ من أمور:

- معرفته بالجناية وقبحها.
- وتصديق الوعيد، وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.
- وكونه لا يعلم لعله يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب، وبهذه الثلاثة يتم له الخوف، وقوته بحسب قوتها وضعفها، وذلك قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد»(٣).

الخشية:

ومن أنواع الخوف الخشية، وبينها ابن قاسم بقوله: هي: «فعلة من خشيه، خافه واتقاه، فهي بمعنى الخوف، لكنها أخص منه وهي من أجل أنواع العبادة،

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧).
(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٤٤-٢٤٥).
(٣) المصدر السابق (٢٥٥).

وصرفها لغير الله شرك أكبر»[(١)]، وقد بيّن رحمه الله أن الخشية نوع من الخوف؛ ولكن هي أخص منه، وبينهما فروق، وهي:

١. أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي، وهي للعلماء كما قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة، والخوف قد يكون من جاهل.

٢. الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف، لا من قوة المخُوف[(٢)].

ويدل على مشروعية الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وعلق رحمه الله على هاتين الآيتين بقوله: «أي: لا تخشوا الناس فإني وليكم، واخشوني وحدي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى وحده، فأمر تعالى بخشيته وحده، ونهى عن خشية غيره، كما في الآية الثانية ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تخافوا منهم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾، أي: خافوا مني...، فدلت الآيتان وما في معناهما على أن الخشية عبادة من أجل العبادات، فصرفها لغير الله شرك أكبر»[(٣)].

الثالث: الرجـــاء:

وقد بيّن ابن قاسم معنى الرجاء لغة بقوله: «الرجاء: بمعنى التوقع، والأمل ممدود»[(٤)].

وأما معناه في الاصطلاح فهو: الرغبة والأمل فيما عند الله ﷻ من الأجر والثواب، وغفران الذنب، قال ابن القيم: «هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٤٠).
(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٢)، القول المفيد على كتاب التوحيد(٢/ ٧٢).
(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٤٠).
(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧)، انظر: المعجم الوسيط (١/ ٣٣٣)، معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٩٤).

وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، والثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين التمني: أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه، ويفلحها، ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع؛ ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل»[(١)].

والرجاء ركن من أركان العبادة، وهو من أجل أعمال القلوب، قال ابن قاسم ؒ: «وأنه عبادة قلبية من أجل العبادات، فصرفه لغير الله شرك أكبر»[(٢)].

ويدل على مشروعية الرجاء قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال ابن قاسم ؒ معلقاً على هذه الآية: «أي: فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه، ويرجو المصير إليه، ويأمل لقاءه ورؤيته، وفسر بالمعاينة: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾... فإنه إذا رجا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك الشرك الأكبر»[(٣)].

أقسام الرجاء:

والرجاء ينقسم إلى ثلاثة أنواع، نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم، وهذه الأنواع هي:

١. رجاء من عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه.

٢. رجاء من أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى، وعفوه، وإحسانه، وجوده، وحلمه وكرمه.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٥)، بتصرف يسير.

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٣٧- ٣٨).

٣. رجاء متماد في التفريط والخطايا، فهو يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[١].

* **الجمع بين المحبة، والخوف، والرجاء:**

يجب على المسلم أن يعبد الله محبة له، وخوفاً من عقابه، ورجاء لثوابه، ولا يحصل له كمال العبودية لله ﷻ إلا باجتماعها، قال ابن قاسم: «المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، فلا يغلب جانب الرجاء فيأمن مكر الله، ولا يغلب جانب الخوف فييأس من روح الله، قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق[٢]، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري[٣]، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن[٤]»[٥]؛ لأن بالمحبة يكون امتثال أوامر الله، وبالخوف يكون اجتناب نواهيه، وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء؛ لأن محبته لله ﷻ تحمله على أن يرجو ما عند الله سبحانه وتعالى، ومن أجمل من صور هذه المسألة الإمام ابن القيم، بقوله: «القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٦).

(٢) الزنديق: هو من لا يؤمن بالآخرة، وبربوبية الخالق، أو من يبطن الكفر، ويظهر الإيمان، ليس من كلام العرب، إنما تقول العرب: رجل زندق، وزندقي: أي شديد البخل، والمشهور على ألسنة الناس أن الزنديق هو: الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر.انظر: لسان العرب (١٠/ ١٤٧)، المصباح المنير (١/ ٢٥٦)، تاج العروس (٢٥/ ٤١٩).

(٣) نسبة إلى حروراء، وهي بلدة على ميلين من الكوفة في العراق، ويقال لمن يعتقد مذهب الخوارج: حروري؛ لأن أول فرقة خرجت على علي ﷺ عند هذه القرية، فاشتهروا بالنسبة إليها، يقولون بتكفير الأمة، يأخذون بالقرآن دون السنة، وهم خمسة وعشرون فرقة. انظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (١/ ٥٣، ٩١)، فتح الباري (١/ ٤٢٢).

(٤) نسب الغزالي هذا القول في الإحياء(٤/ ١٦٦) إلى مكحول الدمشقي، وقد ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١)، وابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٧٢) غير منسوب لأحد.

(٥) حاشية كتاب التوحيد (٢٥٥).

جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[(١)].

وهذا فيه تنبيه على التوازن بينهما، لا إفراط ولا تفريط؛ لأن الإفراط في جانب الرجاء يوصل إلى الأمن من مكر الله، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقال ﷺ معلقاً على هذه الآية: «بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك»[(٢)].

والإفراط في جانب الخوف يوصل إلى القنوط من رحمة الله، وهو سوء ظن بالله، قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، قال رحمه الله معلقاً على هذه الآية، : «القنوط استبعاد الفرَج، واليأس منه -والفرق بينهما لطيف-، وسوء الظن بالله، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم منافيان لكمال التوحيد، ذكرهما المصنف[(٣)] تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفاً راجياً، يخاف ذنبه ويعمل بطاعة الله ويرجو رحمة ربه، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]»[(٤)].

ثم ذكر رحمه الله قاعدة في أنه متى يغلب جانب دون جانب، فقال: «فينبغي له عند استكمال العافية والنعم أن يرجح جانب الخوف؛ فإنه إذا غلب الرجاءُ الخوفَ فسد القلب، وعند المصائب والموت يغلب جانب الرجاء، ويحسن الظن بالله ﷻ»[(٥)]،

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).
(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٥٥).
(٣) يقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.
(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٥٦).
(٥) المصدر السابق (٢٥٧)، انظر: حاشية الروض المربع (٣/ ٧).

وهذه قاعدة مشى عليها السلف. قال الإمام ابن القيم: «السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف»(١).

المطلب الخامس: بيان بعض أنواع العبادات:

بيّن ابن قاسم رحمه الله مراتب الدين، وهي الإسلام والإيمان والإحسان، وهن أعظم أنواع العبادات، فقال: «وهذه الثلاثة أعلى مراتب الدين، وأهم أنواع العبادة»(٢)، ثم بيّن رحمه الله أن العبادات كثيرة جدا بقوله: «إن أنواع العبادة ليست مخصوصة بهذه الأنواع، ولا محصورة في هذه الأنواع»(٣)، ثم قال: «بل هي أنواع كثيرة جدًّا»(٤)، فذكر جملة من العبادات القلبية، والعملية، مع ذكر الأدلة عليها، ونذكر منها ما يلي:

الأولى: الدعـاء:

ذكر ابن قاسم أهمية الدعاء، وذلك بقوله: «الدعاء عبادة، بل هو أجل العبادات وأساسها»(٥)، ثم قال: «وأن العبادة ليست غير الدعاء، وإنما هي الدعاء نفسه»(٦)، ولهذا يكون صرفها لغير الله شركاً أكبر.

أقسام الدعاء:

ذكر ابن قاسم رحمه الله أن الدعاء ينقسم إلى نوعين:

الأول: «دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر.

الثاني: دعاء عبادة بأي نوع من أنواع العبادة، وهو ما لم يكن فيه سؤال ولا طلب»(٧).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٣٤).
(٣) المصدر السابق (٣٤).
(٤) المصدر السابق (٣٤).
(٥) المصدر السابق (٣٦).
(٦) المصدر السابق (٣٦).
(٧) المصدر السابق (٣٦).

ثم بين رحمه الله أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، وذلك بقوله: «ودعاء العبادة نحو: لا إله إلا الله، وسبحان الله، وهو مستلزم لدعاء المسألة، ودعاء المسألة نحو "رب اغفر لي"، متضمن لدعاء العبادة، وذلك أنه مأمور بهذا فإذا فعله فهو فاعل عبادة»[١].

وبيان ذلك أن كل سائل يسأل الله بلسانه فهو عابد له؛ لأنه يدعوه خوفاً ورجاءً وهذا من الأعمال القلبية، فهو إذا متضمن لدعاء العبادة، وكل عابد يصلي لله، أو يصوم أو يحج فهو يفعل ذلك يريد من الله تعالى الفوز بالجنة، والنجاة من النار، ففعله مستلزم للدعاء بلسان الحال، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة متضمن لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة مستلزم لدعاء العبادة[٢].

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[٣]، قال رحمه الله: «ومخ الشيء خالصه وفي لفظ: "الدعاء هو العبادة"[٤]، وأتى ﷺ فيه بضمير الفصل، والخبر المعرف بالألف واللام ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء. وإنما هي الدعاء نفسه...، وهذا الحديث جاء عن النبي ﷺ مقروناً بالآية»[٥]، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

(١) حاشية كتاب التوحيد (٣١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣٩-٢٤٠)، بدائع الفوائد (٣/ ٥١٤)، القول المفيد على كتاب التوحيد(١/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/ ٤٥٦)، برقم (٣٣٧١)، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث بن لهيعة، والطبراني في المعجم الأوسط(٣/ ٢٩٣)، برقم (٣١٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب(١/ ٢٥٤)، برقم(١٠١٦).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/ ٤٥٦)، برقم (٣٣٧٢)، ابن ماجه في سننه، في كتاب الدُّعاء، باب فضل الدُّعاء (٢/ ١٢٥٨)، برقم (٣٨٢٨)، والحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب الدعاء (١/ ٦٦٧)، برقم (١٨٠٢).

(٥) حاشية ثلاثة الأصول(٣٦).

سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، وعلق ﷀ على هذه الآية، بقوله: «أمر تعالى عباده أن يدعوه، ووعدهم أن يستجيب لهم، فدل على أن الدعاء عبادة، بل هو أجل العبادات، وأساسها.

ودل على أنه سبحانه يحب من عباده أن يدعوه، وأن الدعاء مما يحبه الله، وفي الحديث: «**من لم يدع الله**»[١]، وفي رواية: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٢]»[٣]، ثم بين ﷀ أن الله تعالى «سمى الدعاء عبادة، وجاء في القرآن في غير موضع أنه عبادة[٤]، فصرفه لغير الله شرك أكبر، وأخبر تعالى أن الذي منعهم من عبادة الله هو الاستكبار، فجوزوا بهذا الجزاء الفظيع وهو دخولهم جهنم صاغرين ذليلين حقيرين، عقوبة لهم على ما تركوه من عبادة الله التي فرضها عليهم»[٥]، وبهذا يتبين أن الدعاء نوع من أنواع العبادة، التي توعد الله الوعيد شديد لمن أعرض واستكبر عن هذه العبادة العظيمة.

*** الاستغاثة:**

ومن أنواع الدعاء الاستغاثة، وهي من أجل العبادات، قال ابن قاسم ﷀ: «وأنها عبادة من أجل العبادات، وأفضل أنواعها، وهي أخص أنواع الدعاء، فإن دعاء المكروب يقال له استغاثة، والاستغاثة هي طلب الإغاثة، وهو الإنقاذ من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، (٢/ ١٢٥٨)، برقم (٣٨٢٧)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٤٤٣)، برقم (٩٧١٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٦/ ١٥٣)، برقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/ ٤٥٦)، برقم، (٣٣٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧ / ٣٧٣)، برقم (٣٣٧٣).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٣٦).

(٤) كما جاء في الآية السابقة، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٣٦-٣٧).

الضيق والشدة، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين، أي: مدرك عباده في الشدائد إذا دعوه، ومجيبهم ومخلصهم، فإذا صرفها أحد لغير الله كأن يستغيث بالأصنام أو الأموات أو الغائبين أو نحوهم فهو مشرك كافر»(١).

الفرق بين الاستغاثة والدعاء:

ذكر ابن قاسم رحمه الله أن «الفرق بين الاستغاثة والدعاء:

أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، وأما الدعاء فهو أعم منها؛ لأنه يكون من المكروب وغيره، فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، فبينهما عموم وخصوص مطلق، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة»(٢).

والاستغاثة بالله سبحانه هي دأب الرسل، وأتباعهم، ويدل على ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]»(٣)، وعلق ابن قاسم على هذه الآية بقوله: «أي: إذ تستجيرون ربكم، وتطلبون منه الغوث فاستجاب لكم، وذلك أنه لما كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلى كثرة المشركين جعل يهتف بربه ويناشده فأمده الله بالنصر

(١) المصدر السابق (٤٣).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر... (٣/ ١٣٨٣)، برقم (١٧٦٣).

على عدوه، فقتلوا وأسروا، وظهر الإسلام، وسمي يوم الفرقان.

فدلت الآية على أن الاستغاثة عبادة، فصرفها لغير الله شرك»[(١)]، وما ذكره ﷺ هو الاستغاثة فيما يقدر عليه إلا الله كالاستغاثة بالأموات، والأحياء غير قادرين على الإغاثة، أما الاستغاثة فيما يقدر عليه الأحياء فهذا جائز كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[القصص: ١٥][(٢)].

الثاني: التوكل:

بين ابن قاسم معنى التوكل، فقال: «وهو صدق التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له، وتوكل عليه واتكل: استسلم إليه واعتمد عليه، ووكل إليه أمره وسلمه إليه.

وهو عبادة من أجل العبادات، بل هو أجل أنواع العبادة وأعلى مقامات التوحيد، فلا يفوض عبد أموره ولا يعتمد إلا على الله ﷻ فهو القادر على كل شيء بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وإذا كان كذلك فالمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يعتمد عليه ولو فيما أقدره الله عليه، بل يعتمد العبد على الله ﷻ وحده، فالتوكل عبادة قلبية، فإن اعتمد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فذلك هو الشرك الأكبر، وإن اعتمد على الأحياء الحاضرين والسلاطين ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه، من رزق أو دفع أذى ونحوه، فهو نوع شرك أصغر»[(٣)].

فالتوكل - إذا - اعتقاد واعتماد، فهو اعتقاد أن الأمر كله بيد الله، فالنافع والضار هو الله سبحانه، ثم اعتماد على الله في كل أموره، ثم الأخذ بالأسباب المأذون فيها شرعاً، فلا يناقض التوكل إذا صدق في الاعتقاد والاعتماد على الله سبحانه[(٤)].

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٤٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٨)، شرح الأصول الثلاثة، لابن عثيمين (٦٦).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٣٨)، انظر: حاشية كتاب التوحيد (٢٥١)، مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٧).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٨).

ويدل على وجوب التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، قال رحمه الله معلقاً على هذه الآية: «فإخلاص التوكل على الله شرط في صحة الإيمان، ينتفي عند انتفائه فإن تقديم المعمول، وهو قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على العامل وهو كلمة توكلوا يفيد الحصر، أي عليه وحده ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لا على غيره، وهذه قاعدة العربية»[1].

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، قال رحمه الله معلقاً على هذه الآية: «فمعنى الآية ومن يتوكل على الله أي يعتمد عليه في أموره فهو كافيه، ومن كان الله كافيه فلا مطمع لأحد فيه، ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفايته العبد، فقال: ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ ولم يأت في غيره من العبادات، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته، وأنه أجل أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر»[2].

* **أقسام التوكل:**

وبيّن رحمه الله أن التوكل ينقسم إلى قسمين، وذلك بقوله: «والتوكل قسمان:

١. التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت، فهذا شرك أكبر.

٢. التوكل على الأحياء الحاضرين والسلاطين ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه، من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

والمباح أن يوكل شخصاً بالنيابة عنه في التصرف من أمور دنياه، فهذا جائز بالإجماع، لكن لا يقول: توكلت عليه، بل وكلته؛ فإنه ولو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله»[3] عز وجل وحده.

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٣٩).

(٢) المصدر السابق (٣٩).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٥١)، انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٤١٩).

الثالث: الإنابة:

بين ابن قاسم معنى الإنابة، بقوله: «هي: التوبة، بل أعلى من مقام التوبة، فإن التوبة الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على أن لا يعود إليه، والإنابة تدل على ذلك، وتدل على الإقبال على الله بالعبادات، والإقبال على الله رجوع عما لا ينبغي بالكلية، وقصد إلى ما ينبغي من رضاه»[١].

والإنابة تتضمن أربعة أمور:

١. محبة الله.

٢. والخضوع له.

٣. والإقبال عليه.

٤. والإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف يدور على الأمور الأربعة[٢]، ومن ثم بيّن رحمه الله: «أنها من أجل أنواع العبادات»[٣]، وأن الله سبحانه «يحبها شرعاً وديناً، فصرفها لغير الله شرك أكبر»[٤].

ويدل على مشروعية الإنابة، قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]، قال رحمه الله معلقاً على هذه الآية: «أي: وأقبلوا إلى ربكم، وارجعوا إليه بالطاعة، وأسلموا له: أخلصوا له التوحيد»[٥]، وقال أيضاً: «بادروا بالتوبة إلى العمل الصالح قبل حلول النقمة، وأمره تعالى عباده بالإنابة ظاهر في أنها عبادة، وأنه يحبها شرعاً وديناً، فصرفها لغير الله شرك أكبر»[٦].

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٤٠).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٣٤).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٤٠).

(٤) المصدر السابق (٤٠).

(٥) المصدر السابق (٤٠).

(٦) المصدر السابق (٤٠)، انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧).

الرابع: الاستعانة:

بين ابن قاسم أن الاستعانة: «هي: طلب العون»(١)، ثم بيّن رحمه الله: «أنها عبادة بل أجل العبادات، وهي تجمع أصلين:

١. الثقة بالله.

٢. والاعتماد عليه»(٢).

قال الإمام ابن القيم: «فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به...

فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم. والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نحبه»(٣).

ويدل على وجوب الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال ابن قاسم رحمه الله مبيناً معنى هذه الآية: «الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وسر الخلق والكتب والشرائع والثواب والعقاب يرجع إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد والأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، وهذا المعنى في غير آية من كتاب الله، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر، أي: نستعين بك وحدك دون كل من سواك، فهذا النوع أجل أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، وكذا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد أحدًا سواك، فالعبادة لله

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١١٣)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٠٣)، مدارج السالكين (١/ ٧٦).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٤١).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٥-٧٦).

وحده والاستعانة به وحده جل وعلا وتقدس»[١]، ونقل رحمه الله قول شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «قال شيخ الإسلام: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله.

ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[٢]؛ لأنه إذا هداه الله أعانه على طاعته وترك معصيته.

ومن الأدلة أيضاً: حديث ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...»[٣]، ثم قال رحمه الله مبيناً دلالة هذا الحديث: «**ولا يحصل للعبد مطلوبه إلا إذا كان سائلا الله مستعيناً به وحده، معتمداً عليه في جميع أموره، وفي هذا الحديث حصر الاستعانة بالله وحده دون غيره من الخلق، والدلالة على أنها أجل العبادات، وعليها مدار الدين، فإذا استعان أحد بغير الله، فهو مشرك الشرك الأكبر**»[٤]، ومقصوده الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الخامس: الـذبح:

ومن العبادات الفعلية التي ذكرها ابن قاسم الذبح لله ﷻ، فقال مبينا المراد بالذبح: «ذبح القربان لله تعالى من الضحايا والهدايا، ونحو ذلك، وأنه عبادة من أفضل العبادات، وأفضل القربات إلى الله تعالى، والذبح يقال للبقر والغنم وأما الإبل فالنحر، ويجوز العكس؛ وعبر بالذبح لأنه الأكثر»[٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢٠).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٤١).
(٣) أخرجه أحمد مسنده (١/ ٢٩٣)، برقم (٢٦٦٩)، والترمذي في سننه، وصححه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٤/ ٦٦٧) برقم (٢٥١٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٧٨)، برقم (١١٤١٦).
(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٤١).
(٥) المصدر السابق (٤٣).

والذبح يقع على وجوه:

١. قصد العبادة، وتعظيم المذبوح له، وهذا لا يكون إلا لله، فلو تقرب بها إلى نبي أو ملك أو جني، وغيره، فهو شرك أكبر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، قال ابن قاسم في هذه الآية: «فالصلاة أفضل العبادات البدنية والذبح أفضل العبادات المالية، وإنما كان الذبح أفضلها؛ لأنه يجتمع فيه أمران:

الأول: أنه طاعة لله.

والثاني: أنه بذل ماله، وطابت به نفسه، والبذل مشترك في جنس المال، لكن زاد الذبح على غيره، من حيث إن الحيوانات محبوبة لأربابها، يوجد لذبحها ألم في النفوس من شدة محبتها، فإذا بذله لله، وسمحت نفسه بإيذاق الحيوان الموت، صار أفضل من مطلق العبادات المالية، وكذلك ما يجمع له عند النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين، وحسن الظن بالله أمر عجيب فصرفه لغير الله شرك أكبر»[١].

٢. إكرام ضيف، أو وليمة عرس، فهذا مأمور به شرعاً، لقوله ﷺ: **«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**[٢].

٣. أن يكون للتمتع بالأكل من المذبوح، أو الاتجار به، فهذا من قسم المباح، فالأصل فيه الإباحة لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٢][٣].

---

(١) المصدر السابق (٤٣-٤٤)، انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٤)، (٢٤/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٥/ ٢٢٤٠)، برقم (٥٦٧٢).

(٣) انظر: شرح ثلاثة الأصول(٦٦-٦٧)، حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول لعبد الله الفوزان (١٠٠-١٠١).

المطلب السادس: موقفه ممن صرف شيئاً من العبادة لغير الله سبحانه وتعالى:

وضح ابن قاسم أن من صرف شيئاً من العبادات لغير الله فقد كفر، وذلك بقوله: « فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة...، مثل أن دعا غير الله من الأموات والغائبين، أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفان، أو غير ذلك فهو مشرك الشرك الأكبر، المخرج من الملة، كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة»(١).

واستدل رحمه الله بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]؛ قال رحمه الله: «فدلت هذه الآية أن أقوال العبد وأفعاله الظاهرة والباطنة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله، ومن صرف منها شيئا لغير الله فقد أشرك، والقرآن كله يدل على ذلك »(٢).

وذلك لأنه: «هو سبحانه المستحق لها وحده، ومن سواه لا يستحق شيئاً منها...، وسمى الله المشرك ظالماً(٣)؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وأخبر تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر، وإنما يرضى لهم الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]»(٤)، ولهذا: «لا يرضى سبحانه أن يجعل له شريك في عبادته، لا ملك مقرب عنده، ولا نبي مرسل، يعني: فضلاً عن غيرهما من سائر المخلوقات، فإذا لم يرضَ بعبادة من كان قريباً منه كالملائكة، ولا نبياً مرسلاً، وهم أفضل الخلق، فغيرهم بطريق الأولى؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير فهو المستحق للعبادة وحده دون من سواه»(٥).

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٣٥).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٩٦).

(٣) أشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (١٨).

(٥) المصدر السابق (١٨)، انظر: مجموع الفتاوى(١/ ٧٤).

المبحث الخامس

موقفه مما ينافي توحيد الألوهية، أو ما يقدح في كماله

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الوقاية والتحذير مما ينافي التوحيد، وهو الشرك:

وفيه ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الشرك، وأقسامه:

ولأهمية معرفة ما يضاد التوحيد، وهو الشرك، ومعرفة أقسامه، فسوف يكون الحديث في هذه المسألة في فرعين:

الفرع الأول: تعريف الشرك لغة واصطلاحاً:

الشرك لغة: اسم للشيء الذي يكون بين أكثر من واحد، بحيث لا ينفرد به أحدهم، ومنه الشراكة، ومنه شرك بالله أي: جعل له شريكاً[(١)].

الشرك اصطلاحاً: هو أن تجعل لله شريكاً في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته[(٢)].

أما ابن قاسم فقد عرف شرك الألوهية، بقوله: «طلب غير الله مع الله، وسؤال غيره معه من ملك، أو نبي، أو ولي، أو شجرة، أو حجر، أو قبر، أو جني، والاستعانة به، والتوجه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة»[(٣)].

---

(١) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري (١/ ٣٢٨)، تهذيب اللغة (١٠/ ١٣)، القاموس المحيط (١/ ١٢٢٠)، لسان العرب (١٠/ ٤٤٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ١٩)، إعلام الموقعين، لابن تيمية (١/ ٣٣٤)، عقيدة أهل السنة والجماعة، لسعيد بن مسفر (١٣٩).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٢٣)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٧٤، ٩١)، (١٣/ ١٩)، إعلام الموقعين (١/ ٣٣٤).

الفرع الثاني: أقسام الشرك:

ذكر ابن قاسم رحمه الله أقسام الشرك، وأنه ينقسم إلى قسمين، وبين الفرق بينهما في الحكم والحد، فقال: «والشرك قسمان: أكبر وأصغر، وبينهما فرق في الحكم والحد.

فالأكبر: أن يسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالمحبة، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه أبدا إلا بالتوبة، وأنه يحبط جميع الأعمال، وأن صاحبه خالد مخلد في النار»[١]، وأكده في موضع آخر، فقال: «أما الأكبر فلا عمل معه البتة، ويوجب الخلود في النار، ولا فرق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من انتسب إلى ملة الإسلام أو خالفها، ومن المعلوم بالضرورة من الدين المجمع عليه عند أهل السنة أن من مات على الشرك لا يدخل الجنة، ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد»[٢].

«والأصغر: هو ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وأنه يحبط العمل الذي قارنه، ولا يوجب التخليد في النار، ولا ينقل عن الملة، ويدخل تحت الموازنة، إن حصل معه حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار»[٣]، ومثل له بعدة أمثله، ذكر منها: «يسير الرياء، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، ونحو ذلك فيطلق عليه الشرك كما في حديث: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[٤]، ونحو ذلك، ولكن لا

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٥٠).

(٢) المصدر السابق (٥٢-٥٣).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٥٠-٥١).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه وحسنه، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهِية الحلف بِغير اللَّه (٤/ ١١٠)، برقم (١٥٣٥)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، كتاب الأيمان =

يخرج بذلك من الملة بالكلية، ولا يستحق اسم الكفر على الإطلاق، فهو أخف من الأكبر، وقد يكون أكبر بحسب حال قائله ومقصده»(١).

المسألة الثانية: التحذير من الشرك:

لما كان خطر الشرك عظيماً؛ لأنه هو الخسران الأبدي والعذاب السرمدي، وجب الخوف والتحذير منه، حتى إن أهل العلم يذكرونه بعد بيانهم للتوحيد وفضله، وذلك «ليحذره المؤمن ويخافه على نفسه، قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه(٢).

... فيحذر المؤمن زوال تلك النعمة، وكان ﷺ يكثر من قول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قيل له: يا رسول الله وإن القلوب لتتقلب؟ قال: إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»(٣)، فإن شاء سبحانه أقامها على دينه، وإن شاء أزاغها، وحقيقة الخوف من الشرك صدق الالتجاء إلى الله والاعتماد عليه والابتهال والتضرع إليه، والبحث والتفتيش عن الشرك ووسائله وذرائعه، ليسلم من الوقوع فيه »(٤).

= والنذور (٤/ ٣٣٠)، برقم (٧٨١٤)، وأبي عوانة في مسنده، مبتدأ كتاب الوصايا، مبتدأ أبواب في الأيمان، بيان الخبر الدال على أن من قال هو يهودي، أو نصراني أو حلف بملة سوى الإسلام كاذباً (٤/ ٤٤)، برقم(٥٩٦٧).

(١) حاشية كتاب التوحيد (٥٣)، انظر: المفردات في غريب القرآن (١/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣/ ١٣١٩)، برقم(٣٤١١)، ومسلم صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، (٣/ ١٤٧٥)، برقم(١٨٤٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٤٧٢)، برقم(٨٣١١)، والفظ له.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٤/ ٤٤٨)، برقم (٢١٤٠)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، كتاب الدعاء، (١/ ٧٠٦)، برقم (١٩٢٦).

(٤) حاشية كتاب التوحيد(٤٨).

ولما كان حقيقة الخوف من الشرك الصدق في الالتجاء والابتهال إلى الله تعالى كان للأنبياء السبق في هذا، قال تعالى عن إبراهيم ﷺ أنه دعا لنفسه وبنيه، فقال تعالى: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقد علق رحمه الله على هذه الآية، بقوله: «أي: اجعلني وبني في حيز وجانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها، وهذا مما يخيف العبد، فإذا كان الخليل ﷺ إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده، وابتلي بكلمات فأتمهن، وقد كسر الأصنام بيده، يخاف أن يقع في الشرك، فكيف يأمن الوقوع فيه من هو دونه بمراتب، بل أولى بالخوف منه، وعدم الأمن بالوقوع فيه، قال إبراهيم التيمي[(١)]: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم[(٢)].

وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور وغيرها، وصرفت لها العبادات بأنواعها، وأشبهوا ما وقع في الجاهلية وأعظم، واتخذوا ذلك ديناً...

وقد بين الخليل ﷺ السبب الذي أوجب له الخوف من ذلك، بقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فإذا عرف الإنسان ذلك أوجب له الخوف أن يقع فيما وقع فيه الكثير، ولا يأمن الوقوع فيه إلا جاهل به، وبما يخلص منه من العلم بالله، وبما بعث به رسوله ﷺ من توحيده، والنهي عن الشرك به»[(٣)]، وهذا يوجب الخوف الشديد من الشرك؛ لأن إبراهيم ﷺ مع كونه سيد المحققين للتوحيد، وهو الذي كسَّر الأصنام بيده يخاف من الفتنة بها فمن يأمن

---

(١) هو: إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، يكنى أبا أسماء، الكوفي، العابد، ثقة، إلا أنه يرسل ويدلس من الخامسة، وقال الأعمش: كان إبراهيم إذا سجد تجيء العصافير فتنقر، مات سنة ٩٢هـ، وله أربعون سنة. انظر: تقريب التهذيب (١/ ٩٥)، تهذيب التهذيب (١/ ١٥٤)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٢٢٨).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٤٩-٥٠).

البلاء بعده؟!

ومن خطورة الشرك أن من مات عليه حرمت عليه الجنة، كما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار»[(١)]، قال ابن قاسم في هذا الموضع من الحديث: «وهذا الحديث فيه أيضاً التحذير من الشرك، والتخويف منه، فمن جعل لله ندًا في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به، نبيًا كان أو غيره دخل النار، قال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن ... أيا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديان[(٢)]»[(٣)]

واستدل ابن قاسم أيضاً، بحديث جابر بن عبد الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»[(٤)]، فقال ﷺ: «أي من مات لم يتخذ مع الله شريكاً في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة دخل الجنة، ففيه فضيلة السلامة منه»[(٥)]، ثم قال ﷺ: «فإذا كان التغليظ في النهي عن الشرك بهذه الشدة فينبغي شدة الخوف منه.

وقوله: «شيئاً» نكرة تعم قليل الشرك وكثيره...، وأن من مات لا يشرك بالله شيئاً يدخل الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحن»[(٦)]، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، (٤/ ١٦٣٦)، برقم (٤٢٢٧).

(٢) قصيدة ابن القيم مع شرح ابن عيسى (٢/ ٢٦٣).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٥١-٥٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجَنَّة... (١/ ٩٤)، برقم (٩٣).

(٥) حاشية كتاب التوحيد (٥٢).

(٦) المصدر السابق (٥٢-٥٣).

بين أن هذا الشرك يجب على المرء أن يتبرأ منه، ومن أهله، فقال: «فلا بد أن يتبرأ من الشرك، من أهل الشرك في الاعتقاد والعمل والمسكن، بل من كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النسب إليهم، معادياً لهم أشد معاداة، غير مشبه بهم في قول أو فعل»[(١)]، ثم قال إن هذا الشرك: «هو أعظم ذنب عصى الله به، وأي ذنب أعظم من أن يجعل مع الله شريك في ألوهيته، أو ربوبيته، أو أسمائه أو صفاته، وكما أن الشرك أظلم الظلم، وأبطل الباطل... فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي؛ لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه»[(٢)].

المسألة الثالثة: سبب الشرك، ومظاهره:

تمهيد:

لقد امتن الله علينا أن بعث فينا رسولا عظيماً، أرسله إلينا من أنفسنا-وذلك ليكون أسرع إلى فهم الحجة-، ومتصفاً بالرحمة والشفقة بنا[(٣)]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ثم علق رحمه الله على هذه الآية، فقال: «أي بليغ الرأفة والشفقة بهم لا بغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وقال عليه الصلاة السلام: «ما بعث الله من نبي إلا كان عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويحذرهم من شر ما يعلمه لهم»[(٤)]،

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٤٧).

(٢) المصدر السابق (٢٣).

(٣) انظر: حاشية كتاب التوحيد (١٦٩).

(٤) أخرج مسلم في صحيحه بنحوه، في كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء مسلم (٣/ ١٤٧٢)، برقم (١٨٤٤)، ونصه أن النبي ﷺ قال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم» أهـ والنسائي في سننه الكبرى، في كتاب البيعة، ذكر ما على من بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه (٤/ ٤٣١)، برقم (٧٨١٤).

فاقتضت هذه الأوصاف أن أنذر أمته وحذرهم من الشرك الذي هو أعظم الذنوب، ولا ريب أن الإنذار عنه زبدة رسالته، وقد بين ﷺ لأمته ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها»[١]، وأكد على ذلك بقوله: «حمايته ﷺ عما يقرب منه، أو يخالفه من الشرك وأسبابه؛ إذ هو أعظم الفرائض، بل لا تصح إلا به، وهو الذي جاءت الرسل بالقيام به، والنهي عما ينافيه، ومع حمايته لجنابه، اجتهد في سد كل طريق يوصل أمته إلى الشرك، وحذر وأنذر، وأبدى وأعاد، وخص وعم، وقطع الوسائل والذرائع المفضية إليه، فصلّى الله عليه وسلّم كما بلغ البلاغ المبين»[٢].

فالرسول ﷺ حمى حدود التوحيد حماية بالغة، ونهى عن كل سبب، أو وسيلة توصل إلى الشرك، ولو كانت هذه الوسيلة في أصلها مشروعة كالصلاة، فإذا فعلت عند القبور، فهي وسيلة إلى الشرك، ولهذا قرر ابن قاسم رحمه الله هذا الأمر، وذلك بقوله: «كل ما أدى إلى محرم فهو محرم، فإن الوسائل لها حكم الغايات، فوسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إليه»[٣].

وللشرك أسباب كثيرة، وطرق متنوعة، ذكر ابن قاسم بعضها، منها: الغلو[٤] في الصالحين، وهو سبب أول كفر بني آدم، قال ابن قاسم رحمه الله: «إن سبب أول كفر بني آدم، وتركهم دينهم الذي خلقوا له...، هو الغلو في الصالحين من الأنبياء، والأولياء، وغيرهم بالقول، والاعتقاد فيهم»[٥].

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٧٠).

(٢) المصدر السابق (١٦٩).

(٣) المصدر السابق (١٥٣).

(٤) بين ابن قاسم معنى الغلو بقوله: «ضابط الغلو: تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نهى الله عنه». حاشية كتاب التوحيد (١٤٦)، انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧٨)، اقتضاء الصراط (١/ ١٠٣).

(٥) حاشية كتاب التوحيد (١٤٦)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٣).

وذلك؛ لأن الغلو هو: «أصل الشرك قديماً وحديثاً، لقرب الشرك بالصالحين من النفوس، فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم»[١]، حتى يصل بهم إلى الشرك بالله، وذلك بتعظيمهم، والغلو فيهم، والتبرك بهم، ثم دعوتهم من دون الله، ثم قال ﵀: «وقد نهى الله عن الغلو في كتابه في مواضع، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] الآية، وغيرها، **والغلو شامل لجميع أمور الدين**»[٢]، وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، والأقوال[٣]، وقد تطرق ﵀ إلى هذه الأنواع، وبيانها على النحو التالي:

الأول: الغلو في الأعمال:

ومن الغلو في الأعمال التي بينها الله ﷻ بداية الشرك في قوم نوح ﵇؛ وأن سببه هو الغلو في رجال صالحين من قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن قاسم: «أي: فإذا هلك أولئك الصالحون، وحزن عليهم قومهم حزناً شديداً، وسوس لهم الشيطان، وألقى إليهم أن انصبوا إلى مجالسهم حالة التعليم والتذكير أنصاباً[٤] على صورهم المعلومة عندكم...؛ ليتذكروا أفعالهم بها، وسموها بأسمائهم حتى لا تنسوهم، وكلما ترونها تذكركم إياهم، وقد أخرج الشيطان لهم هذه الحيلة في قالب المحبة؛ لعدم قدرته عليهم إلا بهذه الدرجة، ومقصوده من بعدهم الذين لم يعرفوا ما نصبت له، ليوسوس لهم أنهم كانوا معبودين في أولاكم»[٥] فـ «عبدت تلك الأصنام لما

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٤٦).

(٢) المصدر السابق (١٤٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٥٢).

(٤) قال ابن قاسم: والمراد بالأنصاب هنا الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم أهـ. حاشية كتاب التوحيد (١٤٨)، انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم (١/ ١٩٨)، لسان العرب (١/ ٧٥٩).

(٥) المصدر السابق (١٤٨).

قال لهم إبليس: إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير سلماً لعبادتها.

ففيه مضرة فقد العلم، ومضرة الغلو فإن كل ما عبد من دون الله من - قبر أو صنم - فالأصل في عبادته الغلو، واندراس العلم، والجهل بحقيقة دين المرسلين، فالله المستعان»[١].

ومن مظاهر الغلو في الأعمال:

أ- عبادة الله عند قبور الأولياء والصالحين:

إن الشيطان له حيل عظيمة، يغري بها الجهال، ويحسن بها الباطل؛ حتى يوقعهم في الشرك، وهم لا يشعرون. ومن ذلك: عبادة الله عند قبور الأولياء والصالحين، وقد أشار ابن قاسم إلى الوعيد الشديد «على من يعبد الله عند قبر رجل صالح مع أنه لا يقصد إلا الله، ومع كونه معصية فهو وسيلة وذريعة من أعظم الوسائل والذرائع إلى الشرك، وقد أبدى ﷺ، وأعاد، وكرر وغلظ في ذلك، فكيف إذا عبد الرجل الصالح فإنه أحق وأولى بما هو أعظم من هذا التغليظ؟

والمقصود أنه إذا كانت عبادة الله عند القبور منهيًا عنها، ومغلظاً فيها، فكيف بعبادة صاحب القبر، فإن ذلك شرك أكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، وكلما أدى إلى محرم فهو محرم، فإن الوسائل لها حكم الغايات، فوسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إليه»[٢].

ويدل عليه حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن أم حبيبة، وأم سلمة رضي الله عنهما، ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ، فقال: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه**

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٤٨-١٤٩)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٦٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٥٣).

تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[(١)]، فقال ﵀: «وإنما سموا بذلك لضلالهم، وسنهم لمن بعدهم الغلو في قبور صالحيهم حتى أفضى بهم ذلك الغلو إلى عبادتها، وهو عام فيمن فعل فعلهم من هذه الأمة، وأي: زجر، وأي: تغليظ وتقريع وتعيير أبلغ من هذا؟ وهم إنما صوروا صورهم ليتأسوا بهم، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك وأنذر، وأبدى وأعاد، أولا بالبناء على القبور، ثم بالتصوير، ثم بكونهم شرار الخلق؛ سدًّا للذريعة المؤدية إلى الشرك»[(٢)].

ثم أبطل ابن قاسم من زعم أن النهي عن الصلاة في المقبرة لأجل النجاسة، وبين ﵀ أن هذا أبعد شيء عن مقاصد الشريعة، واستدل بما جاء في الصحيح أن عمر رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر، فقال: «القبر القبر»[(٣)]، قال ابن قاسم معلقًا على هذا الحديث: «فإنه مستقر عندهم ما نهاهم عنه النبي ﷺ من الصلاة عند القبور، وفي هذا وأمثاله إبطال زعم من زعم أن النهي لأجل النجاسة، وهو أبعد شيء عن مقاصد الشارع، بل العلة الخوف على الأمة من نجاسة الشرك، كما هو معلوم من النصوص المستفيضة عن الرسول ﷺ»[(٤)]، ويدل عليه أيضاً حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«الأرض كلها مسجد إلا الحمام والمقبرة»**[(٥)]، ولو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد... (١/ ١٦٥)، برقم (٤١٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٥٤-١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد لقول النبي ﷺ: «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وما يكره من الصلاة في القبور ورأى عمر أنس بن مالك يصلي عند قبر، فقال: القبر القبر ولم يأمره بالإعادة (١/ ١٦٥).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (١٦١).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة (١/ ١٣٢)، برقم (٤٩٢)، والدارمي في سننه، كتاب الصلاة، باب الأرض كلها طاهرة ما خلا المقبرة والحمام، (١/ ٣٧٥)، برقم (١٣٩٠)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، كتاب الطهارة، باب التأمين، (١/ ٣٨١)، برقم (٩٢٠).

كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش، والمجازر، ونحوها أولى من ذكر القبور، ومن المعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة، فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء؛ ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، وليس للنجاسة عليها طريق ألبتة؛ فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم في قبورهم طريون[١].

ثم أيد رحمه الله كلامه بنقلين لشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، فقال: «قال شيخ الإسلام: لا فرق بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، وإن كان موضع قبر أو قبرين؛ لأنه لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ومعلوم أن قبورهم لا تنجس، فمن علق النهي بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ولا تجوز في مسجد بني في مقبرة سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور، أو كان مكشوفاً، وفي صحيح مسلم من حديث أبي مرثد: «لا تصلوا إلى القبور»[٢]»[٣].

وقال ابن القيم: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغة: «لا تفعلوا»[٤]، «إني أنهاكم»[٥] ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحق بمن عصاه؛ فإن هذا وأمثاله صيانة منه لحمى التوحيد أن يلحقه

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه، (٢/ ٦٦٨)، برقم(٩٧٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٥٩)، اقتضاء الصراط (١/ ٣٣٢).

(٤) بحثت ولم أجد له أي: رواية.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد (١/ ٣٧٧)، برقم(٥٣٢). ونصه: عن جندب قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بِخمس، وهو يقول: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك».

الشرك، وغضب لربه أن يعدل به سواه اهـ[١]»[٢].

ب- البناء على القبور، واتخاذها مساجد:

وبناء القباب والمشاهد على القبور، واتخاذها مساجد، بمعنى: أن يصلي عندها، أو أن يتحرى الصلاة عندها، أو أن يتحرى هذا الموضع للعبادة، واعتقاد أنه أفضل للدعاء، أو أن يصلي إليها، سواء كانت تسمى مساجد، أو كنائس، ؛ لأنها وسيلة للشرك بالله.

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزل[٣] برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم[٤]، بها كشفها، فقال: **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت: ولولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً»**[٥].

فقال معلقاً على هذا الحديث: «أي: قال ﷺ في هذه الحالة الحرجة، وهي شدة النزع، لشدة اهتمامه، واعتنائه بمقام التوحيد، وخوفه أن يعظم قبره، كما فعل من مضى: **«لعنة الله على اليهود والنصارى»**[٦]، وفي لفظ: **«قاتل الله اليهود والنصارى،**

---

(١) أنظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٨٩).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٦٣).

(٣) قال ابن قاسم: «نزل بضم النون وكسر الزاي، أي: لما نزل به ملك الموت لقبض روحه الشريفة، والملائكة الكرام، وروى بالفتح، أي: لما نزل به الموت، وفي رواية: نزلت، أي: لما حضرت المنية والوفاة. وطفق: بفتح الطاء وكسر الفاء وتفتح، أي جعل.
والخميصة: كساء له أعلام» حاشية كتاب التوحيد (١٥٦)، انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم (١/ ٤١، ٥١٣).

(٤) قال ابن قاسم: «أي: إذا غمته فاحتبس نفسه عن الخروج كشفها عن وجهه؛ لشدة ما يعالج ﷺ من كرب الموت» حاشية كتاب التوحيد (١٥٦).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، (١/ ٤٤٦)، برقم (١٢٦٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قَبْرِ النبي ﷺ (١/ ٤٦٨)، برقم (١٣٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، والمواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها (١/ ٣٧٦)، برقم (٥٢٩).

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١].

أي: كنائس وبيعاً، أي: يتعبدون ويسجدون فيها لله، وإن لم يسموها مساجد، فإن الاعتبار بالمعنى لا بالاسم، وفي لفظ لمسلم: «**كانوا يتخذون قبور أنبيائهم، وصالحيهم مساجد**»[٢].

ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، فإنما هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم، فأفاد أن هذا من أخوف ما خافه ﷺ على أمته، ولولا أن ضرره عظيم لما ذكره في هذا المقام، وخص قبور الأنبياء؛ لأن عكوف الناس على قبور أنبيائهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد، ولم يكن هذا اللعن في سياق الموت لهذه الطائفتين إلا على سبيل التحذير الشديد؛ لئلا تقع أمته في شيء من فعلهم عند قبره، فلعنهم على تحري الصلاة عندها، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله؛ لأنه ذريعة إلى عبادتها، فكيف إذا عبدها، وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها، واللعنة ليست مختصة باليهود والنصارى، بل تعم من فعل فعلهم»[٣].

ثم بين ؒ العلة التي من أجلها نهى النبي ﷺ من اتخاذ المساجد على القبور؛ لأنها جمعت بين فتنتين:

١. فتنة القبور.

٢. فتنة التماثيل.

---

(١) أخرجه مالك في موطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في أجلاء اليهود من المدينة (٢/ ٨٩٢)، برقم (١٥٨٣)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٤٥٣)، برقم (٩٨٤٩)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب المزارعة، باب من أباح المزارعة بجزء معلوم مشاع (٦/ ١٣٥)، برقم (١١٥٢)، والبخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (١/ ١٦٨)، برقم (٤٢٦) من دون لفظ النصارى.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها (١/ ٣٧٧)، برقم (٥٣٢).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٥٦-١٥٧).

وهما سبب عبادة الصالحين، وأعظمهما وأشدهما فتنة هي فتنة القبور، وفتنة التماثيل وسيلة إلى فتنة القبر وعبادته، وقد أشار رحمه الله إلى ذلك بقوله: «إن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنتين، ضل بهما كثير من الخلق، فأما فتنة القبور فلأنهم افتتنوا بقبور الصالحين، وعظموها تعظيماً مبتدعاً، فآل بهم إلى الشرك، وأما فتنة التماثيل- أي الصور- فإنهم لما افتتنوا بقبور الصالحين، وعظموها، وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها تلك الصور، آل بهم الأمر إلى أن عبدوها.

وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين، كاللات والعزى وود وغيرها، وهذه العلة هي التي لأجلها نهى النبي ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور، وهي التي أوقعت الكثير من الأمم في ذلك، والفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام وأشد؛ فإن الشرك بقبر رجل يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون، ويخضعون، ويعبدون عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ويلهجون بذكرهم أكثر مما يذكرون الله، وينفقون نفائس الأموال في ذلك؛ ولأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة»[1].

ثم قال رحمه الله: «وقد وقع بسبب البناء على القبور من المفاسد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله، ما يغضب لله من أجله من في قلبه رائحة إيمان، ولقد أبدى ﷺ وأعاد، وحذر من ذلك، حتى في النزع، سدًّا لذريعة الشرك قبل وقوعه، وتحذيراً للناس منه، وقد طبق العالم اليوم، وعادت الجاهلية الأولى، بل زادوا عليهم دعاءهم في الشدائد، واعتقاد النفع والضر فيهم من دون الله ﷻ فإنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

ت- زيارة القبور البدعية.

الزيارة البدعية هي التي يطلب من الميت بسببها الحوائج، أو يطلب منه

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٥٥)، انظر: حاشية الروض المربع (٥/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٦٣) انظر: حاشية الروض المربع (٥٣٩)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٥٦).

الدعاء، والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أشد إجابة للدعاء، فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة، لم يشرعها النبي ﷺ، ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ، ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك، وأسباب الشرك، ولهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح في عبادة الأوثان(١).

وقد شددت الأحاديث في التحذير من هذا، وذلك لعظيم خطرها على العقائد، وإبطال الأعمال، قال ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»(٢)، وقال ابن قاسم رحمه الله: «نهى ﷺ عن زيارة قبره على وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد الذي يكون على وجه مخصوص في زمان مخصوص، وذلك يدل على المنع في جميع القبور؛ لأن قبره أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيدًا، فقبر غيره أولى بالنهي كائناً من كان»(٣).

ويدل أيضاً حديث علي بن الحسين - زين العابدين -: «أنه رأى رجلاً يجيئ إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**»(٤)، ثم قال رحمه الله: «فيه دليل على النهي عن قصد القبور، والمشاهد؛ لأجل الدعاء، والصلاة عندها؛ لأن ذلك نوع من اتخاذها عيداً، ويدل أيضاً على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيداً المنهي عنه، قال شيخ الإسلام: ما علمت أحداً

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٦٥-١٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود سننه في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٢/ ٢١٨)، برقم (٢٠٤٢)، قال محمد بن عبد الوهاب: «رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات». حاشية كتاب التوحيد (١٧١).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٧١).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/ ٣٦١)، برقم (٤٦٩)، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجنائز، باب السلام على قبر النبي ﷺ (٣/ ٥٧٧)، برقم (٦٧٢٦)، والعسقلاني في المطالب العالية، كتاب الحج، باب زيارة قبر ﷺ (٧/ ١٥٩)، برقم (١٣٢٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣): رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً وبقية رجاله ثقات.

رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك من اتخاذه عيداً وأنه لم يشرع، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، وإنما كانوا يأتون إلى مسجده فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه ﷺ في الصلاة أفضل وأكمل، وكانت الحجرة في زمانهم يؤتى إليها من الباب، ومع التمكن لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، فلم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره؛ لنهيهم بقوله: «لا تتخذوا قبري عيداً»[(١)]، وغير ذلك، وإنما كان يأتي أحدهم من خارج، إذا قدم من سفر، كما كان ابن عمر يفعله، فيقول: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه»، ثم ينصرف ولا يقف للدعاء[(٢)].

قال شيخ الإسلام: لأنه لم ينقل عن أحد من الصحابة، فصار بدعة، واتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وفي هذا الحديث أيضاً دليل على منع شد الرحل إلى قبره ﷺ، أو غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً، ومن أعظم أسباب الإشراك بها كما هو الواقع، واتفق الأئمة على المنع من ذلك؛ لما في الصحيحين: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[(٣)]، فدخل في النهي شدها لزيارة القبور

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦٧)، وحسن إسناده الألباني في إحكام الجنائز (١/ ٢١٩)، وقال: هو صحيح مما له من طرق وشواهد.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب وقت الحج والعمرة، باب زيارة قبر النبي ﷺ (٥/ ٢٤٥)، برقم (١٠٠٥١)، والعسقلاني في المطالب العالية، كتاب الحج، باب زيارة قبر النبي ﷺ (٧/ ١٥٢)، برقم (١٢٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف،، باب مسجد بيت المقدس، برقم (١١٣٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد (٢/ ١٠١٤)، برقم (١٣٩٧).

والمشاهد، بل هي أولى بالنهي، وإذا نوى بشد الرحل زيارة القبر فقط حرم[(١)]»[(٢)].

هذا ما أيده شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «بل كره الأئمة وقوف الإنسان عند قبر النبي ﷺ للدعاء وقالوا هذه بدعة، لم يفعلها الصحابة والتابعون، بل كانوا يسلمون عليه وعلى صاحبيه ثم يذهبون»[(٣)].

وقد كره الإمام مالك أن يقول الرجل: زرت قبر النبي ﷺ، قالوا: لأن لفظ الزيارة قد صارت في عرف الناس تتضمن ما نهى عنه، فإن زيارة القبور على وجهين: وجه شرعي، ووجه بدعي[(٤)].

فالشرعية المقصود بها السلام على الميت، والدعاء له كما يقصد بالصلاة على جنازته، فزيارته بعد موته من جنس الصلاة عليه، فالسنة أن يسلم على الميت، ويدعو له سواء كان نبيًّا، أو غير نبي، كما كان النبي ﷺ يأمر أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية**»[(٥)]، وهكذا يقول إذا زار أهل البقيع، ومن به من الصحابة، أو غيرهم، أو زار شهداء أحد وغيرهم[(٦)].

الثاني: الغلو في الاعتقادات:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ابن قاسم مبيناً معنى الآية: «أي: لا تتعدوا ما حد الله لكم، ولا ترفعوا المخلوق

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٤٦).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٧٢-١٧٣)، انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٢٨).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٥٥).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٢/ ٦٧١)، برقم (٩٧٥).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٤٨)، (٢٧/ ٣٠).

عن منزلته التي أنزله الله، وأهل الكتاب هنا هم اليهود والنصارى، والغلو كثير في النصارى؛ فإنهم غلوا في عيسى فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، واليهود تنقصوه فحطوه من منزلته، حتى جعلوه ولد بغي، فالنصارى أفرطوا، واليهود فرطوا، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب، فهو تحذير لهذه الأمة أن يفعلوا مع نبيهم ما فعلت النصارى مع المسيح، واليهود مع العزيز، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد: ١٦]، ومن تشبه بهم من هذه الأمة وغلا في الدين بإفراط أو تفريط فهو منهم، فكل من دعا نبيًّا، أو وليًّا من دون الله فقد اتخذه إلهًا، وضاهى النصارى في شركهم، واليهود في تفريطهم»[1]، ثم ذكر ﷺ من الغلو في الاعتقادات: «الغلو في محبة الصالحين»[2]، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية، بقوله: «والغلو في الأمة وقع في طائفتين:

١. طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية.

٢. طائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين.

فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئًا من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]، والتعزير النصر والتوقير والتأييد»[3]، وبهذا بين ﷺ أن الغلو سبب من أسباب الكفر، وأن الواجب الشرعي هو إنزال الناس منازلهم التي

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٤٦-١٤٧).

(٢) المصدر السابق (١٤٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٦٦-٦٧).

أنزلهم الله سبحانه عليها، فلا يستوى الصالح بالفاسد، فلا يعطي كلا منهما منزلة الآخر؛ لأن مساواة الأول بالثاني سلب لما يستحقه، وإنزال الآخر منزلة الأول إعطاؤه أكثر مما يستحق وهذا هو الغلو، والذي نهى الله ورسوله عنه، وبهذا يعلم أن العدل هو أن ينزل كل منزلته فلا يعطى أكثر مما يستحق، ولا يسلب ما يستحق.

الثالث: الغلو في الأقوال:

ومن الغلو في الصالحين الغلو في الأقوال: كالثناء، والمدح الزائد على منزلة المثنى عليه، ولخطورته حذر النبي ﷺ أمته منه، فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(١)]»[(٢)]، فقال ﷺ معلقاً على هذا الحديث: «الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه، أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام حتى ادعوا فيه الإلهية، وإنما أنا عبد الله ورسوله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، وقولوا: عبد الله ورسوله، لا تجاوزوا هذا القول، فأبى المشركون إلا مجاوزة أمره، وارتكاب نهيه، وعظموه بما نهاهم عنه، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم، وناقضوا أمره أعظم مناقضة، وأظهر لهم الشيطان هذا الشرك في قالب التعظيم للنبي ﷺ ومحبته، والتوحيد والإخلاص في قالب التنقص، حتى جوزوا الاستغاثة به في كل ما يستغاث فيه بالله، ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، وارتكبوا ما نهوا عنه، وشاقوا الله ورسوله.

وفيه أن الألفاظ التي يذكرها بعض الناس في الصلاة والسلام عليه ﷺ، وغير ذلك مما لا يحبه ﷺ، ولا يحب إلا ما جاء الأمر به حتى في الصلاة عليه ﷺ، وفيما يثنى عليه ويمدح به، ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته،

---

(١) خرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها (٣ / ١٢٧١)، برقم(٣٢٦١).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٥١).

ومحبته إنما يصدقها تجريد التوحيد الذي بعث من أجله»[١]، بهذا يعلم أن النبي ﷺ حمى التوحيد، وسد كل طرق موصلة إلى الشرك، أو ذريعة تجر إليه؛ حتى يقي أمته المزالق الخطيرة التي تؤدي إلى الشرك بالله سبحانه.

المطلب الثاني: ما ينافي توحيد الألوهية، أو يقدح في كماله من الأعمال:

وفيه سبع مسائل:

بين ابن قاسم رحمه الله بعض أنواع الشرك التي تنافي التوحيد بالكلية أو كماله وأكد على أهمية معرفتها، فقال: «فإن الضد لا يعرف إلا بضده، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء، فمن لم يعرف الشرك لم يعرف التوحيد، وبالعكس»[٢]، وقد تحدث رحمه الله عن كثير منها، في حاشية كتاب التوحيد، وأوضحها، وبين زيفها، ونذكرها أولاً على سبيل الأجمال:

١. الذبح لغير الله.

٢. لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

٣. التبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.

٤. عبادة الأوثان.

٥. السحر.

٦. الكهان ونحوهم.

٧. النشرة.

٨. التطير.

٩. التنجيم.

١٠. الاستسقاء بالأنواء.

١١. الرياء.

(١) المصدر السابق (١٥١).

(٢) المصدر السابق (٧٤).

١٢. إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

١٣. طاعة العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً.

١٤. النياحة على الميت.

ونذكر بعضاً منها على سبيل التفصيل؛ لبيان جهده ﵀ في هذا الباب، وفيما يلي تفصيل لبعضها:

المسألة الأولى: عبادة الأوثان:

عرف ابن قاسم معنى الوثن بقوله: «والوثن يطلق على كل من قصد بأي نوع من أنواع العبادة، من صنم أو قبر أو مشهد أو غير ذلك، لقول الخليل ﵇: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، مع قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ [الشعراء: ٧١]، وقال عليه الصلاة والسلام لعدي وفي عنقه صليب: «ألق عنك هذا الوثن»[(١)]»[(٢)].

ثم بين ﵀ «أن الشرك لابد أن يقع في هذه الأمة بعبادة الأوثان»[(٣)]، وهذا فيه رد على من زعم أنه لا يقع في هذه الأمة الشرك، وأنكروا أن تكون عبادة القبور، والأولياء شركاً، وإنما هو من باب التوسل بالصالحين، وما أشبه ذلك من الأعذار الواهية، كما قال أولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، قال ﵀ مبيناً دلالة هذه الآية: «إنه إذا كان الذين أوتوا نصيباً من

(١) أخرجه الترمذي سنن الترمذي، كتاب باب من سورة التوبة (٥/ ٢٧٨)، برقم (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٩٥)، برقم (٣٠٩٥).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٧٥)، انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٢٢٨)، النهاية في غريب الأثر (٥/ ١٥٠).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٧٥).

الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، فهذه الأمة التي أوتيت القرآن لا يستنكر ولا يستبعد أن تعبد الجبت والطاغوت؛ فإن الرسول ﷺ قد أخبر أن هذه الأمة ستفعل مثل ما فعلت الأمم قبلها»[١]، كما جاء عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن»[٢]، بين ﷺ وجه دلالة هذا الحديث، بقوله: «"تتبعُنّ" بضم العين وتشديد النون، أي لتسلكن طرق من كان قبلكم من الأمم، في عبادة الأوثان وغيرها مما ذمهم الله به»[٣].

«وهذا كله شدة مبالغة منه ﷺ، وبيان أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئاً، وقد أكد هذا الخبر بأنواع من التأكيدات، من ذلك اللام في قوة: والله لتتبعن، ثم بنون التوكيد»[٤]، ثم بقوله: «شبرا بشبر وذراعا بذراع»، «ثم بالغ أشد مبالغة في التشبه بهم، حتى إن اليهود والنصارى لو دخلوا جحر ضب لدخلته هذه الأمة، ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره من السلف: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى[٥]»[٦].

ثم قال ﷺ: «فبين ﷺ في هذا الحديث ونحوه أن كل ما وقع من أهل الكتاب، مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها لابد أن يقع جميعه في هذه الأمة، وهذا

---

(١) المصدر السابق (١٧٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣/ ١٢٧٤)، برقم (٣٢٦٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب العلم، باب أتباع سنن اليهود والنصارى، (٤/ ٢٠٥٤)، برقم (٢٦٦٩).
(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٧٧).
(٤) المصدر السابق (١٧٧-١٧٨).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥١).
(٦) حاشية كتاب التوحيد (١٧٨).

اللفظ وإن كان خبراً، فمعناه النهي عن متابعتهم، وهذا من علامة نبوته ﷺ، ومن معجزاته، فقد سلك كثير من أمته مسلك اليهود والنصارى في إقامة سائر شعائرهم في الأديان، وفي عاداتهم من تعظيم القبور، واتخاذها مساجد حتى عبدوها، وإقامة الحدود والتعزيرات على الضعفاء دون الأقوياء، وملابسهم ومراكبهم، والتسليم بالإشارة، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والإقبال على كتب البدع والضلال، وغير ذلك مما نهى الله عنه»[(١)]، وبهذا يعلم أن عبادة الأوثان واقعة في هذه الأمة، كما وقع عند اليهود والنصارى، كالبناء على القبور، والطواف حولها، وإقامة الموالد، والاستغاثة بالأموات، ، وغيرها كثيرة جدًّا، ولذا يجب الحذر منها، ويتحتم البعد عنها.

المسألة الثانية: الريـاء:

عرف ابن قاسم الرياء بقوله: «والرياء مصدر راءى يرائي مراءاة ورياء...[(٢)]، وقال الحافظ: الرياء إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدونه عليها ا هـ[(٣)].

والفرق بينه وبين السمعة، أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة والصدقة، والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث به»[(٤)].

والرياء قد يكون منافياً لأصل التوحيد، وقد يكون منافياً لكماله، كما وضح ابن قاسم رحمه الله ذلك بقوله: «إنه من الشرك الأصغر، ما لم يرد في أصل العمل، وإلا كان من الأكبر»[(٥)]، فإذا كان في أصل الاعتقاد، ومطلق العمل، وهذا مما أجمع عليه أهل العلم على كونه شركاً أكبر، يكفر به صاحبه، ويخرج من الملة، وتارة يكون في

(١) المصدر السابق (١٧٨).
(٢) انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٩٦).
(٣) فتح الباري (١١/ ٣٣٦).
(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٦٤)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٤٤).
(٥) حاشية كتاب التوحيد (٢٦٤).

أفراد العمل، وهو إما يكون في أصله، أو مخالطاً له، أو طارئاً عليه، فهو حينئذ بحسبه[١].

ثم بين رحمه الله أن الرياء «شرك في النية، وهو البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، أو نوى شيئاً غير التقرب إلى الله وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونياته»[٢].

واستدل ابن قاسم بأدلة، منها:

الدليل الأول: قول النبي ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسئل عنه فقال: «**الرياء**»[٣]، وقد علق رحمه الله على هذا الحديث بقوله: «**يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه، أي: أشد خوف أخافه عليكم**»، وهذا من شفقته ﷺ على أمته ورأفته ورحمته بهم، فلا خير إلا دلهم عليه ولا شر إلا حذرهم عنه... قال ﷺ لأصحابه: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»[٤]...

وإذا كان ﷺ يخافه على أصحابه الذين وحدوا الله ورغبوا إلى ما أمروا به،

---

(١) انظر: (٢٠٣).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٦٤)، انظر: الجواب الكافي (١/ ٩٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٩) برقم (٢٣٦٨٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٥٣)، برقم (٤٣٠١)، وقال ابن حجر أخرجه أحمد بإسناد حسن. انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للبسام (٦/ ٣٠٧)، برقم (١٢٩٤).

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٥/٤٢٨)، برقم (٢٣٦٨٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٥٣)، برقم (٤٣٠١)، قال ابن قاسم: «وقد رواه أحمد والطبراني، والبيهقي بأسانيد جيدة». حاشية كتاب التوحيد (٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٨)، برقم (٣٢).

وهاجروا وجاهدوا وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من لا يدانيهم، ومن لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل؟خصوصاً إذا عرف أن أكثر الناس اليوم بل كثير من علماء الأمصار لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، لم يعرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله، ويقولون: من قالها فهو المسلم وإن فعل ما فعل.

فينبغي للإنسان أن يحذر كل الحذر، ويخاف أن يقع في الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً على الصالحين...، وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك، وقد عمت به البلوى في أكثر الأقطار، حتى اتخذوه ديناً مع ظهور البراهين في النهي عنه، والتخويف منه»[(١)].

* حكم العبادة إذا خالطها الرياء:

الرياء من الأمراض الخطيرة، والخسائر الفادحة، حيث فيه خسارة الدين والآخرة، ولهذا نبه على خطورته الأنبياء والمرسلون، وحذر منه المتقون، وخافه الصالحون، ولم يأمن من مغبته إلا المنافقون، والغافلون، والجهلة من الخلق، ويسمى الشرك الخفي؛ لأنه يقوم بالقلوب، وهو دركات، بعضها أسوأ من بعض، وظلمات بعضها أظلم من بعض، فمنه الرياء المحض، وهو أردأها، ومنه ما هو دون ذلك، ومنه خطرات قد أفلح من دفعها وخلاها، وقد خاب من استرسل معها وناداها، وبهذا حذر منه النبي ﷺ أشد تحذير، فقال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[(٢)]: قال رحمه الله: «أي من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه... أي: فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، فعمل المرائي باطل لا ثواب له، ويأثم به.

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٥٠-٥١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله وفي نسخة باب تحريم الرياء، (٤/ ٢٢٨٩)، برقم (٢٩٨٥).

والضمير في "تركته" يجوز أن يرجع إلى العمل، قال ابن رجب: العمل لغير الله أقسام:

١. فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة، أو الحج، أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

٢. وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه.

٣. وإن كان أصله لله ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أولا؟ فيجازى على أصل نيته، فيه خلاف، رجح أحمد وغيره أنه لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى اهـ[1].

ولا يظن الظان أنه يكتفي فيه بحبوط عمله فلا له ولا عليه، قال الشيخ: بل هو مستحق للذم والعقاب، وقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد عليه.

٤. وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[2]، وفي حديث أبي هريرة: يدخل علي الرجل في بيتي

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٤/ ٢٠٣٤)، برقم (٢٦٤٢).

وأنا أصلي فيسرني ذلك، فقال: يرحمك الله، لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية[١]؛ لأنه لم يقصد رؤية أحد عند الشروع، ولا قام بقلبه أن يراه أحد»[٢].

المسألة الثالثة: التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها:

بين ابن قاسم ﵀ معنى التبرك فقال هو: «طلب البركة ورجاؤها واعتقادها..، من جلب نفع، أو دفع ضر، وتبرك به: تيمن وفاز منه بالبركة، واستبرك به تفاءل بالبركة، والبركة: النماء والزيادة»[٣].

ومما ينافي التوحيد بالكلية التبرك بالشجر، أو الحجر «وما يشبههما كبقعة ومغارة وزاوية وقبر ومشهد وموطئ وأثر ونحو ذلك»[٤]، وفاعل ذلك «مشرك الشرك الأكبر؛ لكونه تعلق على غير الله في حصول البركة من غيره، وإن كان الله جعل فيه بركة»[٥]، وبهذا بين ﵀ أن من تبرك بشجر أو حجر، أو بقبر يعتقد فيه أن ينفع ويضر من دون الله، أو أنه سبب لحصول البركة فقد أشرك بالله؛ لتعلق القلب بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وقد يجعل الله بعض الأشياء مباركة، كماء زمزم، فليست هي التي توجد البركة، أو تخلق البركة، وإنما الذي يخلق البركة ويوجدها هو الله سبحانه[٦]، فالتبرك بالأماكن والآثار والأشخاص أحياءً وأمواتًا لا يجوز؛

---

(١) لم أجد نص الرواية التي ذكرها ابن قاسم، ولعله يكون معناها ما جاء عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رجل: يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك ؟ قال رسول الله ﷺ: «له أجران، أجر السر وأجر العلانية». أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه، كتاب الزهد، باب عمل السر (٤/ ٥٩٤)، برقم(٢٣٨٤)، ابن ماجه سنن، كتاب الزهد، باب الثناء الحسن، (٢/ ١٤١٢)، برقم (٤٢٢٦)، بنحوه.

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٦٥-٢٦٦).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٩٠)، انظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (١/ ٤٤).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٩٠).

(٥) المصدر السابق (٩٠).

(٦) وهذه مسألة مهمة يجب التنبيه لها، وهو أن الله سبحانه جعل لكل شي سببا، فلا يعتمد على الأسباب؛ وإنما يعتمد على الله مسبب الأسباب؛ لأن تعطيل الأسباب عجز وتعطيل للمنافع، التي جعلها الله سبحانه في الأشياء، قال ابن قاسم ﵀: «ومحو الأسباب أن تكون أسباباً: نقص في =

لأنه إما شرك، إن اعتقد أن ذلك الشيء يمنح البركة، أو وسيلة إلى الشرك، إن اعتقد أن زيارته وملامسته والتمسح به سبب لحصولها من الله، وأما ما كان الصحابة يفعلونه من التبرك بشعر النبي ﷺ وريقه وما انفصل من جسمه ﷺ فذلك خاص به ﷺ[(١)].

ثم بين رحمه الله سر تبركهم بها، وعكوفهم عندها وهو: «ما كانوا يأملونه فيها من البركة، كما يعكف عباد القبور اليوم عندها ويجاورون، وتدفع الصدقات والنذور لتلك القبور»[(٢)] «فعبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الثلاثة العكوف والتعظيم والتبرك عبدت الأوثان من دون الله»[(٣)].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، حيث علق ابن قاسم على هذه الآية فقال: «أي: هل نفعت، أو ضرت، يعني أنتم تعلمون أن ذلك ليس إليها، فلم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ وهذه الأوثان الثلاثة هي أعظم أوثان الجاهلية عند أهل الحجاز، ولهذا نص عليها بأعيانها، وإلا ففي الحجاز أوثان غيرها، لكن خص هذه الثلاثة بالذكر؛ لأنها أكبر أصنام العرب إذ ذاك، فصارت الفتنة بها أشد»[(٤)].

ثم بين رحمه الله مناسبة هذه الآية، فقال: «إن عبادة المشركين لها إنما كانت

= العقل، والإعراض عن الأسباب قدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب شرك في التوحيد» حاشية الدرة المضية (١٠)؛ لأنه اعتماد على غير الله، ومن أمثلة ذلك كحرق النار، وإنما حرقت لأنها سبب في الإحراق، ويقدر الله سبحانه على أن يسلبها خاصيتها فلا تحرق كما سلب النار خاصيتها لما أُلقي فيها إبراهيم عليه السلام، وصارت برداً وسلاماً، فدل على أن الأسباب لا تستقل بذاتها، وإنما بقدرة مسببها، وهو الله سبحانه.

(١) انظر تفصيل المسألة (٢٠٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٩٢).

(٣) المصدر السابق (٩٣).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٩٠).

بالتفات القلوب رغبة إليها في حصول ما يرجونه ببركتها، من نفع أو دفع ضر، فصارت أوثاناً تعبد من دون الله، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة، من جنس فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، مع أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك، قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]، أي: كيف تجعلون هذه الإناث أنداداً لله وتسمونها آلهة، وذلك أنهم اشتقوا اسم اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً...

فنهاية برهانهم مبني على أمرين:

١. فساد العلم. ٢. وفساد الإرادة.

وكل فساد في الوجود من الشرك فما دونه دائر على فساد العلم وفساد الإرادة أو هما جميعاً، كما أنه لا استقامة إلا لمن عنده علم صحيح وإرادة صحيحة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، أرسل إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة بإبطال عبادتها، وفي هذه الآيات من الدلائل القطعية على بطلان عبادة هذه الطواغيت وأشباهها مما لا مزيد عليها»(١).

الدليل الثاني: حديث أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: **«سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»**(٢)، ثم بين ابن قاسم دلالات الحديث، فقال: «شبه ﷺ مقالتهم هذه بقول

---

(١) المصدر السابق (٩٠-٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٤/ ٤٧٥) برقم (٢١٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف.

بني إسرائيل، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة، فدل على أن التبرك بالأشجار والأحجار شرك أكبر، لتسويته ﷺ بين مقالتهم ومقالة بني إسرائيل، وحلف ﷺ على ذلك وإن لم يُستحلف مزيد تحذير، وكمال شفقة، وتأكيداً لهذا الخبر وتعظيماً له، فإن التبرك بالأشجار والأحجار يجعلها آلهة وإن لم يسموها آلهة، فما يفعله من يعتقد فيها من التبرك بها، والعكوف عندها، والذبح لها هو الشرك الأكبر وإن سمى عمله ما شاء من الأسماء، فأهل هذه الأزمنة يسمون شركهم توسلاً وتشفعاً وهو من أعظم الشرك»[١]، كما أن هذا الحديث فيه مسألة مهمة، وهي: أن حسن المقاصد لا يغير من الأحكام الشرعية شيئاً، وأن هؤلاء لهم مقاصد حسنة؛ ولكن النبي لم يعتبر مقاصدهم؛ بل أنكرها؛ لأنها وسيلة إلى الشرك.

*** التبرك بالأشخاص الصالحين، له حالان:**

١. التبرك بمجالستهم، وأخذ العلم عنهم، وسماع نصائحهم، والرغبة في الحصول على دعائهم، فهذا كله مشروع، وجائز، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقول القائل: ببركة الشيخ قد يعني بها دعاءه وأسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب وقد يعني بها بركة ما أمره به وعلمه من الخير وقد يعني بها بركة معاونته له على الحق وموالاته في الدين ونحو ذلك وهذه كلها معان صحيحة»[٢].

٢. التبرك بما سوى ذلك، كالتبرك بذواتهم، أو بآثارهم، كملابسهم، وفضل مائهم، ومواطنهم، وشعرهم ونحو ذلك، وهذا لا يخلو من حالتين:

أ -إما أن يكون المتبرك به نبينا ﷺ، سواء بذاته، أو بعض آثاره.

ب-أو يكون غيره من صالحي أمته.

ولذا اتفق العلماء على جواز التبرك بآثار النبي ﷺ، لأنه ﷺ لمّا حلق رأسه في

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٩٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٩٦).

حجة الوداع وزعها على الصحابة[١]، فهذا يدل على أن هذا جائز بالنسبة إليه ﷺ، وهكذا ملابسه التي تعتلي جسده[٢]، فيها بركة؛ لأن الله جعله مباركاً، وجعل ما أصابه في جسده فيه البركة.

ثم اتفقوا أيضاً على عدم جواز التبرك بغيره من الصالحين[٣]، فقال رحمه الله: «فلا يجوز التبرك بالصالحين؛ لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه مع غير النبي ﷺ لا أبي بكر ولا غيره، ولا فعله التابعون مع قاداتهم في العلم، والدين، وللنبي ﷺ في حال حياته خصائص كثيرة، لا يصلح أن يشاركه فيها غيره، فلا يجوز أن يقاس عليه أحد من الأئمة لعدم المقاربة فضلا عن المساواة له ﷺ في الفضل والبركة»[٤]، ولهذا لم يتبرك الصحابة رضي الله عنهم بأحد منهم لا في حياته ولا بعد وفاته ﷺ لا مع الخلفاء الراشدين، ولا مع غيرهم، فدل ذلك على أنهم قد عرفوا أن ذلك خاص بالنبي ﷺ دون غيره؛ ولأن ذلك وسيلة إلى الشرك، وعبادة غير الله سبحانه[٥].

المسألة الرابعة: طلب الشفاعة من غير الله:

لا أظن أن المرء يكون مجازفاً إن قال: إن هذه المسألة من أعظم المسائل التي فارق بها أهلُ التوحيد أهلَ الكفران والتنديد، وهي من أهم المسائل التي شاق بها أهل الإشراك كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، منقادين لكل أفاك أثيم، وشيطان لعين، قال رحمه الله: «ولما كان المشركون في قديم الدهر وحديثه إنما وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة، كما أخبر الله عنهم»[٦].

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي (٢/ ٩٤٧)، رقم (١٣٠٥).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في القميص الذي يكف أو لا يكف (١/ ٤٢٧)، برقم (١٢١٠).

(٣) الاعتصام لشاطبي (٢/ ٨-٩).

(٤) حاشية كتاب التوحيد(٩٤).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٩٩)، (٢٧/ ١٣٧، ٣١٠)، تيسير العزيز الحميد (١/ ١٤٣).

(٦) حاشية كتاب التوحيد (١٣٣).

وهذه المسألة أيضاً من أهم المسائل التي شنع بها المشنعون، وروجها المبغضون، وتلقفها الحاقدون على دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أنه ينكر على وجه الخصوص شفاعة نبينا ﷺ، ومن أنكر الشفاعة فقد كفر، وبالتالي فهذه المسألة مما كُفِّرَ به أئمة الدعوة السلفية النجدية، ورمي به بعض تلامذتهم وأتباعهم في هذه البلاد السنية.

والشيخ ابن قاسم رحمه الله لم يكن عن هذا الأمر ببعيد، فلم يسلم من هذه التهمة، ولم تبرأ ساحته من الحكم عليه بالكفر[1]، لهذا جاء بيان هذه المسألة من الشيخ رحمه الله شافياً وافياً، واستقصاء كلامه ليس هذا موضعه؛ ولكن حسبنا من هذا الإشارة بأبسط عبارة إلى مهمات هذه المسألة، فمما ذكره الشيخ رحمه الله في هذه المسألة:

أولاً: تعريف الشفاعة لغة، واصطلاحاً:

بين ابن قاسم معنى الشفاعة، فقال: «والشفاعة: مصدر من الشفع ضد الوتر، وشفع فيه أعانه، وفي النهاية: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم اهـ[2]»[3].

ثانياً: تقسيمه الشفاعة إلى قسمين:

تبع ابن قاسم السلف حيث قسموا الشفاعة قسمين:

١ - شفاعة مثبتة.

٢ -شفاعة منفية.

وذلك بقوله: «وهي نوعان:

١ . شفاعة منفية، وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

---

(١) انظر: كتابه السيف المسلول على عابد الرسول (٥)، الذي كان سبب تأليفه الرد على علي بن محمد الرشيدي الجزائري، الذي اتهمه بالكفر لجحده لشفاعته المصطفى عليه الصلاة والسلام.

(٢) النهاية في غريب الأثر (٢/ ٤٨٥).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٣٣).

٢. ومثبتة، وهي التي تطلب من الله، ولا تكون إلا لأهل التوحيد»[(١)].

ثم ذكر أن الشفاعة المثبتة مقيدة بأمرين، فقال رحمه الله: والشفاعة: «مقيدة بأمرين:

١. إذن الله للشافع أن يشفع.

٢. ورضاه عن المشفوع له»[(٢)].

ثم استدل على هذا التقسيم بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فقال رحمه الله: «إن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله، وفي هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه، فأنكر عليهم، وبين عظيم ملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمكن أن يتكلم يوم القيامة إلا إذ أذن له، وأن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، فبين تعالى أنها لا تقع إلا بشرطين: إذن الرب للشافع أن يشفع، ورضاه عن المأذون فيه.

وهو سبحانه لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه، ولقيه العبد به مخلصاً غير مشرك»[(٣)].

ثالثاً: أقسام الناس في الشفاعة:

يرى ابن قاسم رحمه الله أن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام: فقال رحمه الله: «الناس في الشفاعة ثلاث طوائف: طرفان ووسط»[(٤)].

١. قسم أنكر الشفاعة:

---

(١) المصدر السابق (١٣٣)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٥١، ٣٣٢)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٢٨).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٣٣)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١١٨)، مدارج السالكين (١/ ٣٤١).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٣٥).

(٤) المصدر السابق (١٣٣).

قال ﷀ: «فطائفة أنكروها كاليهود والنصارى[١]، والخوارج المكفرين بالذنوب»[٢]، والمعتزلة؛ حيث أنكروا شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الكبائر، وقصروا الشفاعة على التائبين من المؤمنين؛ لأن إثبات الشفاعة للفساق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم الباطل، فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له لا من النبيﷺ ولا من غيره.

٢. قسم غلا في إثباتها:

قال ﷀ: «وطائفة أثبتوها وغلوا في إثباتها، حتى جوزوا طلبها من الأولياء والصالحين»[٣]، وهم غلاة الصوفية، والقبوريون[٤]، حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند الله يوم القيامة كشفاعته في الدنيا، حيث اعتقدوا أن هؤلاء المعظمين يشفعون استقلالاً.

٣. قسم توسط:

وهم أهل السنة والجماعة، قال ﷀ: «وأهل السنة والجماعة أثبتوا الشفاعة الشرعية، كما ذكر الله في كتابه، ولا تطلب إلا من الله، كأن تسأله تعالى أن يشفع فيك نبيك محمداً ﷺ، فإن الشفاعة محض فضل وإحسان»[٥]، فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوا كل شفاعة، بل أثبتوا من الشفاعة ما دلّ عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونفوا منها ما نفاه الدليل؛ فالشفاعة المثبتة عندهم هي التي تطلب من الله

---

(١) ليس على إطلاقه، بل يوجد عند بعض فرقهم صكوك الغفران، وشفاعة القدسيين، وغيره، فالشفاعة عندهم معتبرة.

(٢) المصدر السابق (١٣٣).

(٣) المصدر السابق (١٣٣).

(٤) جمع قبوري، وهذه النسبة إلى القبر، والمراد بهم غلاة الصوفية الذين يعتقدون في الأولياء والصالحين، ويعكفون على قبورهم، ويستمدون منهم، ويستشفعون بهم. انظر: جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، لدكتور شمس الدين الأفغاني السلفي.

(٥) حاشية كتاب التوحيد (١٣٣).

ﷺ وهي التي تكون للموحدين بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له؛ فلا تطلب من غير الله، ولا تكون إلا بعد إذنه ورضاه[١].

رابعاً: أدلة الشفاعة:

ذكر ابن قاسم: «أن الشفاعة ملك لله خاصة، كما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة...، ومنال الشفاعة في عبادة الله وحده، والخضوع له وحده، والالتجاء إليه وحده، وتحقيق التوحيد»[٢]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة منها في الصحيحين أحاديث متعددة وفي السنن والمسانيد مما يكثر عدده»[٣].

ومما يدل عليها قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقد علق رحمه الله على هذه الآية فقال: «اللام للملك، أي هي ملك لله تعالى، فليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون ما سواه؛ لأن ذلك عبادة وتأله لا يصلح إلا له تعالى، وقال قبلها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] فأخبر سبحانه أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف عقلاً وشرعاً، فقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٤٤]، تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه؛ لأنه مالك الملك، فيجب اندراج ملك الشفاعة في ذلك، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها»[٤].

خامساً: قطع الله طمع المشركين في الشفاعة من غيره:

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٠٨)، رسائل في العقيدة، للحمد (٤٨٥-٤٨٦).

(٢) السيف المسلول على عابد الرسول (٨٠)، انظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٦)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٤).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (١٣٤).

لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ [سبأ: ٢٢]، قال ﷫ معلقاً على هذه الآية: «نفى في هذه الآية الكريمة عما سواه تعالى وتقدس كل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله، من الملك والشركة والمعاونة والشفاعة، فإن هذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون»[(١)].

ثم نقل «كلام ابن القيم، وغيره في هذه الآية: أنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها، فقد قطع الله بها جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون، على أي وجه كان، فإن المشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من أربع: إمّا أن يكون مالكاً لما يريده، أو شريكاً للمالك، أو معيناً وظهيراً، أو شفيعاً، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، ولم يجعل سبحانه الاستغاثة بالميت أو غيره سبباً لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، لا ما يمنع الإذن، فالمشرك قد أتى بأعظم حائل بينه وبين حصول الشفاعة، فهو كمن استعان في حاجة بما يمنع حصولها[(٢)]»[(٣)]، ثم قال: «لا كما يظنه المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء، فيدخله الجنة، وينجيه من النار؛ ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم»[(٤)]، ثم قال: «فأبطل النبي ﷺ زعمهم الكاذب، وأخبر أن أعظم

---

(١) المصدر السابق (١٣٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٣٦)، انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤١).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (١٤٠).

الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد لله وحده، لا الالتجاء إلى الأولياء والصالحين وغيرهم، ودعاؤهم وطلبهم الشفاعة، فلا تنال بذلك، بل هو أصل شرك العالم، ولكن كما قال بعض السلف: من جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليا أو شفيعا أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله، وهو لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده وإتباع رسوله»[١].

سادساً: أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ:

أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ أهل التوحيد، دون أهل الشرك والتنديد، واستدل ابن قاسم بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه: قال: قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه، أو نفسه**»[٢]، ثم بين رحمه الله دلالة الحديث، فقال عند قوله ﷺ: (**خالصاً**): «احتراز من المنافق و(أسعد) أفعل تفضيل، وقيل: أي سعيد الناس، أو المخلص أكثر سعادة بها، فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصاً»[٣].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ قال: «**وشفاعتي لمن قال لا إله إلا الله مخلصاً، يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه**»[٤].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة،**

---

(١) المصدر السابق (١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (١/ ٤٩)، برقم (٩٩).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (١٣٨).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، في ذكر الإخبار عن وصف القوم الذين تلحقهم شفاعة المصطفى ﷺ في العقبى (١٤/ ٣٨٤)، برقم (٦٤٦٦)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٠٧)، برقم (٨٠٥٦)، والحاكم في المستدرك، وصححه، باب الإيمان (١/ ١٤١)، برقم (٢٣٣).

فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً»[١]، قال رحمه الله: «فهذان الحديثان ونحوهما مما يبين أنها لأهل التوحيد والإخلاص بإذن الله، وكذا في أحاديث الشفاعة كلها، إنما يشفع في أهل التوحيد كما في الكتاب العزيز»[٢]، و«قيدها ﷺ بقوله: **«من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»**[٣]؛ لئلا يتوهم المشركون أنها نائلتهم، وإنما تنال الموحدين الذين استحقّوا دخول النار بسبب ذنوبهم، فيشفع لهم في الخروج بعد التطهير، كما تواتر: **«أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة مثقال ذرة، مثقال خردلة من إيمان»**[٤]»[٥]، ثم بين أن «دعاء الله وحده، وإسلام الوجه له، هو السبب الأعظم في نيل الشفاعة»[٦].

سابعاً: ذكر بعض أدلة المخالفين، والرد عليها:

ذكر ابن قاسم بعض الأدلة التي أوردها المخالفون للسلف في جواز أن يدعى النبي ﷺ، ويرجى، وتطلب منه الشفاعة بعد موته عليه الصلاة والسلام، ورد رحمه الله على استدلالاتهم الباطلة، ومن ذلك:

حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي، أدركته الصلاة، فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، (١/ ١٨٩)، برقم (١٩٩).
(٢) حاشية كتاب التوحيد (١٣٨).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، بَاب الحرص على الحديث، (١/ ٤٩)، برقم(٩٩).
(٤) أخرجه البخاري في صحيح، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (١/ ١٦)، برقم (٢٢).
(٥) حاشية كتاب التوحيد (١٤٠).
(٦) السيف المسلول على عابد الرسول(٨٧).

لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[(١)]، قال ﷺ: «ساق هذا المعترض[(٢)]، هذا الحديث الجليل، لأجل قوله ﷺ: «**وأعطيت الشفاعة**» مستدلاً به، على أن النبي ﷺ يدعى، ويرجى، وتطلب منه الشفاعة بعد موته ﷺ وأن من منع طلبها منه بعد موته، فقد أخطأ، وكفر، وكفر الأمة، ولو استدل بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة.

والجواب، أن يقال:

سبحان من طبع على قلبه، حتى انعكس عليه الأمر، وصار لا يفهم من النصوص القرآنية، والألفاظ النبوية، إلا خلاف ما دلت عليه، أو يقصد الإلحاد فيها، وكونه ﷺ أعطي الشفاعة، فرسول الله عبد مملوك لله، مأمور، لا يشفع إلا بعد إذن الله له، فيمن شاء أن يشفعه فيهم فقط، لا يدل على أنها ملك له ﷺ فيكون شريكاً لله في إلهيته، يقصد للشفاعه، ويدعى لها، وتطلب منه بعد موته ﷺ.

فإن أصل الشرك: هو دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، وطلبهم الشفاعة، الذي أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب بالنهي عنه، وتكفير فاعله، ومن دعا غير الله، وأشرك به، وتعلق على الأنبياء والصالحين، وجعلهم منتهى طلبه، وغاية مقصده، وسوى بينهم، وبين الله في خالص حقه، ليس داخلاً في الحديث، ولا مراداً به، ولا تناله شفاعته ﷺ وإنما تنال أهل الإخلاص، بإذن الله، كما قال ﷺ لأبي هريرة، لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**»[(٣)].

ومن قال بعد وفاته ﷺ يا رسول الله اشفع لي، أو أسألك الشفاعة، لم يقل لا إله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ جُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا (١/ ١٦٨)، برقم (٤٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ومواضع الصلاة (١/ ٣٧٠)، برقم (٥٢١).

(٢) وهذا هو: على بن محمد الرشيدي الجزائري، الذي رد عليه في كتابه السيف المسلول في عابد الرسول.

(٣) سبق تخريجه (٢٣٠).

إلا الله، خالصاً من قلبه، بل قد جعل رسول الله ﷺ إلهاً آخر مع الله، وكفر بالله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، والشفاعة: قد صحت أحاديثها وتواترت، ولكنها لا تدل على ما ذهب إليه هذا المعترض، المبهوج، المموه، المحرف لأحاديث رسول الله ﷺ الملحد في معانيها، المبدل لدين الله، الداعي إلى دعاء غير الله، السالك سبيل سلفه، من أهل الكتاب، والمشركين.

فإنهم يتعلقون على أندادهم، ويدعونهم مع الله، لأجل الجاه والشفاعة، وأنهم أعطوا الشفاعة، فهم يطلبونها منهم، كما حكى الله ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقد أبطل الله سبحانه هذه الشفاعة، في كتابه، وأسجل: أن الشفاعة ملكه، وأنها لا تكون إلا لأهل التوحيد، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أي: أنه لا إله إلا الله.

وفي الصحيح: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه**»[1]، فدعاء الله وحده، وإسلام الوجه له، هو السبب الأعظم في نيل الشفاعة، ولو كان المشفوع فيه متلوثاً بالذنوب، فإن حسنة التوحيد، لا يقاومها ما دون الشرك من السيئات، وسيئة الشرك، لا يبقى معها شيء من الحسنات.

---

(١) سبق تخريجه (٢٣٠).

وإيراده هذا الحديث: إيهام أننا ننكر الشفاعة، لما نهينا عن عبادة غير الله ﷻ، فاستدل به على كفرنا، سفسطة، وبهتاً، وكذباً بحتاً، وتعمية، ومغالطة، وتمويهاً، وصرفاً للناس عن توحيد الله، الذي أوجبه على عباده، ودعاية واضحة إلى عبادة غير الله، وليأت بدليل شرعي: أن الشفاعة تطلب من النبي ﷺ أو غيره من الأموات، والغائبين، إن كان من أهل التحقيق والعرفان أو يدعو إلى الحق.

وليدع التلبيس، والروغان، والمعاكسة، والمشاقة لله ولرسوله، واتباع غير سبيل المؤمنين، وركوب طريق سلفه، ممن يكفر بالرحمن، ويكفر بمحض الإيمان، وينكر التوحيد، ويكفر من أتبعه، وعد نفسه من العلماء الداعين إلى الحق وهو: لم يبلغ شرك المشركين شركه، فالله المستعان»[1].

المسألة الخامسة: الطيرة:

حفلت حياة المشركين في الجاهلية الأولى بكثير من العادات التي اتسمت بالسطحية والسذاجة، وذلك نظراً لافتقادهم المصدر الإلهي الذي يهتدون بهديه، ويستضيئون بنوره، بعيداً عن منطق الخرافة، الذي سيطر على عقولهم، وحجبها عن التفكير الصحيح، فلما جاء الإسلام بين لهم خرافة هذه العادات الشركية، وأنها قائمة على الأوهام التي يلقيها الدجالون والمشعوذون.

فنهى النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً، وأن الحافظ الضارَّ النافعَ هو الله سبحانه، وأن تلك العادات التي يمارسونها لا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضراً، ومن هذه العادات وأكثرها في الجاهلية هي الطيرة، وقد تكلم ابن قاسم فيها وبينها وبين علاجها، وأن الإسلام أمر بنقيضها، وسأرتب كلامه في هذا الموضوع في هذه العناصر التالية:

أولاً: تعريف الطيرة:

عرف ابن قاسم الطيرة لغة، بقوله: «والطيرة اسم مصدر من تطير طيرة، كما

(١) السيف المسلول على عابد الرسول(٨٥-٨٨).

يقال تخير خيرة، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما»(١).

كما عرف الطيرة اصطلاحاً: بقوله: «هي التشاؤم بالشيء المرئي، أو المسموع»(٢).

وقال أيضاً: الطيرة هي: «التشاؤم بالشيء بما يقع من المرئيات، أو المسموعات في قلوب أهل الشرك، والعقائد الضعيفة، الذين لا يجعلون توكلهم على الله»(٣).

وأصله التطير بالسوانح والبوارح(٤) من الطير والظباء والعطاس والنجوم وغير ذلك، فكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع أو دفع ضر، وإنما هو خواطر وحدوس وتخمينات لا أصل لها...

ومن العرب من يتشاءم بالبارح، ويتبرك بالسانح وبالعكس، ولم تكن قاطبة تعتقد هذا وتقول به، بل قد جاء عن بعضهم إنكاره ومنه:

وما أنا ممن يزجر الطير همه ... أطار غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية ... أمَرَّ سليم القرن أم مَرّ أعضب(٥)

وغير ذلك مما هو مشهور عنهم»(٦).

ثانياً: حد الطيرة:

كي يجتنب المسلم الطيرة، لابد من معرفة حدها، وحدها ورد موضحاً بقوله

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢١٢)، انظر: لسان العرب (٤/ ٥١١)، القاموس المحيط (١/ ٥٥٥).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٢١).

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٦)، مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٧).

(٤) السانح هو: ما ولاك ميامنه، بأن يمر عن يسارك إلى يمينك، والبارح بالعكس. انظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٣).

(٥) من شعر: كميت بن زيد بن خنيس بن المجالد أبو المستهل الأسدي أسد خزيمة. تاريخ الإسلام (٨/ ٢١١).

(٦) حاشية كتاب التوحيد (٢١٢)، انظر: حلية الأولياء (٩/ ٩٤).

ﷺ: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»[١]، وعلق رحمه الله على هذا الحديث، بقوله: «هذا حد الطيرة المنهي عنها فسرها رسول الله ﷺ بقاعدة كلية، وهي ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده أو يمنعه من المضي فيه، فتلك الطيرة، ومن مضى أو امتنع بسببها فقد أشرك، وأما الفأل الذي كان يحبه عليه الصلاة والسلام، ففيه نوع بشارة فيسربه العبد، ولا يعتمد عليه، بخلاف ما يمضيه أو يرده؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد، وهذا فرق واضح بين الطيرة والفأل»[٢].

ثالثاً: تحريم الطيرة، والأدلة عليها.

١ - الطيرة من الشرك، لاشتمالها على ما يلي:

٢ - ادعاء الغيب، ولما فيها من اعتقاد جلب النفع، ودفع الضر.

٣- تعلق القلب بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٤ - فتح باب الخوف من غير الله.

٥ - اعتماد على ما ليس سبباً، لا شرعا، ولا قدراً.

ولذا قال ابن قاسم: «ولما كان التطير من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب؛ لكونه من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، ولكونه يتعلق القلب به خوفاً وطمعاً، ولكونه منافياً للتوكل على الله، واعتقاد نفع، أو ضر بسبب طائر ونحوه...، وإن كان من الشرك الأصغر فهو من أقبح الشرك»[٣] وقال في موضع آخر: «فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤما فقد دخل في الشرك؛ لكونه لم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢١٣)، برقم (١٨٢٤) وقال ابن مفلح: رواه احمد من رواية محمد بن عبد الله بن علاثة، وهو مختلف فيه وفيه انقطاع وأخرجه احمد بإسناد ضعيف. الآداب الشرعية (٣/ ٣٥٨).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٢٢).

(٣) المصدر السابق (٢١٢)، انظر: التمهيد، لابن عبد البر (٢٤/ ١٩٥)، مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٠).

يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه، فكان للشيطان منه نصيب»[١].

أدلة الكتاب والسنة المطهرة بالنهي عنها:

ثبت النهي عن الطيرة بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فقد علق على هذه الآية بقوله« (ألا) أداة تنبيه، و(إنما) أداة حصر، أي إنما جاءهم الشؤم من قبله، قدره وقضاه عليهم بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله، ردا لمقالة آل فرعون الكاذبة الباطلة، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي: الخصب والرخاء والسعة والعافية: ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلاء وقحط: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم كما يقول المتطير لمن يتطير به، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي ليس شؤمهم إلا عند الله، أي من قبله وحكمه الكوني القدري، قال ابن عباس: طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم[٢]، وقال الزجاج[٣]: الشؤم الذي وعدوا به من العقاب عنده، لا ما ينالهم في الدنيا[٤]»[٥].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٢١).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٢/ ١٩٠).

(٣) هو: إبراهيم بن محمد السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة والتفسير، ولد في بغداد عام ٢٤١هـ من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان، والامالي في الأدب واللغة، ومات في بغداد عام ٣١١هـ انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠)، الأعلام (١ / ٤٠).

(٤) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٣/ ٢٤٨).

(٥) حاشية كتاب التوحيد (٢١٣).

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨- ١٩]، كما علق على هذه الآية بقوله: «وهذه الآية أيضاً رد على من كذب الرسل، فأصيبوا بالبلاء، فإنهم لما ضاقت عليهم الحيل وعييت عليهم العلل، ادعوا أن سبب البلاء جاء من قبل الرسل وبسببهم، فـ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقالت لهم الرسل: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي سبب شؤمكم، أو حظكم وما نالكم من شر معكم بسبب أفعالكم وكفركم، لا من قبلنا كما تزعمون، ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم، وسوء عقيدتكم وقبح أعمالكم، فما وقع بكم من الشر فعملكم الخبيث سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله، ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: من أجل أنّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾»[١].

ومن السنة: حديث ابن مَسعود، قَال: قال رسول الله ﷺ: «**الطِّيَرَة شرك وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل**»[٢]، وعلق ابن قاسم على هذا الحديث بقوله: «وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله،

---

(١) المصدر السابق (٢١٣-٢١٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، (٢/ ١١٧٠)، برقم(٣٥٣٨)، وأحمد في مسنده(١/ ٣٨٩)، برقم(٣٦٨٧)، الترمذي في سننه، وصححه، في كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٦٠)، برقم(١٦١٤)، وقوله: وما منا إلا إلى آخره من قول ابن مسعود نقله الترمذي عن سليمان بن حرب أهـ قال ابن قاسم: «ووافقه على ذلك أهل العلم وهو المتعين؛ فإنه ﷺ معصوم من الشرك بالإجماع، وقال ابن القيم: وهو الصواب؛ فإن الطيرة نوع من الشرك، كما هو في أثر مرفوع: «من ردته الطيرة فقد قارف الشرك» حاشية كتاب التوحيد (٢٢٠)، انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).

ولو لم يكن فيها إلا سوء الظن بالله لكفى بها قبحاً»[١].

الدليل الثاني: حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر**»[٢]، فقال رحمه الله: «يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً، أي: لا تطيروا، والخبر قطعاً يدل على أن المراد النفي والإبطال لهذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه، ولما قيل له عليه الصلاة والسلام، ومنا أناس يتطيرون، قال: «**ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم**»[٣]، فأخبر أن تأثيره وتشاؤمه بالطير إنما هو في نفسه وعقيدته، لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه، فبين فساد الطيرة، وأن الله لم يجعل فيها دلالة، ولا نصبها سبباً...»[٤].

※ أمثلة على التطير كانت عند العرب:

جاء في الحديث السابق، بعض الأمثلة التي اشتهر عند العرب في الجاهلية التطير بها والنهي عنها، كالهامة والصفر، وقد تحدث ابن قاسم عنهما كالتالي:

١ - الهامـــة:

قال ابن قاسم رحمه الله: «الهامة بتخفيف الميم، وقد تشدد – وهي - البومة[٥]، إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلي نفسي، أو أحداً من أهل داري، أو يخرب المنزل، وقيل: إن العرب كانت تعتقد أن عظام الميت، وقيل: روحه تنقلب هامة

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة ولا صفر (٥/ ٢١٧١)، برقم (٥٤٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٤/ ١٧٤٢)، برقم (٢٢٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/ ١٧٤٨)، برقم (٥٣٧).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢١٥).

(٥) البومة طائر يقع على الذكر والأنثى. لسان العرب (١٢/ ٦١).

تطير، ولا تزال تنادي على قبره ونحوه، للأخذ بثأره، قال النووي: ويجوز أن يكون المراد النوعين، فإنهما جميعاً باطلان، وجاءت السنة بنفي ذلك وإبطاله، وضلالة الجاهلية فيما تعتقده من ذلك[١] »[٢].

٢- التشاؤم بالأيام والشهور:

ومن التطير بالشهور تطير أهل الجاهلية بشهر صفر، وبشهر شوال في النكاح خاصة، وقد بين ابن قاسم المراد من تشاؤمهم بشهر صفر بقوله: «قيل: المراد تأخيرهم المحرم إلى صفر، وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه، يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وكانوا يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل ﷺ ذلك، والتشاؤم به من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح خاصة.

وقيل: صفر حية في البطن، وهي دود تصيب الماشية والناس، وربما قتلت صاحبها، وكانت أعدى من الجرب عند العرب، وهذا المشهور عند أكثر أهل العلم، منهم: سفيان وأحمد والبخاري وجابر بن عبد الله وهو راوي الحديث، ويجوز أن يكونا مرادين معاً، وأن الصفرين جميعاً باطلان»[٣].

وبهذا بينرحمه الله أن كل هذه الأحاديث تبين حرمة الطيرة وعظيم خطرها وأنها من الشرك، إلا أن حكمها يختلف بحسب اعتقاد المتطير، فإن اعتقد المتطير تأثير الطيرة بنفسها دون تقدير الله سبحانه كان هذا من الشرك الأكبر المخرج من الإسلام، وأما إن اعتقد أن حركة الطير مجرد سبب لجلب الخير ودفع الشر، وأن الله هو النافع والضار فيكون شركاً أصغر، لا يخرج من الإسلام، وذلك لأنه أثبت سبباً لم يثبت تأثيره شرعاً ولا قدراً[٤].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢١٥).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢١٦).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢١٦)، انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٨٠)، معارج القبول (٣/ ٩٩٦).

(٤) انظر: فتح الباري(١٠/ ٢٤١)، والديباج على مسلم (٥/ ٢٣٦).

* **إشكال وجوابه:**

قد يشكل على البعض قوله عليه الصلاة والسلام: «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»[(١)]، وأن النبي ﷺ اثبت الطيرة في هذه الثلاثة، والجواب على هذا هو أن الله ﷻ جعل تطير العبد وتشاؤمه سبباً لحصول المكروه، وسر هذا؛ لأن الطيرة تتضمن الخوف من غيره، وعدم الثقة به، وبهذا يكون صاحبها معرضاً لسهام الشر والبلاء، فتسرع نفوذها فيه؛ لأنه لم يتدرع من التوحيد والتوكل عليه؛ لأن الثقة بالله، والتوكل عليه سبب من الأسباب التي يدفع بها شر المتطير به[(٢)]، لأنها تجعل الإنسان قوي النفس قوي القلب، ثابت النفس، رابط الجأش، وهذا حتى في الأمراض، وفي الأمور الحسية، إذا كانت نفس الإنسان ضعيفة كثرت أمراضه، وكثرت وساوسه، واستحوذ عليه الشيطان، وهذا متفرع عن قوله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه»[(٣)]، ولذا قال ابن قاسم رحمه الله في هذا: و«المراد لمن يتشاءم بها، فيكون شؤمها عليه، وإلا فمن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشؤومة عليه لحديث أنس: «الطيرة على من تطير»[(٤)]، وقال ابن القيم: إخباره بالشؤم ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، كما يعطي الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه، والله خالق الخير والشر، فيخلق بعض

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥/ ١٩٥٩)، برقم (٤٨٠٦).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق (٤/ ٤٠٣)، برقم (٢٠٧٢)، وحسنه الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام (١ / ١٨١)، برقم (٢٩٧).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة، كتاب الطب، ذكر الخبر الدال على أن الطيرة تؤذي المتطير خلاف ما تؤذي (١٣/ ٤٩٢)، برقم (٦١٢٣)، والطبري في تهذيب الآثار (٣/ ٢٢)، برقم (٥٢).

هذه الأعيان مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها، ويخلق بعضها مشؤومة يتضرر بها من قاربها، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، كما خلق سائر الأسباب، وكما خلق المسك وضده، وذلك مدرك بالحس، فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر(١)»(٢)، ومن ثم بين ﷺ من الذي تضره الطيرة، فقال: «ولا يضر إلا من أشفق منه، وخاف واعتنى به، فيكون أسرع إليه من السيل إلى منحدره، وتفتح له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه، ويفتح له الشيطان من المناسبات القريبة والبعيدة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه»(٣).

ثالثاً: حصول التطير عند بعض المسلمين، وكيفية علاجه:

ولما كانت الطيرة نوعاً من الشرك، وما منا إلا ويعتريه شيء من ذلك، جعل الشارع الكريم لذلك كفارة تكفره، وذلك يكمن في حسن التوكل على الله سبحانه، والإيمان بقضائه وقدره، وصلاة الاستخارة قبل الشروع في الأمر، والاستعاذة بالله تعالى إذا عرض للعبد شعور بالتطير، وألا يلتفت إليه، وإذا وقع في نفسه شيء من ذلك رده بالدعاء النبوي:

- **«اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك»**(٤).
- **«اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**(٥).

ويدل على مشروعيتها الأدلة التالية:

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢١٥-٢١٦).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢١٢).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة (٤/ ١٨)، برقم (٣٩١٩)، ومصنف ابن أبي شيبة، كتاب الدعاء، ما يقول الرجل إذا تطير، والنووي في رياض الصالحين، وصححه، في كتاب الأمور المنهي عنها باب النهي عن التطير (١/ ٣٠٨)، برقم(١٦٧٧).

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٢٢٠)، برقم(٧٠٤٥).

الدليل الأول: ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[١]، وبين نبينا ﷺ أن الطيرة لا ترد مسلماً عن قصده، قال رحمه الله، وذلك «لإيمانه أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وإنما ترد المشرك الذي يعتقدها»[٢].

وأمر النبي ﷺ إذا رأى الإنسان شيئاً يكره فيقول: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك**»، قال رحمه الله: «وهذا استعانة به سبحانه على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، ومعاملة له بنقيض قصده، وهذا الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات»[٣].

ففي «نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد، وفيه التصريح بأنها لا تجلب نفعاً، ولا تدفع ضرًّا، فيعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً»[٤].

الدليل الثاني: حديث ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قالوا: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: أن يقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك**»[٥]، قال رحمه الله: «فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه كفر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء، لزواله من قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

ففيه أن الطيرة لا تضر من كرهها، ومضى في طريقه، وأما من استرسل مع

---

(١) سبق تخريجه (٢٤٢).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢١٩).

(٣) المصدر السابق (٢١٩).

(٤) المصدر السابق (٢١٩).

(٥) سبق تخريجه (٢٤٢).

الشيطان في ذلك فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله الذي الخير كله بيديه، يجلبه لعبده بمشيئته وقدرته وإرادته، ويدفع عنه الضر بقدرته وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده، وما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]»[١].

الدليل الثالث: حديث ابن مَسعود قَال: قال رسول الله ﷺ: «**الطِّيَرة شرك وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل**»[٢]، قال ﷬: «أي: وما منا أحد إلا ويعتريه ويخطر له ويقع في قلبه من الطيرة شيء، فحذف اعتماداً على فهم السامع، ولكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه، واعتمادنا عليه، والاستناد عليه»[٣].

رابعًا: استحباب الفأل، وأنه مضاد للطيرة:

وفي مقابل هذه العادة الشركية، تأتي عادة حسنة دعا إليها الإسلام، وهي التفاؤل، وهي حسن ظن بالله، وتوكل عليه، والفرق بينها وبين الطيرة هو أن التفاؤل يبعث في النفس الرجاء في عطاء الله وتيسيره، فيقوى عزمه، ويتجدد أمله في نجاح مقصوده، ويحمله التفاؤل على صدق الاستعانة بالله، وحسن التوكل عليه، فلا يعدو سماع الكلمة الطيبة أن يكون محركاً وباعثاً للأمل، أما التشاؤم أو التطير فعلى خلاف ذلك، إذ يجعل المرء متردداً، ضعيفاً في توكله، وإيمانه، جاعلاً من قلبه مجالاً خصباً للوسواس، والأوهام، وقد بين ابن قاسم ذلك، فقال: «الفأل مهموز فيما يسوء ويسر، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء»[٤]، وكان الفأل يعجب

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٢١).

(٢) سبق تخريجه (٢٣٨)

(٣) حاشية كتاب التوحيد(٢٢٠).

(٤) المصدر السابق (٢١٧).

النبي ﷺ: «لأنه حسن ظن بالله، والعبد مأمور بحسن الظن بالله، وإذا أمل الفائدة منه ورجا العائدة من كل سبب، ضعيف أو قوي فهو على خير.

والتشاؤم سوء ظن بالله، وإذا قطع الإنسان ظنه بالله كان عمله من الشر، والطيرة فيها سوء ظن بالله، وتوقع للبلاء، والتفاؤل نحو أن يكون الرجل مريضا فيسمع من يقول: يا سالم، أو يا مفلح، أو يكون طالباً ضالة فيسمع من يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه، ويجد ضالته، وتفرح نفسه وتنشط من غير اعتماد عليه، وإنما هو حسن ظن بالله، وإن أوجب مضياً، أو ردًّا صار من الطيرة»[(١)].

ويدل على مشروعية الفأل الأدلة التالية:

الدليل الأول: حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة**»[(٢)].

وقال ﷺ: «بين ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها، قال ابن القيم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك؛ بل ذلك إبانة عـن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، والله جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلامة والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا سمعت الأسماع أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها، وأثار لها خوفاً، وتطيراً، وانكماشاً، وانقباضاً عما قصدته، وعزمت عليه، فأورث لها ضررا في الدنيا، ونقصاً في

(١) المصدر السابق (٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلب، باب لا عدوى (٥/ ٢١٧٨)، برقم (٥٤٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون في وما يكون فيه من الشوم (٤/ ١٧٤)، برقم(٢٢٢٤).

الإيمان، ومقارفة للشرك[١]»[٢].

الدليل الثاني: حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ: «**كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد، يا نجيح**»[٣].

الدليل الثالث: ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[٤]، قال ابن قاسم: «ففيه استعمال الفأل، وقال ابن القيم: أخبر أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها، فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر[٥]»[٦].

المسالة السادسة: الاستسقاء بالأنواء:

بين ابن قاسم معنى الاستسقاء بالأنواء فقال: «والاستسقاء طلب السقيا، والمراد به هنا: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء، والنوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء ينوء نوءًا نهض وطلع، فالنوء هو الطالع سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء مقابله الطالع بالمشرق.

وقيل: ناء سقط وغاب، ولا تخالف بين القولين، وهي ثمانية وعشرون نجماً، معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، مشهورة بمنازل القمر، ينزل كل ليلة منزلة منها في كل شهر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، تسقط كل ثلاث

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).
(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢١٨).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٦١)، برقم(١٦١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٤) سبق تخريجه (٢٤٣).
(٥) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٥).
(٦) حاشية كتاب التوحيد (٢١٨).

عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت من المشرق، تنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أن سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إلى النجم الساقط، ويقولون: مطرنا بنوء كذا»[١].

وهو مما ينافي التوحيد بالكلية أو ينافي كماله؛ قال ﷺ: «نسبة السقيا ومجيء المطر إلى النجوم نسبة تأثير أو إيجاد، وهو الذي خافه النبي ﷺ على أمته، فأخرج أحمد وغيره: «**أخاف على أمتي ثلاثاً: استسقاء بالأنواء، وحيف السلطان، وتكذيباً بالقدر**»[٢]، فإذا قال: مطرنا بنوء كذا، أو بنجم كذا، فلا يخلو:

إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في إنزال المطر فهذا شرك أكبر بالإجماع، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية، كاعتقادهم في الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر.

وإما أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاد أن الله هو الفاعل، وصرح الشارح أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم[٣]، وصرح ابن مفلح[٤] في الفروع أنه يحرم قول: مطرنا بنوء كذا[٥]، وجزم في الإنصاف بتحريمه[٦]، ولم يذكر خلافاً، وهو الذي أراده النبي ﷺ ونفاه وأبطله، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، حماية منه لجناب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك ولو بالعبارات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان؛

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٢٩)، انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ١٢١)، فتح الباري (٢/ ٥٢٣).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٥/ ٨٩) برقم (٢٠٨٦٤)، الطبراني في لمعجم الكبير (٢/ ٢٠٨)، برقم (١٨٥٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٣) : وفيه محمد بن القاسم الأسدي وثقه ابن معين وكذبه أحمد وضعفه بقية الأئمة.

(٣) الشارح تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٧٩).

(٤) محمد بن مفلح بن محمد مفرج المقدسي، أبو عبد الله، أحد أعلام الحنابلة في وقته ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ومن مؤلفاته: الآداب الشرعية وأصول الفقه، وغيرها، ومات سنة٧٦٣هـ الدرر الكامنة (٦/ ١٤)، شذرات الذهب (٦/ ١٩٩).

(٥) انظر: الفروع (٢/ ١٢٩)، المبدع (٢/ ٢١٢).

(٦) الإنصاف للمرداوي (٢/ ٤٦١).

وذلك لأنه نسب ما هو من فعل الله إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر، ولا قدرة له على شيء فيكون شركاً أصغر، والله أعلم...، وهذا بخلاف ما لو قال: مطرنا في نوء كذا، فكما لو قال: مطرنا في شهر كذا فلا بأس بذلك»(١).

ويدل عليه الأدلة التالية، وبيان دلالتها كالتالي:

الدليل الأول: حديث أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»(٢)، قال ؒ: «وفيه التنبيه على ما هو أولى منه كدعاء الأموات، وسؤالهم الذي هو عين الشرك، وهذا بخلاف ما لو قال: مطرنا في نوء كذا، فكما لو قال: مطرنا في شهر كذا فلا بأس بذلك(٣).

الدليل الثاني: حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية(٤) على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب**»(٥)،

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٣١)، انظر: حاشية الروض المربع (٢/ ٥٦٢-٥٦٣)، فتح الباري (٢/ ٥٢٣)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (٢/ ٦٤٤) برقم (٩٣٤)، أحمد (٥/ ٣٤٢، ٥/ ٣٤٤).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٣١).

(٤) «والحديبية بتخفيف الياء وتشدد تقدم أنها قرية سميت ببئر هناك على مرحلة من مكة، تسمى الآن الشميسي، كان بها الصلح سنة ٦ من الهجرة، وهو الفتح المبين» حاشية كتاب التوحيد (٢٣٢)، انظر: معجم البلدان (٢/ ٢٢٩).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢]، (١/ ٣٥١) برقم (٩٩١)، (٤/ ١٥٢٤)، باب غزوة الحديبية، برقم (٣٩١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/ ٨٣)، برقم (٧١).

قال رحمه الله: «يعني إذا اعتقد أن للنوء تأثيرا في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه شرك في الربوبية، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره؛ لأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، ودل على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره»[١].

وفيه« نسب المطر إلى الله، واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه...

وفيه أن النعم لله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، ولا ينافي الدعاء لمن أحسن إليك، وذكر ما أولاك من المعروف، إذا سلم دينك، والسر والله أعلم أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير من جهته، وإن كان لا صنع له في ذلك، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك... ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من جحد النعم؛ لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره...

ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره أن يضيفوه إليه سبحانه ويشكروه؛ فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، والله سبحانه هو المنعم على الإطلاق»[٢].

المسألة السابعة: النياحة على الميت:

بيَّن ابن قاسم معنى النياحة، فقال هي: «رفع الصوت بالندب على الميت، وإفراط رفعه بالبكاء، وإن لم يقترن بندب ولا نوح، وضرب الخدود، وشق الجيوب، ونحو ذلك»[٣].

وهو مما ينافي كمال التوحيد؛ «لأن ذلك تسخط بقضاء الله وقدره، وذلك ينافي

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٣٢).
(٢) المصد رالسابق (٢٣٣- ٢٣٤).
(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٣١).

الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة، فأما البكاء من غير نياحة، ولا ندب وشق جيب، فقال شيخ الإسلام: البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضا بقضاء الله[١]»[٢].

واستدل رحمه الله بحديث أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»، وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال[٣] من قطران ودرع من جرب**»[٤]، «أي: من أفعال أهلها بمعنى: أنها معاصي ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها، وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية، منسوبة إلى الجاهل فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل... والنياحة فيها معارضة لأحكامه، وسوء أدب مع الله، ولا كذلك ينبغي أن يفعل المملوك مع سيده فكيف يفعله مع ربه وسيده ومالكه وإلهه الذي لا إله له سواه، الذي كل قضائه عدل وأيضاً ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٣١)، انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٣٣).

(٣) قال رحمه الله: «واحد السرابيل وهي: الثياب والقمص، يعني أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمها بسبب الحر أشد، وقال ابن عباس: القطران هو النحاس المذاب» اهـ. ليكون أشد لحر النار وصليها أعاذنا الله منها. حاشية كتاب التوحيد (٢٣٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، (٢/ ٦٤٤)، برقم (٩٣٤)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٤٢، ٥/ ٣٤٤).

(٥) تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٧٧-٣٧٩) باختصار، انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٤٦)، مجموع الفتاوى =

والمراد بالكفر في هذا الحديث هو الكفر الذي لا يخرج من الملة، وهذه مسألة مهمة يجب التنبه لها، لأنه قد يكون عند بعض شيء من أمور الجاهلية، ولكن لا تخرجه من الإسلام إلا إذا جاء بناقض من نواقض الإسلام فحينئذ يكفر[١].

المطلب الثالث: ما ينافي توحيد الألوهية أو يقدح في كماله من الأقوال:

وفي هذا الباب تحدث ابن قاسم على كثير مما ينافي التوحيد، أو يقدح في كماله من الأقوال في حاشية كتاب التوحيد، ونذكرها على سبيل الإجمال، وهي:

١. الرقى.
٢. النذر لغير الله.
٣. الاستعاذة بغير الله.
٤. أن يستغيث بغير الله أو يدعوه.
٥. قول: ما شاء الله وشئت.
٦. سب الدهر.
٧. التسمي بقاضي القضاة، ونحوه.
٨. الهزل بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن، أو الرسول.
٩. لا يقال السلام على الله.
١٠. قول: اللهم اغفر لي إن شئت.
١١. لا يقول عبدي وأمتي.
١٢. سب الريح.
١٣. إنكار القدر.
١٤. كثرة الحلف.

واخترنا منها ثلاث مسائل بتفصيل، لبيان جهده رحمه الله خشية الإطالة.

=
(٤/ ٥١٣).

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (١/ ٧٠).

المسألة الأولى: قول: ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك:

ومن الشرك في الألفاظ التي لا يجوز استعمالها، ولا التهاون في النطق بها: قول المرء:

١. ما شاء الله وشئت.

٢. أنا متوكل على الله وعليك.

٣. حسبي الله وأنت.

٤. وما لي إلا الله وأنت.

٥. وهذا من الله ومنك.

٦. وهذا من بركات الله وبركاتك.

٧. والله لي في السماء وأنت لي في الأرض.

٨. نذرًا لله ولفلان.

٩. وأنا تائب لله ولفلان.

١٠. وأرجو الله وفلاناً.

ونحو ذلك من الألفاظ التي تجري على ألسنة الناس، وهذا مما ينافي كمال التوحيد، قال ابن قاسم ﷺ: «وأنه من الشرك؛ لما فيه من التسوية بين الخالق والمخلوق في المشيئة»[١]؛ لأن الواو حرف عطف يقتضي المساواة بين المعطوف والمعطوف عليه، وعدم الترتيب بينهما، ومن المعلوم أن التسوية بين الخالق والمخلوق شرك بالله سبحانه، وأفضل سبيل للوقاية من هذا هو استبدال ثم بـ الواو، وهي: تقتضي الترتيب والتراخي، قال ﷺ: «لأن الواو تفيد أن ما بعدها مساو لما قبلها، عكس ثم، فإنها إنما تفيد التعقيب»[٢]، وبهذا نفرق بين المعطوف والمعطوف عليه، فمثلاً: إذا قلنا ما شاء الله ثم شئت، فإننا فرقنا بين مشيئة الله

(١) حاشية كتاب التوحيد (٣٠٧).

(٢) المصدر السابق (١١٠).

ومشيئة العبد؛ ولكن الأفضل والأكمل والأبعد عن الشرك هو قول ما شاء الله وحده، قال رحمه الله: «لما في قول: ما شاء الله وحده من التصريح بالتوحيد، المنافي للتنديد من كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص، ويجوز أن يقال: ما شاء الله ثم شاء فلان»(١).

ويدل عليه الأدلة التالية:

الدليل الأول: حديث قتيلة الأنصارية أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: «**إنكم تنددون وإنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة**»، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا إن يحلفوا أن يقولوا: «**ورب الكعبة**»، ويقول أحدهم: «**ما شاء الله ثم شئت**»(٢)، ثم علق رحمه الله على هذا الحديث بقوله: «والحديث نص في أن هذا اللفظ من الشرك؛ لأن النبي ﷺ أقر اليهودي على تسميته بذلك، ونهى عنه، وقال لمن قال ذلك: «**أجعلتني لله ندًا؟**»(٣) وأقر من سماه تنديدًا، كما جاء بلفظ: «**إنكم تنددون**» وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك، والعبد وإن كان له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، قال الشارح: ولو أتى بـ(ثم) وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة فالنهي باقٍ بحاله، بل يكون في هذه الصورة أشد ممن أتى بالواو، مع عدم هذا الاعتقاد، وفيه قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان، وبيان النهي عن الحلف بالكعبة، وأنه شرك مع أنها بيت الله التي حجها فرض، وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام، لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل،

---

(١) المصدر السابق (٣١٠).

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب حلف بالكعبة، (٧/ ٦)، برقم (٣٧٧٣)، والحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب الأيمان والنذور (٤/ ٣٣١)، برقم (٧٨١٥).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٢٤٤)، برقم (١٣٠٠٥)، وأحمد بن حنبل في مسنده (١/ ٢١٤)، برقم (١٨٣٩)، ولكن بدل ندًا: عدلاً، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١ ١٣٨)، برقم (١٣٩).

ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه، ولا غير ذلك من سائر المخلوقات»[١].

الدليل الثاني: حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده**»[٢]، وعلق رحمه الله على هذا الحديث بقوله: «وهذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك؛ لوجود التسوية في العطف بالواو.

وفيه أن من سوى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندًا لله؛ لقوله: «**أجعلتني لله ندًا**» أي: شريكًا، استفهام إنكار، أي: ليس لك أن تسويني بالله، قال ابن القيم: هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة، فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ويقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلاناً، ونحو ذلك، فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ[٣]، وفيه أن رسول الله ﷺ حمى حمى التوحيد، وسد طرق الشرك في الأقوال والأفعال»[٤].

المسألة الثانية: الرقى:

عرف ابن قاسم الرقى لغة بقوله: «والرقى: جمع رقية، وهي: العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع»[٥]، وتسمى: «واحدتها عزيمة، وهي الرقية، وعزم الراقي قرأ العزائم، أو العزائم آيات من القرآن تقرأ على ذوي العاهات.

---

(١) حاشية كتاب التوحيد(٣٠٧).

(٢) سبق تخريجه في هذه الصفحة.

(٣) الجواب الكافي (١/ ٩٣).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٣٠٨).

(٥) حاشية كتاب التوحيد (٨٢)، انظر للاستزادة: تهذيب اللغة (٩/ ٢٢٤)، لسان العرب (١٤/ ٣٣٢).

وقيل: أنواع منها ما ينفث به على المريض، وما يجعل في ماء ويسقاه المريض، ومنها هذه العزائم التي تكتب في صحن ونحوه»[١].

ولا يبعد المعنى الشرعي للرقية عن المعنى اللغوي كثيراً؛ فالرقية شرعاً: هي ما يقرأ على المريض من الآيات القرآنية، أو الأدعية المشروعة[٢].

والمراد بالرقية التي تنافي التوحيد، هي الرقية الشركية، وذلك بقوله: «والمراد بالرقى المنهي عنها ما كان من جنس رقى الجاهلية...، وإنما كان من الشرك لما يراد به من دفع المضار، وجلب المنافع من غير الله تعالى»[٣].

أنواع الرقية:

بين ابن قاسم أن الرقية نوعان، وهما:

١. الرقية الشركية، وهي: «الرقى الموصوفة بكونها شركًا هي التي يستعان فيها بغير الله، من دعاء غير الله، والاستغاثة، والاستعاذة به، كالرقى بأسماء الملائكة، والأنبياء والجن ونحو ذلك»[٤]، ثم استدل ﷺ بحديث ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»[٥].

٢. الرقية الشرعية، هي: «الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته وما أثر عن النبي ﷺ فهذا حسن جائز، أو مستحب كما تقدم[٦]، وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك: «كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال ﷺ: «اعرضوا

(١) حاشية كتاب التوحيد (٨٦)، انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٣٢)، القاموس المحيط (١/ ١٤٦٨).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٨، ١٨٢).
(٣) حاشية كتاب التوحيد (٨٤).
(٤) المصدر السابق(٨٦).
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨١)، برقم(٣٦١٥)، أبو داود في سننه، في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم (٤/ ٩)، برقم(٣٨٨٣)، وصححه الحاكم المستدرك، في كتاب الطب، (٤/ ٢٤١)، برقم (٧٥٠٥).
(٦) انظر: (١٢٥-١٢٦).

علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»(١)، قال الخطابي: وقد رَقى ورُقي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة، أو مأمور بها، وإنما جاء المنع فيما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً، أو قولا يدخله الشرك.

قال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به فضلاً عن أن يدعو به، ولو عرف معناه، وإنما يرخص لمن لا يحسنها، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً، فليس من دين الإسلام(٢)»(٣).

فالقول بالاستحباب هو في حق الراقي لأنه من باب الإحسان لما فيها من النفع، وقد سئل ﷺ عن الرقى فقال: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**(٤)، وأما القول بالجواز فهو في حق المرقي، إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد، وقوة يقينه أن لا يسأل أحداً من الخلق لا رقية ولا غيرها؛ لأن المرقي سائل مستعطف ملتفت إلى غير الله بقلبه؛ لأن الرقية نوع من الدعاء، فلا يطلبون من أحد ذلك؛ لأن طلب الرقية من الناس سؤال للمخلوق، والسؤال للمخلوق فيه ذِلّة، فهم يستغنون عن الناس، ويعتمدون على الله سبحانه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد، التي لا يوفق للتفقه فيها، والعمل بها إلا الكمل من العباد(٥).

الرقية الشرعية لابد لها من شروط، ذكرها ابن قاسم، وهي:

١ . «أن تكون من كلام الله وبأسمائه وصفاته.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (٤/ ١٧٢٧)، برقم (٢٢٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٨٣).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٨٦-٨٧)، انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٧٨).

(٤) سبق تخريجه (١٤٥).

(٥) انظر: حاشية كتاب التوحيد (٤٥)، انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ٨٥)، فتح المجيد (١/ ١٢٦)، القول السديد شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٨).

٢. وباللسان العربي وما يعرف معناه من غيره.

٣. وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى»[١].

واستدل ؒ على هذا التقسيم بما رواته «زينب امرأة عبد الله بن مسعود، أن عبد الله رأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»[٢]، فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت، فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»[٣]»[٤]، وبهذا يعلم أن الرقية نوعان، شركية وشرعية، والشرعية لها شروط يجب أن تتوفر فيها، ويجوز أن تطلب الرقية بالشروط الأنفة الذكر، وأن لا تشتمل على شيء من العبارات المحرمة كالسب، أو الشتم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان هو يرقى نفسه وغيره ولا يطلب من أحد أن يرقيه»[٥]؛ لأن ذلك أكمل لتوحيده، وعدم التفات القلب عن سوى ربه سبحانه.

المسألة الثالثة: الاستعاذة بغير الله:

عرف ابن قاسم الاستعاذة فقال: «الاستعاذة الالتجاء والاعتصام والتحرز،

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٨٧)، انظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٥)، تيسير العزيز الحميد (١/ ١٣٠).

(٢) سبق تخريجه (٢٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم (٤/ ٩)، برقم (٣٨٨٣)، ولفظ له، وابن ماجه سننه، كتاب الطب، باب تعليق التمائم (٢/ ١١٦٦) برقم (٣٥٣٠)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الطب، (٤/ ٢٤١) برقم(٧٥٠٥)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ٥٣٠)، برقم (٤٥٥٢).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٨٣-٨٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٨).

وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، فالعياذ لدفع الشر، وأما اللياذ فطلب الخير، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره[(١)]

فالعائذ بالله قد هرب إليه، واعتصم واستجار به، ولجأ إليه، والتزم بجنابه مما يخافه، وهذا تمثيل، وإلا فما يقوم بالقلب من ذلك أمر لا تحيط به العبارة»[(٢)].

والاستعاذة بغير الله فيما يقدر عليه إلا الله فهي مما ينافي التوحيد بالكلية؛ وذلك لأن الاستعاذة بالله من أجل العبادات التي أمر الله عباده بها، وصرفها لغيره شرك، وأما إذا كان فيما يقدر عليه المخلوق فهي جائزة، وبين ابن قاسم ذلك بقوله: «وقد أمر الله عباده بها في مواضع من كتابه، وتواترت بها السنة عن المعصوم ﷺ، وهي عبادة من أجل العبادات، فصرفها لغير الله شرك أكبر، وإن استعاذ بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه فجائز...، وإن قال: أعوذ بالله وبك ولو فيما يقدر عليه كان مشركاً شركاً أصغر؛ لأن الواو تفيد أن ما بعدها مساو لما قبلها، عكس ثم، فإنها إنما تفيد التعقيب، وإن كان فيما لا يقدر عليه كان مشركاً الشرك الأكبر، ولو قال أعوذ بالله ثم بك»[(٣)].

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، فقد علق ﷺ على هذه الآية، بقوله: «أخبر عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته رهقاً وهو الطغيان؛ وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا نزل وادياً أو مكاناً موحشاً وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء

---

(١) من شعر المتنبي. انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٣٠).
(٢) حاشية كتاب التوحيد (١١٠)، انظر: تهذيب اللغة (٣/ ٩٣)، تفسير ابن كثير (١/ ١٦).
(٣) حاشية كتاب التوحيد (١١٠)، انظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ١٦٧).

قومه، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم خوفاً منهم، زادوهم رهقاً، أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، فذمهم الله بهذه الآية، وأخبر أنهم يزيدونهم رهقاً نقيض قصدهم، وعلم النبي ﷺ المسلمين أن يقول أحدهم إذا نزل منزلا: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر كل ما خلق**»[(١)]، ووجه الاستدلال بالآية: أن الله حكى عن مؤمني الجن أنهم ذكروا أشياء من الشرك، كانوا يعتقدونها في الجاهلية، من جملتها الاستعاذة بغير الله»[(٢)].

***

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٤/ ٢٠٨٠)، برقم(٢٧٠٨).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (١١٠-١١١).

الفصل السادس

جهوده في تقرير توحيد الأسماء والصفات

المبحث الأول

تعريف توحيد الأسماء والصفات

و فيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات لغة:

الأسماء: جمع اسم، والاسم: مشتق من السمو، أي العلو أو من الوسم أي: العلامة، وهو للفظ الدال على المسمى(١).

وأسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به مثل: الرحمن السميع العليم(٢).

الصفات: جمع صفة، والصفة: أصلها وصف حذفت الواو وعوض عنها التاء، وهي ما دل على معنى زائد على الذات(٣).

وصفات الله نعوت الكمال القائمة بذاته كالقدرة والسمع والبصر، والعلم، والخلق، والرزق(٤).

* الفرق بين الأسماء والصفات:

---

(١) انظر: لسان العرب (١٤/ ٤٠١)، القاموس المحيط (١/ ١٦٧٢)، مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٩)، بدائع الفوائد (١/ ٢٢).

(٢) انظر: فتاوي اللجنة الدائمة للإفتاء (٣/ ١١٦)، معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، للتميمي (٢٩).

(٣) انظر: القاموس المحيط (١/ ١١١١)، لسان العرب (٩/ ٣٥٦) معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٥).

(٤) انظر: فتاوي اللجنة الدائمة للإفتاء (٣/ ١١٦)، معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (٣١).

أن الأسماء تدل على الذات مع دلالتها على صفات الكمال، وأما الصفات فإنها تدل على معنى قائم بالذات فقط، فالأسماء تدل على أمرين: والصفات تدل على أمر واحد[١].

المطلب الثاني: تعريف توحيد الأسماء والصفات اصطلاحاً:

هو: اعتقاد انفراد الله ﷻ بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال، والجمال، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله ونفي ما نفى الله عن نفسه، ونفاه عنه رسوله من الأسماء والصفات على ما تليق بالله سبحانه وتعالى، وعلى ما أراد الله تعالى، بلا تحريف[٢]، ولا تعطيل[٣]، ولا تكييف[٤]، ولا تمثيل[٥]، وتعبده وسؤاله ودعاؤه سبحانه بها[٦].

وقد عرف ابن قاسم توحيد الأسماء والصفات بقوله: «توحيد الأسماء والصفات: وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من صفات الكمال، ونعوت الجلال، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير زيادة ولا نقصان»[٧].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٧٠)، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين (٢٤و٥٧)، فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء (٣/ ١١٦).

(٢) التحريف: هو تغيير ألفاظ الأسماء والصفات، أو تغير معانيها عن مراد الله بها كقولهم «استوى» بمعنى استولى وقولهم «الرحمة» إرادة الأنعام.

(٣) التعطيل: نفي صفات الله أو بعضها.

(٤) التكييف: أي بيان الهيئة والكيفية التي تكون عليها الصفات مثل أن يقال كيف يده.

(٥) التمثيل: هو الاعتقاد في صفات الخالق أنها مثل صفات المخلوق، كقولهم: له يد كيدي.

انظر لمعرفة هذه التعريفات: فتح البرية بتلخيص الحموية، لابن عثيمين (٥٤-٥٥)، معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (٧٠-٨١).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى(٣/ ٣)، مدارج السالكين (١/ ٤٢٠)، لوامع الأنوار البهية(١/ ١٢٩)، شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (١/ ٧٤)، كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (٧٧).

(٧) حاشية الدرة المضية (١٣ - ١٤).

وهذا يجعلنا «نمر آيات الصفات وأخبارها، ونجريها على ظاهرها، ونقرها على ما دلت عليه، من صفات الكمال، ونعوت الجلال، ونفهم منها ما دلت عليه، ونعتقده حقيقة لا مجازاً، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل»[1].

وقال مبينا أن هذا هو مذهب السلف: «الذي نعتقده – معشر أتباع السلف – ونذهب إليه: الإثبات للأسماء والصفات، كما جاء عن الله ورسوله، من غير تعطيل لها عن حقائقها، ولا تمثيل لها بصفات المخلوقين»[2]، فلابد في نصوص الأسماء والصفات من إثبات لكن لا يتجاوز إلى التمثيل، ولابد فيها من نفي؛ لكن لا يتجاوز به إلى التعطيل، فـ«أهل السنة وسط في باب صفات الله، بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة»[3].

ونلاحظ أن بعض التعاريف اقتصر فيها الشيخ ابن قاسم على تعريف صفات الله حينما عرف توحيد الأسماء والصفات؛ وذلك لأن الخلاف في الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام ولم ينكره إلا غلاة الجهمية، وأما الصفات فأكثر أهل الكلام يخالفون أهل السنة فيها[4].

وهذا التعريف هو تعريف أهل السنة والجماعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته... فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا

---

(١) المصدر السابق (٤٥).

(٢) المصدر السابق (٢٣).

(٣) المصدر السابق (٤٥).

(٤) انظر: شرح العقيد الواسطية لابن عثيمين (١/ ٧٣).

تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، رد للإلحاد والتعطيل»[(١)].

* **إشارات فيما يتعلق بالتعريف:**

الأولى: أن التعبير بنفي لفظ التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه.

يرى بعض المحققين من أهل العلم أن التعبير بنفي لفظ التمثيل أولى من التعبير بنفي الشبيه، وذلك لأمور منها:

١. أن لفظ التمثيل عبر الله ﷻ به في كتابه، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بعكس لفظ التشبيه.

٢. أن لفظ التشبيه أصبح لفظاً مشتركاً قد يتضمن معان باطلة، فالمبتدعة يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً، فإذا قلت: من غير تشبيه، كأنك قلت: من غير إثبات لشيء من الأسماء والصفات فصار معنى التشبيه يوهم معنى فاسداً؛ فلهذا كان العدول عنه أولى.

وهذان الأمران بينهما ابن قاسم في قوله: «لو عدل ـ أي: السفاريني[(٢)] ـ عن التشبيه إلى التمثيل، لكان أولى؛ لأن الله نفاه بنص كتابه، ونفي التشبيه لم يرد في

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣-٤)، انظر: (٣/ ١٦٢)، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب كثيراً من المؤلفات والرسائل، ومن أهمها العقيدة الواسطية، والحموية، التدمرية، وغيره من العلماء كابن القيم الذين أعطوا هذا العلم جل اهتمامهم؛ لتعلقه بأشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالانشغال بفهمه، والبحث عنه اشتغال بأعلى المطالب.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن سليمان السفاريني النابلسي، أبو العون شمس الدين، ولد بقرية سفارين، عام ١١١٤هـ سلفي حنبلي، من مؤلفاته الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، وشرحها لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، وقد شرحاً الشيخ ابن قاسم في كتابه حاشية الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، توفي سنة ١١٨٨هـ. انظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، للمرادي (٤/ ٣١).

كتاب الله، ولا سنة رسوله ﷺ، وإن كان يعنى بنفيه معنى صحيح، كما قد يعنى به معنى فاسد.

فإن أهل الكلام قد جعلوا نفي بعض الصفات، داخلا في نفي التشبيه، وأهل السنة والجماعة وسط بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة»[١].

الثانية: أن التعبير بنفي التحريف أولى من التعبير بنفي التأويل:

يقرر أهل العلم أن التعبير بنفي التحريف أولى من التعبير بنفي التأويل، وذلك لأمور منها:

١. أن التحريف جاء القرآن بذمه، بعكس لفظ التأويل.

٢. أن لفظ التأويل أصبح لفظاً مشتركاً بين معاني صحيحة وباطلة، فالمعاني الصحيحة منقولة عن عض السلف، مثل التفسير، وما يئول الأمر إليه، ويراد به معنى باطل، هو مراد عند بعض المتأخرين، وهو صرف اللفظ عن ظاهره، من غير دليل يقتضيه، كتأويلهم الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة وهذا الذي ذمه السلف؛ لأنه صرف للفظ عن ظاهره من دون دليل يقتضيه، وهو من تحريف الكلم عن موضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

وهذان الأمران بينهما ابن قاسم في قوله: «والتأويل عند السلف يراد به: ما يئول الأمر إليه، ويراد به تفسير الكلام وبيان معناه، ويراد به عند بعض المتأخرين صرف اللفظ عن ظاهره، إما وجوباً، وإما جوازًا، فلو عدل عن لفظ أول إلى حرف، لكان أولى؛ ولأن التحريف جاء القرآن بذمه»[٢].

وقال أيضاً: «لأن من المعاني التي تسمى تأويلاً، ما هو صحيح منقول عن بعض السلف، ومراد بعض المتأخرين بنفي التأويل: أن آيات الصفات، وأحاديثها

(١) حاشية الدرة المضية (٢٣)، انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (١/ ١١١، ١١٢).
(٢) حاشية الدرة المضية (٢٥-٢٦).

لا يعلمها إلا الله، وأن الأنبياء والصحابة والعلماء لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه، ولازم قولهم: أنا أُمرنا بتلاوتها من غير تدبر ولا فهم لمعانيها»[(١)]، وبهذا يتبين بطلان مذهب المتكلمة الضالة المؤولة، والمبتدعة الزائغة المنحرفة، الذين صرفوا ظاهر النصوص وأولوها عن مرادها من غير دليل يقترن بها ويدل على صحتها، وبين أن لازم قولهم يبطل منهجهم الفاسد[(٢)].

وزاد عليها بعضهم أموراً ترجح النفي بلفظ التحريف دون التأويل نذكرها إتماماً للفائدة:

٣. لأنه أدل على الحال وأقرب إلى العدل؛ فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن نسميه مِؤولاً، بل العدل أن نصفه بما يستحق، وهو أن يكون محرفاً.

٤. أن التأويل بغير دليل باطل، يحب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف بحقه أبلغ تنفيراً من التأويل؛ لأن التحريف لا يقبله أحد بعكس التأويل[(٣)].

---

(١) المصدر السابق (٤٥).

(٢) سيأتي بيان معاني التأويل إن شاء الله مفصلا في الفصل السابع (٣٣٠).

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين (٨٧-٨٨)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٦٦)، الصواعق المرسلة (١/ ٣٥٨).

المبحث الثاني

الأصول التي بني عليها السلف

مذهبهم في الأسماء والصفات

قرر ابن قاسم أن مذهب السلف في توحيد الأسماء والصفات مبني على ثلاثة أصول من علمها أولاً، ثم عمل بها ثانياً كان على جادة الصواب، وسلم من الزيغ والانحراف في هذا الباب، وهذه الأصول[1]، هي:

الأصل الأول: تنزيه الله ﷻ عن أن يماثله شيء في ذاته أو في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله من صفات المخلوقين.

وقد وضح ابن قاسم هذا الأصل بقوله: «أثبتت الفرقة الناجية النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية؛ في الصفات، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل. وتمسكوا بالتنزيه لله تعالى عن العيوب، والنقائص»[2].

ويقرر ؒ أن هذا من الأصول التي اتفقت عليها جميع النبوات، وأتت بها جميع الرسالات، وهذا في قوله: «إنه سبحانه واحد في ذاته، واحد في صفاته، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، لا نظير له، ولا ند له، ولا مثل له، ولا شبه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له، ولا ظهير... باتفاق جميع النبوات»[3].

ويدل على هذا الأصل:

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ١١٠)، أضواء البيان (٢/ ٣٢١، ٣/ ٤١١)، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، للشنقيطي (١/ ١٠)، مواقف الطوائف من توحيد الأسماء ولصفات، للتميمي (٢٢-٢٧).

(٢) حاشية الدرة المضية (٢٣).

(٣) المصدر السابق (٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى الله عن نفسه سبحانه المماثلة بينه وبين خلقه.

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، بين الله سبحانه في هذه الآية أنه واحد في ذاته، لا يوجد له كفو، ولا نظير، ولا ند، ولا مثيل، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: «فلا تمثلوا لله الأمثال ولا تشبهوا له الأشباه فإنه لا مثل له ولا شبه»[(١)]، فهذا الأصل الأول التنزيه وهو الأساس الذي يبنى عليه الأصل الثاني[(٢)].

الأصل الثاني: الإيمان بما سمى الله ووصف به نفسه، وبما سماه ووصفه به رسوله ﷺ، على الوجه اللائق بكمال الله، وجلاله.

يقول ابن قاسم مقرراً لهذا الأصل: «كل وصف في كتاب الله وصح عن نبيه ﷺ فهو ثابت له تعالى، وموصوف به، من غير تمثيل بشيء من خلقه، ومن غير تكييف، نمره كما جاء ولا نحرفه عن مواضعه، ونصدق به، ونقره على ما دل عليه من معناه، ونفهمه على ما يليق بجلال الله تعالى، وعظمته»[(٣)].

ويقول رحمه الله مقرراً أن هذا هو مذهب السلف الكرام: «الذي نعتقده – معشر أتباع السلف – ونذهب إليه: الإثبات للأسماء والصفات، كما جاء عن الله ورسوله، من غير تعطيل لها عن حقائقها، ولا تمثيل لها بصفات المخلوقين، فالممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والمثبت يعبد إلهاً واحداً، أحداً، فرداً صمداً، هو الله لا إله إلا هو، رب الأرض والسماء»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٤٨) وانظر: شرح العقيدة الواسطية، الفوزان (١٧).

(٢) انظر: آداب البحث والمناظرة، للشنقيطي (١٥١-١٥٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (٤٠).

(٤) المصدر السابق (٢٣).

ويدل على هذا الأصل:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقد علق ﷫ على هذه الآية، بقوله: «فرد تعالى على المشبهة بنفي المثل، ورد على المعطلة بقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾»[١]، فكما لا يجوز تمثيل صفاته ﷻ بصفات خلقه فكذلك لا يجوز نفي الصفات التي وصف بها نفسه، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

الأصل الثالث: قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله ﷻ:

لما كانت الإحاطة بذات الله مستحيلة كانت معرفة كيفية صفاته ﷻ مستحيلة، قال ابن قاسم: «لا يحيط علم الخلق من الملائكة والإنس والجن بذات الله المقدسة فلا يعلم كيف هو إلا هو، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]»[٢]، فالله سبحانه «نفى إحاطة علم الخلق به أن يحدوه، أو يصفوه بغير ما أخبر به عن نفسه، ليتبين أن العقول لا تحيط بصفاته»[٣].

وأوضح معنى قول السلف أمروها كما جاءت بلا كيف فقال: «وإذا قال السلف: أمِروها كما جاءت بلا كيف، فإنما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقائق الأسماء والصفات»[٤]؛ لأن إدراك الصفات فرع عن إدراك الذات، وذات الله لا يعلم كيف هي إلا هو، فكذلك صفاته لا يعلم كيف هي إلا هو، يقول ﷫ في الصفات على وجه العموم: «الصفات الذاتية، والفعلية، والخبرية؛ كذاته، يحتذي القول فيها القول في الذات، فكما أنا نثبت له ذاتاً حقيقة لا تشبه الذوات، فكذلك نثبت له صفات حقيقة تليق بجلاله وعظمته لا تشبه صفات المخلوقين.

---

(١) المصدر السابق (٢٣).
(٢) حاشية الدرة المضية (٤٠).
(٣) المصدر السابق (٣٩).
(٤) حاشية مقدمة التفسير (٦٩).

وإذا كان إثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود، لا إثبات كيفية»(١).

ومراده ﵀ من قوله: «بلا كيف» أي: بلا كيف يعقله البشر، وهو نفي العلم بالكيفية، وليس المراد نفي الكيفية مطلقاً؛ لأن كل شيء له كيفية، قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة، وكيفية الله مجهولة لنا؛ لأنه ﷻ أخبرنا عنها، ولم يخبرنا عن كيفيتها.

ويقول في صفة الاستواء على وجه الخصوص: «استوى سبحانه على عرشه بلا كيف؛ إذ كنه الباري تعالى غير معلوم للبشر.

وقد ثبت عن أم سلمة(٢)، ومالك(٣): الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وتبعهما السلف، فإن استواءه سبحانه الذي هو علوه وارتفاعه على عرشه، معلوم بطريق القطع، الثابت بالتواتر، وكيفية ذلك لا سبيل لنا إلى العلم به، وليس كاستواء المخلوقين، فكما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين»(٤).

وأكد أنه يجب أن يقطع الإنسان طمعه من إدراك حقيقة صفاته ﷻ، ونهى ﵀ عن التفكر في الخالق؛ لأن العقل لا يستطيع إن يدرك تفاصيل صفاته سبحانه لعجز العقل، وعدم القدرة على الإحاطة به، ولكن تعلم أسماؤه وصفاته بخبره سبحانه عن نفسه، وبما أخبر به رسولنا ﷺ عن ربه، وقال ابن قاسم في تقرير هذا الأمر: «تفكروا في المخلوق، ولا تفكروا في الخالق، فإن الخالق سبحانه لا شبيه له

---

(١) حاشية الدرة المضية (٣٢).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣١٣)، البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/ ٧٨).

(٣) انظر: اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، برقم(٦٦٤)، حلية الأولياء، للأصبهاني (٦/ ٣٢٦)، مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٨)، الحجة في بيان المحجة، لأبي القاسم الأصبهاني (٢/ ٢٧٤).

(٤) حاشية الدرة المضية (٣٩)، انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٩)، تحفة الأحوذي، للمباركفوري (٣/ ٢٦٧)، معارج القبول، (١/ ١٩٧).

ولا نظير له، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه تعالى، وإنما هو معلوم بالفطرة، فيذكره العبد، وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه، يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة، لا تنال بمجرد التفكير والتقدير، وإنما تعلم الذات المقدسة والصفات المعظمة من حيث الجملة على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، ومن لم يفهم من صفات الرب الذي ليس كمثله شيء إلا ما يناسب المخلوق، فقد ضل في عقله ودينه»[١].

(١) حاشية الدرة المضية (٤٥-٤٦).

المبحث الثالث

قواعد في أسماء الله وصفاته

القاعدة الأولى: أسماء الله كلها حسنى:

أسماء الله كلها حسنى، بالغة في الحسن غايتها، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وقد قرر ابن قاسم هذه القاعدة، وقال عن أسماء الله الحسنى إنها: «ثابتة بالنص، والإجماع، والعقل، معظمة، موصوفة بأنها حسنى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهي أسماء ونعوت دالة على صفات كماله»[(١)]، وقد جاءت أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم في عدة مواضع:

١. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وذكر ابن قاسم أن هذه الآية إخبار الله عن نفسه بأن له الأسماء الحسنى، فقال: «إخبار عن نفسه الشريفة أن له أسماء، وأنها حسنى يعني قد بلغت الغاية في الحسن، فليس في الأسماء أحسن منها ولا أكمل، ولا يقوم غيرها مقامها، لما تدل عليه من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وتفسير الاسم منها بغيره ليس بمرادف محض، بل على سبيل التفهيم والتقريب، فله سبحانه من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده عن شائبة النقص، فله من صفة العليم علمه بكل شيء، دون العالم الفقيه، والسميع سمعه بكل شيء، دون السامع، والرحيم رحمة بالمؤمنين دون الشفيق والكريم الجود والكرم دون السخي، وهكذا، فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا يعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، إلى ما وصفه به المبطلون»[(٢)].

(١) المصدر السابق (٣٢).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٣٣٧).

٢. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

٣. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ٨].

٤. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر: ٢٤].

ومن حسن أسماء الله أنها متضمنة لصفات الكمال لله وحده، فلا نقص فيها بوجه من الوجوه؛ لأن الأسماء التي تسمى الله بها إما أن تدل على غاية الكمال، فهذه هي الدالة على أسماء الله وصفاته، وإما أن تدل على معنى ناقص نقصاً مطلقاً، فهذه ينزه الله عنها، وإما أن تدل على كمال لكنه يحتمل النقص، فهذا لا يسمى الله به، لكن يخبر به عنه لأن دائرة الأخبار أوسع من دائرة الأسماء لأنها ليست توقيفية، مثل المتكلم وموجود، وغيره، فقال ﷺ: «وما يطلق عليه سبحانه من باب الأسماء والصفات توقيفي، بخلاف الأخبار فلا يجب أن يكون توقيفياً»[1]، وإما أن تدل على كمال في حال دون حال فإنه لا يجوز إطلاقه على الله تعالى، إنما يوصف به مقيداً مثل: الماكر، والمانع، على سبيل المقابلة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فتكون صفة مدح[2].

ولهذا كان حُسن أسماء الله تعالى راجعاً لأمرين:

١. دلالتها على الكمال المطلق الذي لا نقص فيه ولا عيب.

٢. دلالتها على معاني التمجيد، والتقديس، والتعظيم، والربوبية، والأفعال التي هي النهاية في الحُسن، والتي لا يمكن صدورها إلا منه ﷻ[3].

---

(١) المصدر السابق (٣٣٧).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/١٦٩-١٧٠). رسائل في العقيدة، للحمد (٢١٥)، شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين (١٦٠).

(٣) انظر: العقيدة الإسلامية ومذاهبها، للدوري (٢٣٤-٢٣٦).

القاعدة الثانية: أسماء الله أعلام وأوصاف:

فأعلام: باعتبار دلالتها على الذات، وهي بهذا المعنى مترادفة؛ لدلالتها على مسمى واحد وهو الله ﷻ.

وأوصاف: باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بهذا المعنى متباينة؛ لدلالة كل واحد منها على معنى خاص، ويدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، فالغفور والرحيم كلاهما أسماء لمسمى واحد وهو الله سبحانه، وهذا معنى أنها مترادفة، ولكن معنى الغفور غير معنى الرحيم وهذا معنى أنها متباينة[(١)].

وقد ذكر ابن قاسم هذه القاعدة، بقوله: «وهي أسماء ونعوت دالة على صفات كماله»[(٢)].

ولذا نجد ابن قاسم يطبق هذه القاعدة، على اسم الرحمن، فقال: «فالرحمن: اسمه وصفته، ودل هذا الاسم على أن الرحمة، وصفه القائم به سبحانه، وهي من صفات الكمال»[(٣)]، فبين رحمه الله أن الرحمن اسم الله تعالى، دال على ذاته الشريفة، وهو في نفس الوقت صفة لله تعالى دالة على اتصاف الله ﷻ بصفة الرحمة، ومن ذلك اسم «الحليم»، فإنه يتضمن إثبات اسم الحليم لله ﷻ وإثبات صفة الحلم له، وقس على ذلك جميع أسمائه.

القاعدة الثالثة: أن أسماء الله وصفاته توقيفية:

يثبت ابن قاسم قاعدة وجيزة، وهي أن أسماء الله وصفاته توقيفية، بقوله: «إن ما لم يثبت منها لم يؤذن فيه»[(٤)]، أي: أن ما لم يثبت من الأسماء والصفات في كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ؛ فإنه غير مأذون في إطلاقه على الله ﷻ، فلا يسمى الله

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٧٠)، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى (٢٤).
(٢) حاشية الدرة المضية (٣٢).
(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٩٢).
(٤) حاشية الدرة المضية (٣٣).

ﷻ أو يوصف إلا بما ثبت في الكتاب والسنة، وهذا مما يعني أن ابن قاسم يرى أن الأسماء والصفات توقيفية.

ويذكر رحمه الله أن القول بتوقيفية الأسماء والصفات هو القول المعتمد لدى أهل السنة والجماعة، فقال رحمه الله: «القول المعتمد عند أهل الحق توقيفية بنص الشرع وورود السمع بها، واتفقوا على جواز إطلاق ما ورد به كتاب الله وصح عن رسول الله ﷺ»[(١)].

بل يقرر رحمه الله أن أهل السنة والجماعة مجمعون على أن أسماء الله وصفاته توقيفية، يقول مقررًا هذا وناقلاً لأقوال أهل العلم: «فلنا معشر أهل السنة باعتبار ثبوت التوقيف في أسماء الله من الشارع، أدلة عالية تفي بالمقصود؛ لأن ما لم يثبت منها لم يؤذن فيه، وأجمعوا: أنه تعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله ﷺ.

وقال ابن القيم: ما يطلق عليه تعالى في باب الأسماء والصفات، توقيفي، وما يطلق في باب الأخبار، لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه[(٢)]»[(٣)].

وذلك لأن معرفة الأسماء لله وصفاته من الإيمان بالغيب الذي لا يستطيع العقل إدراك تفاصيله، ولا معرفته إلا عن طريق الرسل الذين يبلغون وحيه، وحينئذ يجب أن نقتصر في إثباتها على ما جاء في الكتاب والسنة، فلا نحدث لله أسماء وصفات من عندنا، ولا نصفه بصفات لم ترد في الكتاب والسنة، أو نسميه باسم ليس في الكتاب والسنة، هذا معنى أنها توقيفية[(٤)].

---

(١) المصدر السابق (٣٢-٣٣).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٧٠).

(٣) حاشية الدرة المضيئة (٣٣).

(٤) انظر: الجواب الكافي (١/ ١٠٠)، بدائع الفوائد (١/ ١٧٠)، شرح الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، للفوزان (٧٦-٧٧).

القاعدة الرابعة: القول في الصفات كالقول في الذات:

ينبغي أن يعلم أنه لما حجب الله ذاته أن يحيط بها أحد علماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فيكون من باب أولى عدم معرفة كيفية صفاته سبحانه؛ لأن الصفة فرع عن الموصوف، فإذا لم تعلم حقيقة الذات فلا يمكن معرفة حقيقة وكيفية الصفات، يقول ابن قاسم مقرراً لهذه القاعدة: «صفاته الذاتية والفعلية والخبرية كذاته، يحتذي القول فيها، القول في الذات، فكما أنا نثبت له ذاتاً حقيقية، لا تشبه الذوات، فكذلك نثبت له صفات حقيقية تليق بجلاله وعظمته، لا تشبه صفات المخلوقين، وإذا كان إثبات الذوات[(١)]، إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات، إثبات وجود، لا إثبات كيفية»[(٢)].

ويقول: «كما أنه لا يعلم كيف هو إلا هو، فكذلك صفاته»[(٣)].

ويقول: «فكما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين»[(٤)].

هذه القاعدة العظيمة يناقش بها كل من ينكر الصفات، أو يمثلها بصفات المخلوقين مع إثبات الذات من أهل التمثيل والتعطيل من المعتزلة[(٥)]، ونحوهم؛ لأن إثبات الذات محل إجماع الأمة لا تختلف فيه؛ ولكن اختلفت في إثبات

---

(١) لعل الصواب: الذات.

(٢) حاشية الدرة المضية (٣١-٣٢).

(٣) المصدر السابق (٤٤).

(٤) المصدر السابق (٣٩).

(٥) المعتزلة من الفرق الكلامية، العقلانية، المنتسبة للإسلام، وسلكت منهجاً عقلياً متطرفاً في بحث العقائد الإسلامية، وظهرت في أوائل القرن الثاني، وكان منشأها على يد واصل بن عطاء حينما اعتزل مجلس الحسن البصري ويجمعهم القول بالأصول الخمسة. وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. انظر: الملل والنحل (١/ ٤٣)، الفرق بين الفرق (١/ ٩٦).

الصفات، فيقال لأهل التمثيل: ألستم تثبتون لله ذاتاً لا تشابه وتماثل ذوات المخلوقين؟ فإذاً أثبتوا له صفات لا تماثل صفات المخلوقين، ويقال لأهل التعطيل: ألستم تقولون بوجود ذات لا تماثل ذوات المخلوقين، فإذا أثبتوا صفات لله لا تماثل صفات المخلوقين، وإلا ووقعتم في التناقض[(١) (٢)].

القاعدة الخامسة: لا يستعمل في حق الله تعالى إلا قياس الأولى:

قال ابن قاسم: «وكل كمال ثبت للمحدث، فالواجب القديم أولى به، وكل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات، فإنه يجب نفيه عن الله بطريق الأولى؛ بل هو سبحانه المبرأ من كل عيب، ونقص، وآفة، له الكمال المطلق من جميع الوجوه، باتفاق النبوات»[(٣)].

حيث قرر رحمه الله في هذه القاعدة جواز القياس في مسائل الاعتقاد وهو ما يسمى بقياس الأولى، ومبنى صحته على شرطين:

١. جانب الإثبات: وهو كل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وإن كان فيه نقص بوجه من الوجوه فينزه الله عنه، مثاله: النوم فهو كمال في حق المخلوق ولكنه نقص في حق الخالق سبحانه؛ لأن النائم يغفل عما يجري حوله فينزه الله عنه.

٢. جانب النفي: وهو كل نقص وجب نفيه عن المخلوق بوجه من الوجوه، فالخالق أولى بنفيه مع إثبات كمال الضد المنفي؛ لأن النفي المجرد ليس فيه مدح ولا ثناء، مثاله الجهل فهو صفة نقص عند المخلوق، فالخالق أولى بالتنزيه منه مع إثبات كمال علمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

---

(١) انظر: التدمرية (٤٣)، تقريب التدمرية لابن عثيمين (٣٩)، كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (٩١).

(٢) انظر: التدمرية (٤٣)، تقريب التدمرية لابن عثيمين(٣٩)، كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (٩١).

(٣) حاشية الدرة المضية (٣٨- ٣٩).

ويدل على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل٦٠]، وهذا لا يناقض القول بأن مسائل الاعتقاد لا تؤخذ بالقياس؛ لأن الله سبحانه لا يقاس بخلقه قياس تمثيل يقتضي المساواة بين الخالق والمخلوق، ولا قياس شمول يستوي إفراده، وهذا الذي نفاه الله عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][(١)].

وتقريره ﷺ موافق لتقرير السلف، وقد تقدم نقل أقوالهم رحمهم الله في هذه المسألة[(٢)].

القاعدة السادسة: أن إثبات صفات الله ﷻ - المتضمنة كل كمال له سبحانه - تنفي عنه أضدادها، من صفات النقص:

فثبوت صفة الحياة ينفي عن الله ﷻ صفة السنة، والنوم، والموت، وثبوت العلم ينفي الجهل، وثبوت البصر ينفي العمى، وثبوت السمع ينفي الصمم...

وقد قرر ابن قاسم هذه القاعدة العظيمة جليًّا في قوله: «لا يتصور في العقل الجهل الذي هو ضد العلم، والعجز الذي هو ضد القدرة في حق الله تعالى، كما أنه لا يتصور في حقه الموت، الذي هو ضد الحياة، والعمى الذي هو ضد البصر، وكذا الصمم والبكم والفناء والعدم والفقر ومماثلة المخلوقين وغير ذلك، مما هو ضد أوصافه المقدسة، الثابتة بالشرع»[(٣)].

ثم أعقب ﷺ ذلك قائلاً: «فكل نقص من هذه الأوصاف المذكورة ونحوها، قد تنزه الله عنه، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه باتفاق الكتب والرسل»[(٤)].

---

(١) للاستزادة انظر: الفصل الأول في المطلب الرابع: موقفه من القياس في مسائل الاعتقاد (٧٠-٧٢).

(٢) انظر: الرد على المنطقيين (١/ ١٥٠)، درء التعارض (٧/ ١٥٤)، مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠١)، مفتاح دار السعادة (٢/ ٧٦)، التدمرية (٧٥-٥٨).

(٣) حاشية الدرة المضية (٤٦).

(٤) المصدر السابق (٤٦).

وقرر رحمه الله في هذه القاعدة ثبوت صفات الكمال الثابت لله عز وجل بأدلة السمع، والعقل التي اتفقت جميع الكتب والرسل عليها، وهي مبنية على أمرين:

١. نفي صفات النقص المضادة لصفات كماله؛ لأن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفي الآخر.

٢. نفي أن يكون له مماثل أو كفؤ في مخلوقاته؛ لأن إثبات الشيء نفي لضده، وما يستلزم ضده، وقد أخبر الله سبحانه بأنه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فهو سبحانه الأعلى في كل شيء، وأحق به من كل ما سواه، ولهذا يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافأ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، وهذا دليل ناصع، وبرهان قاطع، على إثبات صفات الكمال لله مع نفي أن يكون لله كفء ومثل، تعالى الله عن ذلك، فتأمل كيف كان قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه(١).

القاعدة السابعة: صفات الله الفعلية تتعلق بمشيئته واختياره:

صفات الله الذاتية الفعلية تتعلق بمشيئته وإرادته، ويعبر بعض العلماء عنها بقوله: قديمة النوع حادثة الآحاد، وهذا التعبير بلغة المتكلمين، وقد اضطر أهل السنة والجماعة إلى التعبير به؛ للرد عليهم عندما تعرضوا لتأويل أسماء الله وصفاته، أو نفيها ولكن الأولى تركه إلا عند الاضطرار، كالرد على المخالفين وغيره.

ومعنى قديمة النوع: هو أن الله تعالى موصوف بصفاته منذ الأزل، فهو سبحانه لم يزل، ولا يزال متصفاً بصفاته، وليست حادثة منه بعد أن لم تكن، فهو متكلم قبل أن يصدر منه الكلام، وخالق قبل أن يصدر منه الخلق، وهذا ما ليس له بداية.

---

(١) انظر: التدمرية (١٣٨-١٣٩)، الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٠-١٠٣٢).

ومعنى حادثة الآحاد: أي آحاد أفعاله يتجدد وقوعها وفق مشيئته واختياره، فهو يتكلم متى شاء، ويخلق ويرزق متى شاء، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فجميع أفعاله هكذا، وهذا لا يعني أنه سبحانه كان معطلاً عن صفاته حتى حدثت - تعالى الله عن ذلك - فهو موصوف بصفات الكمال منذ الأزل، ويفعل متى ما شاء وفق حكمته وإرادته هذا ما قرره ابن قاسم بقوله: «مذهب السلف: أن الله قديم بجميع صفاته، لم يزل ولا يزال متكلماً متى شاء، وفاعلاً متى شاء، ولم تزل الإرادات والكلمات تقوم بذاته، فكلام الله، وقدرته، وإرادته، وغضبه، ورضاه، وغير ذلك قديمة النوع، حادثة الآحاد كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وشهدت به العقول الصحيحة، والفطر السليمة، والحس، والمشاهدة»[١]، ومن أدلة هذه القاعدة:

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ومن السنة:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»[٢].

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع

(١) حاشية الدرة المضية (٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف باب الدعاء والصلاة من آخر الليل...(١/ ٣٨٤)، برقم (١٠٩٤).

قدمه فتقول قط قط»[١].

وجه الدلالة من هذه الأدلة: أن صفات الله الذاتية الفعلية تتعلق بمشيئته سبحانه، يفعلها متى ما شاء وفق حكمته وإرادته سبحانه.

وأنكر ابن قاسم رحمه الله على من يقول إن صفات الله قديمة بالإطلاق؛ لأنه من الألفاظ المجملة، المحتملة حقاً وباطلاً؛ لأنه إذا قلنا إنها قديمة يلزم منه ألا تتعلق صفاته بمشيئته وإرادته، ويلزم منه إذا قلنا إنها حادثة، أنه اتصف بها بعد إن لم تكن أو مخلوقة منفصلة عنه، لا تقوم به، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً، وذلك بقوله «وقوله: قديمة؛ فيه إجمال، وفي شرحه: إذ لو كانت حادثة لاحتاجت إلى محدث انتهى[٢].

فعندهم ما ثم إلا قديم، أو مخلوق، فما كان قديماً فإنه لازم لذاته، لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وما كان محدثاً فهو المخلوق المنفصل عنه، فلا يقوم عندهم بذات الله فعل، ولا كلام، ولا إرادة ولا غير ذلك مما يتعلق بمشيئته وقدرته، وليس هذا من عقيدة السلف، ولا من دين الإسلام في شيء»[٣].

ويتضح تقرير ما سبق بضرب مثال من صفات الله التي كثر الجدل فيها بين الفرق[٤]، وهي صفة الكلام، فكلام الله قديم النوع، أي: أن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، وليس الكلام حادثاً منه بعد أن لم يكن، وحادث الآحاد أي: أن آحاد كلامه - أي الكلام المعين الخصوص مثل تكليم الله لموسى - حادث؛ لأنه متعلق بمشيئته، يتلكم متى شاء، بما شاء، كيف شاء[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، (٤/ ١٨٣٥) رقم(٤٥٦٧).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ١١٦).

(٣) حاشية الدرة المضيئة (٣٢).

(٤) انظر: حاشية مقدمة التفسير (١٣-٢٦).

(٥) انظر: حاشية الدرة المضيئة (٣٣)، تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد، لابن عثيمين (٣٠).

وبهذا يتضح لنا أن صفاته الذاتية الفعلية قديمة النوع، حادثة الآحاد، فيزول اللبس الذي خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدامهم، وضلت فيه أفهماهم، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه(١).

القاعدة الثامنة: المضافات إلى الله إن كانت أعياناً فهي من جملة المخلوقات، وإن كانت أوصافاً فهي من صفات الله:

بين ابن قاسم رحمه الله أن المضافات إلى الله تعالى على نوعين:

١. أعيان قائمة بنفسها، مثل عبد الله، وبيت الله، وناقة الله، فهذه من جملة المخلوقات، وإضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه، وقد تقتضي تشريفا كـ بيت الله، وقد تقضي أنها مملوكة لله تعالى من جملة مخلوقاته كـ أرض الله.

٢. أوصاف غير قائمة بذاتها، كـ سمع الله وبصر الله، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

هذا ما بينه رحمه الله بقوله: «والمضاف إلى الله إذا كان عيناً قائمة بنفسها: كعيسى امتنع أن تكون صفة لله، وإنما هو إضافة مخلوق إلى خالقه، وهو على قسمين:

١. إضافة تشريف وتكريم: كبيت الله، وخليل الله، وروح الله.

٢. وإضافة لا تقتضي تشريفاً كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، أي: كائنة منه كونها وأوجدها سبحانه.

وأما إذا كان المضاف إليه معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات كالسمع والبصر، وجب أن يكون صفة لله قائماً به»(٢).

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٣٤)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ١٣١)، والتعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، للفوزان (٤٢-٤٣).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٧)، انظر: الجواب الصحيح (٢/ ١٥٥)، فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن آل الشيخ (٤٣)، القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين (٢/ ٧٥).

المبحث الرابع
أقسام الصفات

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تقسيم الصفات بحسب تعلقها بذات الله ﷻ ومشيئته إلى قسمين:

١. صفات ذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال الله سبحانه متصفاً بها، ولا تنفك عنه سبحانه.

٢. صفات فعلية: هي التي تتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء فعلها، إن شاء لم يفعلها.

وقد أشار ؒ إلى ذلك بقوله: «صفاته الذاتية، والفعلية»[(١)]، ثم ذكر ؒ عدداً من الأمثلة على الصفات الذاتية والفعلية في قوله: «سائر الصفات الذاتية من الحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والكلام، وغيرها، والوجه، واليدين، والقدم، ونحوها.

وسائر صفات الأفعال من الاستواء، والنزول، والإتيان، والمجيء، والتكوين، ونحوها»[(٢)].

المطلب الثاني: تقسيم الصفات الفعلية إلى قسمين:

١. أفعال لازمة.

٢. أفعال متعدية.

وقد وضح ابن قاسم هذه المسألة، وعرف بالمقصود من كون الفعل لازماً أي لازماً لذاته المقدسة أو متعدياً، وذكر الأمثلة عليه، بما لا مزيد عليه في قوله: «الفعل نوعان: لازم، ومتعد.

فالاستواء، والإتيان، والنزول؛ أفعال لازمة، لا تتعدى إلى مفعول، بل هي

(١) حاشية الدرة المضينة (٣١).

(٢) المصدر السابق (٤٣).

قائمة بالفاعل.

والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والهدى، والنصر، ونحو ذلك؛ يتعدى إلى مفعول»[١].

المطلب الثالث: تقسيم الصفات بحسب ورودها في النصوص إلى قسمين:

١. صفات مثبتة: وهي الصفات التي وصف الله بها نفسه، وهي صفات كمال، ويغلب فيها التفصيل؛ لأنه كلما كثرت الأخبار عنها، وتنوعت دلالتها؛ ظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلوماً من قبل.

٢. صفات منفية: هي الصفات التي نفاها الله عن نفسه، فكلها صفات نقص، ولا تليق به، كالعجز، والنوم، والتعب، والغالب فيها الإجمال؛ لأنه أبلغ في تعظيم الموصوف[٢].

وقد أشار ابن قاسم ﷺ إلى هذا التقسيم بقوله: «كل وصف جاء في كتاب الله، وصح عن نبيه ﷺ؛ فهو ثابت له تعالى، وموصوف به»[٣]، وجميع ما ذكره في المطلبين السابقين فهو من قبيل الصفات المثبتة ويقابل الصفات المثبتة الصفات المنفية، وذلك بقوله: «لا يتصور في العقل الجهل الذي هو ضد العلم، والعجز الذي هو ضد القدرة في حق الله تعالى، كما أنه لا يتصور في حقه الموت، الذي هو ضد الحياة، والعمى الذي هو ضد البصر، وكذا الصمم، والبكم، والفناء، والعدم والفقر، ومماثلة المخلوقين، وغير ذلك، مما هو ضد أوصافه المقدسة، الثابتة بالشرع»[٤].

---

(١) المصدر السابق (٣٤).

(٢) تقريب التدمرية (١٨-١٩).

(٣) حاشية الدرة المضيئة (٤٠).

(٤) المصدر السابق (٤٦).

المبحث الخامس

ذكر جملة من أسماء الله الحسنى التي ذكرها ابن قاسم

وقد ذكر ابن قاسم جملة من أسماء الله العظمى، الموصوفة بالحسنى، دالة على صفات كماله سبحانه[(١)]، من ذلك:

١. لفظ الجلالة (الله):

لفظ الجلالة - الله - علم على الرب تبارك وتعالى، لا يسمى به أحد غيره سبحانه حتى الجبابرة، حيث بين ابن قاسم هذا بقوله: «وهو الله تعالى، والله أعرف المعارف، الجامع لمعاني الأسماء الحسنى، والصفات العليا، ولذا يضاف لجميع الأسماء، فيقال الرحمن من أسماء الله، وكذا الباقي، ولا يضاف هو إلى شيء، وخصت الإضافة إليه لأنه يدل على غيره، فيكون ذكره ذكراً لباقي الأسماء؛ ولأنه لا يطلق على غيره، فالإضافة إليه أولى وهو مشتق، أي دال على صفة له تعالى، وهي الإلهية وأصله (الإله) حذفت همزته وأدغمت اللام في اللام فقيل الله، ومعناه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وأكثر العلماء على أنه اسم الله الأعظم»[(٢)]؛ لأنه يوصف بجميع الصفات كما قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤]، فجاءت الأسماء الباقية كلها

---

(١) انظر: حاشية الدرة المضيئة (٣٢)، حاشية الروض المربع(٦/ ٦١٩).

(٢) حاشية الروض المربع (١/ ٢٨)، انظر: حاشية كتاب التوحيد (٩-١٠)، حاشية الرحبية في علم الفرائض، لابن قاسم (٧).

صفات له[١]، «وقد ذكر في ألفين وثلاثمائة وستين موضعاً من القرآن»[٢].

٢. الرحمن.

٣. الرحيم.

وقد ذكرهما ابن قاسم بقوله: «والرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، فالرحمن رحمة عامة لجميع الخلق، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، والرحمن دال على الصفة القائمة به، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، والرحمن عام المعنى خاص اللفظ، والرحيم عام اللفظ خاص المعنى»[٣]، وهذا ما قرره ابن كثير في تفسيره، حيث قال: «الرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا»[٤]، وكما قال العلامة الأمين الشنقيطي: «هما وصفان لله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة والرحمن أشد مبالغة من الرحيم لأن الرحمان هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، وعلى هذا أكثر العلماء»[٥].

٤. الأول: قال ابن قاسم «وجاء الشرع باسمه الأول، المشعر بأن ما بعده آيل إليه، وتابع له»[٦]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ولهذا قال الأصفهاني: «ومذهب أهل السنة والمقتدين بالسلف أن الله تعالى كان ولا شيء معه، وهو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٠) انظر: تفسير الطبري(١/ ٥٤)، تفسير البغوي (١/ ٣٨).

(٢) حاشية الروض المربع (١/ ٢٨).

(٣) حاشية الروض المربع (١/ ٢٩)، انظر: حاشية كتاب التوحيد (٢٩٢).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢١).

(٥) أضواء البيان (١/ ٥).

(٦) حاشية الدرة المضية (١٠).

شيء، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء»[١].

٥. الباقي: قال ابن قاسم «"الباقي" أي: الدائم الأبدي، بلا زوال، ولا فناء، لا يضمحل ولا يتلاشى، ولا يعدم ولا يموت، باتفاق النبوات، قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وفي الحديث: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[٢]»[٣]، وهذا من الأسماء التي أخذت من طريق الاشتقاق، وقد عده جملة من أهل العلم أنه من أسماء الله تعالى[٤].

٦. السلام: قال ابن قاسم: «والسلام اسم من أسماء الله تعالى؛ لسلامته من كل عيب ونقص، ومنه الجنة دار السلام لسلامتها من الآفات»[٥]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣].

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم أخد المضجع (٤/ ٢٠٨٤)، برقم(٢٧١٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠).

(٤) كالخطابي، وابن منده، والبيهقي، وغيرهم من أهل العلم. انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، للتميمي (١٧٣).

(٥) حاشية الروض المربع (١/ ٣٦)، انظر: تفسير البغوي (٤/ ٣٢٦)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٠).

المبحث السادس
ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشيخ ابن قاسم

ذكر ابن قاسم في معرض كلامه، وفي بعض كتبه، عدداً من صفات الله ﷻ، وقد قمت بجمعها من كلامه، ثم تقسيمها على النحو الآتي:

المطلب الأول: الصفات الذاتية التي ذكرها ابن قاسم:

وقد ذكر ابن قاسم عددا من الصفات الذاتية إجمالاً كـ: «الحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والكلام، وغيرها، والوجه، واليدين، والقدم، ونحوها»[١]. ثم فصل فيها، فمن ذلك:

١. صفة الحياة:

بين ابن قاسم أن صفة الحياة من الصفات الذاتية الثابتة لله ﷻ، دل على ثبوتها كتاب ربنا ﷻ، وسنة نبينا ﷺ، وإجماع أئمتنا وأمتنا، وأنها صفة تثبت لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته، ليست من صفات المخلوقين المصنوعين في شيء، يقول ابن قاسم: «الحياة: صفة ذاتية، قديمة، أزلية، ثابتة بالنص، والإجماع، وليست كحياة المخلوق»[٢]. وأن حياة الله ﷻ دائمة أزلاً، وأبداً، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، يقول ابن قاسم: «حي دائم لم يزل، ولا يزال»[٣].

٢. صفة الوجه:

بين ابن قاسم أن صفة الوجه من الصفات الذاتية الثابتة لله ﷻ، دل على ثبوتها الكتاب العزيز، والحديث الشريف، وأنها تثبت لله ﷻ على ما يليق بجلاله، وعظمته، من غير تكييف لها، يقول ابن قاسم: «من الصفات الثابتة له: صفة الوجه، بلا كيف، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

---

(١) حاشية الدرة المضية (٤٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٣٣)، انظر: تفسير البغوي (١/ ٢٣٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩)، فتح الباري (١١/ ٤٢١).

(٣) حاشية الدرة المضية (١١).

وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وفي الحديث: «أعوذ بنور وجهك»[١]، وغير ذلك»[٢].

٣. صفة اليـدين:

٤. صفة القـدم:

٥. صفة الرجـل:

٦. صفة السـاق:

وقد بين ابن قاسم أن صفة اليدين من الصفات الذاتية الثابتة لله ﷻ، دل على ثبوتها نص الكتاب والسنة، ومن ثم أجمع عليها السلف، والواجب علينا التسليم لكلام ربنا ﷻ، وخبر نبينا ﷺ، فنؤمن ونقر أن لله يدين ذاتيين حقيقتين، على ما يليق بجلاله، وعظمته، كما هو الحال في جميع صفات الله، يقول ابن قاسم: «بنص الكتاب والسنة صفة اليدين، قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الحديث: «يمين الله ملأى»[٣]، «لم يغض ما في يمينه»[٤]...، «يأخذهن بيده اليمنى»[٥]،«وكلتا يدي ربي يمين»[٦]، «ويقبض أصابعه ويبسطها»[٧]، ... وغير

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ٤٦٤)، والهندي في كنز العمال (٢/ ٢٩٦)، برقم (٥١٢٠)، وفيه ابن إسحاق هو مدلس، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة - مختصرة - (٦/ ٤٣٥)، برقم (٢٩٣٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٤١)، أنظر: اعتقاد أئمة الحديث (١/ ٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]... (٦/ ٢٦٩٩)، برقم (٦٩٨٣)، مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، (٢/ ٦٩١)، برقم(٩٩٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، (٢/ ٦٩١)، برقم (٩٩٣).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (٤/ ٢١٤٨)، برقم(٢٧٨٨).

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه، في كتاب الذبائح، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ (٥/ ٤٥٣)، برقم (٣٣٦٨)، والحاكم في المستدرك، وصححه في كتاب الإيمان، (١/ ١٣٢)، برقم (٢١٤)، وأبي يعلى في مسنده (١١/ ٤٥٣)، برقم (٦٥٨٠).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار(٤/ ٢١٤٨)، برقم(٢٧٨٨).

ذلك، مما ثبت مما لا يحصى، فيداه صفتان من صفات ذاته بإجماع السلف.

وكل شيء ورد من صفات الله من نهج: اليد، والوجه، ونحوهما، كالقدم، والرجل، والساق؛ نثبته كما جاء عن الله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢].

وفي الحديث: «حتى يضع رب العزة فيها رجله»(١)، وفي رواية: «فيها قدمه»(٢).

ونقر ما أتى عن الله على مراد الله، ونؤمن بذلك ونصدق به، ونعتقد أن له معاني حقيقة، على ما يليق بجلال الله وعظمته»(٣).

٧. صفة العينين، وقد بين ابن قاسم أن صفة العينين من الصفات الذاتية الثابتة لله ﷻ، دل على ثبوتها الكتاب، والسنة، وإجماع السلف على ما يليق بذاته، وعظمته، وأنها لا تشبه بحال صفات المخلوقين، يقول ابن قاسم: «من الصفات الثابتة له تعالى من غير تمثيل صفة العينين، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، فدلت الآيات أن لله تعالى عينين، والقاعدة: أن المثنى إذا أضيف إلى نون العظمة أُتي به بصيغة الجمع، وفي الصحيحين: «فإن الله ليس بأعور»(٤)، ومذهب السلف إثبات العينين لله تعالى حقيقة على ما يليق بذاته، وعظمته، لا كأعين المخلوقين»(٥).

---

(١) أخرجه أبي عوانة في مسنده، كتاب الإيمان، صفة أهل النار المخلدون فيها (١/ ١٦٠)، برقم (٤٦٤)، وبنحوه عند مسلم في صحيحه، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٧)، برقم (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، (٦/ ٢٤٥٣)، برقم (٦٢٨٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب (٤/ ٢١٨٨)، برقم (٢٨٤٨).

(٣) حاشية الدرة المضية (٤١-٤٢)، انظر: اعتقاد أئمة الحديث، لأبي بكر الإسماعيلي (١/ ٥١) الإبانة، للأشعري (١/ ١٢٥-١٢٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٦/ ٢٦٠٨)، برقم(٦٧١٢)، مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة وما معه، (٤/ ٢٢٤٧)، برقم (١٦٩).

(٥) حاشية الدرة المضية (٤٢)، انظر: الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٠٤).

٨. صفة السمع، وقد بين ابن قاسم أن صفة السمع من الصفات الذاتية الثابتة لله ﷻ، أخبر بها الله ﷻ في كتابه، واتفق عليها جميع النبوات، يقول ابن قاسم: «وسمع يسمع به جميع المسموعات، كما أخبر به في كتابه، واتفقت عليه النبوات»[١].

المطلب الثاني: الصفات الفعلية التي ذكرها ابن قاسم:

وقد ذكر ابن قاسم عدداً من الصفات الفعلية، من ذلك:

١. صفة الكلام:

وقد بين ابن قاسم أن صفة الكلام من الصفات الفعلية الثابتة لله ﷻ، وقد اتفق على ثبوتها الأنبياء والرسل، وأتباعهم من السلف، وأن الله يتكلم بمشيئته متى شاء، ويُكَلِّم مَنْ يشاء، على ما يليق بجلاله، وعظمته، من غير تكييف، يقول ابن قاسم: «الكلام صفة له سبحانه ثابتة، باتفاق الرسل، قائمة بذاته، وليس ككلام المخلوقين، ويتكلم ويكلم متى شاء، بلا كيف، باتفاق أهل السنة»[٢].

٢. صفة الرحمة:

وقد بين ابن قاسم أن صفة الرحمة من الصفات الفعلية الثابتة لله ﷻ، وأنها صفة ثابتة لله ﷻ على ما يليق بجلاله، وعظمته، وأنها ليست كصفات المخلوقين، يقول ابن قاسم: «وصفه بالرحمة قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فنصفه بها على ما يليق بجلال الله، وليست كرحمة المخلوق »[٣]، وقال في موضع آخر: «الرحمة وصفه القائم به سبحانه، وهي من صفات الكمال»[٤]، كجميع صفاته ﷻ.

---

(١) حاشية الدرة المضيئة (٣٣)، انظر: الحجة في بيان المحجة (١/ ١٠٤).

(٢) حاشية الدرة المضيئة (٣٣)، انظر: الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٢٧)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٧٩-١٨٠).

(٣) حاشية الدرة المضية (٤١).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٢٩٢).

٣. صفة المحبة، والرضا، والغضب:

وقد بين ابن قاسم أن صفات المحبة، والرضا، والغضب، من الصفات الفعلية الثابتة لله ﷻ، ومذهب أهل السنة إثباتها لله ﷻ على ما يليق بجلاله، وعظمته، يقول ابن قاسم: «المحبة والرضا والغضب، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، فهو سبحانه المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه، وهو سبحانه يحب ما أمر به، ويحب عباده المؤمنين، ويغضب، ويرضى، فنصفه ﷻ بما وصف به نفسه، على ما يليق بجلاله، هذا مذهب أهل السنة والجماعة»[1].

٤. صفة الاستواء:

وقد بين ابن قاسم أن صفة الاستواء من الصفات الفعلية الثابتة لله ﷻ، وأن القول فيها كالقول في سائر الصفات، فيجب إثباتها لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته، وأن الأدلة التي تثبت بها هذه الصفة أكثر من أن تحصر، وعلى هذا مشى السلف ودرج، يقول ابن قاسم: «استواء يليق بجلاله وعظمته. قال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[2].

وبهذا قال السلف، وأدلة علوه على خلقه واستوائه على عرشه أكثر من أن تحصر، وأجمع المسلمون على ذلك»[3].

---

(١) حاشية الدرة المضية (٤١)، انظر: الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٦١)، (٢/ ٢٦٤، ٤٩٠)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٠١، ١٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٥).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٣٠)، انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٩)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٥).

٥. صفة النزول، الإتيان، والمجيء:

وقد بين ابن قاسم أن صفات النزول، والمجيء، والإتيان؛ من الصفات الفعلية الثابتة لله ﷻ، وأن القول فيها كالقول في سائر الصفات، فيجب إثباتها لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير تكييف، ولا تمثيل، يقول ابن قاسم: «صفة النـزول: ففي الصحيحين وغيرهما من غير وجه: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له**»[(١)]... الخ.

والقول فيه كالقول في الاستواء على ما يليق بجلال الله، لا كنزول المخلوقين، وكذلك الإتيان، والمجيء، وسائر الصفات الثابتة، من غير تكييف، ولا تمثيل»[(٢)].

ويقول: «الاستواء، والنزول، والإتيان، والمجيء، والتكوين، ونحوها الثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة: نؤمن بها، ونصدق بها، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير زيادة ولا نقصان، فلا ننفي ما وصف به نفسه، ولا نحرف الكلم عن مواضعه، ولا نلحد في أسماء الله وآياته، ولا نكيف، ولا نمثل صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه، فهو أعلم بنفسه، وبغيره»[(٣)]. وجميع ما قرره ابن قاسم في الصفات موافقة لعقيدة السلف رضي الله عنهم أجمعين[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (١/ ٥٢٢)، برقم (٧٥٨).

(٢) حاشية الدرة المضية (٤٢-٤٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (٤٣-٤٤)، انظر: حاشية الروض المربع (٢/١٩٣)، شرح العقيدة الطحاوية (١/١٢٨)

(٤) انظر: العقيدة الواسطية (١/ ١٩-٣١)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٢)، وما بعدها، اعتقاد أئمة الحديث (١/ ٥٠)، العين والأثر في عقائد أهل الأثر، للمواهبي(١/ ٢٩).

المبحث السابع
حكم من جحد شيئاً من أسماء الله تعالى وصفاته

بين ابن قاسم هذه المسألة بما لا مزيد عليه إلا أننا ننقل كلامه بحروفه في قوله: «حكم من جحد شيئاً من أسماء الله تعالى وصفاته، وأنه يكفر بذلك، ولما كان التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله، وأسمائه، وصفاته...، وتقدم أن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، فمن أقر بربوبية الله تعالى وإلهيته وجحد أسماءه وصفاته أو شيئاً منها فقد كفر[1].

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، سبب نزول الآية معلوم، ويأتي طرف منه. والمراد: أن بعض كفار قريش يجحدون اسم الرحمن عناداً، فأنزل الله هذه الآية. وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]...؛ لأن الله سمى جحود اسم من أسمائه كفراً، فدل على أن جحود شيء من أسمائه وصفاته كفر، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة ونحوهم، فله نصيب من الكفر، بقدر ما جحده من الاسم أو الصفة، وإن أقر بجنسها، لكن زعم أنها أعلام محضة، لا تدل على صفات قائمة به تعالى، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء كجحود لفظه؛ فإن الجهمية يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة[2]، وغيرهم، فلهذا كفرهم كثير من أهل السنة[3].

---

(١) للاستزادة انظر: (١١٠-١١٢).

(٢) الأشاعرة: هم طائفة من طوائف أهل الكلام، ظهرت في القرن الرابع الهجري، ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري في مذهبه الثاني (الأشعري) بعد رجوعه عن الاعتزال، وعامتهم يثبتون سبع صفات فقط لله تعالى ويوافقون المرجئة في الإيمان، والجبرية في القدر. انظر: الملل والنحل (١/ ٩٤)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف الجهني ﷺ (١/ ٨٣).

(٣) الأشاعرة لم يكفرهم السلف.

قال ابن القيم: ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان[1].

فجحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من صفات كماله، ونعوت جلاله»[2]، فعلل ابن قاسم رحمه الله كفر من جحد شيئاً من أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى؛ لأن جحود معنى الاسم هو كجحود لفظه؛ ولكل نصيبه من الكفر بحسبه، وفق الضوابط الشرعية، والقواعد المرعية[3].

(١) شرح قصيدة ابن القيم، لابن عيسى (١/ ٢٩٠).

(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٩٢-٢٩٣).

(٣) انظر: الجواب الكافي (١/ ١٠٠)، تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٨٢-٤٨٣).

المبحث الثامن

هل نصوص الأسماء والصفات من المحكم أم من المتشابه؟

قال ابن قاسم رحمه الله: «ولم يقل أحد من الصحابة، ولا التابعين، لا الأئمة الأربعة، ولا غيرهم؛ بإدخال أسماء الله تعالى وصفاته أو شيء منها في المتشابه الذي استأثر الله بعلم معانيه، أو لا معنى له، بل هي حق على حقيقتها، ولها معان حقيقية فهمها السلف على ما يليق بجلال الله وعظمته، وفسروها بما يخالف تأويل الجهمية، وأضرابهم، وما قاله النفاة إنها من المتشابه دعوى بلا برهان»(١)، فهو يبين رحمه الله أن أسماء الله تعالى وصفاته من قبيل المحكم الذي عرف معناه، وأما كيفيتها فلا شك أنها من المخفي عن الخلق، الذي استأثر الله سبحانه بعلمه وأكد رحمه الله على هذا المعنى في أكثر من موضع فقال: «لم يقل أحد من السلف، ولا من الأئمة المتبوعين، لا أحمد ولا غيره، بإدخال أسماء الله وصفاته، أو بعض ذلك، في المتشابه الذي استأثر الله بعلم معانيه، ولا جعلوها بمنزلة الكلام الأعجمي، الذي لا يفهم، بل هي عندهم: معلومة المعاني، مجهولة الكيف»(٢)، وعدم العلم بكيفية صفات الله لا يقدح في الإيمان؛ لأنه سبحانه لم يكلف عباده بذلك ولم يرده منهم لأنه لم يجعل لهم إليه سبيلاً؛ لأن معرفة كيفية صفاته تعلم من ثلاثة أمور: بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه وكل هذه الثلاثة منتفية في حقه سبحانه(٣)،

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٩٦).

(٢) حاشية الدرة المضية (٢٤).

(٣) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (١٠٣-١٠٤)، وتقريب التدمرية، لابن عثيمين (٤٠).

وممن نبه على هذا وأطال الكلام فيه بكلام نفيس جدًّا شيخ الإسلام ابن تيمية، ولولا الإطالة لذكرته[١]، فتقرير ابن قاسم موافق لتقرير السلف الصالح، حيث سار على منهجهم، ونقل أقوالهم، واستشهد بها[٢].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٤-٣٠٦).

(٢) انظر: حاشية مقدمة التفسير (٦٤-٦٩).

المبحث التاسع

بطلان مذهب التفويض

يذكر ابن قاسم ﷺ أن مذهب السلف في نصوص الصفات هو إجراؤها على ظاهرها المتبادر إلى ذهن سامعها المقصود من المتكلم بها.

ومعنى هذا أن لنصوص الصفات معان ظاهرة تتبادر إلى الذهن عند سماعها، فيجب إقرار هذه الصفات على هذا الظاهر اللائق بجلال الله ﷻ.

وليس معنى قول السلف: إن نصوص الصفات تجرى على ظاهرها أنها نصوص تتلى بلا معنى لها، يدل لهذا أن السلف كأحمد، وغيره، فسروا وبينوا ووضحوا كثيراً من معاني نصوص الصفات. ومن قال: إن نصوص الصفات لا يعلم تفسيرها، ومعناها إلا الله، فهو مذهب أهل التفويض، وهو من شر أقوال أهل البدع، لعدة أمور منها:

أولاً: أنه مذهب مخالف لسنن الصحابة والتابعين، الذين كل الخير في إتباع آثارهم، واقتفاء منهجهم فالصحابة ومن بعدهم فسروا القرآن الكريم من أوله إلى آخره بما في ذلك آيات ونصوص الصفات، فمن قال: إن مذهبهم هو التفويض فقد افترى عليهم.

ثانياً: أنه يلزم على هذا أن نصوص الصفات لا معان لها؛ بل تقرأ ولا يعرف معناها، بمنزلة الطلاسم، والأحاجي؛ التي لا تعرف، بل كمن يقرأ غير العربية وهو لا يحسن معانيها.

وكما أن الأول افتراء على السلف، فهذا زاد بالافتراء أيضاً على كتاب الله تعالى بأن فيه نصوصا من الصفات لا يعرف معناها.

هذا كله مقتبس ومأخوذ من قول ابن قاسم معلقاً على قول السفاريني: «نمره كما

جاء[١]، أي: عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، فلا نحرف الكلم عن مواضعه، بل نجريه على ظاهره، ونقره على ما دل عليه من معناه، ونقر أن له معاني حقيقية، ونفسره ونبينه كما فسره السلف، أحمد وغيره، وبينوا معناه بما يخالف تأويل الجهمية وغيرهم.

ومن قال تفسيره وبيان مراده، لا يعلمه إلا الله، فقد خالف الصحابة والتابعين، الذين فسروا القرآن من أوله إلى آخره، ووصفوا الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله، من غير تحريف للكلم عن مواضعه، أو إلحاد في أسماء الله وآياته.

والمصنف - عفا الله عنه - ذكر في شرحه: أن مذهب السلف عدم الخوض في هذا، وتفويض علمه إلى الله[٢]. وهذا من شر أقوال أهل البدع، ولازمه: أنا نتلو آيات الصفات، ولا نتدبرها، ولا نفهم معانيها، بل إنه لا معنى لها»[٣].

وعلى فرض التنزل مع المخالف نقول: إن السلف لا يفوضون المعنى، وإنما يفوضون الكيفية، وإن كان هذا هو الواجب الذي لا يستطيع بشر أن يتعداه، لأننا نعلم معنى الاسم والصفة، أما معرفة الحقيقة فلا يعرف الله إلا الله.

وإلى هذا أشار ابن قاسم رحمه الله بقوله: «لم يقل أحد من السلف، ولا من الأئمة المتبوعين، لا أحمد ولا غيره، بإدخال أسماء الله وصفاته، أو بعض ذلك، في المتشابه الذي استأثر الله بعلم معانيه، ولا جعلوها بمنزلة الكلام الأعجمي، الذي لا يفهم، بل هي عندهم: معلومة المعاني، مجهولة الكيف»[٤]، وما قرره ابن قاسم هو مذهب السلف الصالح رضوان الله عليهم[٥].

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٩٥).
(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ٩٧).
(٣) حاشية الدرة المضية (٢٤-٢٥).
(٤) المصدر السابق (٢٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٩)، الصواعق المرسلة (١/ ١٦٣)، (٣/ ١١٣٣)، شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (١/ ٩٢-٩٨).

المبحث العاشر

موقف ابن قاسم من الألفاظ المجملة

يجمل ابن قاسم رحمه الله موقفه من الألفاظ المجملة بقوله: «ما ليس له أصل في النص، والإجماع لم يجز قبوله ولا رده، حتى يعرف معناه»[١]، إذا ابن قاسم يرى أن الألفاظ المجملة لا يجوز إطلاقها أبداً على الله تعالى كلفظ الجهة والحيز، أما من جهة المعنى فيستفصل عنه، فيقبل المعنى الحق، ويرد المعنى الباطل.

ومن الألفاظ المجملة التي فصل ابن قاسم موقفه منها:

١. لفظ الجوهر والعرض والجسم.

من أقوال المتكلمة المبتدعة أن الله ليس بجسم، ولا جوهر، ولا مركب، ونحو ذلك من أقوالهم التي يريدون بها أن يتوصلوا إلى نفي صفا ت الله عز وجل، ولهذا علق ابن قاسم رحمه الله على قول السفاريني، مبيناً موقف السلف من هذه الألفاظ ونحوها، فقال: «قال المصنف - عفا الله عنه -: واحد لا يتجزأ، ولا ينقسم. اهـ[٢]، ويقول أهل الكلام أيضاً: ولا يتعدد، ولا يتركب، ولا يتبعض، وغير ذلك من الألفاظ المشتركة المجملة، وإن كان يراد بها معنى صحيح مما هو معروف في لغة العرب، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يجوز عليه أن يتفرق، ولا ينقسم ولا يتركب، وغير ذلك مما يتنزه عنه سبحانه.

بل هو واحد صمد بجميع معاني الصمدانية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته باتفاق النبوات، ولكن أهل الكلام يدرجون في هذا ونحوه نفي علوه، ومباينته لمخلوقاته، كقولهم: لو كان موصوفاً بالصفات من العلم، والقدرة وغيرهما، مباينا للمخلوقات، لكان مركباً من ذات وصفات وغير ذلك.

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (١/ ١١٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ليس هذا مرادهم - يعني: أنه لا يتجزأ، ولا ينقسم - وإنما مرادهم: أنه لا يشهد، ولا يرى منه شيء دون شيء، ولا يعلم منه شيء دون شيء أو يرى عباده منه شيئاً دون شيء، بحيث إنه إذا تجلى لعباده يريهم من نفسه المقدسة ما شاء، فإن ذلك عندهم غير ممكن.

ولا يتصور عندهم أن يكون العباد محجوبين عنه، فإن الحجاب لا يحجب إلا ما هو جسم منقسم، ولا يتصور عندهم أن الله يكشف عن وجهه الحجاب ليراه المؤمنون، هذا هو المراد عندهم بكونه لا ينقسم، ويسمون ذلك نفي التجسيم، إذ كل من ثبت له ذلك كان جسماً مركباً عندهم، والباري منزه عندهم عن هذه المعاني.

ويلزم الذين ذكروه بنفي الانقسام أن لا يكون شيء قط من المخلوقات، يقال: إنه واحد إلا الجوهر الفرد[(١)].

وإذا قيل: الواحد هو الشيء فلا يكون قد خلق شيئاً، فاسم الواحد قد جعلوا لله فيه شريكاً من الموجودات، وهو: الجوهر الفرد»[(٢)]، ثم قال ﷺ ناقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «لفظ الجسم[(٣)]، والجوهر، والعرض[(٤)]، في أسماء الله تعالى وصفاته بدعة لم ينطق بها كتاب، ولا سنة ولا قالها أحد من سلف الأئمة، وأئمتها، ولم يقل أحد منهم إن الله جسم، ولا ليس بجسم، ولا جوهر ولا ليس بجوهر، ولا عرض ولا ليس بعرض وذموا الكلام في ذلك، لا لمجرد ما فيه من

---

(١) الجوهر الفرد: هو القائم بنفسه، الذي لا يقبل التجزئة والقسمة. انظر: الحدود الأنيقة (١/ ٧١).

(٢) حاشية الدرة المضية (٣٠ - ٣١)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٧٩).

(٣) الجسم هو: جوهر قابل للأبعاد الثلاثة، وقيل الجسم هو المركب المؤلف من الجوهر. انظر: التعريفات (١/ ١٠٣).

(٤) العرض هو: الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي محل يقوم به كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله ويقوم به والأعراض على نوعين:
١ - قار الذات وهو الذي يجتمع أجزاؤه في الوجود كالبياض والسواد.
٢ - غير قار الذات وهو الذي لا يجتمع أجزاؤه في الوجود، كالحركة والسكون.
انظر: التعريفات (١/ ١٩٢).

الاصطلاحات المولدة، بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه اهـ»[١]، إلى أن قال: «إن ما يراد به نفي الجوهر نفي حقيقة الله تعالى، وبنفي العرض نفي بعض صفاته ككلامه، وكذلك المراد من نفي الجسم نفي أنه كلم، ويكلم وأراد، ويريد، وفعل، ويفعل، ونحو ذلك مما هو صفة كمال سلبها نقص في حق المخلوق، وكل كمال ثبت للمحدث، فالواجب القديم أولى به، وكل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات، فإنه يجب نفيه عن الله بطريق الأولى؛ بل هو سبحانه المبرأ من كل عيب، ونقص، وآفة، له الكمال المطلق من جميع الوجوه، باتفاق النبوات»[٢].

وبهذا بين رحمه الله أن ألفاظ الجوهر والعرض والجسم لا تثبت لله تبارك وتعالى، ولا تنفى عنه؛ لأنه لم يرد ذلك في كتاب الله وسنة رسوله، وأيضاً فقد يراد بها معنى حق، وباطل، فلا يجوز إثباتها بإطلاق ولا نفيها بإطلاق، وإنما يستفصل عن المعنى فيثبت ما كان منه حقًا وينفي ما كان منه باطلاً، والله أعلم[٣].

٢. القديم:

ومن الألفاظ المجملة التي تحتمل حقًا وباطلاً لفظ القديم، قال ابن قاسم رحمه الله: «"القديم"لم يجئ في أسماء الله تعالى، وما ليس له أصل في النص والإجماع لم يجز قبوله ولا رده، حتى يعرف معناه.

وفي لغة العرب: هو المتقدم على غيره[٤] فلا يختص بما لا يسبقه عدم، فإن أريد به الذات التي لا صفة لها؛ لأنه لو كان لها صفة كانت قد شاركتها في القدم، ونحو ذلك، فباطل، وإن أريد أنه سبحانه القديم الأزلي بجميع صفاته الذي لم يزل ولا يزال، لا ابتداء لوجوده ولا انتهاء له، وأنه لم يسبق وجوده عدم، فهذا حق.

---

(١) حاشية الدرة المضية (٣٨).

(٢) المصد رالسابق (٣٨-٣٩).

(٣) درء التعارض، لابن تيمية (٢/ ١٠٤).

(٤) انظر: لسان العرب (١٢/ ٤٦٥)، وما بعدها.

قال الشيخ تقي الدين: وهو مذهب السلف. اهـ، وقدمه تعالى ضروري، وجاء الشرع باسمه الأول، المشعر بأن ما بعده آيل إليه، وتابع له»[1]، فأشار ﷺ إلى أن الأولى تسميته بالألفاظ الشرعية كالأول كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ولكن يصح أن يخبر عنه أنه قديم دون أن نسميه سبحانه بذلك؛ لأن باب الأخبار أوسع من باب الأسماء[2].

٣. الحد:

ومن الألفاظ المجملة التي تحتمل حقا وباطلا لفظ الحد، والمعنى الحق هو: «نفي إحاطة علم الخلق به أن يحدوه، أو يصفوه بغير ما أخبر به عن نفسه، ليتبين أن العقول لا تحيط بصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال أحمد: وهو على العرش بلا حد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] أي: استوى كيف شاء، ليس كمثله شيء، ولا ينافي ما نص عليه هو وغيره من الأئمة، كابن المبارك، فقالوا: على العرش بحد. قال أحمد: هكذا هو عندنا، يعني: أنه عال على عرشه، بائن من خلقه»[3] ثم قال ﷺ: «وقد يريد المبتدعة بنفي الحد معنى باطلاً، قال ابن القيم: يقولون: ننزه الله عن الحدود، والجهات، إنه ليس فوق السماوات، ولا على العرش ولا يشار إليه، ونحو ذلك. انتهى[4]. فنفي الحد بهذا المعنى نفي لوجود الرب تعالى وتقدس»[5].

وما قرره ابن قاسم في بيان موقفه من الألفاظ المجملة هو تقرير السلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن السائل إذا سأل عن الأمور الدينية بألفاظ ليست

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩)، انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١١٤).
(٢) انظر: شرح الدرة المضية في أهل الفرقة المرضية، للفوزان (١٧).
(٣) حاشية الدرة المضية (٣٩-٤٠).
(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة(١/ ٣٢٤).
(٥) حاشية الدرة المضية (٤٠)، انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (١/ ١٣٢).

مأثورة عن الرسول في ذلك مثل سؤاله بلفظ الجهة والحيز والجسم والجوهر والمركب والمنقسم ونحو ذلك، نظرنا إلى معنى لفظه فأثبتنا المعنى الذي أثبته الله ونفينا المعنى الذي نفاه الله، ثم إن كان التعبير عن ذلك بعبارته سائغاً في الشرع وإلا عبر بعبارة تسوغ في الشرع وإذا كانت عبارته تحتمل حقًّا وباطلاً منع من إطلاقها نفياً وإثباتاً»[1].

***

(١) درء التعارض (١٠/ ٣٠٢).

الفصل السابع
جهوده في تقرير الإيمان بالكتب
المبحث الأول
تعريف الكتب لغة، واصطلاحاً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الكتب لغة:

الكتب في اللغة جمع كتاب بمعنى مكتوب وتدور مادة (كتب)، حول الجمع والضم. كما بين ذلك ابن فارس، فقال: «الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد، يدل على جمع شيء إلى شيء، من ذلك الكتاب، والكتابة، يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتباً»[(١)].

وسمي الكاتب كاتباً؛ لأنه يجمع الحروف ويضم بعضها إلى بعض ومنه الكتيبة من الجيش؛ لاجتماعها وانضمام بعضها إلى بعض، ومنه سميت الكتب الإلهية كتباً لأنها احتوت على كلام رب العالمين الذي أوحاه إلى رسله وجمع بعضه إلى بعض وضم في كتاب واحد[(٢)].

المطلب الثاني: تعريف الكتب اصطلاحاً:

عرف ابن قاسم الكتاب اصطلاحاً بقوله، هي: «الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى ختمها بالكتاب العزيز، وهو القرآن الكريم، المهيمن على ما قبله من الكتب»[(٣)].

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٥٨).

(٢) انظر: القاموس المحيط(١/ ١٦٥)، لسان العرب (١/ ٦٩٨-٧٠٢)، ورسائل في العقيدة، للحمد(٢٨١)، عقيدة المؤمن، لأبي بكر الجزائري(١٣٥).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٦٤)، انظر: فتاوى ابن عثيمين (٥/ ١٢٠).

المبحث الثاني

منزلة الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب أصل من أصول العقيدة، وركن من أركانها، لا يتم إيمان العبد إلا به، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد أخبر ﷺ- في حديث جبريل - أن الإيمان بالكتب السماوية، جزء من حقيقة الإيمان، وذلك بقوله: «**الإيمان أن: تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(١)].

ومعنى الإيمان بالكتب: هو الإيمان الجازم بأنها جميعها منزلة من عند الله سبحانه إلى رسله، تكلم الله بها حقيقة بمشيئته، ونؤمن بها إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل، مع اعتقاد أن جميع الكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً ولا يكذبه، فكلها من عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا ﴾ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

و من كذّب بها أو بشيء منها فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٦].

ونؤمن بما صح من أخبارها، والعلم والعمل بما لم ينسخ منها، والرضا بها، والتسليم لها، وأن القران هو آخر الكتب المنزلة، وهو أعظمها، وأشرفها، وهو المهيمن عليها، والمصدق لجميعها والناسخ لجميع ما يعارض شرائعه وأحكامه[(٢)]،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٧)، برقم (٨).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٥٠)، رسائل في العقيدة، لابن عثيمين (٢٣).

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد أشار ابن قاسم إلى ذلك، وبين أنه يجب الإيمان بالكتب «المنزلة على الأنبياء من السماء، إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي، ويفصل بالإيمان بالقرآن، والزبور، والتوراة، والإنجيل إلى آخر الكتب المنزلة»[(١)].

الكتب المنزلة من الله قسمان:

الأول: كتب لم ترد تسميتها في القرآن، ويكون الإيمان بها إجمالاً.

الثاني: كتب وردت تسميتها في القرآن، وهي مرتبة حسب ترتيبها التاريخي:

١. **صحف إبراهيم**: هي الصحف المنزلة على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

٢. **التوراة والصحف**: هي المنزلة على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

٣. **الزبور**: هو المنزل على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

٤. **الإنجيل**: هو المنزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

٥. **القرآن**: هو المنزل على محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، وهو أرفعها، وأشرفها، صانه الله من التحريف، والتبديل، وتكفل الله بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهذه الكتب التي ذكرت في القرآن ذكر بعضها ابن قاسم، وبين أنه يجب

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٧١)، (١٤/ ١٣٥).

الإيمان بها«إجمالا في الإجمالي وتفصيلا في التفصيلي، ويفصل بالإيمان بالقرآن، والزبور، والتوراة، والإنجيل إلى آخر الكتب المنزلة»(١).

* تحريف الكتب السابقة:

إن الله تعالى لما أمرنا بالإيمان بالكتب السماوية، أمرنا بالإيمان بها على ما أنزله الله تعالى وليس المقصود أن نؤمن بما في أيدي الناس اليوم من الكتب المحرفة، فقد تضافرت الأدلة على تحريف أهل الكتاب للتوراة والإنجيل وغيرها من الكتب المتقدمة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢).

المبحث الثالث

القرآن الكريم

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم، ومكانته، وفيه خمس مسائل:

المسألة الأولى: تعريف القرآن:

القرآن الكريم: هو كلام الله تعالى بلفظه ومعناه، أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ بواسطة أمينه على وحيه جبريل عليه السلام، وهو الذي بين دفتي المصحف، يبدأ بالفاتحة، وينتهي بالناس[١]، قال ابن قاسم: «القرآن اسم علم لكتاب الله»[٢]، «الذي أنزله الله على نبيه ﷺ بواسطة جبرائيل، هو: كلام الله سبحانه تكلم به حقيقة، كما صرح به في كتابه، وأجمع عليه السلف، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود»[٣].

وقد وضح رحمه الله سبب تسميته بالقرآن، فقال: «قيل: سمي به الكتاب المقروء، وقيل: لجمعه ثمرات الكتب السابقة، أو لجمعه أنواع العلوم، أو السور»[٤].

ووضح سبب تسميته بالكتاب، فقال: «وسماه تعالى كتاباً: لجمعه العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه»[٥].

المسألة الثانية: مكانة القرآن:

للقرآن شأن عظيم؛ وهو أعظم كتاب أنزله الله تعالى على رسله، وختم به كتبه، وهو كلام الله ﷻ، وهو كتابه الأخير للإنسانية جمعاء، جعل فيه الخير والهدى والنور للناس كلهم إلى قيام الساعة، وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، قال

---

(١) العقيدة الصافية للفرقة الناجية (٩٧)، انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٧-١٢٤).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (١٠-١١).

(٣) حاشية الدرة المضية (٣٦).

(٤) حاشية مقدمة التفسير (١٠-١١).

(٥) المصدر السابق (٩).

ﷺ: «ووصف بالعظيم والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وغير ذلك مما يدل على شرفه، ولا ريب أن كل كلام المقصود منه فهم معانيه لا مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك، وقد ندب تعالى إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وتدبره بدون فهم معانيه محال[١] والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم»[٢].

ثم بين ﷺ أن الأخذ بالقرآن يعصم من الضلال، ويقود إلى الهدى، فقال: «ومن أخذ بكتاب الله واعتصم به، ودعا إليه، هدي إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وفي صحيح مسلم: «**إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به، كان على الهدى، ومن أخطأه ضل، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**»[٣] وللترمذي وغيره: «ستكون فتن، قيل: فما المخرج منها؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره، أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[٤]»[٥].

---

(١) مراده أن الإنسان مأمور بالتدبر، وأن التدبر يدرك بفتح من الله.

(٢) حاشية مقدمة التفسير (١٠ - ١١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ (٤/ ١٨٧٤)، برقم(٢٤٠٨).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله، باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ١٧٢)، قال: أبو عيسى هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحرث مقال، والدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٢/ ٥٢٦)، برقم (٣٣٣١).

(٥) حاشية مقدمة التفسير (١١-١٢).

فالقرآن الكريم دستور الأمة الإسلامية مع السنة النبوية، والمصدر الأول للتشريع فيها، ولذلك تراه يبين، ويقرر المباحث العقدية، والشرعية، وغيرها، ويجمع شتات كل الأحكام، ويوفق بين كل الحقوق والواجبات، جامع لفنون العلوم، وفيه الهدى، وهو الطريق المستقيم، هذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «وجعله تبياناً لكل شيء، بين فيه علم كل شيء من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون في أمر دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، قال تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فقد اشتمل على ما يجري في العالم، وقال ﷺ:(١) «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»(٢)، وقد أفرد الناس كتباً فيما تضمنه، من جميع فنون العلوم فلا إله إلا الله، ماذا حرمه المعرضون عنه من العلم والهدى؟!

وجعله تعالى هدى للمتقين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلوب من الإيمان، ويراد به بيان الحق وتوضيحه، والدلالة عليه والإرشاد إليه»(٣).

وقال رحمه الله عن اشتمال القرآن على التوحيد: «بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل آية متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وأقواله، وهو التوحيد العلمي الخبري.

وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد دونه، وهو الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن أهل

(١) قال شيخنا عبد الله الغنيمان حفظه الله: لا يجوز الجزم به هكذا؛ لأنه حديث ضعيف، والأولى أن يقال جاء في الحديث.
(٢) سبق تخريجه (٢٨٦).
(٣) حاشية مقدمة التفسير (٩).

التوحيد وجزائهم، وأهل الشرك وجزائهم، فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه وجزائه وفي الشرك، وأهله وجزائهم»[١]، وبهذا يكون القرآن الكريم قد بحث في كل العقائد، والأحكام، ونظم كل الحقوق، والواجبات إجمالاً في البعض، وتفصيل في الآخر، مشتملا على الهدى والنور، والرحمة للخلق، وشفاء لهم، وهداية للخلق ليصلوا به إلى سعادة الدنيا والآخرة.

المسألة الثالثة: عقيدة السلف في القرآن:

ذكر ابن قاسم ﵀ عقيدة السلف في القرآن الكريم، بكلام جامع مانع، بما لا مزيد عليه، وذلك بقوله: «أجمعوا على أن القرآن كلام الله حقيقة، منزل غير مخلوق، سمعه جبريل من الله، وسمعه محمد من جبريل، وسمعه الصحابة من محمد ﷺ، وهو الذي نتلوه بألسنتنا، وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً، وكل حرف منه كالباء والتاء، كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف»[٢].

ثم استدل ﵀ على تقرير عقيدة السلف على أن القرآن الكريم كلام الله منزل من عنده بإجماع أهل العلم، مدعماً ذلك بالأدلة الشرعية، فقال: «أجمع أهل العلم من الصحابة والتابعين وتابعيهم على أن القرآن كلام الله حقيقة، قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وغير ذلك.

وقال شيخ الإسلام وغيره: أجمعوا على أن القرآن كلام الله منزل من الله كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فأخبر أنهم يعلمون ذلك، والعلم لا يكون إلا

(١) حاشية كتاب التوحيد (١٢)، انظر: شرح قصيدة ابن القيم (٢/ ٢٦٠).
(٢) حاشية مقدمة التفسير (١٣-٢٦)، يراجع، انظر: العين والأثر في عقائد أهل الأثر، للمواهبي (١/ ٣٣).

حقًا، فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه.

قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ٢].

وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ٢] ولم يخبر عن شيء، أنه منزل من الله إلا كلامه جل وعلا، وهو غير مخلوق بإجماع المسلمين، ومن قال كلام الله مخلوق، فهو كافر، قال: واشتهر عن السلف تكفير من قال القرآن مخلوق، وأنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل[(١)]»[(٢)].

وبين رحمه الله معنى قوله: «منه بدأ وإليه يعود»[(٣)]، فقال: «أي: هو تعالى الذي تكلم به، لم يبتدأ من غيره، ومنه نزل، كما قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]، وقال بعضهم: منه خرج.

قال الشيخ: وليس مقصود السلف أنه منه خرج ومنه بدأ أنه فارق ذاته، وحل في غيره، فإن الصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره، وإنما قالوا ذلك: ردًا على المعتزلة والجهمية الذين يقولون: بدأ من المخلوق الذي خلق فيه، وكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه، أو غيره من صفاته، وإليه يعود، أي: علمه، فلا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في الصدور منه آية[(٤)].

قال عمرو بن دينار[(٥)]: أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة، وقال مرة:

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٠٨).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (١٣-١٤).

(٣) حاشية الدرة المضية (٣٦).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧٤).

(٥) هو: أبو محمد عمرو بن دينار الجمحي مولاهم المكي، فقيه، كان مفتي أهل مكة، مولده بصنعاء، سنة ٤٦هـ ووفاته بمكة سنة ١٢٦هـ.انظر: العبر في خبر من غبر (١/ ١٦٣)، تقريب التهذيب (١/ ٤٢١)، الأعلام(٥/ ٧٧).

أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم، يقولون: القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود[١]، وفي الأثر: إن القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في القلوب منه آية[٢]»[٣]، وبهذا يكون معنى منه بدأ: أي منه ظهر، ظهر منه ﷻ فهو المتكلم به، وإليه يعود: يعني يرفع من الصدور والمصاحف في آخر الزمان، فلا يبقى منه آية.

وأنكر ؒ على من يقول القرآن كلام قديم نفسي، فقال ليس هذا: «من قول السلف، وإنما هو قول ابن كلاب[٤] ومن تبعه، أي: أنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وأجمع أهل السنة والجماعة، على أن الله يتكلم كيف شاء، ومتى شاء.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ؒ: لم يقل أحد من السلف، إن القرآن قديم، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النساء: ١٦٣]، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ [يونس: ١٣]، وقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، ولا يكون ذلك إلا بعد وجود المخبر عنه، وإلا كان كذباً، تعالى الله عن ذلك[٥]»[٦].

و بهذا قال السلف رضوان الله عليهم أجمعين، قال شيخ الإسلام: «مسألة القرآن

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٢٣٤)، مجموع الفتاوى(١٢/ ٥٠٥).
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢ / ١٣٢) و(٤٢٣) من هذا البحث.
(٣) حاشية مقدمة التفسير (١٨-١٩).
(٤) هو: أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم، رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، أخذ عنه الكلام داود الظاهري، وكان يلقب كلاباً؛ لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته وأصحابه هم الكلابية. انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٤).
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٦٧).
(٦) حاشية الدرة المضية (٣٦-٣٧).

لها طرفان:

أحدهما: تكلم الله به وهو أعظم الطرفين.

والثاني: تنزيله إلى خلقه والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول...، ومعنى قول السلف القرآن كلام الله غير مخلوق؛ وأنهم قصدوا به إبطال قول من يقول إن الله لم يقم بذاته كلام؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن عنه... وأن الله سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به أنه فارق ذاته وحل في غيره فإن كلام المخلوق بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنتقل إلى غيره؛ فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته بل قالوا منه بدأ: أي هو المتكلم به ردًّا على المعتزلة والجهمية، وغيرهم الذين قالوا: بدأ من المخلوق الذي خلق فيه، وقولهم إليه يعود: أي يسرى عليه، فلا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية»[(١)].

المسألة الرابعة: إعجاز القرآن:

القرآن هو أعظم معجزة خالدة للرسول ﷺ، وقد بين ﵀ ذلك فقال: «وأعظم الآيات العقلية هذا القرآن العظيم، الذي تحداهم الله بحديث مثله، أو عشر سور، أو سورة من مثله، مع عداوة أهل الأرض له، علمائهم، وفصحائهم، واستعجازهم به، ولم يتعرضوا لذلك، مع شدة حرصهم على تكذيبه»[(٢)]، «وهو أعظم معجزات نبينا محمد ﷺ ولا نزاع بين العقلاء: أن كتاب الله معجز، لم يقدر أحد على معارضته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فلولا أن سماعه حجة عليه، لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة، إلا وهو معجزة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧٤) بتصرف يسير، انظر: (١٢/ ١١٧-١٢٤)، العقيدة الصافية للفرقة الناجية (٩٧).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٥٦).

عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فأخبر تعالى: أنه كاف في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره، من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث ثبت كونه معجزة نبينا محمد ﷺ وجب الاهتمام بمعرفة إعجازه»[١].

ويتحقق شروط الإعجاز في القرآن الكريم بشروط ثلاثة:

الأول: التحدي، وهو: طلب المنازلة والمعارضة.

فقد تحدى الله العرب بالقرآن الكريم، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وهم أرباب الفصاحة، والبيان، فدل على معجزته بنفسه، هذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «وقد تحدى تعالى العرب، وكانوا أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء على أن يأتوا بحديث مثل القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ثم تحداهم بعشر سور منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣-١٤]، ثم تحداهم بسورة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه، على كثرة الخطباء فيهم، والبلغاء، والحرص على المعارضة، نادى عليهم بإظهار العجز، وإعجاز القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]»[٢].

الثاني: وجود المقتضي وهو التحدي الذي يدفع إلى المعارضة.

فالرسول ﷺ أخبر أنه رسول الله، وجاءهم بالقرآن الكريم وهو يسفه عباداتهم،

---

(١) حاشية مقدمة التفسير (٨٨).

(٢) المصدر السابق (٨٩-٩٠)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٠).

وأنها شرك، ويسخر من عقولهم، فحرصوا على رده، بأن يأتوا بمثله، أو بآية منه؛ لأنه أبلغ في تكذيب محمد ﷺ، وأسرع في تفريق أتباعه، لكنهم عجزوا عن ذلك، فقال رحمه الله موضحاً ذلك: «أعجز القرآن الفصحاء على أن يأتوا بمثله، مع حرصهم على معارضته، وإطفاء نوره، وإخفاء أمره، ولو كان في مقدرتهم معارضته لصالوا بها قطعا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه، بشيء من ذلك، ولا رامه؛ بل عدلوا إلى العناد والاستهزاء»[1].

الثالث: عدم وجود مانع من التحدي:

فالمانع الذي يمنع العرب من التحدي غير موجود، وذلك يتضح بجوانب عدة، هي:

* جانب اللغة: فالعرب كانوا قادة الفصاحة، والبيان بشعرهم ونثرهم، وجاء القرآن بلسانهم قال رحمه الله مبيناً ذلك: «وعدم قدرة البشر على مثله مع قيام الداعي ومهارة البلاغة أكبر معجزة وأبهر آية وأظهر دلالة»[2].

* جانب الزمن: فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة، ليتسع مجال التحدي، إذ من المحال أن يلبثوا هذه المدة على السكوت عن المعارضة، وهذا أكبر دلالة على إعجازه، قال رحمه الله مبيناً ذلك: «ليس في وسع الخلق من أولهم إلى آخرهم، أن يأتوا بأقصر سورة من مثل القرآن، كما تحداهم الله تعالى فاعترفوا بالعجز، وقد تحداهم بذلك في مكة، والمدينة، وعدم قدرة البشر على مثله مع قيام الداعي ومهارة البلاغة أكبر معجزة وأبهر آية وأظهر دلالة»[3]، وهذا التحدي لم يتوقف عند زمن الرسول ﷺ فحسب، بل لكل أمة ولكل جيل، إلى يوم القيامة. فها هو ذا أكثر من أربعة عشر قرناً يتحدى الله به جيلاً

(١) حاشية مقدمة التفسير (٨٩).
(٢) حاشية الدرة المضية (٣٧).
(٣) المصدر السابق (٣٧).

بعد جيل، فعجزوا عن المعارضة؛ ليدل على أنه أعظم آية، وأكبر معجزة بنفسه؛ وليس مقصود ما توهم به البعض أن إعجازه هو صرف الناس عن معارضته[١].

ثم بين رحمه الله أن معجزات الأنبياء كانت حسية تنقرض بانقراضهم، وأن معجزة نبينا محمد باقية مع بقاء شريعته، دالة على صدقه، وذلك بقوله: «والقرآن العزيز، معجز أبدًا إلى يوم القيامة وكان أكثر معجزات الأنبياء قبل محمد ﷺ حسية[٢] انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة هذه الأمة عقلية باقية على صفحات الدهر، لبقاء هذه الشريعة، فلا يمر عصر من الأعصار، إلا وكتاب الله، آية من آيات الله، يظهر شيء مما أخبر به، أنه سيكون يراه أولو البصائر دال على صحته إلى يوم القيامة.

وفي الصحيح: «**ما من نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً**»[٣] »[٤].

*** أوجه إعجاز القرآن:**

ويتجلى إعجاز القرآن العظيم في أوجه كثيرة، وأعظمها أنه كلام رب العالمين، قال ابن قاسم رحمه الله: «وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى، وجوهاً كثيرة من دلائل إعجازه وما بلغوا عشر معشارها»[٥]، ثم ذكر رحمه الله أوجه إعجاز القرآن إجمالاً فقال: «ونفس نظمه وأسلوبه ودليله ومعانيه وفصاحته وبلاغته وغير ذلك، عجيب خارق للعادة»[٦]، ثم ذكر رحمه الله بعض الأوجه مفصلة على النحو التالي:

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٧)، العقيدة الإسلامية ومذاهبها(٣٨٩-٣٩١)، أعلام النبوة (١/ ٩٧ -٩٩)، والجواب الصحيح (٥/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) قد يفهم منه أن القرآن معجزة معنوية، وهذا باطل؛ بل إنه معجزة للأوجه التي ذكرتها بعد ذلك.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي (٤/ ١٩٠٥)، برقم (٤٦٩٦).

(٤) حاشية مقدمة التفسير (٨٨-٨٩)، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٠-٩٣).

(٥) حاشية مقدمة التفسير (٩٠).

(٦) حاشية الدرة المضية (٣٧).

١. أسلوبه وبلاغته «مع قوة فصاحتها، من دليل إعجازه أيضاً: بلاغته، الخارقة لعادة العرب، الذين هم فرسان الكلام، وأرباب هذا الشأن وكل واحد من هذين النوعين الأسلوب الغريب[1] بذاته، والبلاغة الخارقة بذاتها، نوع إعجاز لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منها، إذ كل واحد منها خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وقال بعضهم الإيجاز مع البلاغة والإيجاز والإطناب من أعظم أنواع البلاغة»[2].

٢. بيانه وفصاحته: «بديعه الباهر، وبيانه الظاهر الذي هو في أعلى درجات البيان وفصاحته التي هي في الغاية، القصوى من الفصاحة واستمرارها فيه، من جميع أنحائها في جميعه، استمرارًا ظاهرًا لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر وبذلك قامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة وقال بعضهم: وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب»[3].

٣. حسن تأليفه: «حسن تأليفه ومخالفته لنظم ما عداه، والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم ونبه تعالى: على أن تأليفه، ليس على هيئة ما يتعاطاه البشر، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]»[4].

٤. إخباره عن المغيبات والأمم السابقة: «ما فيه من الإخبار، عن المغيبات المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب، وما تضمنه أيضاً من قصص الأولين، وسائر المتقدمين، حكاية من شاهدها، وحضرها وما تضمنه أيضاً: من الإخبار عن الضمائر، كقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، قال تعالى:

---

(١) قال الشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله: ليس غريبا، ولكنه عجيب.
(٢) حاشية مقدمة التفسير (٩٠).
(٣) المصدر السابق (٩٠-٩١)
(٤) المصدر السابق (٩١).

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨] وغير ذلك»(١).

٥. الروعة في قلوب السامعين: «الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، عند سماعه والتأثير في نفوسهم والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته؛ بل لا تستمع كلاماً غير القرآن إذا قرع سمعك خلص إلى قلبك من اللذة والحلاوة ما يخلص منه إليه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومنها: كون سامعه، لا يمله، وكونه لم يزل، ولا يزال غضاً طريًّا، في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين»(٢).

وذكر ﷺ وجهاً آخر، فقال: «جمعه بين الجزالة، والعذوبة كونه آخر الكتب، غنيًّا عن غيره وذكروا غير ذلك، من وجوه إعجازه، لما اشتمل عليه، من التركيب المعجز، الذي تحدى به الجن والإنس، والمعاني الصحيحة، الكاملة التي هي من أعظم التحدي عند كثير من العلماء.

وذكر الشيخ، وغيره أن الحروف المقطعة في أوائل السور، إنما ذكرت بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله؛ مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها(٣)، قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في

---

(١) المصدر السابق (٩١).

(٢) المصدر السابق (٩١-٩٢)

(٣) وقد نقل الشنقيطي اختلاف العلماء في هذه المسألة، فقال في تفسيره: «وقال بعض العلماء هي: مما استأثر الله تعالى بعلمه وممن روي عنه هذا القول أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ﷺ، وعامر والشعبي وسفيان الثوري، والربيع بن خيثم، واختاره، أبو حاتم بن حبان...
والقول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وحكى هذا القول الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفراء وقطرب ونصره الزمخشري في الكشاف، قال ابن كثير وإليه
=

أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي، والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن(١)، قال ابن كثير: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته(٢)»(٣).

ثم بين رحمه الله أن أوجه إعجاز القرآن لا تحصى، فقال: «فإن القرآن قد احتوى من الإعجاز على ما لا يحصى كثرة، حتى بلغها العلماء إلى ألوف كثيرة، بل كل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات»(٤).

المسألة الخامسة: معنى إضافة القرآن إلى الرسول البشري، أو الملكي.

ووضح ابن قاسم أن الله إذا أضاف القرآن إلى الرسول ليدل على أنه مبلغ عن الله، ولم يحدث منه بشيء، وذلك بقوله: «فإنه تعالى أضافه تارة إلى رسول من البشر، وتارة إلى رسول من الملائكة، فقال: «قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]، والرسول هنا: محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾...، إلى قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، [التكوير: ١٩-٢٧]، فالرسول هنا جبريل، وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسوله، لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره، وأنه رسول فيه، لم يحدث هو شيئاً منه»(٥).

= ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية ووجه شهادة استقراء القرآن لهذا القول أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها دائماً عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وأنه الحق الذي لا شك فيه. أضواء البيان (٢/ ١٦٥-١٦٧)، ثم ذكر أدلة الاستقراء من القرآن مما يعضد ترجيحه.

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٣١٢)، (٤/ ٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩).

(٣) حاشية مقدمة التفسير، لابن قاسم (٩٢).

(٤) حاشية الدرة المضية (١٠٦)، انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٩، ٣٢)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٠).

(٥) حاشية مقدمة التفسير (١٥).

المطلب الثاني: الإنكار على من قال إن القرآن مخلوق:

بين ابن قاسم أن ألفاظ القرآن كلام الله غير مخلوقة، وأول من قال ببدعة خلق القرآن، الجعد بن درهم، ورد السلف على هذه الشبهة[١]، فقال رحمه الله: «وكل حرف من القرآن الذي هو لفظه قبل أن ينزل به جبريل، وبعد ما نزل به كالباء والتاء إلى آخر حروف الهجاء الثمانية والعشرين كلام الله غير مخلوق، ولم يقل أحد من السلف إنه مخلوق، وإنما قاله الجعد بن درهم[٢]، ورد السلف هذا القول، قال الشيخ: كما تواترت الآثار عنهم بذلك وصنفت في ذلك مصنفات متعددة، قال: ومن قال إنه مخلوق، فقد خالف إجماع السلف، ومن قال إنه مخلوق، يقول: إنه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها، فمن ذلك المخلوق، نزل وبدأ، لا من الله، وإخباره تعالى أنه نزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله»[٣]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، ولم يخبر عن شيء، أنه منزل من الله إلا كلامه جل وعلا، وهو غير مخلوق بإجماع المسلمين، ومن قال كلام الله مخلوق، فهو كافر، قال: واشتهر عن السلف تكفير من قال القرآن مخلوق، وأنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل»[٤].

وقال أيضاً مبيناً أن القرآن كلام الله وإن كان مكتوباً بين دفتي المصحف: «القرآن الكريم، هو ما بين ضمامتي المصحف، ولا يخرج بذلك عن أن يكون

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٥١٨)، بدائع الفوائد (١/ ٢٢).

(٢) هو: الجعد بن درهم من الموالي، عاش في زمن التابعين، مبتدع ضال أول من أنكر الصفات، وقال بخلق القرآن، وأظهر مقالة التعطيل، وقتل بالعراق بسبب ذلك يوم النحر، قتله خالد بن عبد الله القسري بأمر من هشام بن عبد الملك عام ١١٨هـ. انظر: الكامل في التاريخ (٤/ ٤٦٦)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٣)، الأعلام (٢/ ١٢٠).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (١٨).

(٤) المصدر السابق (١٣-١٤).

كلام الله حقيقة، قال الشيخ: ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوباً في المصاحف، وكلامه غير مخلوق، والمداد الذي يكتب به كلامه، وغير كلامه مخلوق، وقد فرق تعالى بين كلامه وبين مداد كلماته، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩][١]»[٢].

ثم بين رحمه الله أن الصوت الذي يقرأ القرآن صوت العبد نفسه، وليس هو صوت الله الذي تكلم به ولا مثله؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وهذا لا يخرجه عن كونه كلام الله حروفه ومعانية، تكلم به بصوته؛ لأن الكلام يضاف حقيقة إلى من قاله ابتداءً لا إلى من قاله مؤدياً، ثم استدل على ما ذكره، فقال: «والقرآن العظيم، هو ما في صدورنا، حفظناه عن ظهر قلب، ولا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة»[٣]، ثم قال: «ذكره الشيخ وغيره في عقائد السلف، وقال: الذي عليه السلف أن القرآن كلام الله تكلم الله بحروفه ومعانيه، ليس شيئ منه كلاماً لغيره، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما، بل كفر الله من جعله قول البشر، فالقرآن كلام الله حروفه ومعانيه، والنبي ﷺ إذا تكلم بكلامه تكلم بحروفه ومعانيه بصوته، ثم المبلغ عنه يبلغ كلامه بحركاته وصوته، والمبلغ عنه مبلغ حديثه كما سمعه، لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول، فالقرآن هو كلام الله تكلم الله به بصوته والمبلغ عن الله مبلغ كلام الله بصوت نفسه، كما أن كلام الرسول تكلم به بصوته والمبلغ عنه بلغ بصوت نفسه، وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[٤]، فجعل الكلام كلام الباري، وجعل الصوت الذي يقرؤه العبد، صوت القارئ، وأصوات العباد ليست هي

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠٢).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (١٥-١٦).

(٣) المصدر السابق (١٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة البررة وزينوا القرآن بأصواتكم» (٦/ ٢٧٤٣)،، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب فضائل القرآن المستدرك (١/ ٧٦٢)، برقم (٢٠٩٩).

الصوت الذي يتكلم الله به ولا مثله، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فليس كلاماً مثل كلامهم، ولا أصواته مثل أصواتهم، ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً أن يكون كلام الله مخلوقا[1]»[2]، وبه قال السلف[3].

المطلب الثالث: موقفه من المحكم، والمتشابه في القرآن الكريم:

١. **تعريف المحكم**: عرف ابن قاسم رحمه الله المحكم فقال: «المحكم الواضح الدلالة»[4]، و«يميز الحقيقة المقصودة»[5]، «من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها وهو تمييز الحقيقة، وفسر بما وضح معناه، وما كان معقول المعنى، وغير ذلك»[6].

٢. **تعريف المتشابه**: عرف رحمه الله المتشابه بقوله: «المتشابه الذي فيه اشتباه على كثير من الناس»[7] و«يشبه هذا، ويشبه هذا»[8]، وهذان التعريفان للمحكم والمتشابه الخاص[9].

والله ﷻ وصف القرآن كله بالمحكم، وكله بالمتشابه، وذكر أن بعضه محكم، ومتشابه، وتفصيل ذلك كالتالي:

أولاً: المحكم الذي وصف به القرآن يطلق ويراد به معنيان:

١. **الإحكام العام**، فكل القرآن محكم، بمعنى أنه متقن، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠٢-٣٠٥).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (١٩-٢٠)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠١)، بدائع الفوائد (٢/ ٤٣٠)، قصيدة ابن أبي داود (١/ ٣١)، العين والأثر في عقائد أهل الأثر (١/ ٣٣).

(٤) حاشية مقدمة التفسير (٥٨).

(٥) المصدر السابق (٥٨)، انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧٥).

(٦) حاشية مقدمة التفسير (٥٨).

(٧) المصدر السابق (٥٨).

(٨) المصدر السابق (٥٨).

(٩) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٦٢)، روضة الناظر، للمقدسي (١/ ٦٦).

أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، يعني أتقنت(١).

٢. الإحكام الخاص، وذلك أن بعض الكتاب محكم، وبعضه متشابه، كما قال تعالى: ﴿ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، والمراد بالمحكم هنا هو الواضح، والظاهر، بحيث يكون معناه واضحاً لا يشتبه على غيره، وقد بين ﷺ ذلك بقوله: «المحكم الواضح الدلالة»(٢)، و«يميز الحقيقة المقصودة»(٣)، «من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها... وما كان معقول المعنى، وغير ذلك»(٤).

ثانياً: المتشابه الذي وصف به القرآن يطلق ويراد به معنيان:

١. التشابه العام: فالقرآن كله متشابه، بمعنى أنه متشابه في الكمال والإتقان والائتلاف، فلا يناقض بعضه بعضاً في الأحكام، ولا يكذب بعضه بعضاً في الأخبار، فلا يوجد فيه اضطراب، ولا اختلاف(٥).

٢. التشابه الخاص: وهذا أوضحه ابن قاسم بقوله: «المتشابه الذي فيه اشتباه على كثير من الناس»(٦)، و«يشبه هذا، ويشبه هذا»(٧)، كما في قال تعالى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، فالمراد بالتشابه هنا: ما يدل على أكثر من معنى، ويكون المراد به أحد المعاني دون جميعها، فالراسخون في العلم يعرفون المراد به من المعنيين، وأهل الزيغ والضلال يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، ومن المتشابه ما

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦١)، تفسير السعدي (١/ ١٢٢).
(٢) حاشية مقدمة التفسير (٥٨).
(٣) المصدر السابق (٥٨).
(٤) المصدر السابق (٥٨).
(٥) انظر: تقريب التدمرية (٧٨).
(٦) حاشية مقدمة التفسير (٥٨).
(٧) المصدر السابق (٥٨).

استأثر الله بعلمه مثل كيفية صفاته، وقيام الساعة، وبهذا ينقسم معرفة المتشابه الخاص إلى قسمين:

١. تشابه حقيقي: وهذا القسم لا يعلمه إلا الله، لا سبيل للوقوف علي حقيقته، ولهذا امتدح الله أهل العلم الراسخين فيه، الذين آمنوا به، وقالوا كل من عند ربنا، وردوا المتشابه منه إلى محكمه، وتركوا ما لا يمكنهم الوصول إلى معرفته، مثل: كيفية صفات الله وحقيقة الآخرة، وأحوالها مما لا نستطيع تصوره؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والعقل البشري لا يمكن أن يحيط بهذه الحقائق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه؛ بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، على أحد القولين: أنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا، ولا سبيل إلى إدراكنا لها؛ لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به»[1].

واستدل ابن قاسم رحمه الله: «بقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، كما قال تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]، ولابن مردويه[2]:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) أحمد بن موسى بن مردوية الاصبهاني، ولد سنة ٣٢٣ هـ، وتوفي سنة ٤١٠ هـ. انظر: الأعلام (١/ ٢٦١).

من حديث عمرو بن شعيب: أن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به[١]، وللحاكم من حديث ابن مسعود: واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمناً به، كل من عند ربنا[٢]»[٣]، وهذا عكس ما عليه أهل الزيغ والضلال؛ الذين ذمهم الله لإتباعهم متشابهه وقرنهم بالذين يتبعون الفتنة وسماهم أهل الزيغ[٤]، قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران: ٧]، فقال: «والذين في قلوبهم زيغ، يتبعون ما تشابه منه مع ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا الله، وهو الحقيقة التي أخبر عنها»[٥]، وقال: «وما يعلم تلك الحقائق من أحوال القيامة وغيرها إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله»[٦]، وقال في موضع آخر: «القيامة، وأشراطها، وما فيها من الصحف، والموازين، والجنة، والنار، وأنواع النعيم، والعذاب، وغير ذلك فهذا ونحوه لا يعلم وقته، وصفته؛ إلا الله ﷻ»[٧]، وهذا لا يناقض أن نعلم معانيها، فنحن نعلم معاني أسماء الله وصفاته وما أخبر به من أمور القيامة، ولكن كنهها وحقيقتها اختص الله سبحانه بعلمه

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده، كتاب التفسير، باب النهي عن الجدال بالقرآن (٢/ ٧٣٩) برقم (٧٣٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، (٢/ ٣١٧)، برقم (٣١٤٤).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٦٢).

(٤) انظر: روضة الناظر (١/ ٦٧)

(٥) حاشية مقدمة التفسير (٦٠-٦١).

(٦) المصدر السابق (٦١).

(٧) المصدر السابق (٧٣).

وهذه من أمور الغيب[١].

٢. تشابه نسبي: هو الذي «فيه اشتباه على كثير من الناس»[٢]، ويكون مشتبها وملتبساً على بعض دون بعض[٣]، وهذا الخفاء خفاءٌ نسبي، فأهل العلم الراسخون يعرفون ما تشابه منه، ولكن يخفى على من دونهم، إما لنقص في علمهم، أو تقصير في طلبهم، أو سوء في قصدهم، ولهذا ينقسم الناس في معرفته إلى قسمين:

أ. الراسخون في العلم:

ذكر ابن قاسم أن المتشابه - غير المتشابه الحقيقي الذي ذكرنا آنفاً- قد علمه أهل العلم الراسخون، والله سبحانه«لم ينف عن الراسخين في العلم علم معاني القرآن وتفسيره، بل قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وهذا يعم الآيات المحكمات، والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى، لا يتدبر، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [محمد: ٢٤]، ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره، بل ذم من لا يتعقله ولا يتفقهه ولا يتدبره، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ [يونس: ٤٢]، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، والله ورسوله: إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله؛ بل أمر بذلك ومدح عليه، وأخبر أنه إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه، محكمه ومتشابهه.

ولم يمتنع أحد من الصحابة ولا التابعين عن تفسير آية من كتاب الله، وقال هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة

(١) انظر: التدمرية (٩٦-٩٧)، للاستزادة انظر (٢٧٥) من هذا البحث.

(٢) حاشية مقدمة التفسير (٥٨).

(٣) انظر: حاشية مقدمة التفسير (٥٨)، مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٤).

المتبوعين: إن في القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ولا أهل العلم والإيمان جميعهم، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس، وهذا لا ريب فيه[(١)].

وذكر أن المسلمين: متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه، وأن من قال: إن من القرآن كلاماً لا يفهم أحد معناه ولا يعرف معناه إلا الله، فإنه مخالف لإجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة[(٢)]»[(٣)].

ب. أهل الزيغ والضلال:

هم أهل الضلال والزيغ، الذين اتبعوا المتشابه، ابتغاء الفتنه وصد الناس عنه، ردوا متشابهه بل ومحكمه إلى معنى لم يرده الله سبحانه، قال الله تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، قال ابن قاسم معلقاً على هذه الآية: «أي الذين في قلوبهم زيغ عدول عن الحق، يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، ويتبعون المتشابه، الذي يشبه هذا ويشبه هذا كأنا ونحن، فروي أن نصارى نجران الذين وفدوا على النبي ﷺ تأولوها على أن الآلهة ثلاثة، لكونها ضمير جمع.

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أن: (أنا)، و(نحن) من المتشابه، فإنه يراد بها

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٢٣).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٦٢-٦٣).

الواحد، الذي معه غيره من جنسه، ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه، ولم يكونوا من جنسه، ويراد بها الواحد المعظم نفسه، الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه، التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى فصار هذا متشابهاً، لأن اللفظ واحد والمعنى متنوع.

والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه[١]، وذكر أن ما تأوله المتفلسفة وغيرهم مما أخبر الله به عما في الآخرة، اتباع للمتشابه وابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات.

وفي الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»[٢] وقصة صبيغ، مع عمر، حين بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن فسأل عمر عن ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١]، فقال: ما اسمك؟ قال: عبد الله صبيغ، فقال: وأنا عبد الله عمر، وضربه الضرب الشديد[٣].

وكان ابن عباس: إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس، يقول: ما أحوجك أن أصنع بك ما صنع عمر بصبيغ[٤]؛ لأنهم رأوا أن غرض السائل: ابتغاء الفتنة، لا الاسترشاد والاستفهام، وقوله: (ابتغاء الفتنة) أي: فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد، كالذي يعارض بين آيات القرآن، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض**»[٥]؛ ولأن ذلك يوقع الشك في القلوب»[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى(١٣/ ٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، (٤/ ١٦٥٥)، برقم(٤٢٧٣). ومسلم في صحيحه، باب النهي عن أتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن (٤/ ٢٠٥٣)، برقم (٢٦٦٥).

(٣) انظر: سنن الدارمي، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع، (١/ ٦٦)، برقم (١٤٤).

(٤) انظر: موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب ما جاء في إعطاء النفل من الخمس(٢/ ٤٥٥)، برقم (٩٧٤).

(٥) أخرجه الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية، كتاب فضائل القرآن، باب عقاب من تعلم القرآن ثم نسيه أو لم يعمل به، (١٤/ ٤١٤)، برقم (٣٥٠٥)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٩٠)، برقم (٤٠٦).

(٦) حاشية مقدمة التفسير (٥٩-٦٠).

وبهذا لا يكون هناك تناقض بين المحكم والمتشابه العام؛ فالقرآن كله محكم بمعنى أنه متقن غاية الإتقان، وهو أيضاً متشابه، في إحكامه وإتقانه، فلا يناقض بعضه بعضاً في أحكامه، ولا في أخباره؛ بل كل يصدق بعضه بعضاً، إذا لم يكن هناك ناسخ؛ أما من جهة معنى الخاص في المحكم والمتشابه، فالمحكم ما عُرف المقصود منه، والمتشابه ما غَمُض المقصود منه، فهو خفاء نسبي عرفه أهل العلم دون غيرهم، وظهر لنا أيضاً الموقف السليم من التشابه الحقيقي كالنصوص الواردة في باب الصفات، وحقيقة الروح وغير ذلك من الغيبيات التي اختص الله بعلمه وأن القول الصواب فيها ما ذهب إليه السلف من إجراء تلك النصوص على ظاهرها، مع معرفتهم بمعاني تلك الحقائق دون كيفيتها، فقال ﷺ: «وإذا قال السلف: أمروها كما جاءت بلا كيف، فإنما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقائق الأسماء والصفات»[1]، وهذا التقرير منه ﷺ موافق ما جاء به السلف رحمة الله عليهم أجمعين[2].

المطلب الرابع: موقفه من التأويل في القرآن:

وقد بين الشيخ ابن قاسم هذه المسألة بما يندر أن تجده في غير هذا الموضع، هذا مع وجازة العبارة، ووضوح الأسلوب، وبراعة التقسيم، فبين معاني التأويل في الكتاب والسنة، وفي عرف المتأخرين، **فذكر أن للتأويل ثلاثة معان:**

المعنى الأول: التفسير: وهو توضيح الكلام بذكر معناه المراد به، فقال: «التأويل عند السلف...، ويراد به تفسير الكلام وبيان معناه»[3]، وقال مبيناً ورود

---

(١) المصدر السابق (٦٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٦١ -٦٢)، تفسير الطبري (٣/ ١٧٠)، قواطع الأدلة في الأصول (١/ ٢٦٥ -٢٦٦). روضة الناظر (١/ ٦٦-٦٧)، تقريب التدمرية (٧٧-٨٥)، تفسير السعدي (١/ ١٢٢)، دراسات في علوم القرآن الكريم، للرومي (٣٩٠).

(٣) حاشية الدرة المضية (٢٥).

ذلك عند السلف: «ولهذا كان ابن جرير يقول في تفسيره: القول في تأويل قوله تعالى، واختلف أهل التأويل في هذه الآية، ونحو ذلك، ومراده التفسير»(١).

المعنى الثاني: هو عاقبة الشيء، والحقيقة التي يرجع إليها الكلام: فقال: «التأويل عند السلف، يراد به: ما يؤول الأمر إليه»(٢).

وبين الشيخ أن لفظ التأويل هنا إما أن يرد في جملة خبرية، أو طلبية:

١. فإن ورد لفظ التأويل في خبر فتأويله نفس حقيقة المخبَر عنه، يقول الشيخ ابن قاسم: «تأويل الأخبار: عين المخبر به إذا وقع»(٣)، ومثل لهذا القسم بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وبين الشيخ أن المراد بالتأويل هنا هو «مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من: القيامة، وأشراطها، وما فيها من الصحف، الموازين، والجنة، النار، وأنواع النعيم، والعذاب، وغير ذلك، فهذا ونحوه لا يعلم وقته، وصفته؛ إلا الله ﷻ»(٤).

٢. فإن ورد لفظ التأويل في جملة طلبية فتأويله امتثاله، يقول الشيخ رحمه الله: «أما تأويل الأمر فهو نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان يقول في ركوعه، وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»(٥)، وهذا من تأويل الأمر، لأنه جملة طلبيه أمر ونهي، وتأويله: فعله إن كان

---

(١) حاشية مقدمة التفسير (٧٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٢٥).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٧٣)، انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٩)، التدمرية (٩٤).

(٤) حاشية مقدمة التفسير (٧٢- ٧٣).

(٥) جاء من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سُورَةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، (٤/ ١٩٠١)، برقم (٤٦٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع =

أمراً، أو تركه إن كان نهياً.

وبهذا بين الشيخ أن هذين المعنيين هما المرادان بالتأويل في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ.

المعنى الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره، وهو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تأويل محمود: وهو صرف اللفظ عن ظاهره لدليل يقتضيه، أو يقترن به، مثاله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، فإن ظاهر اللفظ إذا فرغت من القراءة، ولكن المراد إذا أردت أن تقرأ القرآن؛ لأن النبي ﷺ كان يستعيذ إذا أراد أن يقرأ فهذا تأويل محمود؛ لأنه دل عليه دليل صحيح[١].

القسم الثاني: تأويل مذموم: وهو صرف اللفظ عن ظاهره بدون دليل يقتضيه، وهو بهذا مرادف للتحريف قال رحمه الله: «والتأويل عند المتأخرين من المتكلمة وغيرهم حمل ظاهر من نص على محتمل مرجوح»[٢]، وقوله: «والتأويل المردود: هو صرف الكلم عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره»[٣].

ومثاله: «وما تأوله الفلاسفة للأخبار عن الله كتأويلهم الـ (أحد) أنه: الذي لا يتميز منه شيء عن شيء، و(اليوم الآخر) أنه: تخييلات للحقائق، ونحو ذلك، مما هو صرف للآيات عن ظاهرها»[٤]، ومثال تأويلهم للأوامر مثل الصلاة المأمور بها ليست هذه، فيؤولونها فيقولون، وإنما يؤمر بها العامة وأما الخاصة فالصلاة في

=

والسجود (١/ ٣٥٠)، برقم (٤٨٤).

(١) انظر: تقريب التدمرية (٧٧).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (٧٥).

(٣) المصدر السابق (٧٨)، انظر: التدمرية (٩١)

(٤) حاشية مقدمة التفسير (٧٦).

حقهم معرفة أسرارهم[(١)].

ومثاله أيضاً تأويل الجهمية، والمعتزلة فقال: «وما تأوله الجهمية والمعتزلة وغيرهم، في بعض ما جاء في اليوم الآخر، كزعمهم في بعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود الجنة والنار، بأنها أمثلة ضربت للعوام، ليفهموا الثواب والعقاب الروحانيين، وأن الله لم يقدر الأقدار، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يعلمها بعد وقوعها، وكتأويل: الاستواء بالاستيلاء واليد بالنعمة وغير ذلك، بما هو من تحريف[(٢)] الكلم عن مواضعه»[(٣)].

ثم رد ﷺ على المتكلمة، والمبتدعة الزائغة، الذين صرفوا ظاهر النصوص وأولوها عن مرادها من غير دليل يقترن بها ويدل على صحتها وبين لازم قولهم وبطلان منهجهم، بادئاً بتوضيح عقيد السلف، فقال: «نمره كما جاء، أي: عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، فلا نحرف الكلم عن مواضعه، بل نجريه على ظاهره، ونقره على ما دل عليه من معناه، ونقر أن له معاني حقيقية، ونفسره ونبينه كما فسره السلف، أحمد وغيره، وبينوا معناه بما يخالف تأويل الجهمية وغيرهم؛ لأن من المعاني التي تسمى تأويلا، ما هو صحيح منقول عن بعض السلف، ومراد بعض المتأخرين بنفي التأويل: أن آيات الصفات، وأحاديثها لا يعلمها إلا الله، وأن الأنبياء والصحابة والعلماء لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه، ولازم قولهم: أنا أُمِرنا بتلاوتها من غير تدبر ولا فهم لمعانيها»[(٤)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال

(١) المصدر السابق (٧٥).

(٢) عرف ابن قاسم التحريف، فقال: «التحريف هو: العدول بالمعنى عن وجهه، وحقيقته، وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر، بقدر مشترك بينهما، وأما تحريف اللفظ فهو: العدول عن جهته إلى غيرها، إما بزيادة، أو نقصان، أو حركة». حاشية مقدمة التفسير (٧٧).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٧٦).

(٤) حاشية الدرة المضية (٤٥).

الراجح إلى الاحتمال المرجوح، كتأويل من تأول استوى بمعنى استولى ونحوه، فهذا عند السلف والأئمة باطل لا حقيقة له؛ بل هو من باب تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته»(١)، وبهذا يظهر بطلان القسم الثاني من القول الثالث، وانحرافه وأنه ليس من أقوال السلف(٢).

المطلب الخامس: موقفه من المجاز:

قسم علماء الأصول والمتكلمة الكلام إلى حقيقة ومجاز، واختلفوا في تعريف كل من منهما اختلافاً كثيراً، ومن تلك التعريفات ما ذكره ابن قاسم بقوله: «إن الحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً»(٣).

هذا وقد اختلف العلماء قديما وحديثاً في هذه المسألة، بين مؤيد له، ومانع له، ومفصل فيه، والذي يهمنا في هذا المطلب هو بيان رأي وموقف ابن قاسم من قضية المجاز(٤).

وعليه فقد بين ابن قاسم موقفه من المجاز، وهو منع المجاز، وأنه يؤدي إلى نفي، وتحريف نصوص الكتاب والسنة، وعلل ذلك بأنه خلاف الحقيقة، ولهذا لا يجوز أن الله يتلكم بشي ويريد خلاف حقيقته، وجعله سلماً لنفي حقائق الكتاب والسنة، وهو مما صرح به الناس، قديماً وحديثاً، وذلك في قوله: «المجاز، الذي لهج به المتأخرون، وجعله الملحدون سلماً لنفي حقائق الكتاب، والسنة قال في

---

(١) درء التعارض (٥/ ٣٨٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٧)، والرد على الجهمية، للدارمي (١/ ٢٠٢)، وقد فصل ابن تيمية رحمه الله هذه المسألة في التدمرية القاعدة الخامسة.

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٨٢)، انظر: روضة الناظر (١/ ٦٤)، الإحكام، للآمدي (١/ ٦٠).

(٤) انظر للاستزادة: مجموع الفتاوى (٧/ ٨٧)، (٢٠/ ٤٠٦)، أضواء البيان (٣/ ٣٣٩)، مختصر الصواعق المرسلة(٢/ ٦٩٠)، وما بعدها، منع المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشنقيطي، رسائل في العقيدة، للحمد (٢٦١-٢٧٦)، ذكر فيها أقوال في هذا المسألة، يحسن الرجوع إليها.

القاموس، المجاز: خلاف الحقيقة[١].

وقد صرح الناس قديماً وحديثاً، بأنه لا يجوز أن يتكلم الله بشيء، ويعني به خلاف ظاهره»[٢].

ثم قال رحمه الله: «وكلام الله، وكلام رسوله منزه عن ذلك عن المجاز، وتقدم أنه حق، وأن القرآن كلام الله حقيقة، حروفه، ومعانيه، وأن السلف الصالح، مجمعون على أن من قال خلاف ذلك فمبتدع ضال[٣]»[٤].

ثم ذكر الأدلة بمنع المجاز، وهي كالآتي:

١. تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد القرون الأولى ونشأ من قبل المتكلمين من الجهمية والمعتزلة.

٢. أن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز حادث غير منضبط ولا مطرد ولا منعكس.

يقول الشيخ ابن قاسم: «وإنما حدث تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز، بعد القرون المفضلة وقال ابن القيم: هو اصطلاح حدث، بعد القرون الثلاثة المفضلة بالنص، وكان منشأه من المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم، من المتكلمين، وأشهر ضوابطهم: أن الحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً، والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً[٥].

قال: وتقسيمهم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إما أن يكون عقليًا أو شرعيًا أو لغويًا أو اصطلاحيًا والأقسام الثلاثة الأول باطلة؛ فإن العقل لا مدخل له في دلالة اللفظ على معناه، والشرع لم يرد بهذا التقسيم، وأهل اللغة لم يصرح أحد منهم بأن

---

(١) انظر: القاموس المحيط (١/ ٦٥١).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (٨١).

(٣) انظر: (٢٨٨).

(٤) حاشية مقدمة التفسير (٨٧).

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٧٠٠).

العرب قسمت لغاتها إلى حقيقة ومجاز.

وإذا علم أن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيمًا شرعيًا، ولا عقليًا، ولا لغوياً، فهو اصطلاح حادث محض غير منضبط، ولا مطرد، ولا منعكس، بل متضمن للتفريق بين المتماثلين من كل وجه[1]»[2].

٣. أن القول بالمجاز ذريعة إلى نفي الصفات الإلهية وتأويلها.

فتذرع أهل الإلحاد بنفي نصوص الصفات وغيره من العقائد من خلال إثبات وجود المجاز في لغة العرب وفي القرآن الكريم قالوا: إن نصوص الصفات من باب المجاز، وليست من باب الحقيقة، بين ذلك بقوله: «فتذرع به المعتزلة والجهمية إلى الإلحاد في الصفات، وإبطال الحقائق، وتعطيل الألفاظ عن دلالتها على المعاني، من ذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢]، هو من مجاز اللغة تقديره: وجاء أمر ربك وقولهم في اسمه: (الرَّحْمَنِ) وصفه بالرحمة مجاز؛ لأن الرحمة رقة تعتري القلب.

وقولهم في استوائه على العرش، إنه بمعنى استولى، أو قصد، أو مجمل في مجازاته، وفي اليدين مجاز في النعمة، أو القدرة، وفي الوجه، أي: يبقى ربك أو ثوابه، وادعوه في العلو والنزول وغير ذلك من صفات الرب، جل وعلا وتقدس.

وقالوا: يمتنع حمله على الحقيقة حتى زعم ابن جني، وغيره من أهل البدع، والاعتزال: أن أكثر اللغة مجاز، وكان هو وشيخه أبو علي الجبائي[3]، من كبار أهل البدع، المنكرين لكلام الله، في زمن قوة شوكة المعتزلة، وكانت الدولة، دولة

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٢٦).

(٢) حاشية مقدمة التفسير (٨٢-٨٣).

(٣) هو: محمد بن عبد الوهاب بن سلام أبو علي الجبائي البصري، شيخ المعتزلة، كان رأساً في الفلسفة، والكلام، وله مقالات مشهورة، وتصانيف، وتفسير، ومات سنة ٣٠٣هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/ ٦٢)، انظر: الوافي بالوفيات (٤/ ٥٥).

رفض واعتزال، في عهد عضد الدولة، وكان وزيره ابن عباد معتزليًّا[١]، وقاضيه عبد الجبار معتزليًّا[٢]، وتقدم أن أول من ظهر منهم تقسيم الكلام، إلى حقيقة ومجاز: المعتزلة، والجهمية»[٣].

٤. إطلاق المجاز في القرآن يفضي إلى عدم الثقة بالقرآن الكريم.

وأشار رحمه الله إلى ذلك بقوله: «وقد علم بالاضطرار أن الله متكلم حقيقة، فكيف يتصور دعوى المجاز في كلامه، إلا على أصول الجهمية الذين يقولون: كلام الله مخلوق، ولم يقم به كلام، وقد أطبق السلف على تضليلهم وتكفيرهم، ومن أقر أن الله تكلم بالقرآن فإنه لا يتصور على أصله دخول المجاز في كلام الله؛ بل كلامه تعالى حق على حقيقته، ولو احتمل أن يكون المراد به غير ظاهره، انتفى الوثوق به تعالى الله عما يقول الملحدون علوًّا كبيراً. قال ابن القيم: وإذا كان ظاهر كلام الله والأصل فيه الحقيقة، لم يجز أن يحمل على مجازه، وخلاف ظاهره ألبتة، وذكر أن القائلين بالمجاز: منهم من أسرف فيه وغلا، حتى ادعى أن أكثر ألفاظ القرآن؛ بل أكثر اللغة مجاز، واختار هذا جماعة ممن ينتسب إلى التحقيق، والتدقيق، ولا تحقيق، ولا تدقيق، وإنما هو خروج عن سواء الطريق ومفارقة للتوفيق»[٤].

٥. إن القول بمنع المجاز هو قول الأئمة المتبوعين.

ذكر ابن قاسم أن القول بمنع المجاز في القرآن واللغة، هو قول الأئمة

---

(١) هو: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي، استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي، ثم أخوه فخر الدولة، ولد في عام ٣٢٦هـ وتوفي سنة ٣٨٥هـ. انظر: الأعلام (١/ ٣١٦)، الوافي بالوفيات (٩/ ٧٦).

(٢) هو: عبد الجبار بن أحمد القاضي أبو الحسن الهمداني المعتزلي، قاضي قضاة الري، شيخ الاعتزال ولي قضاء القضاة بالري وأعمالها بعد امتناع منه وإباء وإلحاح من الصاحب بن عباد، وهو صاحب التصانيف المشهورة في الاعتزال وتفسير القرآن، وكان مع ذلك شافعي المذهب توفي سنة ٤١٥ هـ انظر: الوافي بالوفيات (١٨/ ٢٠-٢١)، طبقات الشافعية، لابن بكر شهبة (١/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٨٣)، انظر: مختصر الصواعق المرسلة(٢/ ٤٠٨)، (٣١٠) من هذا البحث.

(٤) حاشية مقدمة التفسير (٨٣-٨٤).

المحققين من أهل العلم، فقال: «صرح بنفي المجاز، المحققون، من أصحاب الإمام أحمد، وغيرهم، كابن حامد(١)، وابن وهب(٢)، وداود بن علي(٣)، ومنذر بن سعيد(٤)، وأنكر أبو إسحاق الإسفراييني(٥)، وغيره، أن يكون في اللغة مجاز بالكلية، وأنكره شيخ الإسلام، وابن القيم وبينا خطأ من ادعاه، وقال شيخنا: من ادعاه في لغة العرب، لزمه أن يقوله في كتاب الله، وإلا تناقض لنزوله بلغتهم(٦)»(٧).

(١) هو أبو عبد الله، الحسن بن حامد بن علي بن مروان الوراق، البغدادي، شيخ الحنابلة، له المنصفات العظيمة منها: كتاب الجامع ماء، وكان معظما في النفوس، سمع، وحدث، وكان وجيها عند السلطان، والعوام، وتوفي سنة ٤٠٣هـ.انظر: الوافي بالوفيات (١١/ ٣١٧)، طبقات الحنابلة (٢/ ١٧١)، الأعلام(٢/ ١٦٠).

(٢) أبو محمد، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء، المصري، المالكي فقيه، مفسر، محدث، مقرئ. ولد بمصر سنة ١٢٥هـ، وروى عن عدد من العلماء، وصحب مالك بن أنس عشرين سنة، ومن تصانيفه: الجامع في الحديث، أهوال القيامة، الموطأ الصغير، الموطأ الكبير، وتفسير القرآن، وتوفي سنة ١٩٧هـ بمصر.
انظر: الوافي بالوفيات (١٧/ ٣٥٥)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٠٤)، الأعلام (٤/ ١٤٤).

(٣) داود بن على بن خلف الأصبهانى، أبو سليمان الملقب بالظاهرى أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام تنسب إليه طائفة الظاهرية وسميت في بذلك لأخذها بظاهر الكتاب، وولد بالكوفة سنة اثنتين ومائتين وقيل سنة إحدى وقيل سنة مائتين ونشأ ببغداد وتوفي سنة سبعين ومائتين. انظر: الوافي بالوفيات (١٣/ ٢٩٧)، العبر في خبر من غبر (٢/ ٥١).

(٤) هو: منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله البلوطى من أهل قرطبة، قاضى قضاة الأندلس في عصره، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً، ولد سنة ٢٧٣هـ وتوفى سنة ٣٥٥هـ ودفن بمقبرة قريش وصلى عليه ابنه عبد الملك. اتظر: تاريخ العلماء بالأندلس (٢/ ١٤٢-١٤٣)، الأعلام (٧/ ٢٩٤).

(٥) أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفراييني، الأصولي المتكلم الأشعري الفقيه الشافعي الإمام إمام أهل خراسان ركن الدين أحد من بلغ رتبة الاجتهاد له التصانيف منها، الرد على الملحدين، وتوفي سنة ٤١٨هـ بنيسابور. انظر: الوافي بالوفيات (٦/ ٦٩-٧٠)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٣)، الأعلام (٧/ ٢٩٤).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥٤).

(٧) حاشية مقدمة التفسير (٨١).

ولهذا «لم يحفظ عن أحد من الأئمة القول به، وقال الشيخ: لم ينطق به السلف ونفس هذا التقسيم باطل[(١)].

وقال ابن القيم: لم يرد الشرع بتقسيم الكلام، إلى حقيقة ومجاز، ولا دل عليه، ولا أشار إليه وأهل اللغة لم يصرح أحد منهم، بأن العرب قسمت لغتها إلى حقيقة ومجاز ولا قال أحد من العرب قط، هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز، ولا وجد في كلام من نقل لغتهم عنهم مشافهة، ولا بواسطة ذلك، ولهذا: لا يوجد في كلام الخليل[(٢)]، وسيبويه[(٣)]، والفراء[(٤)]، وأبي عمرو بن العلاء[(٥)]، والأصمعي[(٦)]، وأمثالهم، كما لم يوجد ذلك في كلام رجل واحد، من الصحابة، ولا من التابعين، ولا تابعي التابعين ولا في كلام أحد من الأئمة الأربعة[(٧)]»[(٨)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٣).

(٢) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الازدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد سنة١٠٠هـ في البصرة، توفي بها سنة ١٧٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٩)، الأعلام (٢/ ٣١٤).

(٣) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز، سنة١٤٨هـ، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتابه المسمى"كتاب سيبويه" في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله، توفي شابا، سنة١٨٠هـ انظر: الأعلام (٥ / ٨١).

(٤) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، أبو يعلى: عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون. من أهل بغداد ولد سنة٣٨٠هـ وتوفي سنة ٤٥٨ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٠٦)، الأعلام (٦/ ٩٩).

(٥) هو: زبان بن عمار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء: من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة، سنة ٧٠هـ، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة ١٥٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٧)، الأعلام (٣/ ٤١).

(٦) هو: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، الاصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جده أصمع، ومولده سنة ١٢٢هـ في البصرة، وتوفي بها سنة ٢١٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٧٥)، الأعلام (٤/ ١٦٢).

(٧) مختصر الصواعق المراسلة(٢/ ٦٩٢-٦٩٣).

(٨) حاشية مقدمة التفسير (٨١-٨٢).

الفصل الثامن

جهوده في تقرير الإيمان بالملائكة

المبحث الأول

تعريف الملائكة لغة، واصطلاحًا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الملائكة لغة:

الملائكة: جمع مَلَك، وأصلها مألك، ولكنها قلبت ملأك، ثم جمعت ملائكة، وهي «مشتقة من لفظ الألوك، وقيل: من المألك الواحد ملك، وأصله ملأك، ووزنه معفل فنقلت حركة الهمزة إلى اللام وسقطت، فوزنه مفعل، فإن الفاء هي الهمزة وقد سقطت، وقيل مأخوذ من لأك إذا أرسل، فملأك مفعل فنقلت الحركة وسقطت الهمزة وهي عين، فوزنه مفعل، وقيل فيه غير ذلك»[(١)].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة؛ لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه، ومن أرسلت إليه من عباده»[(٢)].

المطلب الثاني: تعريف الملائكة اصطلاحًا:

هم خلق من مخلوقات الله، لهم أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل والتمثل والتصور، ولهم قوى عظيمة، وقدرة كبيرة على التنقل، وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله، قد اختارهم الله واصطفاهم لعبادته والقيام بأمره، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ومسكنهم السموات[(٣)]، وبهذا عرف ابن قاسم

(١) المصباح المنير (١/ ١٩)، انظر: لسان العرب (١/ ٥٣٥، ٥٣٤)، مختار الصحاح (١/ ٢٦٤).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (٩٩)، انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٣٥)، لوامع الأنوار البهية (١/ ٤٤٦)، معارج القبول (٢/ ٦٥٦).

الملائكة بقوله: «وهم ذوات قائمة بأنفسها قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية، لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينكحون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون»[١]، وهم «عباد مكرمون، خلقوا من نور»[٢].

ويدل على أن أصل خلقتهم هو النور حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: **«خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»**[٣].

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧٣).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٤/ ٢٢٩٤)، برقم (٢٩٩٦).

المبحث الثاني

منزلة الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، لا يتم إيمان العبد إلا بها جميعاً، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد قرر ابن قاسم معنى الإيمان بالملائكة، فقال: «أن تؤمن بجميع ملائكته»[(١)]، وهم «عباد مكرمون، خلقوا من نور، يؤمن بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلا في التفصيلي، وتعييناً في التعيين، مثل ما ورد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومالك ورضوان وغيرهم»[(٢)].

وما قرره ابن قاسم هو تقرير السلف[(٣)]، وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله، بكلام وافٍ ونفيس، بقوله: «وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ...

فهم عباد له مكرمون منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا من له مقام معلوم لا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده سبحانه لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ورؤساؤهم الأملاك الثلاث: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢).

(٢) المصدر السابق (٦٢).

(٣) أنظر: شعب الإيمان (١/ ١٦٣).

والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١)، فتوسل إليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الأملاك الثلاثة الموكلين بالحياة.

فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه لما في ذلك من الحياة النافعة.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم وأعمالهم ومراتبهم... بل لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة تصريحاً، أو تلويحاً، أو إشارة، وأما ذكرهم في الأحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن يذكر، ولهذا كان الإيمان بالملائكة عليهم السلام أحد أركان الإيمان»(٢).

والإيمان بالملائكة يتضمن عدة أمور منها:

الأول: الإيمان بوجودهم، كما دلت النصوص السابقة أن الإيمان لا يتحقق إلا بذلك، وقد بين ابن قاسم رحمه الله هذا بقوله: «وصدق بوجود الملائكة كلهم، وأشرفهم السفرة بين الله ورسله»(٣).

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منهم، ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً، وقد بين ابن قاسم رحمه الله أن القرآن الكريم والسنة النبوية احتوت على عدد من أسماء الملائكة، ومن هؤلاء ما يلي:

١. جبريل: وهو الملك الموكل بالوحي، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤)، برقم(٧٧٠).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان(٢/ ١٢٥-١٣١) باختصار.

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٦٤).

لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

٢. ميكائيل: وهو الملك الموكل بالقطر، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣. إسرافيل: وهو الملك الموكل بالنفخ في الصور، وجاء ذكره في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان إذا قام من الليل افتتح صلاته اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل»(١).

٤. مالك: وهو خازن النار، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

٥. رضوان: خازن الجنة.

وقد ذكر هؤلاء ابن قاسم رحمه الله أجمالاً في قوله: «يؤمن بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، وتعييناً في التعيين، مثل ما ورد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، كجبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ورضوان، وغيرهم»(٢).

٦. منكرو نكير، قال ابن قاسم رحمه الله: «من ذلك: سؤال الملكين منكر ونكير، فيجب الإيمان به شرعاً لثبوته عن النبي ﷺ وأنهما يسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، ويقول المرتاب: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته(٣)»(٤).

---

(١) سبق تخريجه(٣١٦).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢).

(٣) إشارة إلى حديث البراء بن عازب في صحيح مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٤/ ٢٢٠١)، وجاء بنحوه في سنن الترمذي، كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (٣/ ٣٨٣)، برقم (١٠٧١).

(٤) حاشية الدرة المضية (٧٤-٧٥).

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، وقد تضمن الكتاب والسنة المطهرة كثيراً من صفاتهم، وقد ذكر ابن قاسم رحمه الله بعض صفاتهم التالية:

١. لا يتناسلون.

٢. ولا يتناكحون.

٣. لا يأكلون.

٤. ولا يشربون.

٥. ولهم قدرة على التشكل.

يدل على ذلك قصة إبراهيم مع الملائكة، عندما أتوه في صورة شبان، فقدم لهم الطعام، فلم يأكلوا، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٨]، وذكر رحمه الله تلك الصفات، فقال: «قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون»[(١)].

رابعاً: الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي أمرهم الله بها، وهي على قسمين:

١. أعمال عامة يشتركون فيها، وهي عبادة الله وحده، ومنها تسبيحهم آناء الليل والنهار، دون فتور ولا ملل، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقد بين رحمه الله أن الملائكة «عباد مكرمون»[(٢)]، «يسبحون الليل والنهار لا يفترون»[(٣)]، وهذا القسم يشترك فيه جميع الملائكة، فهم مجبولون على فعل الطاعة، معصومون من فعل المعصية، وكما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) المصدر السابق (٧٣)، انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٢).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (٧٣).

٢. أعمال خاصة لبعض الملائكة، التي كلفوا بها وهي كثيرة، وسأقتصر هنا على بعض ما ذكره ابن قاسم فمن ذلك:

أ- تسجيل أعمال البشر فقال: «فيكتب الملكان الحافظان جميع أفعال الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، من غير امتراء، أي: من غير شك، بل نؤمن بهما، ونصدق بهما، يكتبان أفعال العبد وأقواله بإجماع المسلمين»[(١)].

ب- قبض الأرواح «فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]، أراد ملك الموت وأعوانه»[(٢)].

ج- سؤال الأموات في البرزخ عن الرب، والدين، والنبي ﷺ، قال رحمه الله: «من ذلك: سؤال الملكين منكر ونكير، فيجب الإيمان به شرعاً لثبوته عن النبي ﷺ وأنهما يسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، ويقول المرتاب: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[(٣)]»[(٤)].

---

(١) المصدر السابق (٧٣).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٨٤).

(٣) انظر: (٣٤٤).

(٤) حاشية الدرة المضية (٧٤-٧٥).

المبحث الثالث

المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة

ذكر ابن قاسم عقيدة السلف في المفاضلة بين الملائكة وأعيان البشر - صالحي البشر- من الأنبياء والأولياء، فقال: «وعندنا معشر أهل السنة والجماعة أنا نعتقد تفضيل أعيان البشر من الأنبياء والأولياء على ملائكة ربنا، كما اشتهر من نصوص أحمد وغيره من أهل السنة»[1].

المقصود من المفاضلة هنا هي المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة فلا يدخل في ذلك الكفرة ولا أهل الفسق ولا المنافقون، قال الله تعالى عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وبين ابن قاسم الأدلة على تفضيل أعيان البشر - صالحي البشر - من الأنبياء والأولياء، واستدل بما يلي:

١. أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فلولا فضله لما أمروا بالسجود له.

٢. أن الله خلق آدم بيده وملائكة بكلمته.

٣. أن الله تعالى جعل آدم خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]، والخليفة أفضل ممن ليس بخليفة.

وأشار إلى ذلك بقوله: «وقد دل القرآن والسنة وإجماع السلف على فضل أعيان البشر على الملائكة، كفضل محمد ﷺ المجمع عليه، وقال معاذ ﷺ: ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ﷺ، قيل له: ولا جبرائيل، ولا ميكائيل؟ قال: ولا جبرئيل ولا ميكائيل[2]، وإذا ثبت فضل الواحد من النوع، ثبت فضل نوعهم على جميع الأنواع.

---

(١) حاشية الدرة المضية (١٣١).

(٢) بحثت عنه ولم أجد له تخريج.

وكقصة سجود الملائكة أجمعين لآدم، ولعن الممتنع عن السجود له، وهذا تشريف وتكريم له ظاهر، وكقول إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] وخلق آدم بيده»[(١)]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وهذه نصوص تدل على تكريم آدم على إبليس وغيره، إذ أمر بالسجود له وذكر ابن قاسم قولاً لشيخ الإسلام مستشهدًا به: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: وأقل ما في هذه الآثار ونحوها، أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم: أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك. وكقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وكتفضيلهم بالعلم، وكقوله ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن**»[(٣)]...

وكحديث المباهاة[(٤)]، وما أعد الله لهم من الكرامة، التي لم يطلع الله عليها ملكاً ولا غيره[(٥)]، وظهور فضيلة صالحي البشر، إذا وصلوا إلى غاياتهم، فدخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، وحياهم الرب جل جلاله، وتجلى لهم

(١) حاشية الدرة المضية (١٣٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٦-٣٧٢) ما ذكره ابن قاسم عن شيخ الإسلام كان مختصرًا جداً.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (٤/ ١٦)، برقم (١٣٩٥)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا، (٢/ ٨٧٤)، برقم (٢٦١٩). وحكم عليه الألباني بأنه صحيح لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣١٥)، برقم (٢٤٣٨)، وقال: رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

(٤) ومن أحاديث المباهاة ما جاء عن معاوية ﷺ: إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال ما أجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام وما من به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك، قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم؛ ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة. أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٤/ ٢٠٧٥) رقم (٢٧٠١).

(٥) تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة بخدمتهم بإذن ربهم[(١)]»[(٢)].

وتحقيق القول في ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: «بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى، منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر.

وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة»[(٣)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٣١-١٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى(٤/ ٣٤٣)، انظر: لاستزادة: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٣٨-٣٤٩)، ولوامع الأنوار البهية (٤/ ٣٩٨-٤١٩).

المبحث الرابع

موت الملائكة ومصيرهم

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: موت الملائكة:

يرى ابن قاسم أن الملائكة يموتون كما يموت غيرهم، بعد نفخة الصعق، وهي النفخة الثانية، قال رحمه الله: «نفخة الصعق وفيها هلاك كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وفسر الصعق بالموت، وهو متناول حتى الملائكة، والاستثناء متناول لمن في الجنة من الحور العين وغيرهم»[١]، والقول بموت الملائكة هو الذي عليه أكثر الناس، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة»[٢].

المسألة الثانية: مصير الملائكة:

الملائكة من أهل الجنة؛ لأنهم مجبولون على فعل الطاعة، ومعصومون من فعل المعصية، كما وصفهم الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وكان ذلك بفضل من الله ومنّة منه، قال ابن قاسم مبيناً ذلك: «والملائكة في الجنة»[٣].

***

(١) حاشية الدرة المضية (٨٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٩).

(٣) حاشية الدرة المضية (٩٤).

الفصل التاسع

جهوده في تقرير الإيمان بالرسل

المبحث الأول

تعريف النبي والرسول لغة، واصطلاحاً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف النبي والرسول لغة:

النبي في اللغة مشتق من: (النبأ) بمعنى الخبر، أو من: (النبوة) بمعنى العلو والارتفاع، وقد أشار ابن قاسم إلى المعنيين الأوليين في قوله: «والنبوة من النبأ، وهو الخبر؛ لأنه يخبر عن الله.

وقيل: من النبوة، وهو الارتفاع لارتفاع رتبته؛ وإنما كان كذلك لأنه ارتفع على غيره»[١].

الرسول في اللغة مشتق من: (الإرسال) بمعنى التوجيه[٢]، أو (الرّسل): بمعنى التتابع، وهو: الذي يتابع أخبار الذي بَعثَه أُخِذ من قولهم جاءت الإبلُ رسلاً أي متتابعة[٣].

المطلب الثاني: تعريف النبي والرسول اصطلاحاً:

عرف ابن قاسم النبي والرسول، وبين الفرق بينهما، بقوله: «والنبي رجل أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه فإن أمر به فرسول»[٤]، وقوله: «الرسل: جمع رسول، وهو

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٧٧)، انظر: حاشية الدرة المضية (١٠٠)، معجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٤-٣٨٥)، تهذيب اللغة (١٥/ ٣٥٠).

(٢) انظر: لسان العرب (١١/ ٢٨٣).

(٣) تهذيب اللغة (١٢/ ٢٧٢)، لسان العرب (١١/ ٢٨٤).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (١١)، انظر: حاشية الدرة المضية (١٢).

من أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه»[١]، ثم زاد التعريف توضيحاً عندما وضح العلاقة بين النبي والرسول، وذلك بقوله: «وبينهما عموم وخصوص:

فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أصحابها، والنبوة أخص من جهة نفسها، وأعم من جهة أصحابها.

فالنبوة جزء من الرسالة، وإن الرسالة تتناول النبوة وغيرها، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً»[٢].

وقد سار ابن قاسم ﵀ على قول بعض العلماء في تعريف النبي والرسول، والفرق بينهما[٣]، ولكن يؤخذ على هذا التعريف عدة أمور، منها:

١. أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

٢. أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، وهو يناقض معنى النبوة، وقد ذم الله تعالى من يكتم الوحي من أهل الكتاب، فكيف يكون صفة للأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والتعريف المختار السالم من الاعتراضات، هو: أن الرسول هو: من أوحي إليه بشرع، وأرسل إلى قوم مخالفين له، كافرين بالله، فيدعوهم لتوحيده.

والنبي هو: من أوحي إليه في شريعة من قبله وأرسل إلى قوم مؤمنين به مقرراً لهم شرع من قبله[٤].

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩٣).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول(٧٨)، انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ٧) شرح العقيدة الطحاوية(١/ ١٦٧)، لوامع الأنوار البهية (١/ ٤٩).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٦٧).

(٤) انظر: النبوات (١/ ١٨٤)، الرسل والرسالات، للأشقر (١٣).

المبحث الثاني

منزلة الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل الذي هو الركن الرابع من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا به، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد بين ابن قاسم أن الإيمان بالأنبياء والرسل يكون على سبيل الإجمال فيما أجمل لنا، وعلى سبيل التفصيل فيما فصل لنا، وذلك بقوله: «الإيمان بجميع رسله إجمالا في الإجمالي، وتفصيلا في التفصيلي، فيؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة على التعيين، وأعظم ذلك الإيمان بنبينا محمد ﷺ، وممن يؤمن بهم تفصيلاً أولو العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، - عليهم أفضل الصلاة والسلام - ويؤمن بغيرهم ممن سمى الله في كتابه أو على لسان رسوله في السنة المطهرة، ومن لم يسم في النصوص يؤمن بهم إجمالا: قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾[البقرة: ٢٨٥]»(١).

وذكر ابن قاسم أن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل فرض، وتصديقهم فرض واجب، وذلك في قوله: «يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع على ألسنتهم»(٢).

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٩٩-١٠٠).

المبحث الثالث

أولو العزم من الرسل

قد فاضل الله تعالى بين رسله، فجعل بعضهم أفضل من بعض، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

واتفق أهل العلم على أن الأنبياء أفضل الخلق، وأن الرسل أفضل من الأنبياء، وأن أولي العزم من الرسل هم أفضلهم، كما قال تعالى ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وفي المراد بأولي العزم من الرسل من الآية خلاف[١]، واختار ابن قاسم منه أن المراد بهم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، قال ابن قاسم: «أولو العزم من الرسل نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام»[٢].

وقد ذكرهم الله مجتمعين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فنالوا هذا الفضل من الله سبحانه لما حباهم به من عظيم الصفات، وكريم الأخلاق، والمجاهدة في عبادة الله، والدعوة إليه، وقيامهم بالأوامر التي وكلوا بها.

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٣)، معارج القبول (٢/ ٦٨٠).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٠).

المبحث الرابع
مذهب أهل السنة والجماعة في النبوة

النبوة فضل واختيار إلهي، وهي هبة ربانية يهبها لمن يشاء من عباده، ويخص بها من يشاء من خلقه، ولا تنال بالجهد، والتعب، والرياضة، ولا تدرك بكثرة المجاهدة، والطاعات، والعبادات، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، ولذا قال ابن قاسم ﷺ: «النبوة وكذا الرسالة فضل من الله المولى الأجل ﷻ، يؤتيه لمن يشاء، ويكرم بالنبوة من خلقه من اصطفاه لها ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فلا يبلغها أحد بعلمه، ولا يستحقها بكسبه، ولا ينالها عن استعداد ولايته.

ومن زعم أنها مكتسبة فهو زنديق، مخالف للكتاب والسنة»(١)، ثم زاد ذلك وضوحاً، بقوله: «لم تعط منزلة النبوة بالكسب والاجتهاد، وتكلف أنواع العبادة، ولا بالتهذيب: تنقية البدن، وتصفية الأخلاق، والاتصاف بالفضائل؛ ولا بالفتوة، وكرم النفس، وتخليصها من الأوصاف المذمومة، إلى الأوصاف الممدوحة»(٢).

وقد اختص الله الأنبياء والرسل بالكمال الإنساني في أرقى صوره، وذلك أن الله اختارهم واصطفاهم لنفسه؛ فلابد أن يختار أطهر البشر قلوباً، وأزكاهم أخلاقاً، وأجودهم قريحة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤](٣)، وقد ذكر ﷺ أن الله سبحانه يصطفي رسله «من أشرف أفراد النوع الإنساني، من كمال العقل، والذكاء، والفطنة، وقوة الرأي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

---

(١) حاشية الدرة المضية(١٠١)، بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق(١٠٠-١٠١).

(٣) انظر: الرسل والرسالات(٧٤).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]»[١].

و قد ذكر ابن قاسم صفات الأنبياء التي تحقق فيهم الكمال البشري إجمالاً وهي:

١ - الحرية:

إن من صفات الأنبياء والرسل أنهم أحرارٌ لا أرقاء؛ لأن الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة، والرقيق مملوك تحت أمر سيده، لا يستطيع القيام بمهام النبوة، وسر ذلك أن «النبي يكون داعياً للناس آناء الليل وأطراف النهار، والرقيق لا يتيسر له ذلك، وأيضاً الرق، وصف نقص يأنف الناس، ويستنكفون من اتباع من اتصف به، وأن يكون إماماً لهم وقدوة»[٢]، وقد قرر ابن قاسم ﷺ هذا الأمر، بقوله: «لأن الرق وصف لا يليق بمقام النبوة»[٣].

٢ - الذكورية:

النبوة والرسالة لا تكون إلا في الرجال؛ لأنها قيادة عظيمة لا تستطيعها النساء؛ فالنبوة والرسالة تحتاج إلى البلاغ للناس، وتحمل أعبائها، والصبر على ما يلاقيه المرء في سبيلها، وقد تحتاج إلى جهاد أعداء الله في سبيلها، وقد تحتاج إلى سفر، وسياحة في الأرض في سبيل الله، وهذا كله مما لا يناسب المرأة؛ لأنها قد يطرأ عليها ما يشغلها، أو ما يضعفها من حيض، وحمل، ونفاس، وولادة، مما يجعلها غير صالحة للنبوة والرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ولذلك أثبتها الله ﷻ للرجال، ونفاها عن النساء ومما استدل به ﷺ «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣]، فأثبتها للرجال دون النساء، لاقتضاء الرسالة الاشتهار بالدعوة»[٤] والأنوثة تقتضي الستر، وهو ينافي الاشتهار.

---

(١) حاشية الدرة المضية(١٠٠).

(٢) لوامع الأنوار البهية (٢٦٥).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٠).

(٤) المصدر السابق (١٠٠).

٣- كمال العقل:

النبي يحتاج إلى قوة عزيمة، وإرادة، وكمال العقل، والذكاء، والفطنة وقوة الرأي، واللسان المبين، والبديهة الحاضرة[(١)]، وغير ذلك من صفات القوة؛ حتى يقوى على إبلاغ الرسالة، وتحمل أعبائها، ومواجهة المشاق والاعتراضات والشدائد من الخلق، وقد بيّن ابن قاسم ﷺ ذلك، بقوله: «كما يعتبر فيمن أكرمه الله بالنبوة أن يكون قويًا بأعباء ما حمل من ثقل النبوة، والقوة ضد الضعف»[(٢)]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، أي: بجد واجتهاد وصبر على أوامر الله، وعدول عن التغافل والتكاسل[(٣)].

٤- الكمال في الأخلاق:

أكمل الله خلق رسله، وأثنى به على نبيه محمد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولو لم يتصف الرسل بهذا الخلق لما انقاد الخلق لهم، قال ﷺ: «ولكن جرت عادة الله في إرسال الرسل أنه لم يبعث نبيًا ولا رسولاً إلا رجلاً حرًا قويًا في أشرف منسب أمته، حسن الخلق والخلق ليسهل عليه تحمل الخلق»[(٤)] في مخاطبتهم، وتعليمهم دينهم، ومنزهون عن جميع الرذائل من البخل، والجبن، واللهو، واللغو، وسائر الأخلاق الذميمة[(٥)].

٥- ذو شرف ونسب:

الرسل ذوو انساب كريمة في أقوامهم، اختارهم الله للرسالة، قال ابن قاسم

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٠٠).

(٢) المصدر السابق (١٠٠).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٥٤)، التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٣/ ١٠٠).

(٤) حاشية الدرة المضية (١٠٠).

(٥) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٦٦).

رحمه الله: «والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً، فليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم، ولكن جرت عادة الله في إرسال الرسل أنه لم يبعث نبيًا ولا رسولاً إلا رجلاً حرًا قويًا في أشرف منسب أمته»[(١)].

وذكر رحمه الله بوجه الخصوص، شرف نسب نبينا محمد ﷺ، وإنه من أشرف قبائل العرب، وذلك بقوله: «كيف ومنهم النبي ﷺ، وهو القائل: «**إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب. واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم. واصطفاني من بني هاشم**»[(٢)]، وقال أبو سفيان لهرقل لما سأله: كيف هو فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: وهكذا الرسل تبعث في أحساب قومها يعني في أكرمها أحسابًا[(٣)]»[(٤)].

---

(١) حاشية الدرة المضية (١٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢)، برقم (٢٢٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٣/ ١٣٩٣)، برقم (١٧٧٣).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٧٦-٧٧).

المبحث الخامس

حاجة الخلق إلى الرسل والحكمة من إرسالهم

حاجة الناس إلى الرسل فوق كل احتياجاتهم الدنيوية؛ فباتباعهم سعادة الدنيا والآخرة، والإعراض عن ما جاءوا به شقاوة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤].

والأنبياء والرسل هم الواسطة بين الله وبين عباده في تبليغ دينه، وبيان أمره ونهيه، يقول ابن قاسم في هذا: «فإن الرسل: جعلهم الله واسطة بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم، وما يضرهم، وإذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبدًا، وشقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا، فلا فلاح إلا باتباع الرسول ﷺ، والإيمان بما جاء به»[(١)].

وبعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام رحمة وفضلاً منه سبحانه على خلقه، فالعقول لا يمكن أن تستقل بمعرفته سبحانه، والقيام بعبادته على سبيل التفصيل، وإن كانت تدركها إجمالاً، ولهذا كانت الحاجة إلى الرسل عظيمة؛ ليبينوا، ويفصلوا للناس ما شرعه الله سبحانه لهم، فوق حاجتهم إلى طعامهم وشرابهم، فقال ﵀: «إرسال الرسل أمر ضروري للعباد، لا غناء لهم عنه في معاشهم ومعادهم، وحاجتهم إليه فوق حاجتهم إلى الطعام والشراب، فهم روح العالم وحياته»[(٢)] وهذا «من عظيم لطفه ورأفته بجميع الأنام - الخلق من الجن والإنس، وجميع ما على وجه الأرض - أن أرشد الخلق من الثقلين إلى الوصول إلى معرفته تعالى وعبادته وحده، والقيام بما شرعه، الذي ثمرته الفوز بالسلامة الأبدية والنعيم

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧٦).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٩٤).

المقيم والنظر إلى وجهه الكريم»[(١)]؛ ولذا كانت بعثة الرسل رحمة للعالمين، ونوراً للخلق من ظلمات الجهل، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[إبراهيم: ١].

ولهذا كان لبعثتهم حكم عديدة، منها:

١. الدعوة إلى توحيده وعبادته سبحانه وحده:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، لما كانت هذه الحكمة من خلق الخلق، أرسل الله الرسل لتحقيق هذه الحكمة العظيمة، وهي دعوة الخلق إلى توحيد الله وعبادته وحده، وقد قرر ابن قاسم رحمه الله هذا في عدة نصوص، ومن ذلك قوله: «أرسل الله جميع رسله من أولهم نوح عليه السلام إلى آخرهم محمد ﷺ كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، مبشرين من أجابهم إلى ما دعوا إليه برضوان الله وكرامته، ومنذرين محذرين من عصاهم غضب الله وسخطه وعقابه»[(٢)].

وقد بين رحمه الله أن مفتاح دعوة الرسل التوحيد؛ لأن الأساس الذي تبنى عليه الملة، التي من أجلها أرسل جميع الرسل، يقول ابن قاسم: «النبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد؛ وذلك لأنه أساس الملة الذي تبنى عليه، وبدونه لا ينبني شيء من الأعمال، فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع عنه، فإذا زال الأصل زال الفرع، فأي بيان أبين من هذا؟ على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض»[(٣)].

٢. قيام الحجة على العباد:

استدل ابن قاسم أن الله أرسل الرسل حجة على عباده بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩٩).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٩٣).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٨٢).

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]،وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥][١]، ثم علق رحمه الله على هذه الآية بقوله: «فلا يقولون يوم القيامة ما أرسلت إلينا رسولاً، ما أنزلت إلينا كتاباً، فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإقامة الحجج عليهم، وتبين الحق لهم، وركز الفطر في قلوبهم، وانقطعت المعذرة ولم يبق للناس على الله حجة»[٢]، وقال في موضع آخر: «وما من أمة من الأمم، ولا طائفة من الطوائف إلا وقد بعث الله فيهم رسولاً، إقامة منه تعالى للحجة على عباده، وإيضاحاً للمحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

ولما كانت الرسل قبل محمد ﷺ كلما هلك نبي خلفه نبي، قيض الله لهذه الأمة أئمة هدى حفظ الله بهم دينه، وأقام بهم الحجة على عباده، ولا تزال إلى قيام الساعة، كما أخبر به ﷺ في قوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة إلى قيام الساعة**»[٣]»[٤]، إذا لابد من الرسالة حتى تقوم الحجة وتبين المحجة، ويسلك الناس طريق الهدى إلى ربهم على بصيرة وعلم.

٣. تبليغ شرع الله عز وجل:

وما زالت النبوات تتعاقب من عهد آدم عليه السلام إلى بعثة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، قال ابن قاسم مبيناً ذلك: «لم تزل الأنبياء في الزمن الذي مضى من الأزمان من فضل الله ولطفه تأتي بإبلاغ الشرائع وإيضاح

---

(١) انظر: حاشية الدرة المضية (٩٩).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٩٤).

(٣) لم أجد نص الرواية التي ذكرها ابن قاسم، ولعله يكون معناها ما جاء عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ: «**يقول لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**». أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبيِّنا محمد ﷺ (١/ ١٣٧)، برقم (١٥٦).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٩٥).

السبل لمن يشاء من الأمم الماضية والقرون الخالية، فلم تخل الأرض من داع يدعو إلى الله من لدن آدم إلى أن بعث محمد ﷺ الذي ختم الله به النبيين والمرسلين، وأكمل به الدين، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وفي الصحيحين عنه، قال: «وأنا خاتم النبيين»[(١)] فلا نبي بعده ﷺ»[(٢)]، فلما ختمت النبوة بنبينا محمد ﷺ كانت شريعته خير الشرائع، وأفضل الملل؛ لأنها كافية للناس إلى أن تقوم الساعة، يخلفه العلماء على تبليغ هذه الرسالة ونشرها في الناس، كما قال عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء»[(٣)].[(٤)]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣/ ١٣٠٠)، برقم (٣٣٤١)، ومسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ، (٤/ ١٧٩١)، برقم (٢٢٨٦).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٠١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، (٣/ ٣١٧)، برقم (٣٦٤١)، بن ماجه في سننه، باب فضل العلماء والحث على العلم (١/ ٨١)، برقم (٢٢٣)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (١/ ١٧)، برقم (٧٠) : حسن لغيره.

(٤) انظر: زاد المعاد (١/ ٦٩).

المبحث السادس

ترتيب الرسل عليهم الصلاة والسلام في الفضل

أفضل الأنبياء نبينا عليه الصلاة والسلام، فهو خير البرية، وأفضل البشرية، فضله الله على أنبيائه ورسله، وخصه بما لم يخص غيره، فجعله خير خلقه على الإطلاق، قال بن قاسم رحمه الله: «وصح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[(١)]»[(٢)].

ثم قال رحمه الله: «أفضل العالم العلوي والسفلي من ملك وبشر وجن في الدنيا والآخرة في سائر خلال الخير وخصال الكمال من غير شك وريب، نبينا محمد ﷺ المبعوث إلى جميع الثقلين الجن والإنس، في أم القرى مكة المشرفة، قال تعالى: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]... وإنما كان - صلوات الله وسلام عليه - أفضل الخلق؛ لأن الله أيده بأبهر الآيات والدلالات وأشهر الكرامات، وأمته أزكى الأمم، وشريعته أتم الشرائع، وصفاته أكمل الصفات، وأخلاقه أحسن الأخلاق.

وأقسم الله بحياته بقوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقرن اسمه باسمه في التشهد والأذان. وقال عليه السلام: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**[(٣)]، **وأول من ينشق عنه**

---

(١) سبق تخريجه (٣٣٠).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٢).

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله: وإنما قاله لوجهين:

أحدهما: امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق بين الأنبياء. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٣٧)، انظر: مدارج السالكين (٣/ ٨٧).

القبر، وأول شافع، وأول مشفع»، رواه مسلم[١]، وللترمذي: «أنا خطيبهم وأنا مبشرهم لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»[٢]، فالرسول ﷺ أفضل الخلق بلا خفاء ولا نزاع ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين»[٣]، وما ذكره ابن قاسم من تعليل في أفضلية النبي ﷺ على سائر الأمم غير كاف، بل لأن الله تفضل عليه بفضائل، وكرمه بمقامات، ومنازل لم يصلها ملك ولا نبي.

ثم يأتي أولو العزم في الفضل بعد نبينا ﷺ قال ؒ: «بعد النبي ﷺ الأفضل من سائر الخلق: أولو العزم من الرسل، إبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح، وخامسهم نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وأفضلهم الخليل بعد نبينا محمد ﷺ»[٤].

ثم يأتي بعد أولي العزم سائر الرسل، قال ؒ: «فيليهم في الأفضلية سائر الرسل المكرمين بالرسالة، ثم الأفضل بعد الرسل: الأنبياء، عليهم أفضل الصلاة والسلام، وهم متفاوتون في الفضيلة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]...، كما فضل بعضهم على بعض بالشرائع والكتب والأمم»[٥]، وهذا ما قرره السلف[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٤/ ١٧٨٢)، برقم (٢٢٧٨)، من دون لفظ (ولا فخر)، إنما أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في سننه، في كتاب، باب ذكر الشفاعة، (٢/ ١٤٤٠)، برقم(٤٣٠٨)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٦٥)، برقم (٧٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٥)، برقم (٣٦١٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٨-١٠٩).

(٤) المصدر السابق (١٠٩).

(٥) المصدر السابق (١٠٩-١١٠).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢-٢٦٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٩٠)، وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٣٩).

قال شيخ الإسلام: «وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ...، وأفضل أولي العزم محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقاً، وأول الأمم بعثاً»[١].

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٦١-١٦٢).

المبحث السابع

عصمة الرسل

اتفقت الأمة على أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم معصومون فيما يبلغون عن الله[(١)] وقد بين ابن قاسم ذلك بقوله: «وإنما اتفق المسلمون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله»[(٢)]، فلا يكذبون، ولا ينسون، ولا يغفلون، ولا يكتمون شيئاً مما أوحاه الله إليهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، فزكاه الله سبحانه من جهة البلاغ عنه.

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾ [المائدة: ٦٧]؛ لأن الكتمان خيانة، والرسول يستحيل أن يكون كذلك. وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، فوعده الله سبحانه بالعصمة من النسيان، وتكفل الله به.

و في هذا المبحث نبين ما يستحيل في حقهم عليهم السلام، وما يجوز عليهم في مطلبين:

المطلب الأول: ما يستحيل في حقهم:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سالمون من كل نقص خَلْقِي وخُلُقِي، أوحى الله ﷻ إليهم، وهيأهم لحمل رسالته إلى خلقه، وعصمهم الله من الكبائر وقبائح العيوب، وأما صغائر الذنوب التي لا تدل على خساسة قدر، وضعة منزلة، فجائز وقوعها منهم، إلا أن الله لا يقرهم عليها بل سرعان ما يبادرون بتوبة منها، من غير تأخير، هذا ما أشار إليه ابن قاسم بقوله: «وأن كل واحد من الأنبياء الكرام

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٩-٢٩٠)، منهاج السنة النبوية (٢/ ٤١٠)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٠٣-٣٠٥).

(٢) حاشية الدرة المضية (١١١).

والرسل العظام سلم وتنزه عن كل نقص يؤدي إلى الإزراء والدناءة، والذي عليه أهل التحقيق: أن الرسل معصومون من الكبائر، وأما الصغائر فقد تقع منهم، والكتاب والسنة يدلان على ذلك، لكن لا يقرون عليها، بل يوفقون للتوبة منها»[(١)].

وقد دلت عدة أدلة على أن الصغائر قد تصدر من الأنبياء والرسل، من ذلك قوله تعالى معاتباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: ١ -٢]، حينما عبس في وجه الأعمى ابن أم مكتوم ؓ؛ لانشغاله بدعوة سادات قريش[(٢)].

ومن ذلك عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ في قبول الفدية عن أسرى غزوة بدر[(٣)]، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ⑥⑦ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

فهذا بعض ما ورد في الكتاب والسنة مما يثبت جواز وقوع الخطأ في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا لا يقدح في وجوب الاقتداء بهم، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ ذلك لأن الله لا يقرهم على خطأ؛ بل ينزل الوحي هادياً ومرشداً.

أما الحكمة من جواز وقوع الخطأ اليسير منهم فذلك من رحمة الله بهم، حيث لم يحرمهم من أعظم العبادات وأحبها إليه سبحانه وهي التوبة والإنابة، وقد وصف الله خليله إبراهيم ؈ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [هود: ٧٥]، وقال ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٤)].

---

(١) المصدر السابق (١١٠)، انظر: إرشاد الفحول، للشوكاني (١/ ٦٩).

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة عبس (٥/ ٤٣٢)، برقم (٣٣٣١)، المستدرك على الصحيحين، في كتاب التفسير، تفسير سورة عبس وتولى (٢/ ٥٥٨)، برقم (٣٨٩٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٠/ ٤٢)، تفسير ابن كثير(٢/ ٢٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، (٥/ ٢٣٢٤)، برقم (٥٩٤٨).

وكذلك الرسل معصومون في أخلاقهم من الإفك والكذب والخيانة والغدر وغيره من النقائص، قال ابن قاسم ﷺ: «فإن الأنبياء معصومون من الكذب ومعصومون من الخيانة لوجوب وصفهم عليهم الصلاة والسلام بالصدق الذي هو ضد الكذب، وبالأمانة التي هي ضد الخيانة، والضدان لا يجتمعان، فالصدق واجب في حقهم عقلا وشرعاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وأجمعت الأمة: على أن ما كان طريقه إلا بلاغ، فالأنبياء معصومون فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ما أمرهم الله به، فيجب على الخلق الإقرار بما جاؤوا به، جملة وتفصيلاً، وهو موجب تحقيق الشهادتين، فمن شهد أن محمدًا رسول الله، شهد أنه صادق فيما يخبر عن الله، فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة، إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذب به، معلوم بالضرورة: أنهم معصومون من الكتمان، كما أنهم معصومون من الكذب»[1].

المطلب الثاني: ما يجوز في حقهم عليهم السلام:

الرسل بشر، يعتريهم ما يعتري سائر البشر من العوارض، والأمراض، وقد أجمل الله ﷻ ذلك بقوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا يعتبر ذلك نقصاً في حقهم؛ بل هو كمال في حياتهم، وأشار ابن قاسم ﷺ إلى ذلك بقوله: «جائز عقلا وشرعا في حق كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، النوم، والنوم رحمة من الله لعباده، لتستريح أبدانهم عند تعبهم، وهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع معرفة الأشياء، لكن نبينا محمداً ﷺ كان تنام عينه، ولا ينام قلبه[2]،

(١) حاشية الدرة المضية (١١١)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٠٤).

(٢) وغيره من الرسل، ويدل عليه ما جاء عن أنس بن مالك ﷺ، قال ﷺ: «وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم» أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه (٣/ ١٣٠٨)، برقم (٣٣٧٧).

ومثل النوم، والجلوس والمشي والبكاء والضحك وما هو من خواص البشرية المباحة، والنكاح والتسري، ونحو ذلك مثل: الأكل، والشرب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال ﷺ، لما أخبر عن أولئك النفر، الذين قال أحدهم: أنا أقوم ولا أنام، وقال الآخر: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أنا لا آكل اللحم، وقال الآخر: أنا لا أتزوج النساء، قال ﷺ: «**ولكني أنام وأفطر وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(١)][(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥/ ١٩٤٩)، برقم (٤٧٧٦).
(٢) حاشية الدرة المضية (١١٢).

المبحث الثامن
الإيمان بنبينا محمد ﷺ

تمهيد:

لقد من الله ﷻ على الثقلين جميعاً بأن بعث فيهم خير البرية، وأفضل البشرية، وكاشف الغُمَّة، وماحي الظلمة، ومخرجهم من الظلمات إلى النور، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي، المنحدر من صُلب إسماعيل ابن إبراهيم الخليل - عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتمّ التسليم -.

فلقد فضله الله تعالى على جميع أنبيائه ورسله، وخصه بما لم يخص به غيره، فجعله خير خلقه على الإطلاق، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وهو أفضل عباده المصطفين الأخيار، وهو أول شافع، وأول مشفّع، وأول من يفتح له أبواب الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**»[1].

فلتسعد البشرية، والعالم أجمع ببعثة هذا النبي العظيم، فإن بعثته تخليصُ للبشرية من ظلمات الشرك والكفر والإلحاد، ودخولهم في نور الإيمان، ومعفرة الرحمن، وتوديع للظلم والجاهليات واستقبال العدل والإنصاف.

فهو خير الأنبياء، وأمته خير الأمم جمعاء، فلا جنة إلا بالإيمان به، ولا دخول للجنة إلا خلفه، ولا انصراف من الموقف إلا بعد شفاعته، ولا دين إلا ما جاء به، ولا عز إلا باتباعه، ولا شرف إلا في التمسك بسنته وهديه[2].

---

(١) سبق تخريجه(٣٦٤).

(٢) انظر: العقيدة الصافية للفرقة الناجية (١٢٥)، حاشية ثلاثة الأصول(٧٥)، حاشية الدرة المضية (١٠٨-١٠٩).

المطلب الأول: معنى شهادة أن محمداً عبد الله ورسوله:

رسولنا ﷺ مع عظيم قدره، ورفعة مكانته، هو عبد الله ورسوله، ولا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بهاتين الصفتين، وهذا معنى شهادة أن محمد عبد الله ورسوله، وقد أشار ابن قاسم إلى ذلك بقوله: «وشهد أن محمداً عبده ورسوله بصدق ويقين، وذلك يقتضي اتباعه، وتعظيم أمره، ونهيه، ولزوم سنته، وأتى بهاتين الصفتين وجمعهما رفعاً للإفراط والتفريط؛ فإن كثيراً ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، حتى جوزوا الاستغاثة به في جميع ما يستغاث بالله فيه، أو فرط بترك متابعته، والرضى عن سنته بالأوضاع والقوانين الباطلة، وشهادتهم ناقصة على حسب ما معهم من تلك الأمور»[1]، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**لا تطروني**[2] **كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[3].قال ابن قاسم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث بقوله: «وفيه أن الألفاظ التي يذكرها بعض الناس في الصلاة والسلام عليه ﷺ وغير ذلك مما لا يحبه ﷺ، ولا يحب إلا ما جاء الأمر به حتى في الصلاة عليه ﷺ، وفيما يثنى عليه ويمدح به، ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته، ومحبته إنما يصدقها تجريد التوحيد الذي بعث من أجله، وتجريد المتابعة، وتقديم محبته على النفس والمال والولد والناس أجمعين، والثناء عليه بما أثنى به عليه ربه، أو أثنى به هو على نفسه، من غير غلو ولا تقصير»[4].

وذكر أن الإيمان بنبينا محمد ﷺ: «**أصل عظيم من أصول الدين يجب علينا** معرفته، واعتقاده، والعمل بمقتضاه»[5]، ثم حدد معنى شهادة أن محمد رسول الله

---

(١) حاشية كتاب التوحيد (٢٦).

(٢) قال ابن قاسم: «الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه» حاشية كتاب التوحيد (١٥١)، انظر: النهاية في غريب الأثر (٣/ ١٢٣).

(٣) سبق تخريجه (٢١٢).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (١٥١).

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (١٦).

فقال: «وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد، ولا بد مع النطق بها من العمل بما دلت عليه، فقولها باللسان دون العمل بما دلت عليه لا يصير به من أهل شهادة أن محمداً رسول الله»(١).

المطلب الثاني: أهمية معرفة نبينا محمد ﷺ:

بين ابن قاسم أهمية معرفته ﷺ فقال رحمه الله: «إنه الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله. ومعرفته فرض على كل مكلف، وأحد مهمات الدين»(٢)، وأنها أحد الأصول الثلاثة التي يجب على الخلق معرفتها، فقال رحمه الله: «معرفة نبينا محمد ﷺ هي أحد الأصول الثلاثة، فكما أن الأصل الأول، وهو: معرفة الله عظيم وواجب معرفته، وكذلك الأصل الثاني، وهو: معرفة دين الإسلام الذي خلقنا الله له، وتعبدنا بالقيام به، أصل عظيم وواجب معرفته، فكذلك هذا الأصل الثالث، وهو: معرفة نبينا محمد ﷺ، أصل عظيم يجب معرفته.

فإنه ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، ولا وصول لنا ولا إطلاع لنا ولا طريق لنا ولا نعرف ما ينجينا من غضب الله وعقابه ويقربنا من رضى الله وثوابه إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ، وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفته أحد الأصول الثلاثة التي يجب معرفتها، فإنا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب جل جلاله، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام إلا بالواسطة بيننا وبين الله.

فتحتمت معرفته ﷺ، وصارت أصلاً ثالثاً، إذ لا يمكن معرفة المرسل إلا بمعرفة رسوله فصار من الضروريات معرفة الرسول ﷺ، وبذلك ظهر أن معرفته أحد الأصول الثلاثة، ومعرفته تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه، ونسبه، وعمره، وبقائه في الدنيا ووفاته، ومعرفة ما نبئ به، وما أرسل له، وبلده ومهاجره،

---

(١) المصدر السابق (٥٧-٥٨).
(٢) المصدر السابق (١٠).

ومنها-وهو أعظمها - معرفة ما بعث به، وغير ذلك»[١].

معرفة النبي ﷺ تنتظم فيما يلي:

١. نسبه وسيرته باختصار:

هو: أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان هذا المتفق عليه[٢]، وعدنان من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، هذا ما بينه ابن قاسم في ثنايا حديثه عن سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، وسنأتي على بعض حديثه عن اسمه، ونسبه باختصار، وذلك بقوله: «كان له ﷺ عدة أسماء أشهرها محمد، ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم على وجه التنويه كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا أشهر أسمائه ﷺ ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وهو علم مشتق من التحميد؛ ولما فيه من الخصال الحميدة، ولقبه أبو القاسم، وأبوه عبد الله، وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الإبل»[٣].

وكان هو عليه الصلاة والسلام من قبيلة قريش، وقال ابن قاسم عنها: «قريش هو النضر، فإن إليه جماع قريش، ولا خلاف بين العلماء أن هاشمًا ابن لعبد مناف، واسمه المغيرة بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد

---

(١) المصدر السابق (٧٥).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٧١)، شذرات الذهب، للعكري (١/ ١٥).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٧٦)، انظر: السيرة الحلبية، للحلبي (١/ ٥١).

بن عدنان، وما فوقه فيه خلاف»[١].

وقريش من العرب المستعربة وهي أفضل قبائل العرب، كيف ومنهم النبي ﷺ، ذكر هذا ابن قاسم رحمه الله، فقال: «والعرب هنا المراد بهم المستعربة، فإن العرب قسمان عاربة ومستعربة، والعاربة قحطان، والمتعربة عدنان، وهم أفضل من العرب العاربة، كيف ومنهم النبي ﷺ، وهو القائل: «**إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا. واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[٢]، وقال أبو سفيان لهرقل لما سأله: كيف هو فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: وهكذا الرسل تبعث في أنساب قومها يعني في أكرمها أحساباً[٣]»[٤].

ولد عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين في ربيع الأول من عام الفيل، قال ابن قاسم رحمه الله: «ولد عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول عام الفيل وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر إلى المدينة، وفيه توفى صلوات الله وسلامه عليه، قال ﷺ: «**ذلك يوم ولدت فيه وأنزل علي فيه**»[٥]»[٦].

وما ذكره ابن قاسم أن مولده كان في ثاني عشر فيه خلاف، وقد صحح كثير من العلماء أن مولده كان لثمان خلت من ربيع الأول، كالطبري[٧]، وابن كثير[٨].

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٧٦)، انظر: خلاصة سير سيد البشر، للطبري (١/ ١٨).

(٢) سبق تخريجه (٣٥٨).

(٣) سبق تخريجه (٣٥٨).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٧٦-٧٧).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس(٢/ ٨١٩)، برقم (١١٦٢).

(٦) حاشية ثلاثة الأصول (٧٧)، انظر: خلاصة سير سيد البشر (١/ ٢٣-٢٤)، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٠).

(٧) انظر: خلاصة سير سيد البشر (١/ ٢٣).

(٨) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٦٠).

وكانت ولادته بمكة في شعب علي[١]، ونشأ بها، وأرضعته حليمة السعدية، وأشار رحمه الله إلى ذلك بقوله: «ولد بها في شعب علي، ونشأ بها إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البرية، ثم رجع إليها في حضانة جده، ثم عمه، وأوحي إليه بها، وبقي بها ثلاث عشرة سنة بعد أن أوحي إليه»[٢].

وذكر رحمه الله الأحداث التي حدثت يوم ولادته بقوله: «وارتج لمولده ﷺ إيوان كسرى، خمدت النيران، خر كثير من الأصنام، وظهر النور معه، حتى أضاءت له قصور الشام، وهتفت به الجن، وجرى من معجزات آياته غير ذلك»[٣].

ثم بين رحمه الله متى توفي أبوه، ومن عاش معه، وأول أزواجه وأولاده، وذلك بقوله: «وتوفي أبوه وهو حمل، وكان عند جده، ثم عمه أبي طالب، وتزوج خديجة، وله خمس وعشرون سنة، ومنها أولاده إلا إبراهيم فمن مارية، وشهد حلف المطيبين[٤] وبناء الكعبة، وكان يسمى الأمين قبل مبعثه صلوات الله وسلامه عليه»[٥].

٢. بداية نبوته ورسالته ﷺ:

ذكر ابن قاسم متى أنزل عليه الوحي، فقال رحمه الله: «أنزل عليه يوم الاثنين بلا خلاف. والمشهور أنه أنزل عليه في رمضان بغار حراء صدر سورة - العلق -، قال

---

(١) هذا الشعب هو الذي لجأ إليه بنو هاشم عندما تحالفت قريش ضدهم فعرف فيما بعد بشعب أبي طالب ثم شعب بني هاشم ويعرف اليوم بشعب علي، وهو منازل بني هاشم قبل النبوة، وقد ولد فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وفيه اليوم موضع مكتبة الحرم المكي، يأتي هذا الشعب من بين أبي قبيس على يساره، والخنادم عن يمينه، فيصب في بطحاء مكة، فيما يعرف اليوم بسوق الليل فوق المسجد الحرام بما يقارب ٣٠٠ م، انظر: معالم مكة المكرمة التاريخية والأثرية لـ البلادي (٤٣).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٧٨)، انظر: السيرة النبوية (١/ ٢٩٧).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٧٧)، انظر: المختصر الكبير في سيرة الرسول (١/ ٢٢)، البداية والنهاية (٢/ ٣٤٧).

(٤) قال ابن كثير في البداية والنهاية(٢/ ٢٠٩) : وانقسمت بطون قريش فرقتين، ففرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك، ووضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا حلف المطيبين. اهـ.

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٧٧)، انظر: سيرة النبي المختار (١/ ٦٠).

تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]، ورجع بها يرجف فؤاده فقالت له خديجة: والله لا يخزيك الله. وأخبرت ورقة بن نوفل. فقال هذا الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى»[1].

وكانت أول آية نبيء بها اقْرَأْ، وأول آية أرسل بها أول سورة المدثر، قال رحمه الله: «أول آية أرسل بها، وأول أمر طرق سمعه في حال إرساله ﷺ، وذلك أنه ﷺ لما رأى الملك الذي جاءه بحراء حين أنزل عليه ﴿ٱقْرَأْ﴾ رعب منه، فأتى إلى أهله فقال: دثروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[2] [المدثر: ١] أي: المتدثر بثيابه المتغشي بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي، «قم»: أي من دثارك فأنذرهم وحذرهم من عذاب ربك إن لم يؤمنوا، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة»[3].

ثم تتابع عليه الوحي، وحينئذ شمر عليه السلام بالدعوة إلى الله بعد ما نزلت عليه: «صدر سورة يا أيها المدثر، الآيات، بعد فترة الوحي، ولما جاء الملك فرق منه فقال: دثروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، ثم حمي الوحي وتتابع[4]، وكان أول ما أنزل عليه بعد فترة الوحي، وحينئذ شمر رسول الله ﷺ عن ساق العزم ودعا إلى الله»[5].

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٧٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وربك فكبر، (٤/ ١٨٧٥)، برقم(٤٦٤٠)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول ﷺ (١/ ١٤٣)، رقم(١٦١).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٧٩).

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وربك فكبر، (٤/ ١٨٧٥)، برقم(٤٦٤٠)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول ﷺ (١/ ١٤٣)، رقم(١٦١، ١٦٠).

(٥) حاشية ثلاثة الأصول (٧٨).

٣. دعوته ﷺ:

بين ابن قاسم رحمه الله أن أهم ما يعرف عن النبي ﷺ، هو دعوته إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله، فقال: «أعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به ﷺ وأنه بعث بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد. وقدم... النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد؛ لأن هذا مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ولأن الآية الآتية تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح[1]، ثم ثنى بالتوحيد لأنه أوجب الواجبات ولا يرفع عمل إلا به»[2]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

٤. حياته النبوية[3]:

بقي رسول الله ﷺ في مكة بعد البعثة بالنبوة ثلاث عشرة سنة، وكان همه توحيد الله تعالى وترسيخه في قلوب العباد وبيان الشرك، والتحذير منه، قال رحمه الله: «أخذ رسول الله ﷺ في بيان التوحيد والدعوة إليه، وبيان الشرك والإنذار عنه، والتحذير منه»[4]، فلقد «شمر ﷺ عن ساق العزم وأنذر الناس، وعم وخص، وأوذي على ذلك هو ومن اتبعه»[5]، وبعد هذا الأذى، ومضايقته في دعوته، همت قريش بقتله، فأذن له ربه بالهجرة إلى المدينة النبوية، فقال رحمه الله: «بعد أن هموا بقتله ﷺ، فتغيب في الغار ثم سار هو وأبو بكر مهاجراً إلى المدينة»[6]، عاصمة الإسلام في صدر النبوة «وبعد الثلاث عشرة من بعثته، أمر بمفارقة المشركين، وأوطانهم،

(١) قال شيخنا عبد الله الغنيمان حفظه الله تعالى: بل لأنه لا يمكن توحيد مع شرك أهـ.
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٧٩).
(٣) وتشتمل على حياته المكية والمدنية.
(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٨١).
(٥) المصدر السابق (٨٠).
(٦) المصدر السابق (٧٨-٧٩).

بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى الله في غير بلادهم فإن ذلك واجب وفرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يتم الفرض والواجب إلا مع مفارقة المشركين عن الأوطان، فإنه إذا كان في بلد لا يقدر على إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه»[١].

ثم كانت هجرته عليه الصلاة والسلام «بعد أن بايعوه ﷺ على النصرة والمؤازرة، وأرخت الأمة من مها جره ﷺ»[٢]، أي لما هاجر من مكة إلى المدينة واستقر بها، وفشا التوحيد ودان به أولئك وأقاموا الصلاة أمر ببقية شرائع الإسلام التي تعبد الله خلقه بها، إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة»[٣]، وبهذا «كانت لهم العاقبة، وأظهر الله الدين بعد دروسه على يديه وأتباعه، فلله الحمد والمنة وجزاه الله ومن آواه ونصره عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء»[٤].

وهجرته عليه الصلاة والسلام مليئة بالعبر والدروس العقدية، ومنها:

١. معنى الهجرة:

بين ابن قاسم معنى الهجرة، بقوله: «فكل من فارق بلده هو مهاجر، والمهاجرة في الأصل: مصارمة الغير، ومقاطعة ومباعدته[٥]»[٦]، ولهذا «سمي المهاجرون مهاجرين؛ لأنهم هجروا ديارهم ومساكنهم التي نشأوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم فيها أهل ولا مال، حين هاجروا إلى المدينة»[٧]، والهجرة بالمعنى الشرعي ليست مجرد الانتقال من بلد إلى آخر فحسب، بل هي هجرة عامة عن كل ما نهى

---

(١) المصدر السابق (٨٣).
(٢) المصدر السابق (٧٨-٧٩).
(٣) المصدر السابق (٨٧).
(٤) المصدر السابق (٨٠)، انظر: المقتفى من سيرة المصطفى، للحسن بن عمر حبيب (١/ ٧٢-٨١).
(٥) انظر: لسان العرب (٥/ ٢٥٠)، مختار الصحاح (١/ ٢٨٨).
(٦) حاشية ثلاثة الأصول (٨٣).
(٧) المصدر السابق (٨٣).

عنه الله ورسوله ﷺ، حتى يكون الدين كله لله[١]، سواء كانت الهجرة عن الأوطان، أو الأفعال.

٢. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:

لقد أذن الله تعالى لنبيه وأصحابه بالهجرة لما ضاقت عليهم الأرض، ومنعتهم قريش من إقامة دين الله؛ مالا يتم الواجب به فهو واجب، قال ابن قاسم مبيناً ذلك: «وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولا يتم الفرض والواجب إلا مع مفارقة المشركين عن الأوطان، فإنه إذا كان في بلد لا يقدر على إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه »[٢]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩]، قال ابن قاسم مبيناً دلالة هذه الآية: «أمر تعالى عباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرضه الواسعة، وأخبر أن الأرض غير ضيقة، بل واسعة تسع جميع الخلائق، فإذا كان الإنسان في أرض لم يتمكن من إظهار الدين فيها، فإن الله قد وسع له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وكذلك يجب على كل من كان ببلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكن تغييرها أن يهاجر منها»[٣].

٣. الصبر واليقين طريق النصر والتمكين:

فبعد سنوات من الاضطهاد والابتلاء قضاها النبي ﷺ، وأصحابه بمكة هيأ الله تعالى لهم طيبة الطيبة، وانتشر الإسلام، وشرعت عامة شرائع الإسلام وأظهر الله دينه وكانت لهم العاقبة والنصر والتمكين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٦٣).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٨٣).

(٣) المصدر السابق (٨٥).

لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، فقد بين ابن قاسم ﷺ ذلك بقوله: فـ «كانت لهم العاقبة، وأظهر الله الدين بعد دروسه على يديه وأتباعه، فلله الحمد والمنة وجزاه الله ومن آواه ونصره عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء»(١).

المطلب الثالث: خصائص نبينا ﷺ:

نبينا محمد ﷺ له من الخصائص والمناقب ما يتميز بها عن سائر الأنبياء والمرسلين، فهو سيد البشر وأفضل الأنبياء والمرسلين، وقد اصطفاه الله كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريشٍ بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»(٢)، وخصائصه ﷺ هي: الفضائل والأمور التي انفرد بها عن غيره من الأنبياء وعن سائر الخلق، وذكر ابن قاسم ﷺ شيئاً منها:

١. أنه خاتم النبيين والمرسلين:

ومن خصائصه ﷺ أن الله ختم به النبوة والرسالة، قال ابن قاسم ﷺ: «خصه دون سائر الأنبياء بكونه ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده، لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فلا تبتدأ نبوة، ولا تشرع شريعة بعده، ونزول عيسى ﷺ لا ينافي ذلك، فإنه لا يتعبد إلا بشريعته، فهو خليفة له ﷺ، وحاكم من حكامه»(٣)، وقال في موضع آخر: «هو آخر الرسل إلى أهل الأرض بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وهو خاتم النبيين لا نبي بعده، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠]،

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٨٠)، انظر: المقتفى من سيرة المصطفى (١/ ٧٢-٨١).

(٢) سبق تخريجه (٣٥٨).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٣).

وثبت عنه من غير وجه أنه لا نبي بعده، وأجمع المسلمون على ذلك، واشتهر كذب من ادعى النبوة بعده، وأخبر بذلك أنه سيأتي بعده كذابون دجالون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي[١]، ووقع ما أخبر به ﷺ، وعيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان إنما يحكم بشريعة محمد ﷺ، فهو من أمته بإجماع المسلمين»[٢].

٢. المقام المحمود:

خصه الله سبحانه بالمقام المحمود، قال رحمه الله: «ما خصه الله به من المقام المحمود: وهو الشفاعة العظمى في أهل الموقف ليقضى بينهم»[٣]، والمقام المحمود هو المذكور في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]: أي العمل الذي يحمدك فيه الخلائق كلهم، وخالقهم تبارك وتعالى[٤].

ثم بين ابن قاسم رحمه الله أن الشفاعة الخاصة بنبينا ﷺ شفاعتان، وذلك بقوله: «الشفاعات التي خصت بمحمد ﷺ فلا يشاركه فيها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا صديق، ولا شهيد، ولا غيرهم:

الشفاعة الأولى: يشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم، بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: أنا لها، وهذا هو المقام المحمود، الذي يحمده فيه الأولون والآخرون.

الشفاعة الثانية: يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣/ ١٣٢٠)، برقم (٣٤١٣)، وصحيح مسلم، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣٩)، برقم (١٥٧)، ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتتان فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون، قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله».

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٩٤)، انظر: الجواب الصحيح (١/ ٢٩٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦).

خاصتان له»(١)(٢).

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الشفاعات الخاصة بالنبي ﷺ ثلاث شفاعات، منها ما ذكر في الأولى والثانية، والثالثة هي: شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب(٣).

٣. رسالته ﷺ عامة للثقلين:

ورسالته ﷺ عامة للثقلين، فلا يسع أحداً منهم إلا إتباعه، والإيمان به، قال ابن قاسم رحمه الله: «ما خصه الله به ببعثته نبيًا ورسولا لجميع الأنام من الثقلين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]»(٤)، وعلق رحمه الله على هذه الآية بقوله: «وهذا عموم ظاهر في عموم بعثه إلى الناس جميعاً عربهم وعجمهم و﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد بعثه إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وسورة الرحمن وسورة الجن وغيرهما، دالة أوضح دلالة على شمول رسالته إلى الجن والإنس، وقال: «**إن الرسل قبلي يبعثون إلى قومهم خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»(٥)، وهذا من شرفه ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، وهو معلوم من دين الإسلام بالضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الثقلين كلهم وأن طاعته فرض عليهم كلهم، وهو مقتضى رسالته ﷺ لا يمتري في

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩٣)، بتصرف يسير، انظر: السف المسلول على عابد الرسول (٧٨)، والخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٣٧٨).

(٢) انظر لاستزادة: (٢٠٩)، (٤١٧).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٧).

(٤) حاشية الدرة المضية (١٠٣).

(٥) خرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (١/ ١٦٨)، برقم (٤٢٧).

ذلك إلا مكابر معاند»[١].

وقال أيضاً: «بعث الله نبينا محمدًا إلى كافة الناس، عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم، أحمرهم وأسودهم ولا نزاع في ذلك بين المسلمين»[٢].

٤. القرآن الكريم:

إن الله تعالى آتاه القرآن الكريم معجزة باقية، خالدة على مر الدهور، وكر الأيام، قال عليه الصلاة والسلام: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٣]، هذا ما يبنه ابن قاسم رحمه الله بقوله: «ما خصه الله به من معجزة القرآن: الذي أذعن له الثقلان واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة منه، أهل الفصاحة والبلاغة والبيان[٤]»[٥].

٥. المعراج:

ومن معجزات رسولنا الكبرى، وخصائصه العظمى، الإسراء بروحه وجسده معاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم العروج به إلى السموات العلى، في جزء من ليلة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، قال ابن قاسم رحمه الله: «المعراج إلى سدرة المنتهى، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، ثم عرج به إلى السماء»[٦] ودنا الجبار رب العزة

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٨٩).

(٢) المصدر السابق (٨٩)، انظر: حاشية الروض المربع (٥/ ٥٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، باب قول النبي بعثت بجوامع الكلم (٦/ ٢٦٥٤)، برقم (٦٨٤٦).

(٤) وقد تكلمت فيها بتفصيل في موضعين، في الإيمان بالكتب (٣١٤)، وفي هذا الفصل (٣٨٨).

(٥) حاشية الدرة المضية (١٠٣).

(٦) حاشية الدرة المضية (١٠٣-١٠٤)، انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤).

فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى[١].

ثم بين ابن قاسم أنه أسري بروحه وبدنه جميعاً، فقال: «بل أسري ببدنه ﷺ وروحه جميعاً يقظة لا مناما باتفاق أهل السنة لما دل عليه الكتاب والسنة.

وفي الصحيحين وغيرهما: «**بينا أنا نائم في الحطيم**[٢] - أو قال: في الحجر - **إذ أتاني آت فجعل يقول لصاحبه شق ما بين هذه إلى هذه من ثغرة نحره إلى شعرته، فاستخرج قلبي فأتيت.**

بطست من ذهب مملوءاً إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشي»[٣]، وفي لفظ: «فأفرغه في صدره وملأه علماً وحلماً ويقيناً وإسلاماً ثم أطبقه ثم أتى بدابة دون البغل وفوق الحمار وهو البراق يقع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه»[٤]، ولما أراد العروج إلى السماء بعد وصوله إلى بيت المقدس أتى بالمعراج يشبه السلم، وصحت الأحاديث أنه ارتقى فيه إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس[٥]»[٦]، وقال في موضع آخر: «أسرى بجسده ﷺ وروحه جميعاً من المسجد الحرام على البراق إلى بيت المقدس، يقظة لا مناماً، كما أخبر الله عنه[٧]،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤).

(٢) هو: حجر البيت بمكة، وهو مما يلي الميزاب، وقيل: إنما سمي حطيما؛ لأن البيت رفع بناؤه وترك هو محطوماً لم يرفع، وأصل الحطم الكسر. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم (١/ ١٧١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج (٣/ ١٤١٠) برقم (٣٦٧٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١/ ١٥٠)، برقم (١٦٢).

(٥) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١/ ١٥٠)، برقم (١٦٢).

(٦) حاشية الدرة المضية (١٠٤).

(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

ثم صعد به جبرائيل إلى السماء على المعراج، وهو المصعد الذي تصعد فيه الملائكة، كلما مر بسماء تلقاه مقربوها حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى، فبلغ من الارتفاع والعلو إلى ما الله به عليم، ودنا من الجبار جل جلاله، وكلمه بلا واسطة، فأوحى إليه ما أوحى[(١)]»[(٢)].

وخصائصه ﷺ كثيرة، قال رحمه الله: «وثبت له ﷺ من الخصائص غير هذه، كقوله: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً، وبعثت إلى الناس كافة»[(٣)]، وغير ذلك»[(٤)]، ثم ختمها، بقوله: «إن الله سبحانه خص نبيه بخصائص كثيرة ومزايا جليلة حتى عدها بعض متأخري الحفاظ إلى ثلاث مائة، وقال بعضهم: الحق عدم حصرها»[(٥)].

المطلب الرابع: آيات نبينا محمد ﷺ:

من حكمة الله سبحانه تعالى أن يؤيد رسله وأنبياءه بالآيات التي تدل على صدق دعواهم، وبها تثبت نبوتهم، وبها وجب على الناس الإيمان بهم، فهي من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الإنس والجن غير الأنبياء، فما كان الإنس أو الجن يقدرون عليه فلا يكون وحده آية للنبي.

وآيات الأنبياء أن تكون آية ودليلاً على نبوتهم، فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم، وما لا يستلزم نبوتهم فليس بآية؛ لأن المقصود هو معرفة صدق مدعي النبوة

---

(١) إشارة إلى حديث مالك بن صعصعة في صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج (٣/ ١٤١٠) برقم (٣٦٧٤).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٨٢).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التيمم (١/ ١٢٧) برقم (٣٢٨).
(٤) حاشية الدرة المضية (١٠٤).
(٥) المصدر السابق (١٠٥).

من كذبه، ولذا كانت آيات الأنبياء دليل وبرهان على صدقهم، فالله ﷻ أيدهم بآيات حتى تقوم الحجة بهم على الخلق، وتنوعت آياتهم حتى تكون برهاناً على صدق دعواهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وليست مختصة بجنس من الموجودات، بل تكون في جنس العلم والإخبار بغيب الرب الذي اختص به، وتكون في جنس القدرة، والتصرف والتأثير في العالم، وهي مقدورة للرب، فله سبحانه أن يجعلها في أي جنس كان من المقدورات؛ ولهذا تنوعت آيات الأنبياء؛ بل النبي الواحد تتنوع آياته، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر، ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام والشراب كنبع الماء من بين الأصابع[(١)].

تعريف المعجزة:

المعجزة في اللغة: مأخوذة من العجز وهو عدم القدرة[(٢)]، وهذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «المعجزة: اسم فاعل، مأخوذة من العجز، المقابل للقدرة»[(٣)].

والمعجزة في الاصطلاح: أمر خارق للعادة يجري على أيدي الأنبياء للدلالة على صدقهم مع سلامة المعارضة[(٤)]، هذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «فمن ظهرت المعجزة على يده، وهي: مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة: أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده»[(٥)]، ثم تحدث عن معجزة النبي ﷺ، فقال: «معجزة النبي: ما أعجز به الخصم عند التحدي»[(٦)] والمراد بالتحدي ليس معناه الأصلي، بل المراد هو دعوى النبوة؛ لأن بعض

---

(١) انظر: النبوات، لابن تيمية (١/ ٢٣٢).

(٢) انظر: لسان العرب (٥/ ٣٩٦)، ومختار الصحاح (١/ ١٧٤).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٦).

(٤) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (١٩٩).

(٥) حاشية الدرة المضية (١٠٨).

(٦) المصدر السابق (١٠٦).

معجزاته ليس مقصوداً فيه التحدي: كنبع الماء بين يديه، وتكثير الطعام القليل، وما أشبه ذلك، وعدم تقيد ذلك بالتحدي يشمل جميع المعجزات سواء قصد به التحدي أو لم يقصد به التحدي، وهذا ليس خاصًا بالنبي ﷺ وحده، بل يشاركه غيره من الأنبياء.

التعبير بالآيات أو أعلام النبوة أولى من المعجزة:

وبين ابن قاسم أن الأولى أن تسمى آيات، أو أعلام النبوة، بدل المعجزة، وذلك بقوله: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية: يسميها النظار معجزات، وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ونحو ذلك، وإذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب ولا في السنة[1]»[2] «وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان، كما قال تعالى في قصة موسى ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢] في العصا واليد.

وقال الله تعالى في حق محمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقد قال في مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]»[3].

والآيات والبراهين الدالة على نبوة نبينا محمد ﷺ كثيرة متنوعة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء[4]، قال ابن قاسم موضحا أن آياته لا تنحصر «لكثرة أفرادها وتنوعها من الأقوال والأفعال، التي ما سبقت لنبي من الأنبياء، ولم

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤١٢).
(٢) حاشية الدرة المضية (١٠٦).
(٣) الجواب الصحيح (٥/ ٤١٢، ٤١٣).
(٤) المصدر السابق (٥/ ٤١٢).

يبلغ أحد منهم ما بلغه ﷺ من أعلام نبوته، ولم يؤت أحد منهم آية أو فضيلة إلا وله ﷺ مثلها وزيادة، وهو دليل على مزيد التشريف والتكريم والاهتمام بشأنه.

وبالجملة: فدلائل نبوة نبينا محمد ﷺ لا تحصر»[١].

وطرق معرفة نبوة نبينا محمد كثيرة جدًّا[٢]، ومتنوعة، وليست محصورة على المعجزة، وإنما المعجزة بعض الأدلة على صدقهم، وقد ذكر ابن قاسم أمثلة تدل على كثرة الطرق الموصلة إلى معرفة نبوة نبينا محمد ﷺ وصدقه غير المعجزات، وذكر منها: «قول الرجل إني رسول الله إما أن يكون خير الناس وأصدقهم، وإما أن يكون شرهم وأكذبهم والتمييز بين ذلك يعرف بأمور كثيرة، نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢]، ومنه شهادة الله له بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، ومن حكمته تعالى أنه لم يبعث نبيًّا إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به إقامة للحجة، فأخبر أنه أرسلهم بالبينات»[٣].

وقد ذكر ابن قاسم رحمه الله بعض آياته، وهي كثيرة، وفصل في آيتين خاصتين بنبينا محمد ﷺ هما القرآن الكريم، وانشقاق القمر ثم ذكر بعض معجزاته إجمالاً:

أولاً: القرآن الكريم:

والقرآن أول آية من آياته ﷺ دعا به نبينا محمد ﷺ إلى نبوته، فصدع فيه برسالته، وخص بإعجازه من جميع رسله وإن كان كلاماً ملفوظاً وقولا محفوظاً؛ لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته:

أحدها: أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره؛ لأن موسى عليه السلام حين بعث في عصر السحرة خص بقلب

---

(١) حاشية الدرة المضية (١٠٦)، انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٩٧).

(٢) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية (١/ ١٣٨)، وما بعدها.

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٥٥-٥٦).

العصا حية ما بهر كل ساحر، وأذل كل كافر.

ولما بعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء، ليكون العجز عنه أقهر، والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاتهم وإن اختلفت متشاكلة المعاني متفقة العلل.

والثاني: أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم، وأذهانهم، والعرب أصح الناس أفهاما، وأحدهم أذهانا، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعاني أغربها، ومن الآداب أحسنها، فخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم، فيدركوه بالفطنة دون البديهة، وبالروية دون البادرة؛ لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها.

والثالث: أن معجز القرآن أبقى على الأعصار، وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره، ويندرس بانقراض عصره، وما دام إعجازه فهو أحج وبالاختصاص أحق[(١)].

قال ابن قاسم في بيان ذلك: «وأعظم الآيات العقلية هذا القرآن العظيم، الذي تحداهم الله بحديث مثله، أو عشر سور، أو سورة من مثله، مع عداوة أهل الأرض له علمائهم، وفصحائهم، واستعجازهم به، ولم يتعرضوا لذلك، مع شدة حرصهم على تكذيبه»[(٢)]، وقال أيضاً: «كلام الله المنزل على النبي ﷺ أعجز الخلق جميعهم، إنسهم وجنهم، أولهم وآخرهم، فهو معجز بنفسه»[(٣)].

وقال أيضاً: «ليس في وسع الخلق من أولهم إلى آخرهم، أن يأتوا بأقصر سورة من مثل القرآن، كما تحداهم الله تعالى فاعترفوا بالعجز، وقد تحداهم بذلك في

---

(١) أعلام النبوة، للماوردي (١/ ٩٧ -٩٩)، بتصرف يسير.

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٥٦).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٦).

مكة، والمدينة، وعدم قدرة البشر على مثله مع قيام الداعي، ومهارة البلاغة، أكبر معجزة، وأبهر آية، وأظهر دلالة، ونفس نظمه، وأسلوبه، ودليله، ومعانيه، وفصاحته، وبلاغته، وغير ذلك، عجيب خارق للعادة»[١].

وهو أعظم آيات الأنبياء، وهو الكتاب المبين، وهو آية تخاطب النفوس والعقول، فهو آية باقية دائمة إلى يوم القيامة، لا يطرأ عليها التغيير ولا التبديل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

فالقرآن الكريم معجز في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، باستقامته على خصائص واحدة، في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت ومعجزٌ في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، كل توجيهاته، وتشريعاته، تحيط بالحياة البشرية، وتستوعبها، دون تعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ومعجزٌ في يسر مدخله إلى القلوب والنفوس ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها[٢].

ثم بين رحمه الله أن معجزات القرآن لا تحصى فقال: «فإن القرآن - وهو معجزة من معجزاته - قد احتوى من الإعجاز على ما لا يحصى كثرة، حتى بلغها العلماء إلى ألوف كثيرة، بل كل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات»[٣].

ثانياً: انشقاق القمر:

ومن آياته الكبرى انشقاق القمر، قال رحمه الله: «وكذا من غرر دلائل نبوته ﷺ انشقاق البدر، أي: القمر، وهو أحد الكواكب السيارة...، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

---

(١) المصدر السابق (٣٧).

(٢) انظر: الرسل والرسالات، للأشقر (١٣٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٠٦) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٩٧).

قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى الرسول ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال: إن فعلت، تؤمنوا، قالوا: نعم! فسأل الله أن يعطيه ما سألوه، فانشق فرقتين، فقال: اشهدوا، وذلك بمكة قبل الهجرة[(١)].

وفي الصحيحين من حديث أنس: «أن أهل مكة سألوه أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما»[(٢)].

وفيهما من حديث ابن مسعود: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا»[(٣)].

فثبت انشقاقه بنص القرآن والسنة، وهذا من خصائصه ﷺ دون النبيين.

وفي هاتين الآيتين الباهرتين كفاية عما سواهما، وإلا فدلائل نبوته ﷺ لا تحصى، ونفس صورته الشريفة الباهرة وطلعته الظاهرة وسمته ودله يدل العقلاء على نبوته، قال نفطويه[(٤)]: قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ [النور: ٣٥]، هو مثل ضربه الله له، يقول: يكاد منظره يدل على نبوته، وإن لم يتل قرآناً[(٥)]، كما قال ابن

---

(١) انظر: دلائل النبوة، للأصبهاني (١/ ٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب انشقاق القمر(٣/ ١٤٠٤)، برقم(٣٦٥٥)، مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر بنحوه (٤/ ٢١٥٩)، برقم (٢٨٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ [القمر: ١-٢]، (٤/ ١٨٤٣)، برقم (٤٥٨٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر بنحوه (٤/ ٢١٥٨)، برقم (٢٨٠٠).

(٤) هو: أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة العتكي الواسطي، ولد سنة٢٤٤هـ وعاش ثمانين سنة، وكان كثير العلم، واسع الرواية، صاحب فنون، ولقب نفطويه نسبتها له بالنفط لدمامته وادمته، وكان عالماً بالعربية واللغة والحديث أخذ عن ثعلب والمبرد وغيرهما.
انظر: العبر في خبر من غبر، للذهبي(٢/ ٢٠٤)، لسان الميزان. لابن حجر (١/ ١٠٩).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢).

رواحة ﷺ:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر[١]»[٢]

وقد ذكر أيضاً في موضعٍ آخر بعض معجزاته إجمالاً، بقوله: «ومنه نصرة من اتبعه ولو كان أضعف الناس.

ومنها خذلان من عاداه وعقوبته في الدنيا ولو كان أكثر الناس وأقواهم.

ومنها كونه ﷺ لا يخط ولا يقرأ الخط، ولا أخذ عن العلماء.

ومنها إخباره عن المغيبات التي أطلعه الله عليها، فإن ما غاب عنا أو كان قبلنا فلا يعرف إلا بالخبر عنه.

ومنها انشقاق القمر وحنين الجذع، ونبوع الماء بين أصابعه، وإطعام مئين من صاع شعير، وغير ذلك من آياته المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير، مما لا يحصى كثرة.

ومنها إذعان ملوك اليمن والبحرين وغيرهما لأمره، للآيات التي صحت عندهم عنه، فنزلوا عن ملكهم طوعاً، وكذا كل من اتبعه لما بهرهم من آياته»[٣].

ثم استدل ابن قاسم بقول شيخ الإسلام فقال: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية: آياته ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع، منها ما هو في العالم العلوي، كانشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب، ومعراجه إلى السماء.

ومنها ما هو في الجو، كاستسقائه واستصحائه وطاعة السحاب له في حصوله وذهابه.

ومنها تصرفه في الحيوانات الإنس والجن والبهائم.

ومنها تصرفه في الأشجار والأحجار والخشب.

ومنها تأييده بملائكة السماء.

ومنها كفاية الله له أعداءه وعصمته من الناس.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، للعسقلاني (٤/ ٨٥)، المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي (١/ ٤٩١).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٠٧-١٠٨).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول(٥٦)، انظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية (٦/ ٣٢٤).

ومنها إجابة دعائه.

ومنها إعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة.

ومنها تأثيره في تكثير الماء والشراب والطعام والثمار وغير ذلك، من دلائل نبوته وأعلام رسالته ومعجزاته الظاهرة وآياته الباهرة، اهـ[١]»[٢].

المطلب الخامس: كرامات الأولياء وإثباتها:

وبعد الحديث عن آيات الأنبياء يحسن الحديث عن كرامات الأولياء؛ لأن كرامات الأولياء معجزات للأنبياء؛ لأن الولي ما حصل على هذه الكرامة إلا ببركة اتباعه للرسول.

وقد عرف ابن قاسم ﷺ الكرامة، بقوله: «الكرامة هي: أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة، يظهر الخارق على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم المتابعة مصحوب بصحة الاعتقاد، والعمل الصالح»[٣].

محترزات التعريف[٤]:

وقوله: «أمر خارق للعادة»: يخرج ما كان على وفق العادة والطبيعة.

وقوله: «غير مقرون بدعوى النبوة»: يخرج معجزات الأنبياء فإنها مقرونة بدعوى النبوة.

وقوله: «ولا هو مقدمة»: يخرج الإرهاصات التي تسبق بعثة النبي.

وقوله: «يظهر الخارق على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم المتابعة، مصحوب بصحة الاعتقاد، والعمل الصالح»: يخرج ما ليس معه إيمان وعمل صالح، وهي من قبيل المكر والاستدراج، والفتنة، كالخوارق المؤكدة لكذب الكاذبين، وترهات

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (٦/ ١٥٩)، وما بعدها.

(٢) حاشية الدرة المضية (١٠٧-١٠٨).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢٩)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٦).

(٤) ذكرت ذلك حتى لا تشتبه مع المعجزة.

المفترين من السحرة والكهنة، كأن يمشي على الماء، أو يطير بالهواء، أو يخيل للناس ما ليس حقيقة، وغير ذلك، هو ما يسمى بالأحوال الشيطانية، أي: بسبب الشياطين. فإنها هي التي تخدم أولياءها من فسدة الخلق، وذلك مقابل كفرهم بالله ﷻ[(١)].

وقد فصل ابن قاسم في هذه المسألة، وبين أنه لا يشترط أن يعلم بها، أو أنها دليل أفضلية، فقال: لا يشترط« علم بها أو لم يعلم، ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه، ولا ولايته، ولا فضله على غيره؛ لجواز سلبها، وأن تكون استدراجًا ومكرًا، ومن ظهر على يديه خارق مما يسمونه: كرامات الأولياء، ممن يدعى مع الله فهو من الأحوال الشيطانية وخدعها.

فإن الكرامة: لابد أن تكون أمراً خارقاً للعادة، أتى ذلك الخارق عن امرئ صالح ولي لله عارف به، مواظب على الطاعة، تارك للمعاصي، تابع لشرعنا معشر المسلمين، وناصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فإذا صدر الخارق عن أحد ممن اتصف بهذه الصفات، فإنها تكون من الكرامات التي بها، وبوقوعها نقول.

فإن التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، من أصول أهل السنة والجماعة، موافق للأدلة الشرعية الدالة على كرامات الأولياء، كقصة أصحاب الكهف، ومريم، وآصف[(٢)]، وعن صدر هذه الأمة، من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة»[(٣)].

ومن الكرامات التي قصها الله لنا في القرآن الكريم، قصة مريم في نشأتها، قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

(١) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية (٣٢٧)، لوامع الأنوار البهية (٣٩٣).

(٢) هو آصف بن برخيا الذي أحضر عرش بلقيس لنبي الله سليمان في لحظة من مسيرة شهر. انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٣)، ولوامع الأنوار البهية (٣٩٤).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢٩-١٣٠).

زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]، ثم حملت بلا زوج، قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢٠ - ٢١].

* حكم نفي كرامات الأولياء:

كرامات الأولياء ثابتة بالأدلة الشرعية، من الكتاب، والسنة النبوية، والآثار السلفية، والمشاهدات العيانية أكثر من أن تحصى، وأجل من أن تستقصى[1]، ولا ينكرها إلا أهل العناد الذين زاغوا عن منهج أهل السنة والجماعة، وقد بين ابن قاسم ذلك بقوله: «أي إنسان نفى كرامات الأولياء من أصحاب الضلال والزيغ عن نهج السلف، فقد أتى في ذلك النفي بالمحال المنابذ للبرهان والعيان، فقد ثبت بها الكتاب والسنة والحس والمشاهدة، وأجمع على ثبوتها أهل السنة والجماعة، وعلل لما ارتكبوه في نفيها بالمحال، لأنها شهيرة للعيان ثابتة بالبرهان، ولم تزل تظهر على يد الأولياء والصالحين في كل عصر من الأعصار الماضية، إلى الآن»[2].

* الفرق بين المعجزة والكرامة:

فرق ابن قاسم بين المعجزة والكرامة، مبيناً أن المعجزة تكون مقرونة بدعوى النبوة، بعكس الكرامة فإن صاحبها لا يدعي النبوة؛ لأنه لو ادعى النبوة لم يكن ولياً؛ بل كان متنبئاً كذاباً[3]، والجامع بينهما أمر خارق للعادة، ويتضح هذا في تعريف ابن قاسم للمعجزة والكرامة، وذلك بقوله: «فمن ظهرت المعجزة على يده، وهي: مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة:

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٣٩٥).
(٢) حاشية الدرة المضية (١٣٠).
(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٦٣).

أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده»[١]، أما الكرامة فهي: «أمر خارق للعادة، غير مقرون بدعوى النبوة»[٢].

* **الفرق بين كرامات الأولياء والأحوال الشيطانية:**

وضح ابن قاسم الفرق بين كرامات الأولياء والأحوال الشيطانية، وذلك بقوله: إذا «أتى ذلك الخارق عن امرئ صالح ولي لله عارف به، مواظب على الطاعة تارك للمعاصي، تابع لشرعنا معشر المسلمين...، فإنها تكون من الكرامات التي بها، وبوقوعها نقول»[٣]، وقال: «ومن ظهر على يديه خارق مما يسمونه: كرامات الأولياء، ممن يدعى مع الله فهو من الأحوال الشيطانية وخدعها»[٤]، بهذا يعرف الضابط بين كرامات الأولياء وأحوال الشياطين، وهو معرفة حال الشخص، فإذا كان عرف عنه الصلاح والتقوى فهذه كرامة، ومن عرف عن حاله الفسق والعصيان فهذه أحوال شيطانية، وبهذا يزول اللبس على كثير من الناس عندما ظنوا أن كل من جرت على يده خوارق العادات فهو من أولياء الله[٥].

المطلب السادس: وفاته ﷺ:

وما توفي رسولنا ﷺ إلا بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة[٦]، قال ابن قاسم: «لم يتوف ﷺ حتى أكمل الله به الدين وبلغ البلاغ المبين، حتى قال ﷺ: **«تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**[٧]»[٨]، وما توفي

---

(١) حاشية الدرة المضية (١٠٨).

(٢) المصدر السابق (١٣٠).

(٣) المصدر السابق (١٢٩-١٣٠).

(٤) المصدر السابق (١٢٩).

(٥) أنظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٤٦).

(٦) انظر: حاشية ثلاثة الأصول (٨٨).

(٧) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ١٦)، برقم (٤٣)، أحمد بن حنبل في مسنده، (٤/ ١٢٦)، برقم (١٧١٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٣/ ١١)، برقم (٩٣٧).

(٨) حاشية ثلاثة الأصول (٨٩).

عليه الصلاة والسلام إلا «بعد ما أكمل الله به الدين، وبلغ البلاغ المبين، قال أبو ذر ما توفى رسول الله ﷺ إلا وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علماً[(١)]»[(٢)]، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقد علق ﷺ على هذه الآية فقال: «هذه الآية لم تنزل إلا قبل وفاته ﷺ بثمانين يوماً، نزلت عليه وهو واقف بعرفة، يخطب الناس، وهذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل لها دينها، فلا يحتاجون إلى دين سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار. وعدلا في الأوامر، والنواهي، وفيها بيان أن الله أكمل لنا الدين، وأنه كمل من جميع وجوهه، والكامل لا يزاد فيه، ولا ينقص منه ولا يبدل؛ قال تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥] فمن ادعى أنه يحتاج إلى زيادة فقد كذب، وافترى، ورد مدلول هذه الآية، ومدلول قوله ﷺ: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلالة**»[(٣)]»[(٤)].

---

(١) انظر: صحيح ابن حبان، في كتاب العلم، ذكر الإخبار عما يستحب للمرء كثرة سماع العلم ثم الاقتفاء والتسليم (١/ ٢٦)، برقم (٦٥)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ١٥٣)، برقم(٢١٣٩٩).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٨٧).

(٣) أخرجه أبي داود في سننه، في كتاب السنة، باب في لزوم السنة، (٤/ ٢٠٠)، برقم (٤٦٠٧)، ابن ماجه سننه، المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل (١/ ١٨)، برقم (٤٦)، وصححه الحاكم في مستدركه، في كتاب العلم (١/ ١٧٤)، برقم (٣٢٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والجمعة (٢/ ٥٩٢)، برقم(٨٦٧) من دون لفظ (فأن كل محدثة بدعة).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٨٩-٩٠).

* أثبات موت النبي ﷺ:

ويدل على وفاته قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١]، وعلق رحمه الله على هذه الآية بقوله: أي أنك يا محمد ستموت، وقام أبو بكر لما توفي ﷺ يبكي، وقال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتها[١]، قال تعالى: ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] نعم هو حي ﷺ في قبره حياة برزخية أعلى وأكمل من حياة الشهداء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وأما الحياة الجسمانية فلا ريب أنه مات ﷺ، وغسل وكفن وصلي عليه، ودفن في ضريحه بالمدينة صلوات الله وسلامه عليه، ولم يقل إنه لم يمت إلا المبتدعة الخارجة عن منهج الكتاب والسنة، مخافة أن ينتقض عليهم أصلهم الباطل في توجههم إليه، وسؤاله ما لا يقدر عليه، وإلا فموته ﷺ معلوم بالسمع والمشاهدة مشهور يعلمه العام والخاص لا يمتري فيه إلا مكابر»[٢].

المطلب السابع: فضل أمة محمد ﷺ:

بين ابن قاسم فضل أمة محمد ﷺ وخيريتها «على كل الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: عدلا خياراً، وجعل علماءهم كأنبياء بني إسرائيل يحفظون ما أتى به هذا النبي الكريم، ويبلغونه أمته، تقوم بهم حجة الله على خلقه، وفي الصحيحين: «لا يزال أناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[٣]، يعني بالحجة واللسان والسيف والسنان.

(١) إشارة إلى حديث عائشة رضي الله عنها في البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ (٤/ ١٦١٨)، برقم (٤١٨٧).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٩٠-٩١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (٣/ ١٣٣١) برقم (٣٤٤١).

ولمسلم وغيره: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على كذلك»[(١)]، وفي الصحيحين: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»[(٢)] وفيهما أيضاً: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»[(٣)].

وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته، وهم أسبق الأمم خروجاً من الأرض وإلى ظل العرش وإلى القضاء والجواز على الصراط، وعنه ﷺ: «**أنتم موفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[(٤)]، صححه أحمد، وغيره»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**» (٣/ ١٥٢٣)، برقم (١٩٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة (١/ ٢٩٩)، برقم (٨٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢/ ٥٨٦) برقم(٨٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (١/ ٢٠٠)، برقم (٢٢١). وجاء بنحوه في صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وترى الناس سكارى، (٤/ ١٧٦٧)، ببرقم (٤٤٦٤).

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٤/ ٤٤٧)، برقم (٢٠٠٢٩)، ونحوه في سنن الترمذي كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، (٥/ ٢٢٦) برقم (٣٠٠١)، وعن معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال: إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»، وقال: هذا حديث حسن وقد روى غير واحد هذا الحديث عن بهز بن حكيم نحو هذا.

(٥) حاشية الدرة المضية (١٠١-١٠٢).

الفصل العاشر

جهوده في تقرير الإيمان باليوم الآخر

المبحث الأول

تعريف اليوم الآخر لغة، واصطلاحاً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف اليوم الآخر لغة:

اليوم: واحد الأيام.

قال ابن فارس: «الياء والواو والميم كلمة واحدة، هي: اليوم الواحد من الأيام»[(١)].

والآخر: ضد المتقدم.

قال ابن فارس: «الهمزة والخاء والراء أصل واحد إليه ترجع فروعه وهو خلاف التقدم»[(٢)]

المطلب الثاني: تعريف اليوم الآخر اصطلاحاً:

هو يوم القيامة، وقد عرفه ابن قاسم بقوله: «ما يكون بعد الموت»[(٣)]، وهو ذلك اليوم الذي يبعث الله فيه الخلائق للحساب والجزاء على أعمالهم وسمي باليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده.

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ١٥٩)، انظر: لسان العرب (١٢/ ٦٤٩).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٧٠)، انظر: لسان العرب (٤/ ١١).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢-٦٣)، انظر: مجموع الفتاوى(٣/ ١٤٥)، معارج القبول (٢/ ٧٠٣).

المبحث الثاني

منزلة الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الأخر أصل من أصول العقيدة، وركن من أركانها الستة، التي لا يتم إيمان العبد إلا بها جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، وقد أخبر ﷺ - في حديث جبريل - أن الإيمان باليوم الآخر، جزء من حقيقة الإيمان، وذلك بقوله: «الإيمان أن: تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١].

والإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة، بينها ابن قاسم بأنها الإيمان «بما يكون بعد الموت في البرزخ، وبالحساب، والميزان، والجنة، والنار، والإيمان بعذاب القبر، ونعيمه، وأكبر ذلك وأعظمه الإيمان ببعث هذه الأجساد، وإعادتها كما كانت أجساداً بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثواب على هذا الجسد والروح جميعاً، على ما فعلا من طاعة الله، أو يعاقبا على المعاصي التي صدرت منها جميعاً فإن الطاعة والمعصية صدرت منهما جميعاً، فلا بد أن يثابا على ما فعلا، أو يعاقبا على ما تركا، فتؤمن أن الذي أوجد هذا الجسم وانفرد بخلقه يبعثه حيًّا ويعيده كما كان»[٢]، وبه قال السلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واليوم الآخر فأن تؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار وبكل ما وصف الله به يوم القيامة»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٧)، برقم (٨).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٦٢-٦٣)، انظر: حاشية الروض المربع (٢/ ٥١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٣١٣).

المبحث الثالث

أشراط الساعة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف أشراط الساعة:

أشراط الساعة هي: علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها[١]، قال ابن قاسم رحمه الله: «أشراطها: أماراتها وعلاماتها، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال عليه السلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[٢]، وأشار بالسبابة والتي تليها»[٣].

والمراد بالساعة: هو الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وبين رحمه الله سبب تسميتها بالساعة، بقوله: «سمي بالساعة: لقربها، أو لأنها تأتي بغتة في ساعة»[٤]، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

ويجب الإيمان بأشراطها، قال رحمه الله: «ما ورد في النص القرآني والحديث النبوي من أشراط الساعة، يجب اعتقاده»[٥]، وقال أيضاً في معرض حديثه عن أشراط الساعة هو: «حق واقع يقين»[٦]، ولا يعلم بوقتها إلا الله عز وجل.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٢/ ٤٦٠)، لسان العرب (٧/ ٣٢٩)، فتح الباري (١٣/ ٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. في كتاب الرقائق، باب قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (٥/ ٢٣٨٥)، برقم (٦١٣٨)، مسلم في صحيحه في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٤/ ٢٢٦٩)، برقم (٢٩٥١).

(٣) حاشية الدرة المضية (٧٧).

(٤) المصدر السابق (٧٨)، انظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٩).

(٥) حاشية الدرة المضية (٧٨).

(٦) المصدر السابق (٧٨).

المطلب الثاني: أقسام أشراط الساعة:

قسم ابن قاسم أشراط الساعة من حيث ظهورها إلى ثلاثة أقسام:

١. قسم ظهر وانقضى.

٢. قسم متوسط ظهر ولا زال يتتابع ويكثر.

٣. قسم لم يظهر إلى الآن، وهي العلامات العظام التي تعقبها الساعة.

وذلك بقوله: «وأماراتها ثلاثة أقسام، قسم ظهر وانقضى، كبعثة النبي ﷺ ووقعة الجمل، وصفين[١]، ونحوهما، وملك بني أمية...، ونار الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى، وخروج الكذابين المدعين النبوة، وكثرة المال والزلازل.

وقسم متوسط ككون أسعد الناس بالدنيا: لكع بن لكع، وإماتة الصلاة، وإضاعة الأمانة، والتباهي في المساجد، وأكل الربا، ونحو ذلك، وكرفع العلم وكثرة الجهل، وكثرة الزنا، وشرب الخمر، وقلة الرجال، وكثرة النساء، وتوسيد الأمور إلى غير أهلها، ولحوق حي من الأمة بالمشركين، وعبادة فئام من الأمة الأوثان وغير ذلك، والقسم الثالث العلامات العظام التي تعقبها الساعة»[٢].

فأما القسمان الأولان، فهما من أشراط الساعة الصغرى، وأما القسم الثالث فيشترك فيه الأشراط الكبرى وبعض الاشراط الصغرى.

وبعض أهل العلم يقسم أشراط الساعة بحسب الشَرطَ نفسه إلى قسمين:

القسم الأول: أشراط صغرى، الثاني: أشراط كبرى، وهذا ما سير عليه في هذا البحث.

---

(١) صفين: موضع على شاطئ الفرات، من الجانب الغربي بقرب الرقة، آخر تخوم العراق، وأول أرض الشام. انظر: معجم البلدان (٣/ ٤١٤).

(٢) حاشية الدرة المضية (٧٧)، للاستزادة انظر: السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها، لأبي عمرو عثمان المقرئ الداني، أشراط الساعة، للوابل (٦١-١٧٩). صحيح البخاري، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (١/ ٤٣)، برقم (٨١). مسند أحمد بن حنبل (٥/ ٣٨٩)، برقم(٢٣٣٥١)، مقدمة الإشاعة لأشراط الساعة، لشكري (٩).

المطلب الثالث: أشراط الساعة الصغرى:

أشراط الساعة الصغرى تنقسم إلى قسمين بحسب ظهورها:

١. قسم ظهر وانقضى.

٢. قسم متوسط ظهر.

ولهذا فصل ابن قاسم في أشراط الساعة الكبرى، وأما أشراط الساعة الصغر ى فلم يذكرها إلا إجمالا كما في قوله: «قسم ظهر وانقضى، كبعثة النبي ﷺ ووقعة الجمل، وصفين، ونحوهما، وملك بني أمية...، ونار الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى، وخروج الكذابين المدعين النبوة، وكثرة المال والزلازل.

وقسم متوسط ككون أسعد الناس بالدنيا: لكع بن لكع، وإماتة الصلاة، وإضاعة الأمانة، والتباهي في المساجد، وأكل الربا، ونحو ذلك، وكرفع العلم وكثرة الجهل، وكثرة الزنا، وشرب الخمر، وقلة الرجال، وكثرة النساء، وتوسيد الأمور إلى غير أهلها، ولحوق حي من الأمة بالمشركين، وعبادة فئام من الأمة الأوثان وغير ذلك»(١).

المطلب الرابع: أشراط الساعة الكبرى:

أشراط الساعة الكبرى وهي التي تظهر قرب قيام الساعة، وإذا ظهر أولها تتابعت سريعاً، يقول ابن قاسم: «والقسم الثالث العلامات العظام التي تعقبها الساعة»(٢)، وتكون غير معتادة الوقوع، وهي عشر ذكرها نبينا ﷺ بقوله: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن**

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧٧)، للاستزادة انظر: السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها، الأشاعة لأشراط الساعة، للحسيني (٣١-١٧٢)، أشراط الساعة للوابل(٦٣-١٧٩).

(٢) حاشية الدرة المضية (٧٧).

تطرد الناس إلى محشرهم»(١).

وذكر ابن قاسم أغلبها، وهي:

١. ظهور المهدي:

وهو رجل من آل البيت يخرج في آخر الزمان، ويؤيد الله به الدين، ويملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، قال ابن كثير رحمه الله: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»(٢)، وقد صحت الأخبار بظهوره، كما بين ابن قاسم ذلك بقوله: «من أشراط الساعة التي وردت بها الأخبار(٣): ظهور الإمام المقتدى به، الخاتم للإمامة، فلا إمام بعده، الفصيح اللسان؛ لأنه من صميم العرب، أهل الفصاحة(٤) والبلاغة»(٥)؛ بل لأنه من بني هاشم من قريش فهم أفصح العرب لساناً، ومولده المدينة، واسمه كاسم النبي ﷺ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ، ولقبه المهدي، ويكون ظهوره في بلاد المشرق، لا من سرداب سامراء كما زعمه الروافض(٦)، وأنه من أئمتهم بهتاناً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة(٤/ ٢٢٢٥)، برقم (٢٩٠١).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير (١/ ٣١).

(٣) الذين رووا أحاديث المهدي من الصحابة، ستة وعشرون صحابياً، والكتب التي أخرجت هذه الأحاديث بلغت ستة وثلاثين كتابا، فقد أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه وغيرهم. انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، لعبد المحسن العباد (١٦٦-١٦٨)، ولوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٤).

(٤) الفصاحة: خلوص الكلام من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد مع فصاحة مفرداته، والفصاحة والبيان في المتكلم، ملكة يقتدر معها على التعبير بالمقصود بلفظ فصيح. حاشية الدرة المضية (٧٨)، انظر: لسان العرب (٢/ ٥٤٤).

(٥) حاشية الدرة المضية (٧٨).

(٦) الرافضة: طائفة من أهل البدع والضلال، سموا بذلك لكونهم رفضوا زيد بن علي لما تولى الشيخين، وهم يعرفون اليوم بالشيعة والإمامية، والاثني عشرية، والجعفرية، وأصولهم أربعة:
=

وإفكاً[١]، ويبايع بمكة المشرفة بين الركن والمقام، ومهاجره بيت المقدس، ويكون قبل عيسى ﷺ[٢]، قال ﷬: «ومحمد المهدي اسمه، وأشهر أوصافه، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»[٣]، وفي رواية: «**لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطا كما ملئت جوراً وظلماً**»[٤]، وأخرجه الترمذي، وصححه بلفظ: «حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي»[٥] وأخرجه أبو داوود[٦]، وغيره، وتسميته محمداً، أو محمد بن عبد الله، ووصفه بالمهدي، ورد في عدة أخبار، تدل على خروجه وحكمه بالقسط والعدل والله أعلم»[٧].

٢. المسيح الدجال:

الدجال رجل من بني آدم، يظهر في آخر الزمان وهو إحدى أشراط الساعة الكبرى، ولفظه مأخوذ من الدجل بمعنى التمويه، والتغطية، والكذب، وقد بين

= التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، وقد ستروا تحت كل واحد منها بعض بدعهم، ويغلب عليهم الغلو في أئمتهم.

انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٦)، وما بعدها، الملل والنحل (١/ ١٤٦)، الفرق بين الفرق (١/ ٢٢)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (١/ ٥٢).

(١) انظر: البداية والنهاية(٦/ ٢٤٨)، أشراط الساعة للوابل، (١٩٤).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ -٨١-٨٢)، القيامة الصغرى للأشقر(٢٢١).

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، (٤/ ٥١١)، برقم (٨٤٣٤)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٨٣)، برقم(٥٤٥٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير(٢/ ٢٨٩)، برقم(١١٨١).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي، (٤/ ٥٠٥)، برقم (٢٢٣٠) وقال: وهذا حديث حسن صحيح.

(٦) أخرجه أبي داود في سننه، كتاب المهدي (٤/ ١٠٦)، برقم (٤٢٨٢)، وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٢٨٢)، برقم(٤٢٨٢) : حسن صحيح.

(٧) حاشية الدرة المضية (٧٨)، انظر: لتعليق جميل للألباني في خروج المهدي في السلسلة الصحيحة (٤/ ١٠٣)، برقم(١٠٢١٣).

ابن قاسم ﷫ سبب تسميته بالمسيح الدجال بقوله: «سمي دجالاً؛ لتمويهه على الناس، وتلبيسه. وسمي أيضاً: مسيحاً؛ لأنه ممسوح العين، قال ﷺ: «**إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور**»[(١)]»[(٢)]. وقيل أيضاً: «سمي بذلك؛ لأنه يدجل الحق بالباطل. وقيل: بل لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه. وقيل: لأنه يغطي على الناس بكفره. وقيل: لأنه يدعي الربوبية سمي بذلك لكذبه، وكل هذه المعاني متقاربة»[(٣)].

يخرج من المشرق من جهة خراسان، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلداً إلا ودخله إلا مكة والمدينة، وفتنته من أعظم الفتن التي تمر على تاريخ البشرية؛ بسبب ما أتاه الله من الآيات والخوارق العظيمة؛ ولشدة فتنته على هذه الأمة، فقد كان النبي ﷺ أكثر الأنبياء تحذيرًا لأمته منه، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ في الناس: فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: إنه أعور وإن الله ليس بأعور**»[(٤)].

وكان ﷺ يتعوذ منه في صلاته حين تشهده، ويأمر به وذلك وقاية منه ﷺ لأمته من فتنته، قال ﷫: «وأمر بالتعوذ منه، قال ﷺ: «**وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**»[(٥)]»[(٦)].

فالدجال يدعي الربوبية، ويأتي بأعمال خارقة يروج بها باطله، حتى يأتيه الرجل يظن في نفسه الإيمان والثبات وما يلبث أن يتبعه، لما معه من الشبهات، والخوارق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٦/ ٢٦٠٨)، برقم (٦٧١٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٠).

(٣) لسان العرب (١١/ ٢٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٦/ ٢٦٠٧)، برقم (٦٧٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الدنيا، (٥/ ٢٣٤٤)، برقم (٦٠١٥)، مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (١/ ٤١٢)، برقم (٥٨٩).

(٦) حاشية الدرة المضية (٨٠).

العظيمة، التي يجريها الله على يديه فتنة، وامتحاناً، وابتلاء للناس، كما قال ابن كثير: «إن الدجال يمتحن الله به عباده بما يخلقه معه من الخوارق والمشاهدة في زمانه...يأمر السماء فتمطرهم والأرض فتنبت لهم زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم وترجع إليهم مواشيهم سماناً لبناً ومن لا يستجيب له ويرد عليه أمره تصيبهم السنة والجدب والقحط والقلة وموت الأنعام ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وأنه يتعبه كنوز كيعاسيب النحل ويقتل ذلك الشاب ثم يحييه، وهذا كله ليس بمخرفة، بل له حقيقة امتحن الله بها عباده في آخر الزمان فيضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، يكفر المرتابون، يزداد الذين آمنوا إيماناً»(١).

وقد ذكر ابن قاسم ﷺ بعض صفاته الواردة في الأحاديث عنه، وما معه من فتن، بقوله ﷺ: عن الدجال: «**إنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار**» أخرجه مسلم(٢)، ولهما عنه ﷺ: «**إن الدجال يخرج، وإن معه ماء وناراً، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس نارا فإنه ماء عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب**»(٣).

وأخبر: أن لبثه في الأرض «**أربعون يوما: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، وسئل عن الصلاة في اليوم الذي كسنة، قال: اقدروا له**»(٤)»(٥)، وهذه مدة مكثه في الأرض.

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٢١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفتة وما معه(٤/ ٢٢٥٠) برقم (٢٩٣٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفتة وما معه (٤/ ٢٢٥٠) برقم (٢٩٣٥).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في فتنة الدجال (٤/ ٥١٠-٥١١)، برقم (٥٩)، وصححه الحاكم في مستدركه، كناب الفتن والملاحم (٤/ ٥٣٨)، برقم (٨٥٠٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٨٨)، برقم (٥٤٧٥).

(٥) حاشية الدرة المضية (٨٠).

ويكثر أتباعه، وتعم فتنته، ولا ينجو منه إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، وذلك أن البلاء بالدجال يكون قد عم، فينحصر الناس داخل البلد، ويحصرهم الدجال بها، ولا يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعاً للدجال أو مأسوراً معه، فإن دمشق في آخر الزمان تكون معقل المسلمين، وحصنهم من الدجال، وعيسى إنما ينزل وقد أقيمت الصلاة فيصلي مع المسلمين[(١)]، ويلتف حوله عباد الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدًا المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول المسيح متوجهاً نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب لد، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء فيقول له عيسى عليه السلام: «إن لي فيك ضربة لن تفوتني»، فيتداركه عيسى فيقتله بحربه، ويتفرق أتباعه فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم: يا عبد الله: هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود[(٢)]، قال رحمه الله مبيناً ذلك: «إن المسيح عيسى بن مريم يقتل الدجال بأمر الله وتأييده»[(٣)]، عند«باب لد، بوزن مد، بلدة مشهورة، بينها وبين رملة فلسطين فرسخ، إلى جهة الشمال، ينزل مع الفجر بدمشق على المنارة البيضاء، ويهرب أصحاب الدجال فيدركه بباب لد فيقتله...، فإنه أخبر به المعصوم ﷺ فوجب اعتقاده»[(٤)].

وقد جاءت قصة الدجال كاملة بحديث النواس بن سمعان، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٥٦)، بتصرف يسير.

(٢) انظر: النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٢٨-١٢٩)، وانظر: صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣٩)، برقم (٢٩٢٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (٨٠).

(٤) المصدر السابق (٨٠).

إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم وإنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزي بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا، قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض قال: أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا اقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًّا وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله»(١)، وبقتله تنتهي هذه الفتنة العظيمة.

٣. نزول المسيح عليه السلام:

نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من أشراط الساعة الكبرى، التي ستظهر في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة وما معه (٤/ ٢٢٥١-٢٢٥٣)، برقم (٢٩٣٧).

آخر الزمان، بدلالة الكتاب والسنة، وعند نزوله يقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية أي: لا تقبل الجزية من الكفار؛ إما السيف أو الإسلام، ويحكم بالعدل، ويقضي بشريعة نبينا محمد ﷺ.

وقد بين ابن قاسم هذا يقوله: «المسيح: هو عيسى بن مريم ﷺ، سمي مسيحاً؛ لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ، أو لمسحه في الأرض، ذهابه فيها، أو لكونه ممسوح القدمين، أو لحسن خلقه، والمسحة الجمال، أو الصديق، خلقه الله من أنثى بلا ذكر، ثم قال له: كن فكان بكن، بعثه الله إلى بني إسرائيل، وكان آخر أنبيائهم، وله حواريون وأنصار، ولما أجمع أولئك الملأ على قتله، رفعه الله إليه، كما قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وليس المراد: الموت المعهود، بل كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فإنه حي.

ونزوله ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٥٩]، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان، وفي صحيح مسلم: «**بينما الدجال كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين-لابساً ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران**[(١)]**- واضعاً كفه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريحه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه**»[(٢)].

وفي الصحيحين: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً**

---

(١) أي: في شقتين، أو حلتين. انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة وما معه (٤/ ٢٢٥٣) برقم (٢٩٣٧).

وعدلا فليكسر الصليب وليقتل الخنزير وليضع الجزية»[١].

وأجمع السلف: أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وتنبت الأرض نبتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، كما ثبت ذلك»[٢]، وفي عهده يطيب العيش، وينتشر الأمن، وتغزر الأمطار، وتظهر بركات الأرض، ويفيض المال، ويدل على ذلك ما جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل ﷺ: «ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر[٣]، فعليهم تقوم الساعة»[٤].

٤. خروج يأجوج ومأجوج:

يأجوج ومأجوج أمتان عظيمتان من بني آدم، وخروجهم من أشراط الساعة الكبرى، وهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم، يفسدون في الأرض، ويخرجون بعد نزول عيسى عليه السلام وبعد قتله للدجال، وقد بين ذلك ابن قاسم رحمه الله بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٣/ ١٢٧٢) برقم (٣٢٦٤)،، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٥)، برقم (١٥٥).

(٢) حاشية الدرة المضية (٧٨-٨٠).

(٣) أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك، والهرج بإسكان الراء، : الجماع، يقال هرج زوجته، أي: جامعها يهرجها. شرح النووي على صحيح مسلم(١٨/ ٧٠)، انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة وما معه (٤/ ٢٢٥٤) برقم (٢٩٣٧).

«خروج يأجوج ومأجوج حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، سموا بذلك؛ لكثرتهم وشدتهم، وقيل من الأجاج، وهو الماء الشديد الملوحة، وقيل اسمان أعجميان، وهم من ولد يافث بن نوح باتفاق النسابين[1]، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦] وفي صحيح مسلم: «**إن الله يوحي إلى عيسى بن مريم، بعد قتله الدجال، إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون**»[2].

وفيه أيضاً: «إنها لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوفات، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[3]»[4].

وورد في قصتهم أن الله سخر ذا القرنين - الملك الصالح -[5] لبناء السد العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، حتى إذا جاء ذلك الوقت المعلوم، واقتربت الساعة اندك السد، وخرج يأجوج ومأجوج، بسرعة عظيمة، وجمع كبير، فماجوا في الناس، وعاثوا في الأرض فساداً، وهذا علامة على قرب قيام القيامة، والنفخ في الصور، وخراب الدنيا، وقيام الساعة، ثم يدعو عليهم عيسى

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٢٠٧)، القاموس المحيط (١/ ٢٢٩)، فتح الباري (١٣/ ١٠٧)، شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة وما معه (٤/ ٢٢٥٤) برقم (٢٩٣٧).

(٣) سبق تخريجه (٤٠٥).

(٤) حاشية الدرة المضية (٨١).

(٥) انظر: الإيمان باليوم الآخر، للحمد (١١٣).

عليه السلام، فيهلكهم الله، ويريح البلاد والعباد من شرهم[(١)]، وقال ابن قاسم مبيناً ذلك: «وقد كفهم الله بردم ذي القرنين، قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ [الكهف: ٩٧ -٩٨]، فيخرجون ويحرز عيسى عباد الله إلى الطور كما ثبت، ويرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله عليهم النغف[(٢)]، فيصبحون موتى، ويخرج المسلمون من مدائنهم، وحصونهم، ويهبطون إلى الأرض، وقد امتلأت بنتنهم، فيرغبون إلى الله فيرسل طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله.

ثم يرسل الله مطراً فيغسل الأرض حتى يدعها كالزلقة[(٣)]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرك، وردي بركتك، ، فبينا عيسى وأصحابه في ذلك العيش الرغد، وقد هلك عدوهم، إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة[(٤)]»[(٥)].

٥. الدخان:

يظهر في آخر الزمان الدخان، يملأ الدنيا، يغشى الناس كلهم، فالمؤمن يصيبه منه مثل الزكمة، وأما الكافر فإنه يتضرر منه ويخرج من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه، ودبره؛ لأنه عذاب وهو من أشراط الساعة الثابتة بالكتاب والسنة، وقال

---

(١) انظر: أشراط الساعة، للأشقر (٢٩٠)، الإيمان باليوم الآخر، للحمد(١١٣-١١٤).

(٢) هو: دود يكون في أنوف الغنم، والإبل، واحدها نغفة. وهي: محتقرة، وإيلامها شديد، ويقال في المثل ما هو إلا نغفة. انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للحميدي (١/ ٤٩٧).

(٣) معناه أي: تكون نظيفة.

(٤) إشارة إلى حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة وما معه (٤/ ٢٢٥٤)، برقم (٢٩٣٧)، ونصه: ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل...، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة اهـ.

(٥) حاشية الدرة المضية (٨١-٨٢).

ابن قاسم ﵀: «وإن من أشراط الساعة التي ثبت بها الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بها، آية، أي: علامة، الدخان، قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ [الدخان: ١٠]، قال ابن عباس وغيره: هو دخان قبل قيام الساعة، يدخل في أسماع الكفار والمنافقين، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام[(١)].

وتقدم فيما رواه مسلم: «إنها لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات»[(٢)]، فذكر منها الدخان، ورواه الترمذي وغيره وذكر أنه يمكث في الأرض أربعين يوماً[(٣)]، وفي حديث حذيفة: «**فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه، ودبره**»[(٤)]»[(٥)].

٦. **طلوع الشمس من المغرب:**

الشمس التي نشاهدها الآن تطلع من المشرق بعد أن تسجد تحت العرش لله سبحانه، وتغرب في المغرب، منذ خلقها الله إلى اليوم، ولكن في آخر الزمان تسجد تحت العرش وتستأذن ربها أن تخرج، فلا يؤذن لها، فترجع من حيث جاءت، فيراها الناس وهي تخرج من المغرب، فيفزعوا، ويعلموا أن هذا هو الحق المبين، فيتوبوا إلى الله، فيتوب العصاة، ويؤمن الكافر، ولكن هيهات كما قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨][(٦)]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه سبعون**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٠).

(٢) سبق تخريجه(٤٠٥).

(٣) انظر: سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في فتنة الدجال(٤/ ٥١٠-٥١١)، برقم (٥٩)، والحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب الفتن والملاحم، (٤/ ٥٣٨) برقم (٨٥٠٨).

(٤) أخرجه الآبادي في عون المعبود شرح سنن أبي داود (١١/ ٢٩١)، وقال: حديث حذيفة بن أسيد إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيحين، أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ١١٤).

(٥) حاشية الدرة المضية (٨٢-٨٣)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٢٨)، أشراط الساعة(٢٩٩-٣٠٤).

(٦) انظر: شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين (٤٦٢).

سنة فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»[(١)].

وقد بين ابن قاسم ﷺ ذلك بقوله: «ومن علامات الساعة الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة طلوع الشمس من المغرب، فقوله: من دبور، أي: من جهة دبر الكعبة، ومنه سميت الريح التي مهبها من جهة المغرب دبوراً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقد أجمع المفسرون أنها طلوع الشمس من مغربها[(٢)]، وفي الصحيحين: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا كلهم أجمع فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها»[(٣)]، وأخرج مسلم، وغيره: «أتدرون أين تذهب الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارجعي من حيث جئت...إلى قوله: فتصبح طالعة من مغربها»[(٤)]: أي بعد ما يؤذن لها»[(٥)].

وما هي العلة من كون الإيمان لا ينفع إذا طلعت الشمس من مغربها؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها (٢/ ١٣٥٣)، برقم (٤٠٧٠)، والنسائي في سننه الكبرى، باب قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ (٦/ ٣٤٤) برقم(١١١٧٨) قال ابن كثير: صححه النسائي وابن ماجه، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٩٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٧٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٥)، تفسير القرطبي (٧/ ١٤٥)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب لا ينفع نفساً إيمانها (٤/ ١٦٩٧)، برقم (٤٣٦٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/ ١٣٧)، برقم(١٥٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/ ١٣٨)، برقم (١٥٩)، مسند أحمد بن حنبل (٢/ ٢٠١)، برقم (٦٨٨١).

(٥) حاشية الدرة المضية (٨٣-٨٤).

أجاب القرطبي بقوله: «قال العلماء وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت، قال ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[١]، أي: تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله، وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك، أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه ﷺ، وبوعده قد صار ضرورة»[٢].

٧. خروج الدابة:

خروج الدابة في آخر الزمان علامة على قرب قيام الساعة، وذلك عندما يكثر الشر، ويعم الفساد، ويتمادى الناس في العصيان والطغيان، ثم تخرج، فيعلم الخلق أنها آية من الله سبحانه، وقد ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، وتخرج من مكة من بين جبال أجياد، وهذا القول هو المشهور من قول العلماء، فتسمهم على خراطيمهم[٣]، فأما المؤمن فإنها تجلو وجهه حتى يشرق، ويكون ذلك علامة على إيمانه، وأما الكافر فإنها تخطمه[٤] على أنفه، ويكون علامة على

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة(٥/ ٥٤٧)، برقم (٣٥٣٧)، وقال هذا حديث حسن غريب، وأحمد بن حنبل في منسده (٢/ ١٣٢)، برقم(٦١٦٠)، وابن حبان في صحيحه، باب التوبة، ذكر تفضل الله جل وعلا على التائب (٢/ ٣٩٤)، برقم (٦٢٨).

(٢) تفسير القرطبي(٧/ ١٤٦-١٤٧).

(٣) الخرطوم: الأنف وقيل مقدم الأنف. لسان العرب (١٢/ ١٧٣).

(٤) تسم أنفه بسمة يعرف بها والخطام سمة في عرض الوجه إلى الخد. غريب الحديث، للخطابي (١/ ٣٧٤).

كفره عياذاً بالله، ولا تدع أحداً على وجه الأرض إلا وسمته، فيصبح الناس متميزين، هذا مؤمن وهذا كافر[(١)].

وقد بين ابن قاسم رحمه الله ذلك مستدلا بالكتاب والسنة، وذلك بقوله: «ومن علامات الساعة الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع: خروج الدابة، صاحبة أجياد[(٢)] شعب بمكة مشهور، سمي بذلك لما قيل: إنه موضع خيل تبع، أو لمجيء الخيل الجياد منه إلى إسماعيل، وأشار المصنف في إضافتها إلى أجياد على القول المشهور[(٣)] لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**تخرج دابة الأرض من أجياد**»[(٤)]، وروي خروجها من غيره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، وعن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: «**دابة الأرض طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب**»[(٥)]، وأخرج أحمد والترمذي، وابن ماجه: «**تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر**»[(٦)]، ولأحمد: «فتسم

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٤٣-١٤٨)، أشراط الساعة (٣١٥-٣٢٥).

(٢) أجياد موضع بمكة يلي الصفا. معجم البلدان (١/ ١٠٥).

(٣) المصنف هو: الإمام محمد السفاريني، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٤٣-١٤٨)، حاشية الدرة المضية (٨٤).

(٤) لم أجده إلا في مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفتن، ما ذكر في فتنة الدجال، (٧/ ٥٠٧)، برقم (٣٧٦٠٧)، ولوامع الأنوار البهية (٢/ ١٤٤).

(٥) بحثت عن الحديث ولم أجده إلا في لوامع الأنوار البهية (٢ / ١٤٦).

(٦) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٢٩٥) برقم (٧٩٢٤)، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة النمل (٥/ ٣٤٠)، برقم (٣١٨٧) قال: هذا حديث حسن غريب.

وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ينتهي الحديث عند قوله بالعصا. وبعدها مدرج من كلام عفان، أحد رواة الحديث. انظر: مسند أحمد بن حنبل (٢/ ٢٩٥)، برقم (٧٩٢٤).

وهو: عفان بن مسلم بن عبد الله الباهلي أبو عثمان الصفار البصري ثقة ثبت قال بن المديني: كان =

الناس على خراطيمهم»[١]»[٢].

٨. النار تحشر الناس إلى المغرب:

هي آخر الآيات التي تكون قبل الساعة، وتعقبها نفخة الصور، فتقوم الساعة. وهي نار عظيمة تخرج من المشرق إلى المغرب، ومن اليمن ثم تنتشر في الأرض تسوق الناس من كل مكان إلى أرض المحشر في الشام؛ لأن الأمن والإيمان في آخر الزمان يكون في الشام حين تقع الفتن[٣]، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**ستخرج نار من حضرموت أو من نحو حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا قال عليكم بالشام**»[٤]، وقد بين ابن قاسم ؒ ذلك مستدلا بالسنة، فقال: «وآخر العلامات العظام الثابتة بالشرع: حشر النار للناس من المشرق إلى المغرب، ومن اليمن إلى الشام، كما أتى مصرحاً به في محكم الأخبار، وصحيح الآثار. ففي صحيح مسلم: «**لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات فعدها ثم قال: وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»[٥]، وفي رواية: «**نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس**»[٦]، قال شعبة: وأحسبه قال: «**تنزل معهم إذا**

=

إذا شك في حرف من الحديث تركه، وربما وهم، وقال ابن معين: أنكرناه في صفر سنة تسع عشرة، ومات سنة ٢٢٠هـ، ؒ.

انظر: تقريب التهذيب (١/ ٣٩٣)، تهذيب التهذيب (٧/ ٢٠٥-٢٠٨).

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٥/ ٢٦٨)، برقم(٢٢٣٦٢)، وابن الجعد في مسند (١/ ٤٢٧)، برقم (٢٩١٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٢١)، برقم(٣٢٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٤).

(٣) انظر: أشراط الساعة(٣٣٢).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه، في كتاب الفتن، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز (٤/ ٤٩٨)، برقم (٢٢١٧)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٥٣)، برقم(٥١٤٦).

(٥) سبق تخريجه (٤٠٥).

(٦) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، (٤/ ٤٧٤) برقم (٨٣١٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط

=

نزلوا، وتقيل معهم حيث قالوا » رواه مسلم[١]، وأهل السنن وله طرق[٢]»[٣].

وحشرها للناس على ثلاثة أفواج:

١. فوج راغبون، طاعمون، كاسون، راكبون.

٢. فوج يمشون تارة، ويركبون تارة، ويعتقبون على البعير الواحد من قلة الظهر يومئذ.

٣. فوج تحشرهم النار، وتحيط بهم من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر[٤].

وهذا ما أخبرنا به النبي ﷺ بقوله: «**يحشر الناس على ثلاث طرائق، راغبين، راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا**»[٥].

*** هدم الكعبة ورفع القرآن:**

ومما يحصل في آخر الزمان عندما تخلو الأرض من ذكر الله فلا يبقى فيها من يقول الله الله، وذلك لفساد أهلها، فتهدم الكعبة، ويرفع القرآن تكرمة لهما، وقد بين ابن قاسم رحمه الله ذلك، وفصله كما يلي:

=

الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٤/ ٢٢٢٧) برقم (٢٩٠١)، ولكن بلفظ (قعرة عدن) بدلا من قعر عدن.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٤/ ٢٢٢٧)، برقم (٢٩٠١).

(٢) انظر: سنن النسائي الكبرى، البعث، (١/ ٦٦٧) برقم (٢٢١٢)، صحيح ابن حبان، ذكر البيان بأن هذا العدد المذكور للأشياء المتوقعة قبل خروج المسيح ليس بعدد لم يرد به النفي عما وراءه (١٥/ ٢٠٠)، برقم (٦٧٩١).

(٣) حاشية الدرة المضية (٨٥).

(٤) انظر: النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٣٠-٢٣١)، أشراط الساعة (٣٢٩-٢٣٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب كيف الحشر (٥/ ٢٣٩٠)، برقم (٦١٥٧).

١ . هدم الكعبة:

بين ابن قاسم أن من علامات الساعة هدم الكعبة، التي بناها إبراهيم ﷺ، وحماها الله من الجبابرة، لما أراد ملك الحبشة أن يهدمها، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل، فأهلكتهم عن آخرهم، وبقى البيت شامخاً عزيزاً إلى آخر الزمان، ثم يفسد الخلق، ولا يبقى على وجه الأرض مسلم، وتسقط حرمته من نفوس أهله، ويستحل حرمته من أشرك بالله، وزنى، ولاط، وشرب الخمر، وغير ذلك، فحينئذ لا يبقى مكان لهذا البيت المعظم بين هؤلاء، ثم تهدم وتنقض حجراً حجراً على يدي ذي السويقتين(١)، ثم يرمونها في البحر، ويستخرجون كنوزها(٢).

قال ابن قاسم رحمه الله: «يجب اعتقاد وقوع هدم الكعبة المعظمة لما في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(٣)، وفيهما أيضاً: «**كأني به أسود أفحج، يهدمها حجراً حجراً**»(٤)، الحديث، يتداولها أصحابه بينهم، حتى يطرحها في البحر.

وأخرج أحمد وغيره: «**ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل**

---

(١) ذو السويقتين: تصغير الساق، وهي مؤنثة فلذلك ظهرت التاء في تصغيرها، وإنما صغر الساق لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة، ولذا قال الطيبي في فيض القدير: وسر التصغير الإشارة إلى أن مثل هذه الكعبة المعظمة يهتك حرمتها مثل هذا الحقير الذميم الخلقة، ويحتمل أن يكون الرجل اسمه ذلك، أو أنه وصف له، أي: رجل من الحبشة دقيق الساقين رقيقهما جدًّا، والحبشة وإن كان شأنهم دقة السوق لكن هذا يتميز بمزيد من ذلك.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢/ ٤٢٣)، فيض القدير، للمناوي (١/ ١١٨).

(٢) انظر: فتح الباري(٣/ ٤٦١)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحج، باب هدم الكعبة...، (٢/ ٥٧٩)، برقم (١٥١٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣٢)، برقم (٢٩٠٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحج، باب هدم الكعبة (٢/ ٥٧٩) برقم (١٥١٨) ولكن بدل من يهدمها يقلعها.

عن هلكة العرب ثم تجيء الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبداً»[١]، والذي تقتضيه الحكمة - والله أعلم - أن هدم الكعبة بعد موت عيسى وقبض المؤمنين، فبعد ذلك يخرج الحبشة وعليهم ذو السويقتين، فيخربون مكة ويهدمون الكعبة ويرتفع القرآن»[٢].

* وهل هذا ينافي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]؟

أجاب الحافظ ابن حجر بقوله: «وأجيب بأن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان، قرب قيام الساعة، حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول الله، كما ثبت في صحيح مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**»[٣]، ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان: «**لا يعمر بعده أبداً**»[٤]، وقد وقع قبل ذلك فيه من القتال وغزو أهل الشام له في زمن يزيد بن معاوية ثم من بعده في وقائع كثيرة من أعظمها وقعة القرامطة[٥]، بعد الثلاثمائة فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى كثرة، وقلعوا الحجر الأسود فحولوه إلى بلادهم، ثم أعادوه بعد مدة طويلة، ثم غزي مراراً بعد ذلك وكل ذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، (٢/ ٢٩١)، برقم(٧٨٩٧)، وابن حبان في صحيحه، ذكر الموضع الذي يبايع فيه المهدي (١٥/ ٢٣٩)، برقم (٦٨٢٧)، وصححه الحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٤٩٩)، برقم (٨٣٩٥).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان (١/ ١٣١)، برقم (١٤٨).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه في كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٤٩٩)، برقم (٨٣٩٥).

(٥) القرامطة: طائفة من الباطنية الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت، ومزدك، وكانا يبيحان المحرمات، تنتسب إلى رجل اسمه حمدان بن قرمط من أهل الكوفة، ويقال لهم الإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق، ويقال لهم الباطنية؛ لأنهم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض. انظر: البداية والنهاية (١١/ ٦١-٦٢)، التنبيه والرد (١/ ٢٠)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (١/ ٧٩)، أشراط الساعة (١٧٩).

ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]؛ لأن ذلك إنما وقع بأيدي المسلمين فهو مطابق لقوله ﷺ، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من علامات نبوته وليس في الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها، والله أعلم»[١].

٢. رفع القرآن:

يرفع القرآن العظيم حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في الصدور منه آية، وهذا معنى قول السلف منه بدأ وإليه يعود، أي: في آخر الزمان يعود القرآن إلى الله سبحانه، وذلك لعدم العمل به، وعدم تصديق أخباره، وقد جفاه الناس تماماً، فلا يليق أن يبقى بينهم، قال ابن قاسم رحمه الله: «ومن أشراط الساعة التي يجب الإيمان بها: رفع القرآن العظيم المنزل من لدن حكيم عليم، وتقدم قول السلف: منه بدأ وإليه يعود، يرفع من المصاحف والصدور كما جاء في الأحاديث: «أنه يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية[٢]»[٣]، ويدل على ذلك أيضاً حديث حذيفة بن اليمان، قال قال رسول الله ﷺ: **«يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب[٤]، حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير، والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها فقال له صلة ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام**

---

(١) فتح الباري (٣/ ٤٦١-٤٦٢).

(٢) لم أجد نص الرواية التي ذكرها ابن قاسم، ولعه يكون معناها ما جاء في قوله ﷺ: **«وليسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية»** أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم (٢/ ١٣٤٤)، برقم (٤٠٤٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٩/ ٤٩)، برقم (٤٠٤٩)، ولكن جاء في الأثر كما وجده في لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٣٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (٨٣)، انظر: تفسير البغوي (٣/ ١٣٥)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٣٢).

(٤) وشى الثوب إذا رقمه ونقشه، وقال بن الجوزي: الموشى المخطط بألوان شتى. فتح الباري (٥/ ٢٢٩)، انظر: النهاية في غريب الأثر (٢/ ٥٢٢).

ولا نسك ولا صدقة فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً»[١].

* تقوم الساعة على شرار الناس:

في آخر الزمان، عند قرب قيام الساعة، بعد نزول عيسى ، وقتله الدجال، وهلاك يأجوج ومأجوج، تهب ريح طيبة ألين من الحرير؛ وهذا من إكرام الله للمؤمنين في ذلك الزمن المليء بالفتن والشرور، فتقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى على ظهر الأرض من يقول الله الله، فلا يبقى إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة[٢]، قال ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك فقال عبد الله أجل ثم يبعث الله ريحا كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة»[٣]، قال ابن قاسم رحمه الله: «خرج مسلم في صحيحه وغيره: «تجيء بعد موت عيسى ريح باردة من قبل الشام فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقولون: ما تأمرنا، فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور»[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم (٢/ ١٣٤٤)، برقم(٤٠٤٩)، والحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب الفتن والملاحم، (٤/ ٥٢٠)، برقم (٨٤٦٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٩ / ٤٩)، برقم (٤٠٤٩).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٥٢-١٥٣)، أشراط الساعة، للوابل(١٧٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (٣/ ١٥٢٤)، برقم (١٩٢٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في =

وأخرج مسلم أيضاً وغيره: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»[(١)][(٢)].

=
الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير، والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان، والنفخ في الصور، وبعث من في القبور (٤/ ٢٢٥٨) برقم (٢٩٤٠).

(١) سبق تخريجه (٤١٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٥).

المبحث الرابع

الحياة البرزخية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف البرزخ لغة، واصطلاحاً، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تعريف البرزخ لغة: الحاجز بين الشيئين[(١)]، قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، أي: حاجز يمنعهما من أن يختلط أحدهما بالآخر[(٢)].

المسألة الثانية: تعريف البرزخ اصطلاحاً: هو الدار التي بين الدنيا والآخرة، وسمي برزخا لكونه حاجزاً بين الدنيا والآخرة.

يبدأ وقته من الموت إلى بعث الناس من قبورهم[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ومن مات دخله سواء كان مقبوراً، أو غير مقبور كالذي تناثرت أجزاؤه رماداً، أو أكلته السباع، أو نحو هذا فهو في عالم البرزخ[(٤)]، وقد بين ذلك ابن قاسم بقوله: «والبرزخ: الحاجز بين الشيئين، وسمي البرزخ برزخاً؛ لكونه حاجزاً بين الدنيا والآخرة، من وقت الموت إلى القيامة، من مات دخله»[(٥)].

المطلب الثاني: الإيمان بالحياة البرزخية:

البرزخ من الأمور التي يجب الإيمان بها؛ لأنه من الأمور المغيبة التي لا مجال للعقل أن يخوض فيها، ولا يخرج عن ما دلت عليه النصوص الشرعية، ويشتمل على الإيمان بفتنة القبر، وبعذابه، ونعيمه، ومستقر الأرواح فيه، قال ابن قاسم:

---

(١) القاموس المحيط (١/ ٣١٨)، انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ١١٨).

(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤).

(٣) انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ١١٨)، القاموس المحيط (١/ ٣١٨).

(٤) ماذا يعنى انتمائي لأهل السنة والجماعة، للغزازي (٩٥).

(٥) حاشية الدرة المضية (٧٤).

«فكل الذي ورد عن سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه بالأسانيد المقبولة ودونه أهل العلم من أي أمر من أمور هذا الباب وغيره، حق يجب اعتقاده، والإيمان به، لا يرد من ذلك شيء ثبت عن المعصوم ﷺ، فمن تصدى لرد شيء من ذلك، فقد خاب وخسر»(١).

فعالم البرزخ عالم غيبي له كيفيته التي تخصه، دون غيره، ولا يكون ذلك على ما هو معهود عندنا؛ لأن الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، كما قال ابن أبي العز الحنفي: «فالحاصل أن الدور ثلاث دار الدنيا: ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد، وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً، فإذا تأملت هذا المعنى، حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم، ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، ... ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك، وأعجب، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما، وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف، والإيمان بالغيب»(٢).

---

(١) حاشية الدرة المضية (٧٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٥٢-٤٥٣)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢١-٢٢).

وذلك لكمال حكمته ولتميز الذين آمنوا بالغيب من غيرهم.

المطلب الثالث: القبر وفتنته:

القبر هو أول منازل الحياة البرزخية، كان عثمان ﷺ إذا وقف على قبر بكى، حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا، فقال إن رسول الله ﷺ قال: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**والله ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**»(١).

وفتنة القبر: هي امتحان الميت، واختباره بعد عودة الروح إلى جسده، وإقعاده، وسؤال الملكين عن ربه ودينه، ونبيه، وقد تعوذ النبي ﷺ من هذه الفتنة، قالت عائشة رضي الله عنها: «**فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر**»(٢).

فأما المؤمن فيثبته الله وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدري، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وهذه الآية نزلت في عذاب القبر، فالمؤمن يكافئه الله بالنعيم في قبره، وذلك بتحويله إلى روضة من رياض الجنة، والعاصي والعياذ بالله يكون قبره حفرة من حفر النار، ويستمر النعيم والعذاب إلى قيام الساعة، ويشمل هذا النعيم والعذاب لمن استحقه سواء قبر أو لم يقبر كالذي أكلته السباع أو احترق وذري في الهواء. أو غرق في البحر، فكل ما يذكر عن القبر

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (١/ ٦٣)، برقم (٤٥٤)، والترمذي في سننه، وصححه، كتاب الزهد، باب الخامس (٤/ ٥٥٣)، برقم (٢٣٠٨)، ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٦)، برقم (٤٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر (٥/ ٢٣٤١)، برقم (٦٠٠٥).

ثابت لهؤلاء، ويكون على الروح والجسد، ثم يبعث الخلق من قبورهم للحساب، ثم إلى الجنة أو إلى النار[١].

وهذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «الفتنة: الامتحان والاختبار...، وفتنة القبور من عطف الخاص على العام؛ لأن أحوال البرزخ تشتمل على ذلك، والذي أتى عن الصادق المصدوق ﷺ في فتنة البرزخ والقبور وغيرها من الأمور المهولة حق لا يرد؛ بل يجب الإيمان به واعتقاده.

من ذلك: سؤال الملكين منكر ونكير، فيجب الإيمان به شرعاً لثبوته عن النبي ﷺ وأنهما يسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي، ويقول المرتاب: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[٢].

ومن ذلك عذاب القبر، وقد ورد التعوذ بالله منه، وهو على الروح والبدن جميعاً، وقد ينفرد أحدهما، وكذا نعيمه باتفاق أهل السنة»[٣]، ومما يؤيد ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية يقع «العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما يكون للروح منفردة عن البدن»[٤].

وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، دل عليه الكتاب والسنة، والإجماع.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٥)، (٤/ ٢٧٣).

(٢) إشارة إلى حديث البراء بن عازب في صحيح مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٤/ ٢٢٠١)، وجاء بنحوه في سنن الترمذي، كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (٣/ ٣٨٣)، برقم (١٠٧١).

(٣) حاشية الدرة المضية (٧٤-٧٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢)، انظر: الروح (١/ ٥١)، وسنن أبي داود، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (/ ٢٣٩)، برقم (٤٧٥٣).

فمن الكتاب: قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال ابن كثير: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»[(١)].

أما السنة: فعن البراء بن عازب قال خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً... - الحديث وفيه عن العبد المؤمن - فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك فيقول ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله ﷺ فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة... - الحديث وفيه عن العبد الكافر -: ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه**»[(٢)].

قال ابن القيم: «وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن، وباختلاف أضلاعه، وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين»[(٣)].

أما الإجماع: فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «مذهب سائر المسلمين بل وسائر

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٢).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٤/ ٢٨٧). برقم (١٨٥٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٢٣٤) : أخرجه أصحاب السنن، وصححه أبو عوانة، وغيره.

(٣) الروح، لابن القيم (١/ ٥٤).

أهل الملل إثبات القيامة الكبرى، وقيام الناس من قبورهم، والثواب والعقاب، هناك وإثبات الثواب، والعقاب في البرزخ ما بين الموت إلى يوم القيامة، هذا قول السلف قاطبة، وأهل السنة والجماعة»[١].

المطلب الرابع: الروح:

الروح لها حقيقة، ولا يعلم كيفيتها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهي مخلوقة، وهي تموت باعتبار أنها تفارق الأجساد، وتخرج منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تنعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً، فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم، أو في عذاب لا تموت[٢]، وهي متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت، وقد ذكر ذلك ابن قاسم، فقال: «ومما ينبغي أن يعلم أن أرواح بني آدم لم تعدم بموت الأبدان التي كانت فيها، ولا تموت ولا تفنى؛ لأنها خلقت للبقاء مع كون الأرواح مخلوقة لله مبتدعة محدثة مربوبة - وهذا معلوم - بالاضطرار من دين الرسل، وباتفاق الأئمة...

والروح قد اختلف في حقيقتها، قال ابن القيم: والصحيح: أنها جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهي جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي هذا الجسم اللطيف، متشابكاً بهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار، من الحس والحركة والإرادة، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها،

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣/ ٢٣٥)، انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٠٠)، الروح (١/ ٤٢).

(٢) انظر: الروح، لابن القيم (١/ ٣٤).

وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، قال: وهذا القول هو الصواب، وعليه دل الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة اهـ[١].

والأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت، فمنها: أرواح في عليين، ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، ومنهم من يكون مقره باب الجنة، ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة، ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون محبوساً في الأرض، ومنهم من يكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، ومنهم من يعرض على جهنم غدوة وعشية، كما جاءت بذلك الآثار، والروح أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، ولها لذة ونعيم، وعذاب عظيم»، وهذا هو الذي عليه السلف[٢].

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ١٧٨-١٧٩)، انظر: المرجع نفسه(١/ ٥١)، ثم أود رحمه الله بعد ذلك مائة وستة عشر وجها على صحة ما ذكره ثم ناقش أدلة القائلين بغير ذلك، انظر: المرجع نفسه (١٧٩-٢١٦)، وتعريف ابن القيم لا يسلم به، وإن كان لا يعتبر تعريف بحقيقة للروح.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٦-٢١٧)، الروح، (١/ ١٧٨-١٧٩)، فتح الباري (٣/ ٢٤٣)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٤٣)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٤- ٢٩).

المبحث الخامس

أهوال يوم القيامة

وفيه تسعة مطالب:

وسيلاقي العباد في هذا اليوم شأناً عظيماً من الأهوال، ومن الرعب والفزع ما تذهل له المرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم سكارى كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢]، وتنقطع علائق الأنساب في ذلك اليوم حتى يبلغ بهم الخوف مبلغه فيفر الحميم من حميمه، ولا ينجو من تلك الأهوال إلا من عد العدة لذلك اليوم العظيم العصيب من إيمان وإخلاص وعمل صالح، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، قال ابن قاسم ﷺ: «وفي ذلك الموقف أهوال عظيمة، تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وهو حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، حفاة عراة غرلا، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، ينزل فيه الرب تعالى لفصل القضاء، يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية[(١)]» [(٢)].

وقد تحدث ابن قاسم عن بعض أهوال القيامة وفصل في بعضها، وذكر أنها حق، ونرتب كلامه في المطالب الآتية:

المطلب الأول: النفخ في الصور:

والصور: هو القرن الذي خلقه الله ﷻ، وهو قرن هائل مدور، وكل به ملكاً عظيماً من الملائكة، وهو إسرافيل ؈، التقمه وهو ينظر إلى السماء مستعداً لأمر

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٨).

الله وهو على هذه الحالة منذ خلقه الله[١]، قال رسول الله ﷺ: «**إن طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان**»[٢]، فينفخ فيه ثلاث نفخات، وبين ابن قاسم هذا مستدلا بما أخرجه ابن جرير والبيهقي بقوله: «أخرج ابن جرير والبيهقي، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ، قلت: وما الصور؟ قال: قرن عظيم إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض، فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع، والثانية، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين[٣]»[٤]، ثم فصل القول في هذه النفخات الثلاث:

النفخة الأولى: نفخة الفزع، قال ﷺ: «نفخة الفزع وهي التي يتغير بها العالم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص: ١٥]، أي: رجوع ومرد، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] سميت نفخة الفزع لما يقع من هول تلك النفخة»[٥].

النفخة الثانية: نفخة الصعق، قال ﷺ: «نفخة الصعق وفيها هلاك كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وفسر الصعق بالموت، وهو متناول حتى الملائكة، والاستثناء متناول لمن في الجنة من الحور العين وغيرهم»[٦]، قال

---

(١) انظر: القيامة الكبرى (٣٣)، شرح الدرة المضية للفوزان (١٨٣).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب الأهوال(٤/ ٦٠٣)، برقم(٨٦٧٦)، وعلاء الدين الهندي في كنز العمال، الإكمال في نفخ الصور(١٤/ ١٥٤)، برقم(٣٨٩٠٩)، والأصبهاني في العظمة (٣/ ٨٤٣)، برقم(٣٩١)، وحسنه ابن حجر في فتح الباري(١١/ ٣٦٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١١٠)، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٦٩): سنده ضعيف ومضطرب.

(٤) حاشية الدرة المضية (٨٧).

(٥) المصدر السابق (٨٧).

(٦) المصدر السابق (٨٧).

تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

النفخة الثالثة: نفخة البعث والنشور، قال ﷺ: «نفخة البعث والنشور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]»(١)، ثم بين ابن قاسم أن هذه النفخة يبعث فيها الأنس والجن والدواب والطير وغيرهم لرب العالمين وهو يوم عظيم هوله، خطير شأنه، يقول ابن قاسم: «كما يجب الجزم بالبعث والنشور، يجب الجزم بقيام الخلق من الإنس والجن والدواب والطير وغيرهم لرب العالمين، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وفي ذلك الموقف أهوال عظيمة، تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وهو حق ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، حفاة عراة غرلاً، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، ينزل فيه الرب تعالى لفصل القضاء، يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية(٢)»(٣)، ثم بين ﷺ المراد بالنفخ في الصور إذا أطلق فإنها نفخة البعث، بقوله: «إذا أطلق فالمراد به: نفخة البعث والنشور»(٤).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث، وممن ذهب إلى ذلك ابن حجر، والقرطبي(٥)، ومال إلى هذا القول ابن عثيمين(٦)،

---

(١) المصدر السابق (٨٧).

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

(٣) حاشية الدرة المضية (٨٧-٨٨).

(٤) المصدر السابق (٨٧).

(٥) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٦٩).

(٦) شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين (٤٦٦).

واستدلوا بحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون»، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً، قال: أبيت، قال: أربعون سنة، قال: أبيت، قال: أربعون شهراً، قال: أبيت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق»(١)، وهذا تصريح بأن النفخ نفختان، وغيره من الأحاديث(٢).

والذي يترجح أن النفخات ثنتان، ويجاب على من قال إنها ثلاث ما يلي:

١. أن الحديث الذي أخرجه ابن جرير والبيهقي حديث ضعيف، قال ابن حجر «إن سنده ضعيف ومضطرب»(٣).

٢. أن من استدل بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٨٧]، على أن النفخات ثلاث، وبأنها تدل على نفخة الفزع، وأنها نفخة مستقلة، فاستدلاله ضعيف، لأنه لا يلزم من ذكر الله ﷻ للفزع الذي يصيب الناس عند النفخ أن تكون نفخة مستقلة، قال ابن حجر: «لا يلزم من مغايرة الصعق للفزع أن لا يحصلا معاً من النفخة الأولى... قال القرطبي: والصحيح أنهما نفختان»(٤) ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فإن كلمة أخرى في اللغة العربية تستخدم وتستعمل لختم العدد، أو لأحد الشيئين(٥)، هذا هو الراجح، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، باب ونفخ في الصور فصعق من في السماوات. (٤/ ١٨١٣)، برقم (٤٥٣٥).

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٤/ ٢٢٥٩)، برقم (٢٩٤٠).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٦٩).

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٦٩)، انظر: مرجع نفسه (١١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٧٠) المعجم الوسيط (١/ ٩)، مختار الصحاح (١/ ٤)، المصباح المنير (١/ ٧).

المطلب الثاني: البعث، وفيه ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: تعريف البعث:

البعث هو: إحياء الأموات، وإخراجهم من قبورهم، للحساب والجزاء على أعمالهم، وذلك حين ينفخ في الصور النفخة الأخيرة[(١)]، وبين ابن قاسم هذا بقوله: إن الله يبعث: «جميع العباد، ويعيدهم بعد موتهم، ويسوقهم إلى محشرهم، لفصل القضاء»[(٢)]، وقال أيضاً: البعث هو: أن يحيي «الله الموتى، ويعيد الأجساد كما كانت، ويرد إليها الأرواح كما كانت، ويجمع الأولين والآخرين فيوفي كل عامل عمله»[(٣)]، «وذلك كله واقع بعد النفخ في الصور، والمراد نفخة البعث»[(٤)].

ويسمى الحشر: قال رحمه الله: «أما الحشر فهو في اللغة: الجمع، تقول حشرت الناس إذا جمعتهم، والمراد: جمع أجزاء الإنسان بعد تفرقها، ثم إحياء الأبدان بعد موتها[(٥)]»[(٦)].

ويسمى النشور: قال رحمه الله: «النشور يرادف البعث في المعنى، يقال: نشر الميت وأنشره: أحياه[(٧)]»[(٨)].

ثم بين رحمه الله صفة البعث بقوله: «يقوم الناس فيه لرب العالمين، حفاة عراة غرلاً، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، ينزل فيه الرب تعالى لفصل القضاء»[(٩)]، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ

(١) فتح الباري (١١/ ٣٩٣)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٥٧).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٧).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٦٤).

(٤) حاشية الدرة المضية (٨٦).

(٥) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ١٠٥)، لسان العرب (٤/ ١٩٠).

(٦) حاشية الدرة المضية (٨٦- ٨٧).

(٧) انظر: لسان العرب (٥/ ٢٠٧).

(٨) حاشية الدرة المضية (٨٦).

(٩) المصدر السابق (٨٨).

خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»[١].

المسألة الثانية: وجوب الإيمان بالبعث:

الإيمان بالبعث من أعظم أصول الإيمان في هذا الدين، والإيمان به يشمل معظم الإيمان باليوم الآخر، وذكره ابن قاسم ﷺ، فقال: «الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث؛ بل الإيمان بالبعث هو معظم الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي كان ينكره أهل الجاهلية، أنكروا أن تعود هذه الأجساد كما كانت عظامها ولحمها وعصبها، وذلك من جهلهم بكمال علمه تعالى وقدرته على كل شيء؛ ولهذا يقرر تعالى بعث الأجساد وردها كما كانت في مواضع من كتابه بكمال علمه وقدرته»[٢].

ثم خاطب المؤمن بأنه يجب أن يجزم بالبعث، فقال له: «وأجزم جزم إيقان واعتقاد بالبعث بعد الموت، وبالنشور من القبور، والحشر لفصل القضاء... وذلك كله واقع بعد النفخ في الصور، والمراد نفخة البعث.

ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين، واليهود والنصارى، وسائر أهل الملل، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقال ﷺ للعاص بن وائل وقد جاءه بعظم حائل ففته بيده فقال يا محمد: أيحيي الله هذا بعد ما أرم؟ قال: «نعم! يبعثه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم»[٣]»[٤].

وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، ودل عليه الكتاب والسنة والإجماع.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، (٣/ ١٢٢٢) برقم (٣١٧١).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٩١).

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، المعروف مسند الحارث، كتاب التفسير، سورة يس (٢/ ٧٢٧)، برقم (٧١٩)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، وصححه، في كتاب التفسير، تفسير سورة يس... (٢/ ٤٦٦)، برقم (٣٦٠٦).

(٤) حاشية الدرة المضية (٨٦).

فمن الكتاب: قال تعالى: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]، وعلق ابن قاسم ﷺ على هذه الآية، بقوله: «أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب، من أديم الأرض، وفي الأرض نعيدكم، أي: إذا متم تصيرون إليها فتدفنون بها، ومن الأرض نخرجكم يوم البعث والحساب، تارة أي مرة أخرى، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥]»(١)، وقوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

أما السنة: فقوله ﷺ: «**فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث**»(٢).

أما الإجماع: فقال شيخ الإسلام ابن تيمية «ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين، واليهود والنصارى، وهذا كله متفق عليه عند علماء الحديث والسنة»(٣).

المسالة الثالثة: حكم إنكار البعث:

من كذب بالبعث فهو كافر، وعلل ابن قاسم ذلك بقوله: «لتكذيبه الله ورسوله وإجماع المسلمين»(٤) والدليل على كفر من أنكر البعث، قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [التغابن: ٧]، وعلق ابن قاسم على هذه الآية بقوله: «كفرهم الله تعالى بإنكارهم للبعث في زعمهم أن لن يبعثوا، فدل على أن إنكار البعث كفر؛ بل هو من أعظم كفر أهل الجاهلية»(٥)، ثم

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٩١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٩] (٣/ ١٢٥٤)، برقم (٣٢٣٣)، مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٤/ ١٨٤٣)، برقم (٢٣٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤).

(٤) حاشية ثلاثة الأصول (٩٢).

(٥) المصدر السابق(٩٢).

بين معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، فقال: «أي قل يا محمد بلى وربي، جواب تحقيق، وقسم بالله العظيم لتبعثن يوم القيامة، وهذه الآية الثالثة التي أمر الله نبيه أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده، وفي يونس: قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وفي سبأ: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ...﴾ [سبأ: ٣] الآية»[(١)].

المطلب الثالث: العرض للحساب:

تعريف الحساب: هو إطلاع الله عباده على أعمالهم يوم القيامة، قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شرًّا إلا ما استثنى الله منهم[(٢)]، وأشار ابن قاسم إلى معنى ذلك عند قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فقال: «أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها»[(٣)].

والحساب ينقسم إلى نوعين:

الأول: حساب المسلمين: وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. قسم لا يحاسبون: قال ابن قاسم: «ويدخل الله الجنة أقواماً بغير حساب كما في الصحيحين: «هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وذكر أنهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[(٤)]»[(٥)].

---

(١) المصدر السابق (٩٣).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٧١-١٧٢)، لمعة الاعتقاد (١/ ٢٦).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٩٣).

(٤) انظر: صحيح البخاري، في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٥/ ٢٣٩٦)، برقم (٦١٧٥)، صحيح مسلم، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩)، برقم (٢٢٠).

(٥) حاشية الدرة المضية (٨٨).

٢. قسم يحاسبون حساباً يسيراً: «وهو إبراز الأعمال وإظهارها فيعرف صاحبها بذنوبه ثم يتجاوز عنه»[١] قال ابن قاسم: «ويخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه، كما وصف بذلك في الكتاب والسنة»[٢]، من دون محاسبة، وهذا ما بينه النبيﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت سمعت النبي ﷺ: **«يقول في بعض صلاته اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت يا نبي الله ما الحساب اليسير»** قال: **«أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه»**[٣]، أي: لا يدقق في أعمالهم، ولا يحقق معهم، إنما تعرض عليهم أعمالهم، كي يدركوا ويعرفوا مدى منة الله عليهم في سترها عليهم في الدنيا وفي عفوه عنها في الآخرة[٤]، وقال ﷺ: **«يدنو المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أي رب أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته»**[٥].

٣. قسم يناقشون الحساب: المراد بالمناقشة الاستقصاء في المحاسبة، والمطالبة بالجليل والحقير[٦]، ويذكرون بسيئاتهم، وغدراتهم، ويناقشون عليها واحدة واحدة، قال ﷺ: **«من حوسب عذب»**، قالت عائشة فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨]، قالت فقال: **«إنما ذلك**

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٠٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٨)، برقم (٢٤٢٦١)، وابن خزيمة في صحيحه، باب مسألة الرب جل وعلا في الصلاة محاسبة يسيرة إذ المحاسبة بجميع ذنوبه والمناقشة بها تهلك صاحبها، (٢/ ٣٠)، برقم(٨٤٩)، والحاكم في مستدركه على الصحيحين، وصححه، ومن كتاب الإمامة والصلاة الجماعة، باب التأمين (١/ ٣٨٥)، برقم (٩٣٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ٢٠٩)، برقم(٥٥٦٢).

(٤) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/ ٢١٢٠)، برقم (٢٧٦٨).

(٦) فتح الباري (١١/ ٤٠١).

العرض؛ ولكن من نوقش الحساب يهلك»[١]، قال النووي في شرحه للحديث: «معنى نوقش استقصى عليه قال القاضي وقوله عذب له معنيان:

أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: هلك، مكان عذب هذا كلام القاضي، وهذا الثاني: هو الصحيح، ومعناه: أن التقصير غالب في العباد، فمن استقصي عليه، ولم يسامح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء»[٢].

وقد اجتمعت هذه الأقسام الثلاثة في قوله ﷺ: «قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فأما الذين سبقوا بالخيرات فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤ - ٣٥]»[٣].

الثاني: حساب الكفار، فيناديهم الله على رؤوس الأشهاد، ويشهر بذنوبهم ويفضحهم أمام الملأ، ويوبخهم على ما عملوه، ثم يلقون في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئا فراجع حتى يعرفه (١/ ٥١)، برقم (١٠٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٥/ ١٩٨) برقم (٢١٧٧٥)، انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩٥): رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح.

النار[١]، قال ابن قاسم: «وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم ويقررون بها ويجزون عليها»[٢]، ويوبخون «على ما عملوه، وزيادة العذاب ونقصه بزيادة الكفر ونقصه فهذا الضرب من الحساب ثابت بالاتفاق»[٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال ﷺ: **«وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله»**[٤].

ثم بين ابن قاسم الأدلة على إثبات الحساب فقال: «العرض للحساب ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]»[٥]، ومن الأدلة أيضاً ما ذكرناها في حديثنا عن انقسام الناس في الحساب، وما قرره ابن قاسم في هذه المسألة هو ما قرره السلف رضوان الله عليهم أجمعين[٦].

المطلب الرابع: نشر الصحف:

الصحف هي: الكتب التي كتبت فيها أعمال العباد من خير وشر، فبعد الحساب تتطاير صحف الأعمال، فكل يأخذ صحيفته، فمهم من يأخذ صحيفته بيمينه، وهم أسعد الخلق، ومنهم من يأخذ صحيفته بشماله، أو من وراء ظهره، وهم أشقى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٢١)، ومجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٧)، والعقيدة الصافية (١٧٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٩)، انظر: العقيدة الواسطية (١/ ٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/ ٢١٢٠)، برقم (٢٧٦٨).

(٥) حاشية الدرة المضية (٨٨).

(٦) انظر: العقيدة الواسطية (١/ ٣٣)، لمعة الاعتقاد (١/ ٢٦)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٧١).

الخلق والعياذ بالله، ثم كل يقرأ كتابه كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا[١]، وهذا من عدل الله سبحانه حيث جعلك حسيباً على نفسك، وقد بين ابن قاسم ذلك بقوله: «ويجب الجزم بأخذ الصحف، جمع صحيفة، وهي صحف الأعمال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]، فنشر الصحف وأخذها باليمين، أو الشمال يجب الإيمان به لثبوته بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة»[٢].

المطلب الخامس: الميزان:

الميزان هو: ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي له كفتان، وأن أعمال العباد خيرها وشرها توزن به يوم القيامة[٣]، وهذا يجب الإيمان به كما ذكر ابن قاسم ذلك بقوله: «يجب الجزم بالميزان لأجل ثواب الأعمال الصالحة، وغب السيئات الفاضحة، فنؤمن بأن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع، وأن له كفتان، توزن بهما صحائف الأعمال، وقد بلغت أحاديثه حد التواتر»[٤].

ويكون الوزن بعد المحاسبة، لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء من جنسها[٥]، هذا بالنسبة للمسلمين إلا من استثنى الله منهم من الحساب[٦] وأما الكفار فلا

---

(١) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨١).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٨)، انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٥٨)، العقيدة الواسطية (١/ ٣٣)، لمعة الاعتقاد (١/ ٢٦).

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٤).

(٤) حاشية الدرة المضية (٨٩).

(٥) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٧٢).

(٦) انظر: الإيمان أركانه، حقيقته، نواقضه (١١٢).

توزن أعمالهم: لأنها ليست من الأعمال الصالحة المقبولة التي يجزى عليها وإنما يجازى عليها في الدنيا فتكون كلها هباء منثوراً، كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥]، وقد بين ابن قاسم هذا بقوله: «وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم ويقررون بها ويجزون عليها»[١].

ثم استدل ابن قاسم على ثبوت الميزان بالأدلة الآتية: «قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ ﴿ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣]»[٢].

ومن السنة: قال ﷺ: «...لو كانت السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله»[٣]، وبين رحمه الله وجه دلالة هذا الحديث، بقوله: «وفيه إثبات الميزان، وأنه حق، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، توزن فيه الصحائف التي تكون أعمال العباد مكتوبة فيها، وله كفتان إحداهما للحسنات والأخرى للسيئات بإجماع السلف»[٤].

---

(١) حاشية الدرة المضية (٨٩)، انظر: العقيدة الواسطية (١/ ٣٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٩).

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، وصححه في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٧١٠)، برقم (١٩٣٦)، وبنحوه أخرجه ابن حبان صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ذكر سؤال كليم الله ربه أن يعلمه شيئاً يذكره (١٤/ ١٠٢)، برقم (٦٢١٨).

(٤) حاشية كتاب التوحيد (٣٢)، انظر: فتح الباري (١٣/ ٥٣٨)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٦)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٤).

المطلب السادس: الصراط:

معنى الصراط لغة واصطلاحاً: قال ابن قاسم ﵀ الصراط: «في اللغة: الطريق الواضح[١].

وفي الشرع: جسر منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يرده الأولون والآخرون»[٢].

ويجب الإيمان بالصراط، قال ﵀: «يجب الجزم بثبوت الصراط»[٣]، وأنه حق ثابت بالكتاب والسنة، أنه يكون بعد الحساب والميزان وانصراف الخلق من الموقف.

ورود الناس على الصراط: الكفار لا يمرون على الصراط وإنما يقعون في النار قبل وضعه، فلا يبقى إلا المؤمنون، والعصاة، والمنافقون، فهؤلاء يوضع لهم الصراط، فلا يعبره إلا المؤمنون بقدر أعمالهم، أما المنافقون فيتساقطون منه[٤]، وقال ﵀: «فيمرون عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطير، وكأجاود الخيل والركاب، تجري بهم أعمالهم، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم»[٥]، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم**»[٦]، وقوله ﷺ: «**فيمر أولكم كالبرق، قال قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق، قال: ألم تروا إلى البرق كيف**

---

(١) انظر: القاموس المحيط (١/ ٨٧٢)، لسان العرب (٧/ ٣٤٠).

(٢) حاشية الدرة المضية (٨٩).

(٣) المصدر السابق (٩٨).

(٤) انظر: التخويف من النار، لابن رجب (١/ ١٧١)، القيامة الكبرى، للأشقر (٢٧٥)، شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (٢/ ١٦١).

(٥) حاشية الدرة المضية (٩٨-٩٠).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى(١/ ١٦٩)، برقم(١٨٣).

يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط، يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً»[١].

صفة الصراط: أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، قال رحمه الله: «فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم»[٢]، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا فيمر أولكم كالبرق قال قلت بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق، قال ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار»[٣].

القنطرة: هي التي بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، والحكمة منها هي تهذيب المؤمنين من السيئات والأحقاد فيدخلون الجنة أنقياء أصفياء، قال ابن قاسم رحمه الله: «فمن مر على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة»[٤]، ويدل عليه قوله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة، (١/ ١٨٧)، برقم، (١٩٥).
(٢) حاشية الدرة المضية (٩٠).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة، (١/ ١٨٧)، برقم(١٩٥).
(٤) حاشية الدرة المضية (٩٠)، انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٧٠)

بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[١]، فإذا أذن لهم بدخول الجنة، يجدون باب الجنة مقفلا، فيشفع النبي ﷺ فيفتح لهم[٢]، كما سيمر معنا في الشفاعة.

وما قرره ابن قاسم رحمه الله في هذا المطلب هو تقرير السلف رضوان الله عليهم أجمعين[٣].

المطلب السابع: حوض المصطفى ﷺ:

الحوض هو: مجمع الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي ﷺ ولأمته[٤].

يكرم الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضاً واسع الأرجاء في عرصات القيامة، وهو من خصائصه عليه السلام، ماؤه أبيض من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وآنيته كنجوم السماء، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، مورده من نهر الكوثر[٥]، الذي أعطاه الله في الجنة، فترد عليه أمته عليه السلام الذين ساروا على نهجه، فتشرب منه، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً، ولكن منهم من يصرف عنه ولا يتمكن من الشرب منه، وهم كل فاجر ومبتدع وكافر بالله ورسوله، وهذا مما يجب الإيمان به قال ابن قاسم رحمه الله: «اجزم بثبوت حوضه ﷺ، فهو حق ثابت بإجماع أهل الحق، متواتر عنه[٦] ﷺ ففي الصحيحين: **«حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقائق، باب القصاص يوم القيامة...(٥/ ٢٣٩٤)، برقم (٦١٧٠).

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٦٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٦)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٦٩)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٩٢).

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥١).

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٢٥١).

(٦) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٨)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٠).

كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبداً»[١].

وفي الصحيحين: «**إن قدر حوضي ما بين أيلة وصنعاء**»[٢]، **فيا هنا لشخص نال الشفاء بالشرب من ذلك الحوض، و...نال الشفاء من ظمأ ذلك اليوم**»[٣].

وقال رحمه الله عن صفته: «**أنه حوض عظيم، في عرصات القيامة، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، وقال القرطبي: الكوثر: حوضان، أحدهما في الموقف قبل الصراط، والثاني في الجنة، وكلاهما يسمى كوثراً، والله أعلم**»[٤].

ثم استدل بما جاء: في صحيح مسلم في صفة الحوض: «**أنه يشخب فيه ميزابان**[٥] **من السماء، من نهر الكوثر**»[٦]»[٧].

ثم بين ابن قاسم «الذين يُردُّون عن حوض النبي ﷺ وعن الشرب منه... المفتري... الكاذب على الله ورسوله، من المحدثين في الدين، كما ورد، ففي الصحيح مسلم: «**ليردن علي الحوض أقوام فيختلجون دوني، فأقول أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[٨].

وفي الصحيحين: «**أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٥/ ٢٤٠٥)، برقم(٦٢٠٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته(٤/ ١٧٩٣)، برقم (٢٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب في الحوض(٥/ ٢٤٠٥)، برقم (٦٢٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٨٠٠)، برقم (٢٣٠٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (٩٠).

(٤) المصدر السابق (٩٢).

(٥) أي: يدفقان فيه الماء دفقا متتابعا فما نه مدد فلا انقطاع له. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم (١/ ٤٨٢).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٧٩٨)، برقم(٢٣٠٠).

(٧) حاشية الدرة المضية (٩٢).

(٨) أخرجه مسلم صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٨٠٠)، برقم(٢٣٠٤)، بنحوه، وأحمد بن حنبل مسنده (٥/ ٣٨٨)، برقم (٢٣٣٣٨).

أبداً، وليردن علي أقوام أعرفهم، ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي»(١)، وفيهما أيضاً: «إني على الحوض أنظر من يرد علي منكم ويؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك، فو الله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»(٢)»(٣).

ثم بين أوصاف الذين يردون الحوض، فقال ﷺ: «من قصد طريق السلامة، ونهج الحق، وسلم من البدع، يرد عليه ﷺ الحوض، لا يرد عن الشرب منه، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة مما مر وغيره»(٤).

هذا ما قرره السلف(٥)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، وطوله شهر، وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً»(٦).

الكوثـــــر:

الكوثر هو: نهر في الجنة، حافتاه من قباب اللؤلؤ المجوف، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل أعطيه، ترد عليه أمته ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، (٦/ ٢٥٨٧)، برقم (٦٦٤٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٧٩٣)، برقم (٢٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقائق، باب في الحوض، (٥/ ٢٤٠٩)، برقم (٦٢٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض النبي وصفاته، (٤/ ١٧٩٤)، برقم (٢٢٩٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (٩١).

(٤) المصدر السابق (٩١).

(٥) انظر: أصول السنة، لأحمد بن حنبل (١/ ٢٩)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٠)، لمعة الاعتقاد (١/ ٢٩)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٩٤).

(٦) العقيدة الواسطية (١/ ٣٣).

يوم القيامة[١]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وبين ابن قاسم رحمه الله أنه يجب«إثبات الكوثر، وهو نهر في الجنة، أو هو الخير الكثير، ومنه النهر، وفي صحيح مسلم في الكوثر، قال: «**هو نهر أعطانيه ربي في الجنة، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة**»[٢]، وفي صحيح البخاري: «**بينا أنا أسير في الجنة، إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: هذا الكوثر، الذي أعطاك ربك**»[٣]وللترمذي وصححه، سئل: ما الكوثر؟ قال: «**ذاك نهر أعطانيه الله**»: يعني في الجنة «**أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر**»[٤]، وقد تواترت الأحاديث، من طرق تفيد القطع بنهر الكوثر، وكذلك أحاديث الحوض[٥]»[٦]، وقال: «وصرح بعض أئمة السلف، أن الذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الكوثر، أنه نهر عظيم في الجنة»[٧].

المطلب الثامن: الشفاعة:

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الإيمان بالشفاعة:

دل الكتاب والسنة والإجماع، على أن الشفاعة حق، ويجب التصديق بها، قال

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (١/ ٣٠٠)، برقم (٤٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقائق، باب في الحوض (٥/ ٢٤٠٦) برقم (٦٢١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة طير الجنة، (٤/ ٦٨٠)، برقم (٢٥٤٢).

(٥) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٨)، تفسير الطبري(٣٠/ ٣٢١)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٠).

(٦) حاشية الدرة المضية (٩١-٩٢).

(٧) المصدر السابق (٩٢)، انظر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية، للإسفراييني (١/ ٦٦)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٩٨).

الله تعالى لنبيه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وجاء من حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن الله يخرج قوما من النار بالشفاعة»(١)، قال ابن قاسم: «فإن الشفاعة العظمى وغيرها من سائر الشفاعات الآتي ذكرها ثابتة بالنقل الصحيح المتواتر عن المصطفى ﷺ، كما أنها ثابتة لغيره من كل أصحاب الوفاء، بامتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر»(٢).

المسألة الثانية: شروط الشفاعة:

الشفاعة لها شرطان، لابد أن يتحققا حتى تكون مقبولة عند الله سبحانه، وهما:

إذن الله للشافع أن يشفع.

رضى الله عن المشفوع له.

الشفاعة ثابتة للنبي ﷺ وغيره من الصالحين بالشرطين الآنفي الذكر، وقد أشار رحمه الله إلى ذلك بقوله: «فيجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والعلماء والشهداء والصالحين والصديقين والأولياء والأفراط وغيرهم يشفعون عند الله بإذنه لمن رضي قوله وعمله، كما ثبتت بذلك الأخبار عن النبي ﷺ وأجمع عليه المسلمون»(٣)، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

المسألة الثالثة: أنواع الشفاعات:

١. شفاعة خاصة بالنبي محمد ﷺ، ولا يشاركه فيها أحد.

٢. شفاعة عامة له ﷺ ولغيره.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٧٨)، برقم (١٩١).

(٢) حاشية الدرة المضية (٩٢).

(٣) المصدر السابق (٩٣).

قال ابن قاسم: «الشفاعات التي خصت بمحمد ﷺ فلا يشاركه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا صديق ولا شهيد ولا غيرهم.

الشفاعة الأولى: يشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم، بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم الشفاعة، حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: أنا لها، وهذا هو المقام المحمود، الذي يحمده فيه الأولون والآخرون.

الشفاعة الثانية: يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان به.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها»(١).

الشفاعة الرابعة: هو أن يشفع «فيمن دخلها أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته»(٢)(٣).

والشفاعة الثالثة والرابعة ليست خاصة بالنبي ﷺ بل يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين، كما قال ابن قاسم: «الشفاعة ثابتة لأرباب الوفاء من عالم عامل بعلمه، معلم لغيره، وهم الربانيون، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء، فكما نفعوا الناس في الدنيا بالتعليم، كذلك ينفعوهم بالشفاعة عند الله، كالرسل... وكذا الأنبياء، وهؤلاء هم خواص الخلق عند الله، والأبرار، وهم الأتقياء الأخيار»(٤)،

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩٣) بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق (٩٣).

(٣) ذكر العلماء للشفاعة سبعة أنواع، ذكر ابن قاسم أربعة منها، وبقيت ثلاثة، وهي:
٥- الشفاعة لقوم من المؤمنين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.
٦- الشفاعة لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم في الجنة.
٧- شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في أن يخفف عذابه.
وزاد ابن أبي العز نوعاً ثامناً: وهو شفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم ليدخلوا الجنة. انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢٥٣-٢٥٧)، الفصل في الملل (٤/ ٥٤)، الملل والنحل (١/ ٣٠ وما بعدها)، مقالات الإسلاميين (١/ ١٥٥)، حادي الأرواح، لابن القيم (١/ ٢٩٠).

(٤) حاشية الدرة المضية (٩٢-٩٣).

ويدل عليه قوله ﷺ: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار بقيت شفاعتي فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواما قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة إلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخضر وما كان منها إلى الظل كان أبيض فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد ثبت بالسنة المستفيضة؛ بل المتواترة واتفاق الأمة أنه ﷺ الشافع المشفع، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وأن الناس يستشفعون به يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم، وأنه يشفع لهم، ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، (٦/ ٢٧٠٧)، برقم (٧٠٠١).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٨) انظر: الغنية في أصول الدين، للمتولي (١/ ١٧٢).

المبحث السادس

الجنة، والنار

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الإيمان بهما:

الجنة والنار: داران هما مصير الخلق من الإنس والجن أجمعين، وليس بعدهما دار.

ويجب الإيمان بهما، واعتقاد وجودهما، وقد دل الكتاب، والسنة، والإجماع عليهما، هذا ما بينه ابن قاسم، بقوله: «وكل إنسان من بني آدم وكل جِنة، - بكسر الجيم - طائفة الجن، لا بد أن يكون في أحد الدارين، إما في دار نار، دار البوار أجارنا الله منها، يقال إنها دركات بعضها تحت بعض، أعلاها جهنم، فلظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، أو في دار نعيم مقيم، في جنة الخلد، درجات بعضها أعلى من بعض، أعلاها الفردوس، وسقفها عرش الرحمن، نسأل الله من فضله، وكل واحدة من الجنة والنار ثابتة بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، ويجب الإيمان بهما، واعتقاد وجودهما[(١)]»[(٢)].

وقال أيضاً: «الجنة والنار مصير الخلق من الإنس والجن، لا بد لكل واحد منهم أن يصير، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»[(٣)].

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٨)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٧٤). أصول الدين، للغزنوي (١/ ١٢٠)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٣٠).

(٢) حاشية الدرة المضية (٩٤).

(٣) المصدر السابق (٩٤).

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ومن السنة: عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم**»[(١)]، والقرآن والسنة مليئان بذكر الجنة والترغيب فيها، وبذكر النار والترهيب منها، وما أعده الله لأهل الجنة من نعيم، وما أعده الله لأهل النار من عذاب أليم أعاذنا الله منها.

والجن كالإنس في التكليف، والمحاسبة في الجملة، فكافرهم في النار، ومؤمنهم في الجنة، قال ابن قاسم رحمه الله: «قال في الفروع: الجن مكلفون في الجملة إجماعاً[(٢)]، يدخل كافرهم النار إجماعاً، ويدخل مؤمنهم الجنة، وفاقاً لمالك[(٣)] والشافعي[(٤)]، قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، وليس الجن كالإنس في الحد والحقيقة، فلا يكون ما أمروا به، وما نهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحد والحقيقة، لكنهم مشاركوهم في جنس التكليف، بالأمر، والنهي، والتحليل والتحريم، بلا نزاع أعلمه بين العلماء[(٥)]»[(٦)]، وهذا هو مقتضى حكمة الله سبحانه من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٥/ ٢٣٩٧)، برقم (٦١٨٢).
(٢) الفروع، لابن مفلح المقدسي (١/ ٥٣٦).
(٣) بلغة السالك، لأحمد الصاوي (١/ ١١٣).
(٤) حاشية إعانة الطالبين، لأبي بكر الدمياطي (١/ ٩٠).
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣)، لوامع الأنوار البهية(٢/ ٢٢٣).
(٦) حاشية الدرة المضية (٩٤-٩٥).

المطلب الثاني: النار:

النار هي: دار العذاب التي أعدها الله تعالى لأعدائه، من الكفرة، والعصاة، وفيها من أنواع العذاب والعقاب ما لا يطاق، وهي دركات بعضها أسفل من بعض، وقد بين ابن قاسم بعض أسمائها، وهي: «دار البوار أجارنا الله منها، يقال: إنها دركات بعضها تحت بعض، أعلاها جهنم، فلظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية»(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أهل النار: هم كل الكفرة، والمنافقين، والعصاة من المسلمين لكنهم لا يخلدون فيها، قال ابن قاسم هي: «دار كل شخص من إنس وجن، تعدى طوره فكفر بالله، أو بأحد رسله، أو بكتاب من كتبه، أو بشرع من شرعه، وافترى فيما عبد من دون الله، فكل من كفر بالله كفراً يخرج من الملة، ولم يتب فهو خالد مخلد في النار بالإجماع»(٢)، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

* خروج عصاة الموحدين من النار:

مذهب أهل السنة والجماعة أن عصاة الموحدين وإن دخلوا النار فإنهم لا يخلدون فيها، بل يخرجون منها إما بشفاعة الشافعين، وإما برحمة أرحم الراحمين، قال ﷺ: «وكل عبد مؤمن بالله ورسوله - ولو مبتدعاً -لم يحكم الشرع بكفره، عصى ربه وتعدى حدوده بذنبه، ولو كان من أكبر الكبائر غير الشرك، كالقتل والزنا، ومات على الإسلام، ولو لم يتب، لم يخلد في النار، وإن دخلها ليطهر من الأوزار، فإنه يخرج منها، إما بشفاعة الشافعين، أو رحمة أرحم الراحمين»(٣).

(١) حاشية الدرة المضية (٩٤)، انظر: التخويف من النار (١/ ٥٠)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢١٩).
(٢) حاشية الدرة المضية (٩٥)، انظر: التخويف من النار (١/ ١٩٧)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٢٠).
(٣) حاشية الدرة المضية (٩٥)، انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٠٨)، حادي الأرواح (١/ ١٣)، وقد سبق تفصيل فيه (٩٠).

المطلب الثالث: الجنة:

الجنة هي: دار السلام التي أعدها الله للمؤمنين والمؤمنات في الآخرة، فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال ابن قاسم: «الجنة اسم لدار جمعت أنواع النعيم التي أعلاها النظر إلى وجه الله الكريم»(١)، وأهلها «يسكنهم جنات في دار كرامته التي أعدت للمتقين، وسميت باسم البساتين؛ لأنها أشجار مثمرة وأنهار جارية وقصور عالية، تجري من تحت أشجارها، ومساكنها المياه في الأنهار»(٢).

أسماء الجنة: قال ﷺ: «للجنة عدة أسماء باعتبار أوصافها، ومسماها واحد باعتبار الذات، والاسم العام: الجنة، ومن جملة تلك الأسماء: جنة النعيم، سميت بذلك لما اشتملت عليه من أنواع النعيم، واللذة والسرور، وقرة العيون»(٣)، والقرآن مليء بالآيات الدالة على نعيم أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً
وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا
﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً
وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ١٢- ٢٢].

وأهل الجنة: هم الأبرار الذين آمنوا بالله، وعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

(١) حاشية ثلاثة الأصول (٢١).

(٢) المصدر السابق (٢١)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٢٥).

(٣) حاشية الدرة المضية (٩٥)، انظر: حادي الأرواح (١/ ٥)، (١/ ٦٥).

[البقرة: ٨٢]، ومن الآيات التي استدل بها رحمه الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]، وغيرها مما يخص الجنة بأهل البر، الذين هم أهل الإيمان، والتقوى والعمل الخالص»[١].

ثم قال رحمه الله: «جنة النعيم محفوظة محمية عن جميع الكفار، فإن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة بالكتاب، والسنة، وإجماع أهل السنة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أمر بلالاً ينادي في الناس: **لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**»[٢]»[٣].

المطلب الرابع: وجود الجنة والنار وأبديتهما:

من أصول أهل السنة والجماعة الاعتقاد الجازم بوجود الجنة والنار، وأن الجنة دار المتقين، وأن النار دار الكافرين والمنافقين، قال ابن قاسم رحمه الله: «واجزم واعتقد بأن النار وما فيها من أنواع العذاب موجود الآن، كالجنة وما فيها من النعيم فهما موجودتان، ولم يزل الصحابة والتابعون وسائر أهل السنة على اعتقاد ذلك، لما ثبت بالكتاب والسنة وعلم بالضرورة من أخبار الرسل، وأنكرته طائفة من القدرية، والمعتزلة، فصار السلف يذكرون في عقائدهم: أن الجنة والنار مخلوقتان.

وفي الصحيحين وغيرهما من غير وجه، أنه عليه السلام رأى الجنة في صلاة الكسوف، حتى هم أن يتناول عنقوداً من عنبها، ورأى النار فلم ير منظراً أفظع من ذلك[٤]،

---

(١) حاشية الدرة المضية (٩٥-٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٣/ ١١١٤)، برقم (٢٨٩٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١/ ١٠٥)، برقم (١١١).

(٣) حاشية الدرة المضية (٩٦).

(٤) انظر: صحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٢/ ٦٢٢)، برقم(٩٠٤)، ومسند أحمد بن حنبل (٣/ ٣٥٢)، برقم(١٤٨٤٢)، والمستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٥٠٣)، برقم(٨٤٠٨).

وفي قصة الإسراء: دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك[(١)]»[(٢)] ويدل عليه قوله ﷺ عن الجنة قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال سبحانه عن النار: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال أيضاً: «الجنة التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للمتقين حق ثابتة لا شك فيها، وأن النار التي أخبر أنه أعدها للكافرين حق ثابتة، وأنهما الآن مخلوقتان موجودتان»[(٣)].

وهذا هو تقرير السلف[(٤)]، قال الإمام ابن أبي العز: «اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، حتى نبغت نابغة من المعتزلة، والقدرية، فأنكرت ذلك وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة، ...وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم»[(٥)].

*** دوام الجنة والنار:**

ومن أصول أهل السنة والجماعة اعتقاد دوامهما، وبقاؤهما، وأنهما لا يفنى ما فيهما، قال ابن قاسم رحمه الله: «واجزم أيضاً: أن النار لم تتلف، أي: لم تهلك وتبدل، بل موجودة الآن كالجنة وما فيها، وأبدية نعيم الجنة مما علم بالاضطرار من الكتاب، والسنة، وكذلك النار، وفي الصحيحين: «يجاء بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات (١/ ١٤٨)، برقم (١٦٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٩٦).

(٣) حاشية كتاب التوحيد (٢٧).

(٤) انظر: التمهيد، لابن عبد البر(٣/ ٣٢٠)، (٥/ ٨)، درء التعارض (٨/ ٣٤٥)، حادي الأرواح (١/ ١١)، شرح مذاهب أهل السنة، لابن شاهين (١/ ٣١٩)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٣٠).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٧٦).

خلود فلا موت»[(١)]، وفيه عدة أحاديث[(٢)].

وأجمع أهل السنة والجماعة على أن عذاب الكفار لا ينقطع، كما أن نعيم الجنة لا ينقطع، لما دل على ذلك من الكتاب والسنة»[(٣)]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [النساء: ١٦٨ – ١٦٩].

وما قرره ابن قاسم هو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة[(٤)]، قال الإمام ابن أبي العز: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان وهذا مذهب الجمهور»[(٥)].

المطلب الخامس: رؤية رب العالمين:

أعظم نعيم لأهل الحنة ينالونه فيها رؤية الله عز وجل، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم[(٦)]، قال ابن قاسم رحمه الله: «فإنه سبحانه يرى بالأبصار في الدار الآخرة باتفاق السلف، كما جاء في النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] (٤/ ١٧٦٠)، برقم (٤٤٥٣)، مسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، (٤/ ٢١٨٨) برقم (٢٨٤٩). ما ذكره ابن قاسم مختصراً.

(٢) انظر: صحيح البخاري (٥/ ٢٣٩٧)، برقم (٦١٧٩).

(٣) حاشية الدرة المضية (٩٦-٩٧).

(٤) انظر: التمهيد، لابن عبد البر (٥/ ٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٣٠)

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٣٧).

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٨٣).

[القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وأعلاها النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وغيرها.

وكما أتى في الأخبار النبوية، ففي الصحيحين وغيرهما: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»(١)، وفيهما أيضاً: «قالوا: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: نعم! فهل تضارون في رؤية الشمس صحوا ليس دونها سحاب؟»(٢).

وقد بلغت أحاديث الرؤية حد التواتر(٣)، والإيمان بذلك من أصول أهل السنة والجماعة، فيراه المؤمنون يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء تبارك وتعالى»(٤).

وهذا ما قرره السلف(٥)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما اتفق عليه الصحابة وأئمة الإسلام من أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة»(٦).

أما الكفار فيحجبون عن رؤية الله تعالى، عقوبة لهم، قال ابن قاسم رحمه الله: «الله سبحانه لم يحجب - بفتح الياء وكسر الجيم - ذاته المقدسة من رؤيته إلا عن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣-٢٤] (٦/ ٢٧٠٣)، برقم (٦٩٩٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩)، برقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣ - ٢٤]، (٦/ ٢٧٠٤)، برقم (٧٠٠٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣)، برقم (١٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٩)، حادي الأرواح، لابن أبي القيم (١/ ١٩٥).

(٤) حاشية الدرة المضية (٩٧-٩٨).

(٥) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٤٠).

(٦) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٩).

الكافر بالله، وعن المكذب برؤيته، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[المطففين: ١٥ - ١٧]، فنؤمن بأن الله يرى يوم القيامة، ولا يحاط به، ولا يدرك، ولا نشك في ذلك، ومن زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر بالله، وكذب بالكتاب، والسنة»[١].

***

(١) حاشية الدرة المضية (٩٨).

الفصل الحادي عشر
جهوده في الإيمان بالقضاء والقدر

المبحث الأول
تعريف القضاء والقدر لغة، واصطلاحا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف القضاء والقدر لغة:

القضاء في اللغة: قال بن فارس مبيناً أصل الكلمة: «القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته، قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]: أي أحكم خلقهن»[(١)].

ويطلق القضاء على الحكم والفصل والفراغ من الشيء، وإحكامه، قال ابن منظور: «القضاء وأصله القطع والفصل، يقال: قضى يقضي قضاء فهو قاض، إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق»[(٢)].

أما القدر في اللغة: قال بن فارس مبيناً أصل الكلمة: «قدر: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته فالقدر مبلغ كل شيء يقال: قدره كذا، أي: مبلغه وكذلك القدر وقدرت الشيء أقدره وأقدره من التقدير»[(٣)].

ويطلق القدر على الحكم والقضاء قال ابن منظور: «والقدر القضاء والحكم وهو ما يقدره الله ﷻ من القضاء ويحكم به من الأمور قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩).
(٢) لسان العرب (٥/ ٨٦).
(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٦٢).

لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أي: الحكم كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]»[١].

المطلب الثاني: تعريف القضاء والقدر اصطلاحاً:

عرف أهل العلم القضاء والقدر بعدة تعريفات، ترجع كلها إلى علم الله تعالى بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، ومشيئته سبحانه لوقوعها، وخلقه عز وجل لها على ما سبق به علمه وكتابته ومشيئته[٢].

وقد عرف الشيخ ابن قاسم القدر اصطلاحاً، بقوله: «القدر اسم لما صدر مقدراً من الله»[٣]، فالقدر بفتح الدال: تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته[٤].

* الفرق بين القضاء والقدر:

وقد اختلف العلماء في لفظي القضاء والقدر هل هما بمعنى واحد، أم هما متغايران، وأقوالهم على النحو التالي:

١. القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه، وقضى الشيء قضاء صنعه وقدره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: فخلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن[٥].

٢. وقيل بالعكس: فالقضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل،

---

(١) لسان العرب (٥/ ٧٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٨)، شفاء العليل، لابن القيم (١/ ١٣٣)، شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٥٤-١٥٦)، لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٤٥).

(٣) حاشية الدرة المضية (٥٩).

(٤) رسائل في العقيدة، لابن عثيمين (٣٧).

(٥) لسان العرب (١٥/ ١٨٦).

والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق[١].

٣. والراجح والله أعلم أن بينهما عموماً، وخصوصا، إذا اجتمعا تفرقا، وإذا تفرقا اجتمعا، فإذا أطلق القضاء شمل القدر، وإذا أطلق القدر شمل القضاء، وأما إذا اجتمعا فيكون معنى القضاء ما يقضيه الله سبحانه في خلقه من إيجاد، أو إعدام، أو تغيير، والمراد بالقدر ما قدره الله تعالى في الأزل، فالقدر سابق، والقضاء لاحق[٢].

(١) القضاء والقدر، للدكتور. عمر الأشقر (٢٧).

(٢) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر، للحمد (٢٠).

المبحث الثاني

منزلة الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر أصل من أصول العقيدة، وركن من أركانها، لا يتم إيمان العبد إلا به، قال ابن قاسم عنه رحمه الله: «إنه ركن من أركان الإيمان لا يستقيم الإيمان إلا به»[1]، وقد دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وعلق رحمه الله على هذه الآية، بقوله: «أي ما خلقناه فمقدور مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الحديث: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[2]»[3].

وقد أخبر ﷺ - في حديث جبريل -أن الإيمان بالقضاء والقدر، جزء من حقيقة الإيمان، وذلك بقوله: «الإيمان أن: تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[4].

والإيمان بالقدر يشتمل على أربع مراتب، ومن لم يحققها لا يكون مؤمناً بالقدر، قال رحمه الله: «فلا يصير المرء مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وأن يعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وفي الأثر: من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار[5]»[6]، ويأتي تفصيل هذه المراتب في المبحث التالي.

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول(٦٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٥)، برقم (٢٦٥٥).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول(٦٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان(١/ ٣٧)، برقم (٨).

(٥) انظر: القدر وما ورد في ذلك من الآثار لابن وهب، في كتاب القدر وما روي في ذلك من الآثار، باب أن أول ما خلق الله القلم (١/ ١٢١)، برقم(٢٦).

(٦) حاشية ثلاثة الأصول(٦٣).

المبحث الثالث

مراتب القدر

مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة أربع مراتب، لا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بهن:

المرتبة الأولى: العلم:

الإيمان بأن الله تعالى علم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، وبأفعال عباده، وبيّن ابن قاسم أن العلم أحد مراتب القضاء والقدر بقوله: «والإيمان بالقدر تضمن الإيمان بأربعة أشياء: الإيمان بعلم الله القديم، فإن الرب تعالى علم بعلمه القديم ما هو كائن»(١)، ثم استدل رحمه الله على هذه المرتبة بقوله: «وله سبحانه علم بكل شيء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعال: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]»(٢).

وقد بين رحمه الله تعلق علم الله بكل شيء، وأن العلم أعم الصفات تعلقا بمتعلقه، وأوسعها، وأن علم الله عز وجل متعلق» بكل شيء، بالواجب، والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فهو أعم الصفات تعلقاً بمتعلقه وأوسعها، وأما تعلق الكلام بكل شيء، فالمنصوص في أصول أهل السنة: أن الله لم يزل متكلماً متى شاء، وكلم ويكلم وكلامه لا ينفد كما أخبر به في كتابه.

وذكر شيخ الإسلام: عموم تعلق العلم والقدرة وقال: بخلاف الإرادة والكلام، فإنه لا عموم لهما، فإنه سبحانه لا يتكلم بكل شيء، ولا يريد إلا ما سبق

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول(٦٣).

(٢) حاشية الدرة المضية(٣٣-٣٤).

علمه به، لا يريد كل شيء بخلاف العلم والقدرة، فإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير[(١)]»[(٢)].

المرتبة الثانية: الكتابة:

و هي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، قال ابن قاسم مبيناً هذه المرتبة: «الإيمان بأن الله كتب ما علم أنه كائن من العباد»[(٣)]، ثم ذكر الشيخ رحمه الله الدليل على هذه المرتبة بقوله: «**وأخبر سبحانه: أنه خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وقدر مقادير الخلائق قبل ذلك بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**[(٤)]»[(٥)].

المرتبة الثالثة: المشيئة:

وهي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حركة وسكون، ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئة الله، ولهذا قال ابن قاسم: «الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات وما في الأرض حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله تعالى»[(٦)] ثم قال: «سبحانك لا راد لأمرك، ولا معقب لحكمك، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد»[(٧)].

ثم بين أن تعلق قدرة الله جل جلاله «بكل ممكن، وهو ما ليس بواجب الوجود، ولا

---

(١) درء التعارض (٢/ ٢٠٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (٣٥-٣٦).

(٣) حاشية ثلاثة الأصول (٦٣).

(٤) إشارة إلى حديث عَمْرِو بن العاص في صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، (٤/ ٢٠٤٤)، برقم(٢٦٥٣).

(٥) حاشية الدرة المضية (٥٠).

(٦) حاشية ثلاثة الأصول (٦٣).

(٧) حاشية الروض المربع(٢/ ١٩٢).

مستحيل الوقوع، قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وكل ممكن مندرج في هذا، بل ليس شيء خارجاً عن قدرته ومشيئته.

وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد معدوماً موجوداً، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئاً باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه تعالى وتقدس، وكذا الإرادة... مثل القدرة، الإرادة في التعلق بالممكنات إلا أن القدرة أعم، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده»[1].

المرتبة الرابعة: الخلق:

الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها وصفاتها وحركاتها، ومن جملة ذلك أفعال العبد، وقد بين ابن قاسم هذه المرتبة بقوله: «وأن الله تعالى أوجد جميع الخلق، وأن ما في الكون بتقدير الله وإيجاده»[2]، ثم ذكر جملة من الأدلة على هذه المرتبة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، ولم يزل سبحانه فاعلاً لما يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، أوجد المخلوقات بعد أن لم تكن، على غير مثال سابق، لا لحاجة إليها ولا اضطرار ألجأ إليها، بل خلقها بمحض مشيئته لحكمة عظيمة»[3]، «**وأخبر سبحانه: أنه خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما**[4]»[5].

---

(١) حاشية الدرة المضية (٣٤-٣٥).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول (٦٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (٥١).

(٤) سبق تخريجه (٤٦٩).

(٥) حاشية الدرة المضية (٥٠).

المبحث الرابع

أنواع الإرادة الإلهية

وضح ابن قاسم أنواع الإرادة الإلهية في حديثه عن المرتبة الثالثة من مراتب القدر وهي: المشية،ورأيت جعلها مسألة مستقلة؛ لزيادة الإيضاح، وقد قسم ﷺ المشيئة التي هي الإرادة إلى قسمين:

١. إرادة كونية قدرية، وهي: الإرادة الكونية العامة التي لا يخرج منها شيء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وتكون بما يحب وبما يكره، وهي متعلقة بالخلق، فالمسلم والكافر تحت هذه الإرادة الكونية سواء؛ فأفعال العباد من الطاعات والمعاصي كلها بمشية الله تعالى وإرادته.

٢. إرادة شرعية دينية، وهي المتضمنة للمحبة والرضا، وهي متعلقة بأوامر الله التي أمر بها عباده، وما نهاهم عنها، وجميع الأعمال الصالحة داخلة تحت هذه الإرادة.

هذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «وله سبحانه إرادة حقيقية بالنص والإجماع، والإرادة إرادتان، إرادة كونية قدرية، وترادفها المشيئة، فما شاء كان من جميع الحوادث، وما لم يشأ لم يكن، وإرادة شرعية دينية، وهي المتضمنة للمحبة والرضا، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والأولى كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وبين الإرادتين عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في حق المخلص المطيع، وتنفرد الإرادة القدرية في حق العاصي»[1].

وقال أيضاً: «وهي إرادتان: إرادة تتعلق بالأمر، وهي الإرادة الشرعية الدينية،

(١) المصدر السابق(٣٣-٣٤).

المستلزمة للمحبة والرضا، وإرادة تتعلق بالخلق، وهي الإرادة القدرية الكونية، وهي المشيئة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»(١).

ثم بيّن أن أفعال العباد داخلة تحت إرادة الله الكونية والقدرية، فقال ﷺ: «الإرادة إرادتان، ... هي الإرادة الكونية القدرية، المتعلقة بالخلق، والإرادة الثانية هي: الإرادة الشرعية المتعلقة بالأمر، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة»(٢).

ثم بين ﷺ إذا أراد الله سبحانه «ضلال عبد من خلقه بترك المأمور وارتكاب المحظور، يعتد بارتكاب ذلك، واقتحام المحارم، وهذه هي الإرادة القدرية الكونية، وليست هي الإرادة التي هي مدلول الأمر والنهي، فإنها مستلزمة للمحبة والرضا، وقد فرق الله بينهما في كتابه، فقال في الأولى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال في الثانية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فيريد سبحانه الخير ويأمر به ولم يأمر بالشر؛ بل نهى عنه، ولم يرضه ديناً، وشرعاً، وإن كان مريداً له خلقاً وقدراً، وما يصيب العبد من النعم، فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه، وكل الأشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه، ولا بد للعبد أن يؤمن بقضاء الله وقدره وبشرعه وأمره، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة»(٣).

و بعد إيضاحنا لقسمي الإرادة الإلهية يتضح أن هناك فروقاً بينهما، وهي:

١. الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها وقد لا يحبها ولا يرضاها، وأما

(١) المصدر السابق (٣٤-٣٥).
(٢) المصدر السابق (٥٢-٥٣).
(٣) المصدر السابق (٥٨).

الشرعية فيحبها الله ويرضاها.

٢. الإرادة الكونية لا بد من وقوعها؛ لأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والإرادة الشرعية لا يلزم وقوعها، فقد تقع، وقد لا تقع مثل: الصلاة، وغيرها، فقد يفعلها العبد، وقد لا يفعلها.

٣. الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لله لذاتها، وقد تكون مقصودة لغيرها، كخلق إبليس وكذلك سائر الشرور، فهي سبب لشقاوة كثير من العباد، ووقوع ما لايحبه الله، ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة إلى محابّ كثيرة للرب تعالى ترتبت على إرادته لها، مثل التوبة، والاستغفار، والمجاهدة، وأما الإرادة الشرعية فمقصودة لذاتها، فالله أراد الطاعة، أحبها، وشرعها ورضيها لذاتها.

٤. وبين الإرادتين عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في حق المخلص المطيع، كالذي أدى الصلاة -مثلا- جمع بين الإرادتين؛ و ذلك لأن الصلاة محبوبة لله، وقد أمر بها، ورضيها وأحبها، فهي شرعية من هذا الوجه، وكونها وقعت دل على أن الله أرادها كونا، فهي كونية من هذا الوجه، وتنفرد الإرادة القدرية في حق العاصي[١].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى(٢/ ٤١٢)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

المبحث الخامس

إرادة الله الكونية لا تستلزم رضاه

إن الله ﷻ قد يريد أمراً، وفي الوقت نفسه لا يرضاه ولا يحبه؛ لأن مراد الله نوعان: مراد لنفسه، ومقصود لذاته، ومراد لغيره، ومقصود لغيره، وقد بينه ابن قاسم بقوله: «المراد نوعان:

١. مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

٢. والمراد لغيره قد لا يكون مقصودا للمريد، ولا مصلحة له فيه بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه، وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع الأمران بغضه وإرادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما.

وجمهور أهل السنة من جميع الطوائف يفرقون بين الإرادة والمحبة والرضا، فيقولون إنه وإن كان يريد المعاصي فهو سبحانه لا يحبها ولا يرضاها؛ بل يبغضها ويسخطها وينهى عنها»[1]، «وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جدًا إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب، فهو ﷻ يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته، ومن ذلك تكون الحكمة من خلق المعاصي وتقديرها، ومن أمثلة ذلك:

١. خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات

---

(١) حاشية الدرة المضية (٥٢-٥٣).

وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة فهو مبغوض للرب ﷻ مسخوط له لعنه الله ومقته وغضب عليه ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه وجودها أحب إليه من عدمها.

٢. ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك، لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

٣. ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه، وعفوه، ومغفرته، وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم، والفوائد، وقد أشار النبي إلى هذا بقوله: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(١).

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم، والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب، فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس، والمطر، والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي؛ لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة(٤/ ٢١٠٦)، برقم (٢٧٤٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٩٣-١٩٦)، باختصار، وتصرف يسير.

المبحث السادس

أفعال العباد

أفعال العباد هي من خلق الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢]، فيدخل فيه أفعال العباد. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، أي: خلق الإنسان، وخلق فعله، ولكن الله سبحانه اثبت أن للعبد فعلاً حقيقياً اكتسبه بإرادته واختياره ومشيئته.

قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]، فأعطاهم الله اختياراً ومشيئة، وعقلا وتفكيراً، وبين لهم طريق الحق من الضلال، وبين لهم النافع والضار، فالعبد هو الذي يقدم على فعل الخير والشر بإرادته واختياره، وهذا لا ينافي أن الله قدر ذلك، وخلقه، فهو من خلق الله، وفعل العبد وكسبه، ولذلك يثاب على الطاعة، ويعاقب على المعصية.

أفعال العباد قسمان:

١. أفعال اضطرارية: كحركات المرتعش، ونبضات العروق، ونحو ذلك، وهذه لا خلاف فيها أنها خارجة عن قدرة العبد.

٢. أفعال اختيارية، وهي محل البحث هنا، وفيها اختلفت الطوائف[1].

وقد بيّن ابن قاسم رحمه الله أن كل شيء سوى الله وأسمائه وصفاته مخلوق له ﷻ، ويدخل من جملة ذلك فعل العبد، مع أنه مخلوق لله، مفعول للعبد، وهذا في قوله: «سائر الأشياء مخلوقة لله أوجدها من العدم، غير الذات المقدسة، والأسماء الحسنى، والصفات العلى، فإن الله تعالى قديم بجميع صفاته، وقدمه ضروري،

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٣٨)، الملل والنحل (١/ ٨٩، ٤٧)، الفرق بين الفرق (١/ ٧٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (١/ ٣٨).

وصفات كماله لازمة لذاته، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة، وكل ما سوى الله محدث، مسبوق بالعدم، باتفاق السلف، فالله خالق كل شيء، وربه ومليكه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، كما دلت عليه الكتب المنزلة، وأخبرت به الرسل، وأقرت به الفطر، وأجمع عليه المسلمون»[١].

وقد بين رحمه الله أن فعل العبد مخلوق لله تعالى مثل سائر مخلوقاته، ولكنه جعل للعبد قدرة واختياراً وفعلاً حقيقياً اكتسبه بإرادته، وذلك بقوله: «أفعالنا معشر الخلق جميعها مخلوقة مصنوعة لله تعالى، هو الذي أوجدها من العدم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] أي: خلقكم والذي تعملونه، فدلت على أن أعمال العباد مخلوقة لله، وفي حديث حذيفة: «إن الله خلق كل صانع وصنعته»[٢] وأيضاً: نفس حركاته تدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ فإن أعراضهم داخلة في مسمى أسمائهم، فالله خلق الإنسان بجميع أعراضه وحركاته، والآيات والأحاديث الدالة على خلق أفعال العباد كثيرة.

وجمهور أهل السنة على أن فعل العبد فعل له حقيقة؛ لكنه مخلوق لله، مفعول للعبد، ويفرقون بين الخلق والمخلوق، والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضر، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال شيخ الإسلام: والفعل هو الكسب، ولا يعقل شيئان في المحل، أحدهما فعل، والآخر كسب، والذين جعلوا العبد كاسباً غير فاعل، من أتباع جهم[٣]، وأبي

---

(١) حاشية الدرة المضية (٥٠).

(٢) أخرجه أبي عاصم في السنة (١/ ١٥٨)، برقم (٣٥٧)، والبيهقي في القضاء والقدر، (١/ ١٧٠)، برقم (١٣٣)، وصححه ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٥٣٠).

(٣) هو: جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي، الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سالم بن أحوز المازني في آخر ملك بني أمية في عام ١٢٨هـ.
انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (٢/ ١٥٩)، الوافي بالوفيات للصفدي (١١/ ١٦٠-١٦١).

الحسن[١]، وكلامهم متناقض[٢]»[٣].

وأفعال العباد داخلة تحت إرادة الله سبحانه ومشيئته وقدرته، وقد بيّن رحمه الله ذلك بقوله: «فكل فعل يفعله العباد من طاعة وهي ما تعلق بها المدح في العاجل، والثواب في الآجل، وما يفعل من معصية، وهي ما فيها ذم في العاجل والعقاب، أو اللوم في الآجل داخل تحت إرادة الله الكونية ومشيئته وقدرته، فإن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وإرادة ما يفعله العباد من غير اضطرار منه لنا ولا حاجة؛ بل لحكمة باهرة»[٤].

ثم بعد ما بين رحمه الله أن أفعال العباد داخلة تحت إرادة الله الكونية القدرية، بين أن الأعمال الصالحة داخلة تحت الإرادة الشرعية، وذلك في قوله: «الإرادة الكونية القدرية المتعلقة بالخلق، والإرادة الثانية هي الإرادة الشرعية المتعلقة بالأمر، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة»[٥].

---

(١) هو: علي بن إسماعيل بن سالم بن إسماعيل الأشعري، أبو الحسن، شيخ الأشاعرة، وإمامهم، ولد سنة ٢٦٠ مر بثلاثة أطوار في حياته، الاعتزال، ثم سلك مسلك ابن كلاب، ثم أستقر على منهج السلف مع لوثة اعتزالية، ومن مؤلفاته: مقالات الإسلاميين، الإنابة، وغيرها، وتوفي سنة٣٢٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، شذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩٦، ٣٧٧)، مجموع الفتاوى(٨/ ٤٦٨).

(٣) حاشية الدرة المضية (٥١-٥٢).

(٤) المصدر السابق (٥٢-٥٣).

(٥) المصدر السابق (٥٢-٥٣).

المبحث السابع

الرضا بالقضاء والرضا بالمقضي، والفرق بينهما

ينبغي الرضا بالقدر؛ لأنه من تمام الرضا بربوبية الله، فينبغي لكل مؤمن أن يرضى بقضاء الله؛ لأن فعل الله وقضاءه خير كلّه وعدل وحكمة، فمن اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه خلت نفسه من الحيرة والتردد، وانتفى من حياته القلق والاضطراب، فلا يحزن على ما فاته، ولا يتهيب من مستقبله، ويكون بذلك أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً، وأهدأهم بالاً، فمن عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود، فلا الجبن يزيد في عمره، ولا الشح يزيد في رزقه، فالكل مكتوب، صبر على ما أصابه كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

أما الفرق بين الرضا بالقضاء وبين الرضا بالمقضي:

١. أن القضاء يكون من الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالى، وكله خير وعدل، ويجب الرضا به كله، قال ابن قاسم: «قضاء الله وهو فعل قائم بذاته كله خير وعدل وحكمة يجب الرضا به كله، والرضا: هو التسليم وسكون القلب وطمأنينته»(١)، وزاده بياناً وإيضاحاً، فقال: «القضاء من فعل الله تعالى فيجب الرضا به، واعتقاد أنه عدل منه سبحانه في عبده، لا بمعنى كونه متصرفاً فيه بمجرد القدرة والمشيئة، بل بوضع القضاء في موضعه، وإصابة محله، فكل ما قضاه على عبده، فقد وضعه موضعه اللائق به، وأصاب محله الذي هو أولى به من غيره»(٢).

٢. أن المقضي يكون من فعل العبد، وعرفه رحمه الله بقوله: «والمقضي، وهو: المفعول المنفصل عنه، لا يجب الرضا به كله، فإنه إنما شرع الرضا بما يرضى الله

---

(١) المصدر السابق (٦٢).

(٢) المصدر السابق (٦٣).

به، والمقضي نوعان»[١].

قسم ابن قاسم رحمه الله المقضي إلى نوعين، وهما:

الأول: أن يكون المقضي في شرعي ديني فهذا يجب الرضا به؛ لأن فعل العبد يجب الرضى به مثل الصلاة، والصيام، والحج، وسائر الطاعات، وقد بيّن رحمه الله هذا النوع، فقال هو: «شرعي ديني، فيجب الرضا به، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وهو أساس الإسلام»[٢].

الثاني: أن يكون المقضي في فعل العبد كونيًّا قدريًّا، وله ثلاث حالات:

١. أن يكون المقضي في فعل العبد ما لا يحبه الله ويرضاه، مثل المعاصي، والفسوق، والمحرمات، فهذا يحرم الرضا به، قال رحمه الله: «ومنه ما لا يحبه الله ولا يرضاه، كالذنوب، فالعبد مأمور بسخطه، منهي عن الرضا به»[٣].

ثم وضح ذلك فقال إذا «أتى بما يبغضه الله، وفعله الأشياء المبغوضة لله، لا يجوز الرضا بها إجماعاً، بل الرضا بالقدر الجاري على العبد باختياره وفعله، من أنواع الظلم، والفسوق، مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه، ويعاقب عليه، ولله سبحانه في ظهور المعاصي وترتب آثارها من الحكم ما يشهده أولو الأبصار»[٤].

«وعلى العبد أن يوافق ربه فيبغض الذنوب ويمقتها؛ لأن الله يبغضها، ويرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجله، فهي من جهة فعل العبد لها مكروهة مسخوطة، ومن جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية؛ لأن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة، والعبد فعلها، وهي ضارة له، موجبة له العذاب، فنحن نكرهها وننهى عنها، كما أمرنا الله بذلك، ونعلم أن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة، فنرضى

(١) المصدر السابق (٦٢).
(٢) المصدر السابق (٦٢).
(٣) المصدر السابق (٦٢).
(٤) المصدر السابق (٦٣).

بقضائه وقدره؛ لأنا إذا نظرنا إلى إحداث الرب لذلك، للحكمة التي يحبها ويرضاها، رضينا لله بما رضيه لنفسه، فنرضاه ونحبه مفعولا لله مخلوقاً له، ونبغضه ونكرهه فعلا للمذنب المخالف لأمر الله»(١).

٢. أن يكون المقضي للعبد ملائماً للنفس البشرية، مثل الصحة، والغنى، هذا الرضا به أمر فطري، قال ﷺ: «والرضا بالقدر الكوني الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى، ونحو ذلك، فأمر لازم بمقتضى الطبيعة، وليس الرضا به عبودية»(٢).

٣. أن يكون المقضي للعبد غير ملائم للنفس، مثل المصائب، والمرض، والفقر، فهذا مع جواز كره الشيء الذي أصابه وفراره منه؛ لأنه غير ملائم للنفس البشرية وطبيعتها وهذه الحالة اختلف فيها العلماء، فمنهم من قال بجواز الرضا به، ومنهم من قال يجب الرضا به، ورجح ابن عثيمين جواز الرضا؛ لصعوبته على كثير من النفوس(٣)، والذي مال إليه الشيخ ابن قاسم هو استحباب الرضا، وذلك بقوله: «الرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد كالفقر والمرض فمستحب، ومن أجل الأمور، وأشرف أنواع العبودية، ولم يطالب به العموم لعجزهم ومشقته عليهم، وقيل: يجب، فتستوي النعمة والبلية عنده في الرضا بها، وهو من مقامات الصديقين، واختار شيخ الإسلام استحبابه، وقال: لم يجيء الأمر به كما جاء بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم»(٤).

وابن ﷺ قاسم سار على تقسيم السلف في هذه المسألة، ومنهم الإمام ابن القيم، حيث قال: «فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضي، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضى بكل ما خلقه وشاءه، زالت

---

(١) المصدر السابق (٦٣-٦٤).
(٢) المصدر السابق (٦٣-٦٤).
(٣) انظر: شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين (٣٧١).
(٤) حاشية الدرة المضية (٦٣).

الشبهات وانحلت الإشكالات ولله الحمد، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض، بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع، والشرع يصدق القدر، وكل منهما يحقق الآخر إذا عرف هذا فالرضى بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً، وهذا حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم، فقد رضي كل الرضى بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد، وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة؛ لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصى المنعم بها[1]، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد، ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض، والفقر، وأذى الخلق له، والحر، والبرد، والآلام، ونحو ذلك.

---

(١) الله المستعان.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه، كأنواع الظلم، والفسوق، والعصيان، حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك، ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضى ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضى بالقضاء»[١].

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٢-١٩٣).

المبحث الثامن

الأمر بالشيء لا يلزم منه الإعانة عليه

بيّن ابن قاسم أن الله يأمر عبده بشيء ولا يعينه عليه، ولا يلزم من ذلك إذا أمره أن يعينه، وذلك لوجود مفسدة تترتب على إعانته عليه، أو فوات مصلحة أعظم من فعل ذلك المأمور، وهذا يعود على عدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده، قال ابن قاسم إن السلف: «يثبتون الحكمة في أفعال الله، وأنه يفعل لنفع عباده، ومصالحهم، فقد أمر الخلق على ألسن رسله بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد هو سبحانه أن يخلق ذلك الفعل، ويجعله فاعلا له، ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها، غير أمره للعبد على وجه بيان ظاهر مصلحة للعبد أو مفسدة، فإذا أمر العبد بالإيمان، كان قد بين له ما ينفعه ويصلحه إذا فعله، ولا يلزمه تعالى إذا أمره أن يعينه، بل قد يكون في خلقه ذلك الفعل وإعانته عليه، نوع مفسدة من حيث هو فعل له، فإنه يخلق سبحانه ما يخلق لحكمة.

ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور إذا فعل، أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو، أو جعل المأمور فاعلا له؛ بل قد تكون الحكمة تقتضي أن لا يعينه على ذلك، فإن الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره، من العواقب المحمودة، والغايات المحبوبة، وما من ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا معنى من المعاني إلا وهو شاهد لله بتمام العدل، والرحمة، وكمال الحكمة.

وما خلق سبحانه الخلق باطلاً، ولا فعل شيئاً عبثاً، بل هو الحكيم في أقواله وأفعاله يفعل ويخلق ما يشاء؛ لحكمة باهرة، وقد وقع الإجماع عند أهل السنة والجماعة على اشتمال أفعال الله على الحكم والمصالح»[1].

---

(١) حاشية الدرة المضية (٥٦-٥٧).

وهذا ما قرره السلف، قال ابن أبي العز: «فإن قيل كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟

قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له. وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله وهو طاعة فلما كرهه منهم، ثبطهم عنه ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: فساداً وشرًّا، قال تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: سعوا بينكم بالفساد والشر، قال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: قابلون منهم، مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة، والرحمة أن أقعدهم عنه، فاجعل هذا المثال أصلا وقس عليه»[(١)].

(١) شرح العقيدة الطحاوية(١/ ٢٨٥)، انظر: مجموع الفتاوى(١٧/ ٦٢).

المبحث التاسع

الاحتجاج بالقضاء والقدر

الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ما ترك من الواجبات، أو فعل من المعاصي، فان القدر يحتج به ويجب التسليم به عند المصائب، لا عند المعائب، ولقد جلى ابن قاسم هذه المسألة، فقال: «كل شيء قدره الله وقضاه من سائر الأشياء، فهو واقع حتماً لازماً كما قضاه، أي: كما حكم به وقدره، وسبق به علمه، وجرى به القلم، وفي الحديث القدسي: «**وإذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**»(١)، وموسى إنما لام آدم عليهما السلام على المصيبة التي حصلت بسبب فعله لا لكونه أذنب، فتضمن وجوب التسليم للقدر عند المصائب، لا عند الذنوب»(٢).

قال ابن أبي العز: «فإن قيل فما يقولون في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر إذ قال له أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاماً وشهد النبي ﷺ أن آدم حج موسى(٣) أي غلب عليه بالحجة؟

قيل: نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب للرواية كما فعلت القدرية ولا بالتأويلات الباردة؛ ، بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه؛ بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه، وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/ ٢٢١٥)، برقم(٢٨٨٩).

(٢) حاشية الدرة المضية (٦٢).

(٣) إشارة إلى حديث أبي هريرة في صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٢)، برقم(٢٦٥٢).

المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب، وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضى بالله ربًا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأما قول إبليس ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له، ألم تسمع قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، ولقد أحسن القائل:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن[1]»[2]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والعبد مأمور أن يصبر على المقدور، ويطيع المأمور، وإذا أذنب استغفر، كما، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قال طائفة من السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

---

(١) وهو من كلام أحد الخوارج الذي أرسل إلى مصر ليقتل عمرو بن العاصي، فقتل خارجة، فقال: ردت عمراً وأراد الله خارجة. أي أردت قتل عمر فلم يتفق إذ لم يرده الله تعالى، وأراد الله إنَّ أقتل خارجة، فوقع ما أراد الله تعالى انظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي (١/ ٢٩٢)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٥٥).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٥٤-١٥٥).

فمن احتج بالقدر على ترك المأمور، وجزع من حصول ما يكرهه من المقدور، فقد عكس الإيمان والدين، وصار من حزب الملحدين المنافقين، وهذا حال المحتجين بالقدر.

فإن أحدهم إذا أصابته مصيبة عظم جزعه، وقل صبره، فلا ينظر إلى القدر ولا يسلم له، وإذا أذنب ذنباً أخذ يحتج بالقدر، فلا يفعل المأمور، ولا يترك المحظور، ولا يصبر على المقدور، ويدعي مع هذا أنه من كبار أولياء الله المتقين، وأئمة المحققين الموحدين، وإنما هو من أعداء الله الملحدين، وحزب الشيطان اللعين، ... بل يترك طاعته متبعاً لهواه، ويحتج بالقدر، ولا يصبر إذا ابتلي، ولا ينظر حينئذ إلى القدر فان هذا حال الأشقياء، كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به»[1]، وبهذا تبين أن ابن قاسم رحمه الله سار في ركاب السلف وعلى طريقتهم في تقرير هذه المسألة المهمة، والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى(٢/ ٣٢٦-٣٢٧)، انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٦-٢٧).

المبحث العاشر
الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى

مذهب جمهور أهل السنة والجماعة، هو إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، وأن جميع أفعاله لا تصدر إلا لحكمة بالغة، ويحبها الله ويرضاها؛ لأن مما ينافي كماله وجلاله وحكمته أن تكون أفعاله صادرة منه من غير حكمة، ولا لغاية مطلوبة، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقد بين ابن قاسم العلة والحكمة في أفعال الله، فقال متسائلاً: «وهل يخلق تعالى لعلة أو لا؟ رجح الأول شيخ الإسلام، وابن قاضي الجبل[(١)] وغيرهما، وحكاه عن إجماع السلف، واحتج المثبتون للحكمة والعلة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وغير ذلك، والإجماع واقع على اشتماله على الحكم والمصالح»[(٢)].

فالله هو أحكم الحاكمين كل شيء يصدر منه سبحانه فهو محمود؛ لأنه لا يصدر إلا لحكمة، قال ﷺ: «فكل شيء يحسن من الله، وكل ما خلقه فهو نعمة وإحسان إلى عباده، يستحق عليه الشكر، وله سبحانه فيه حكمة تعود عليه، يستحق

---

(١) أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي الحنبلي شرف الدين ابن شرف الدين ابن قاضي الجبل، ولد في شعبان سنة ٦٩٣هـ، واشتغل بالعلم فبرع في الفنون وكان بارعاً في العلوم بعيد الصيت قديم الذكر وله نظم وذهن سيال وأفتى في شبيبته، ومن تصانيفه القصد المفيد في حكم التوكيد، ومسألة رفع اليدين وكانت وفاته في رجب سنة ٧٧١، ودفن عند والده بتربة جده الشيخ أبي عمر. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للعسقلاني (١/ ١٣٨-١٣٩)، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، لابن مفلح(٢/ ٣٦٥).

(٢) حاشية الدرة المضية (٥١).

أن يحمد عليها لذاته، لا يسأل عما يفعل لتمام حكمته وحمده وهم يسألون، بل هو محسن عدل، كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، محسن إلى العبد بلا سبب منه ولا يعاقبه إلا بذنبه، وإن كان قد خلق الأفعال كلها لحكمة له في ذلك»(١).

وبهذا يتضح أن ابن قاسم سار على مذهب السلف، وهو إثبات الحكمة في أفعال الله والحكمة تتضمن شيئين:

١. حكمة تعود إليه سبحانه، يحبها ويرضاها، وهي صفة له، تقوم به؛ لأن الله لا يوصف إلا بما قام به، فالله سبحانه يحب أن يعبد ويطاع، ويتاب إليه، ويرجى، ويخاف منه، ويتوكل عليه، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

٢. حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة يفرحون بها، ويلتذون بها، وهذه تكون في المخلوقات، والمأمورات التي فيها خيرهم، وصلاحهم في العاجل والآجل (٢).

و بذلك يتضح أن الحكمة العائدة إلى الله سبحانه، والمتعلقة بأفعاله نوعان:

١- حكمة مطلوبة لذاتها، كالحكمة من خلق الجن والإنس، وهي: عبادة الله، قال ابن قاسم: «لكنه تعالى وتقدس لا يخلق الخلق سدى هملا بلا أمر ولا نهي ولا حكمة؛ بل خلقهم لذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي يوحدون، وقال بعض السلف: إلا لآمرهم وأنهاهم، كما أتى في النص، أي: القرآني، كقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ومن السنة النبوية كقوله ﷺ: «وحق الله على العباد أن يعبدوه،

(١) المصدر السابق (٥٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى(٨/ ٣٥-٣٦)، شفاء العليل(٤٠٠)، منهاج السنة(١/ ١٤١).

ولا يشركوا به شيئاً»[١]، وغير ذلك، فاتبع الهدى باقتفاء المأثور، واتباع السلف»[٢].

٢- حكمة مطلوبة لغيرها، وتكون وسيلة إلى مطلوب لغيره، مثل خلق المرض الذي يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح[٣]، وقد وضح ذلك ﵀ في عدة مواطن، مرة بالتلميح، ومرة بالتصريح، من ذلك قوله: «والمراد نوعان، مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره قد لا يكون مقصوداً للمريد ولا مصلحة له فيه بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع الأمران بغضه وإرادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما»[٤]، وبذلك بين ﵀ أن الحكمة قد تكون وسيلة لحكمة مرادة لله.

وقال أيضاً: «وعلى العبد أن يوافق ربه فيبغض الذنوب ويمقتها؛ لأن الله يبغضها، ويرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجله، فهي من جهة فعل العبد لها مكروهة مسخوطة، ومن جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية؛ لأن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة، والعبد فعلها، وهي ضارة له، موجبة له العذاب، فنحن نكرهها وننهى عنها، كما أمرنا الله بذلك، ونعلم أن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة، فنرضى بقضائه وقدره، لأنا إذا نظرنا إلى إحداث الرب لذلك، للحكمة التي يحبها ويرضاها، رضينا لله بما رضيه لنفسه، فنرضاه ونحبه مفعولاً لله،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك(٥/ ٢٣١٢)، برقم(٥٩١٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٨)، برقم (٣٠).

(٢) حاشية الدرة المضية (٥١).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية(١/ ١١٩).

(٤) حاشية الدرة المضية(٥٢-٥٣).

مخلوقاً له، ونبغضه، ونكرهه فعلا للمذنب المخالف لأمر الله»(١).

وهذا الذي ذهب إليه ابن قاسم هو ما قاله وذهب إليه السلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وجمهور المسلمين يقولون الله حرم المحرمات فحرمت، وأوجب الواجبات فوجبت، فمعنا شيئان إيجاب وتحريم، وذلك كلام الله وخطابه، والثاني وجوب وحرمة، وذلك صفة للفعل، والله تعالى عليم حكيم علم بما تتضمنه الأحكام من المصالح فأمر ونهى لعلمه بما في الأمر والنهي والمأمور والمحظور من مصالح العباد ومفاسدهم وهو أثبت حكم الفعل، وأما صفته فقد تكون ثابتة بدون الخطاب وقد ثبت بالخطاب.

وبهذا يتضح فيما سبق أن الله لا يفعل لمجرد مشيئة بل لحكمة وغاية يعلمها سبحانه، قال الإمام ابن قيم: «وجمهور الأمة تثبت حكمته سبحانه والغايات المحمودة في أفعاله، فليس مع النفاة سمع ولا عقل ولا إجماع، بل السمع والعقل والإجماع والفطرة تشهد ببطلان قولهم، والله الموفق للصواب.

وجماع ذلك إن كمال الرب تعالى وجلاله، وحكمته، وعدله، ورحمته، وقدرته، وإحسانه، وحمده، ومجده، وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك وتشهد ببطلانه، وإنما نبهنا على بعض طرق القرآن، وإلا فالأدلة التي تضمنها إثبات ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وبالله التوفيق»(٢).

ولا يلزم من إثبات الحكمة في أفعال الله أن نعلم الحكمة في كلّ فعل؛ إذ قد تخفى الحكمة في بعض الأفعال، وقد لا تخفى، فلله الحكمة البالغة في تفصيل حكمه في خلقه وأمره، يعجز عنه معرفته عقول البشر(٣)، وقال الإمام الشوكاني(٤): «وذلك

---

(١) المصدر السابق (٦٣-٦٤).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٠٤).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١١٩).

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من =

لحكمة بالغة، تقصر عقول العباد عن تعقلها، والإطلاع على حقيقة أسبابها»[(١)].

*** هل لله أن يفعل لمجرد المشيئة لا لحكمة؟ «تنزيه الله عن الظلم».**

هذه المسألة مبنية على ما سبق، وقد اتضح أن مذهب السلف الذي سار عليه ابن قاسم هو إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، وأن مما ينافي كماله وتعظيمه أن تكون أفعاله وأحكامه صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة، بل محض المشيئة والإرادة، وهذا مذهب الأشاعرة الذين ينفون الحكمة في أفعال الله، ويقولون إن الله يفعل لمجرد مشيئة، فيجوز أن يعذب المطيع وأن ينعم الكافر؛ لأنه يفعل ما يشاء، فقال من قال: «للرب تعالى يعذب الخلق من غير ذنب»[(٢)].

قال ابن قاسم: «ليس هذا من قول السلف ولا من الثناء على الله، والنصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء، وأنه لا يبخس عاملا عمله، كتب على نفسه الرحمة، وحرم الظلم على نفسه، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، ويجب تنزيهه عن الظلم كما نزه نفسه عنه، ومعلوم بالضرورة أن الله حكم عدل يضع الأشياء في مواضعها، وإن كان وضعها في غير مواضعها غير ممتنع لذاته، لكنه لا يفعله؛ لأنه لا يريده، بل يكرهه ويبغضه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ليس من أهل السنة من يقول إن الله يعذب نبيًّا، ولا مطيعاً، ولا من يقول إن الله يثيب إبليس وفرعون؛ بل ولا يثيب عاصياً على معصيته، وهو سبحانه القائم على كل نفس بما كسبت، مجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الصادق الذي لا يخلف الميعاد، العدل الذي لا يجور ولا

=

أهل صنعاء، له ١١٤ مؤلفاً، منها: نيل الاوطار من أسرار منتقى الاخبار، ثماني مجلدات، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مجلدان، توفي سنة ١٢٥٠هـ انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(١) فتح القدير (٣/ ١٧٧)، انظر: منهاج السنة النبوية (١/ ١٤١-١٤٢).

(٢) حاشية الدرة المضية (٥٣).

يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلماً، باتفاق جميع الكتب والرسل[١]»[٢].

«فهو أحكم الحاكمين، لا يظلم مثقال حبة من خردل، وإن تك حسنة يضاعفها، فإذا ابتلى أحداً بالذنوب فهي عقوبة على عدم فعل ما خلق لأجله، وفطر عليه، فإنه خلق الخلق لعبادته وحده، ودلهم عليه بالفطرة، وجعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، وبعث الرسل لقيام الحجة، فمن لم يفعل ما أمر به، بأن زين له الشيطان المعاصي، عاقبه»[٣].

وبهذا بيّن ابن قاسم أن الله يفعل لحكمة، ونزه الله عن الظلم، وأن قول القائل إن الرب تعالى يعذب الخلق من غير ذنب مخالفة للكتاب والسنة، ومخالف لمقتضى حكمته، وكماله، وما خالف مقتضى الحكمة، والكمال، فإنه يستحيل؛ لأن تعذيب المطيع مثلا مستحيل لأن مقتضى الحكمة أن يثاب المحسن على إحسانه؛ لأنه لو عذب المحسن لكان فيه إخلاف لوعده سبحانه، والله ﷻ لا يخلف المعياد؛ لأنه ليس عاجزاً، ولا كاذباً سبحانه وتعالى، بل هو الصادق القادر فلا يخلف الميعاد[٤].

وقد جاء في الكتاب والسنة أن الله أعد للمتقين الجنات، وأعد للكافرين النار، وحرم الظلم على نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، والآيات في هذه المعنى كثيرة، وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي...»[٥].

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (١/ ٤٦٦).

(٢) حاشية الدرة المضية (٥٤).

(٣) المصدر السابق (٥٤-٥٥).

(٤) انظر: شرح العقيدة السفارنية (٣٤٥-٣٤٦).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، وفي كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧).

فإذا قال قائل: أليس الخلق كله ملكاً لله؟ وإذاً كان ملكاً لله أفلا يمكن أن يقال: إن له أن يفعل في ملكه ما يشاء؟

الجواب: بلى؛ ولكن نقول: إن الله أخبر عن نفسه سبحانه بأنه لا يظلم أحداً، فيكون تعذيب الخلق من دون ذنب ممتنعاً بمقتضى خبر الله سبحانه، وإلا فمن المعلوم أن الله يفعل في خلقه ما يشاء، ولكن الله كتب على نفسه عز وجل الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وأوجب على نفسه أن يثيب المطيع، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤][(١)].

(١) انظر: شرح العقيدة السفارنية (١٤٣).

المبحث الحادي عشر
فعل الأصلح بين الوجوب وعدمه

هذه المسألة متفرعة من مسألة التحسين والتقبيح العقليين(١)، والمذهب الحق الذي سار عليه ابن قاسم متبعاً طريق السلف هو أنه لا يصح أن يوجب أحد على الله شيئاً، ولا شك أن فعله تعالى كله صلاح وخير وعدل وحكمة، ولكنه تعالى لم يوجب على نفسه رعاية الأصلح لكل واحد من عباده، ولا شك أن الله سبحانه يفعل ما فيه صلاح العباد ونفعهم، وكل ذلك تفضل منه تعالى، وليس شيء من ذلك بواجب عليه تعالى، قال ابن قاسم ﷺ: «ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعمه المعتزلة، لكن هو سبحانه كتب ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً، فهو متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده، قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، كتب على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه الحق، لم يوجبه عليه مخلوق، قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق:

---

(١) المعتزلة هم الذين قالوا بهذا القول، وهو أن الحسن والقبح ذاتيان في الأشياء، فالحاكم بالحسن والقبح هو العقل، أي يعرف بالعقل، أن فعل هذا حسن أو قبيح، إما لذاته، أو صفة من صفاته لازمة له، والشرع فإنه كاشف، ومبين لذلك فقط.
المعتزلة قدموا العقل على كل شيء، وقاسوا الله بخلقه، فهم يوجبون على الله من جنس ما يجبون على العباد، ويحرمون عليه، من جنس ما يحرمونه على العباد، فهم مشبهة الأفعال، وهذا أدى بهم إلى القول بأن الله لا يخلق أفعال العباد؛ لأنه لو كان الخالق الله لها، ثم عذبهم عليها لكان ظالماً لهم، وهذا لا يجوز، كما هو الحال بالنسبة للمخلوقين فيما بينهم. انظر: مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٣١)، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، لدكتور: عبد الرحمن بين صالح المحمود (٢٤٨).

مـا للعبـاد عليـه حـق واجـب ... كـلا ولا سـعي لديـه ضـائع
إن عـذبوا فبعدلـه أو نعمـوا ... فبفـضله وهـو الكـريم الواسـع[(١)]»[(٢)]

ولكن ما هو ميزان معرفة الأصلح، أو عدمه للعبد؟

ميزان معرفة الأصلح هو الواقع الذي يتبين به، وأن هذا الفعل الذي أجراه الله عز وجل هو الأصلح، هو ما تقتضيه حكمته ﷻ، وإن كان بالنسبة لنا سيئاً، والله لا يفعل شيئا يكون فساداً، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وليس الأصلح كما يتوهمه المعتزلة الذين جعلوا مرجعه العقل؛ لأننا قد نظن هذا الشيء فسادا، وهو الأصلح عند الله، مثل خلق إبليس[(٣)]، ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، فكل هذه في ظاهرها مفاسد ومساوئ، فالعذاب من فوقنا من السماء ومن تحت أرجلنا كالزلازل، والبراكين، أو يذيق بعضنا بأس بعض من القتال والنزاع فيما بيننا، وكل هذه في ظاهرها سيئة؛ ولكن فيها مصلحة عظيمة؛ وهي أن نتوب إلى الله، ونرجع إليه حتى نتقي هذه العقوبات، ولله الحكمة البالغة التي تقصر عن إحاطتها عقول البشر[(٤)].

والقائلون بأن الله يجب عليه فعل الأصلح لعباده، هم المرجئة، قال ابن قاسم: «هذا قول المرجئة الجهمية، والذي عليه أهل السنة والجماعة أنه سبحانه إنما يأمر عباده بما فيه صلاحهم، وينهاهم عما فيه فسادهم، وأن فعل المأمور مصلحة عامة لمن فعله، وترك المنهي عنه مصلحة لمن تركه، ونفس الأمر، وإرسال

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦١).
(٢) حاشية كتاب التوحيد (٢٠).
(٣) للاستزادة راجع المبحث الخامس: إرادة الله الكونية لا تستلزم رضاه(٤٣٨).
(٤) انظر: شرح العقيدة السفارينية(٣٤٥)، شرح الدرة المضية، للفوزان(١٢٥).

الرسل، مصلحة عامة، وإن تضمن شرًّا للبعض.

ويثبتون الحكمة في أفعال الله، وأنه يفعل لنفع عباده، ومصالحهم، فقد أمر الخلق على ألسن رسله بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد هو سبحانه أن يخلق ذلك الفعل، ويجعله فاعلا له، ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها، غير أمره للعبد على وجه بيان ظاهر مصلحة للعبد، أو مفسدة، فإذا أمر العبد بالإيمان، كان قد بين له ما ينفعه، ويصلحه إذا فعله، ولا يلزمه تعالى إذا أمره أن يعينه؛ بل قد يكون في خلقه ذلك الفعل وإعانته عليه نوع مفسدة من حيث هو فعل له، فإنه يخلق سبحانه ما يخلق لحكمة.

ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور إذا فعل، أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو، أو جعل المأمور فاعلا له؛ بل قد تكون الحكمة تقتضي أن لا يعينه على ذلك، فإن الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره، من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة، وما من ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا معنى من المعاني إلا وهو شاهد لله بتمام العدل والرحمة وكمال الحكمة.

وما خلق سبحانه الخلق باطلاً، ولا فعل شيئاً عبثاً، بل هو الحكيم في أقواله وأفعاله، يفعل ويخلق ما يشاء لحكمة باهرة، وقد وقع الإجماع عند أهل السنة والجماعة على اشتمال أفعال الله على الحكم والمصالح»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما كونه لا يفعل ما هو الأصلح لعباده، أو لا يراعي مصالح العباد فهذا مما اختلف فيه الناس.

فذهبت طائفة من المثبتين للقدر إلى ذلك، وقالوا خلقه وأمره متعلق بمحض المشيئة لا يتوقف على مصلحة، وهذا قول الجهم، وذهب جمهور العلماء إلى أنه إنما أمر العباد بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وأن فعل المأمور به

---

(١) حاشية الدرة المضية (٥٦-٥٧).

مصلحة عامة لمن فعله، وأن إرساله الرسل مصلحة عامة، وإن كان فيه ضرر على بعض الناس لمعصيته، فإن الله كتب في كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي[١] وفي رواية إن رحمتي سبقت غضبي[٢] أخرجاه في الصحيحين عن ﷺ[٣].

فمذهب أهل الحق أن لا واجب على الله أصلاً بل هو يتصرف في مملكته على حسب إرادته ومشيئته»[٤].

«والقول بالأصلح يوجب نهاية القدرة، وتنفيذ ما في الخزائن، وتعجيز الله تعالى عن ذلك؛ لأنه إذا فعل بهم غاية الصلاح فليس وراء الغاية شيء، فلو أراد أن يزيدهم على ذلك الصلاح صلاحاً آخر، لم يقدر عليه، ولم يجد بعد الذي أعطاهم ما يعطيهم مما يصلح لهم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري صحيحه في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٦/ ٢٦٩٤)، برقم(٦٩٦٩)، مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٧)، برقم(٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢]، (٦/ ٢٧٤٥)، برقم(٧١١٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (٤/ ٢١٠٨)، برقم(٢٧٥١) بنحوه.

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٤٦٢).

(٤) مسألة الغنية في أصول الدين (١/ ١٣٩-١٤٢).

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف، لابن الكلاباذي (١/ ٥٠).

المبحث الثاني عشر

الهدى والضلال

إن هذه المسألة مرتبطة بمسالة أفعال العباد، والذي عليه مذهب أهل السنة والجماعة، أن الهداية والإضلال من فعل الله تعالى، فالله جل وعلا يهدي من يشاء ويضل من يشاء، يهدي من يشاء، فضلا منه سبحانه، ويضل من يشاء عدلا منه سبحانه، والاهتداء والضّلال من فعل العبد، أي: أنه فاعل الهدى والضلال والطاعة والمعصية على الحقيقة، وليس فاعل ذلك أحد غيره[(١)].

والهداية على قسمين:

١. هداية دلالة وإرشاد، وهذه حاصلة لكل الخلق، للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، بيّن الشوكاني أن الهداية في هذه الآية هي: «هداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسل، وإنزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول، والأفهام، والأسماع، وبالأبصار»[(٢)].

٢. هداية توفيق وإلهام، وهي خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقد بين ابن قاسم هذين القسمين، في قوله: «يطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلوب من الإيمان، ويراد به بيان الحق وتوضيحه، والدلالة عليه والإرشاد إليه»[(٣)]، وقال في موضع آخر: «الهداية الخاصة وهي هداية التوفيق والإلهام

---

(١) انظر: حاشية الروض المربع (٦/ ٢٤٤)، لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٣٤)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٥٥).

(٢) البدر الطالع، للشوكاني(٢/ ٢١٩).

(٣) حاشية مقدمة التفسير (٩).

المستلزمة للاهتداء، وأما الهداية العامة كقوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فإنها لا تستلزم الاهتداء التام، وكذا هداية البيان العام كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، لا تستلزم الاهتداء التام، وكذا الهدى بالبيان والدلالة إن لم يقترن به هدى آخر بعده، لم يحصل به الاهتداء، الذي هو هدى التوفيق والإلهام، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧]، وهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من ضل، فلم يطرد عن بابه من يليق به التقريب، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد»[1].

هذا ما وضحه ابن قاسم في معنى الهداية والإضلال، وهو موافق لما قرره الله تعالى في كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، وجمهور أهل العلم.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: «نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها»[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: «فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها»[3].

«وعلى هذا فإن إسناد الهداية والإضلال إلى الله تعالى إسناد من حيث إنه خالق

---

(١) حاشية الدرة المضية (٥٧-.٥٨)، انظر: حاشية الروض المربع (٢/ ١٩١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٠/ ٨٣-٨٤).
(٣) المصدر السابق(٢٠/ ٨٤).

أفعال العباد، وضع نظام الأسباب والمسببات، لا أنه جبر الإنسان على الضلالة والهداية.

فمن أراد الله هدايته للحق يوفقه للإيمان، ويعينه على العمل الصالح، وييسر له سبله، ويجعل له القبول في نفسه، ومن أراد إضلاله يجعل صدره ضيقاً حرجاً، ويجعل على قلبه أكنّة تحول بينه وبين الإيمان، والعمل الصالح، فختم على قلبه، وطبع عليه، وفامتنع بذلك من وصول الهدى إليه»[١].

قال الإمام ابن القيم: «وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم، على أنه سبحانه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال، أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه»[٢].

(١) منهج الإمام الشوكاني في العقيدة، للدكتور عبد الله نومسوك (١/ ٢١٠) بتصرف.
(٢) شفاء العليل (١/ ٦٥).

المبحث الثالث عشر
الثواب والعقاب

إن الله ﷻ جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التي يقوم بها الإنسان أثرا في مجازاته، وبحسب هذا الأثر يكون الجزاء من الثواب والعقاب(١).

والثواب فضل من الله ﷻ، والعقاب عدل منه ﷻ في مجازاته لأعمال العبد، فهو سبحانه إذا أثاب المطيع فإن ذلك محض فضله، ولكن هذا الفضل أوجبه الله على نفسه؛ لكرمه سبحانه، وهذا الإيجاب لا يتخلف؛ لأنه لو تخلف لكان مخلفاً الميعاد -حاشاه عن ذلك - لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، فلابد من أن يتحقق ما وعد الله به(٢).

إذن فضله سبحانه على عبده من جهة فعله نوعان:

١. إثابة العبد على الطاعة، وليس هذا من باب مقابلة العبد على فعله، ولكن هذا من فضله سبحانه، وفعل العبد للطاعات سبب في رحمته.

٢. عفوه سبحانه عن العاصي، فإنه يعتبر عفوه عن ذنوب العبد، ومعاصيه إثابة؛ لأن ترك العقوبة إحسان، وفضل من الله على عبده إلا الشرك، فإن الله لا يغفره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا من فضل الله.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٤٨٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى(١/ ٢١٨)، شرح العقيدة الطحاوية(١/ ٥٠٩، ٥١١، ١١٥)، شفاء العليل(١/ ١١١، ١١٤).

أما عقاب من الله فهو عدل منه سبحانه، فالله منزه عن الظلم، وحرمه على نفسه، وإنما حرم على نفسه ما هو قادر عليه، ولكنه سبحانه لا يفعله لغناه، وعلمه بقبحه، ولإخباره أنه لا يفعله، ولكمال نفسه، ولذلك يمتنع وقوع الظلم منه، إذ كان العدل والرحمة من لوازم ذاته، فيمتنع اتصافه بنقيض صفات الكمال(١).

وبهذا يكون العقاب عدلا من الله سبحانه للعبد متى ما وجد سببه، وهي: المعاصي والذنوب، وهي: ترك ما أمره به، وفعل ما نهاه عنه.

وقد بين ابن قاسم رحمه الله مذهب السلف في هذه المسألة، فقال رحمه الله: «فإن يثيب عباده المطيعين...، فإن إثابته من فضله وكرمه، وإن كان واجباً بحكم وعده باتفاق المسلمين، وبما كتبه على نفسه من الرحمة، وأن يعذب عباده لعتوهم وعصيانهم فبمحض عدله الخالص، من شائبة الظلم باتفاق المسلمين، وهو أرحم الراحمين، فلا يلوم العبد إلا نفسه، ولو لا فرط عتوهم وإبائهم عن طاعته واستحقاقهم للعذاب لما عذبهم، وهو الحكم العدل، وكما أنه منزه عن صفات النقص والعيب، فهو منزه عن أفعال النقص والعيب، وأي نقص أفظع من الظلم.

وليس في مخلوقه ما هو ظلم منه، وإن كان بالنسبة إلى الإنسان هو ظلم، فهو ظلم من الفاعل الذي قام به الفعل، لا من الخالق جل وعلا، فإن أفعال عباده نوع آخر، والله تعالى لا تقوم به أفعال العباد ولا يتصف بها، ولا تعود إليه أحكامها، التي تعود إلى موصوفاتها، وقد فرق السلف بين فعله سبحانه، بين ما هو مفعول مخلوق له، فحركات المخلوقات ليست حركات له، ولا أفعالاً له بهذا الاعتبار، لكونها مفعولات هو خلقها، وإنما الظالم من فعل الظلم.

وأجمع السلف أن العبد مأمور بطاعة الله، منهي عن معصيته، فإن أطاع كان ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه، وكان له الأجر والثواب، بفضل الله ورحمته، وإن عصى كان ظالماً لنفسه مستحقاً للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة، ولا حجة

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٧)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٠٨)، التوسل والوسيلة (١/ ٦١).

لأحد على الله، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته، لكنه تعالى يحب الطاعة، ويأمر بها، ويثيب عليها، ويبغض المعصية، وينهى عنها، ويعاقب عليها، وإن شاء عفا عن المذنب من المؤمنين»[١].

***

(١) حاشية الدرة المضية (٥٥-٥٦)، انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٢)، شفاء العليل (١/ ١١٤).

الفصل الثاني عشر

جهوده فيما يجب للصحابة ﭫ

المبحث الأول

تعريف الصحابي لغة، واصطلاحًا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الصحابي لغة:

الصحابة: جمع صحابي، وهو: مشتق من الصحبة، والصحبة مصدر صحب فهو صاحب[١].

قال ابن فارس: «الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربته من ذلك الصاحب والجمع الصحب»[٢].

المطلب الثاني: تعريف الصحابة اصطلاحًا:

عرف ابن قاسم ﷺ الصحابة، فقال: «وصحبه جمع صاحب، والمراد هنا: أصحاب النبي ﷺ، وهم من اجتمع به مؤمناً، ومات على ذلك»[٣]، وهذا هو تعريف المحققين من أهل العلم[٤].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ١٥٣)، لسان العرب (١/ ٥١٩)، القاموس المحيط (١/ ١٣٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٥).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٣).

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٤)، الإصابة (١/ ١٥٩-١٦٠)، مقدمة ابن الصلاح (١/ ٢٩١)، تدريب الراوي، للسيوطي (٢/ ٢٠٨)، وما بعدها.

المبحث الثاني

مذهب أهل السنة في الصحابة

مذهب أهل السنة والجماعة في الصحابة قائم على أصلين، هما:

الأول: فضيلتهم على الأمم بعد أنبيائها عليهم السلام.

بين ابن قاسم فضل الصحابة على الأمم بعد أنبيائها عليهم السلام، مستدلاً بالكتاب والسنة والعقل على بيان فضلهم. وعلو كعبهم في الإسلام، فقال: «وليس في الأمة المحمدية المفضلة على سائر الأمم كالصحابة الكرام، العدول بنص الكتاب العزيز والسنة المتواترة، وإجماع الأئمة[1]، وسائر السلف، فهم الذين فازوا بصحبة خير البرية.

قال الله تعالى خطاباً لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

فليس في سائر الأمة مثل الصحابة في الفضل لما في الصحيحين: «**لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[2].

وفيهما: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[3].

وليس في الأمة كالصحابة في المعروف، -وهو اسم جامع لكل ما عرف من

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح (١/ ٢٩٤)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣/ ١٣٤٣)، برقم(٣٤٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم ومن صحب النبي ﷺ، أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه (٣/ ١٣٣٥)، برقم (٣٤٥٠).

طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس-، وليس في الأمة أيضاً كالصحابة في الإصابة للحكم المشروع، فهم أحق الأمة بإصابة الحق والصواب، فهم سادات الأمة، وقدوة الأئمة، وأعلم الناس بكتاب الله، وسنة نبيه، وشاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، قال ابن مسعود: من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[(١)].

ومن نظر في سيرتهم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله»[(٢)].

واستدل ابن قاسم على فضل الصحابة ﷺ بأدلة من النقل والعقل:

أما الأدلة النقلية فهي: قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: عدلاً خياراً. وقال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨]»[(٣)].

وأما الأدلة العقيلة فهي:

١. رؤيتهم رسول الله ﷺ، قال رحمه الله: «فإن الصحابة ﷺ قد شاهدوا المختار من سائر الأنام، محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام، وصحبوه وعاينوا في صحبتهم له الأسرار القرآنية»[(٤)].

٢. حضروا التنزيل: وهو الوحي على رسول الله ﷺ قال رحمه الله: «وعلموا التنزيل

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧)، ذم التأويل (١/ ٣٢).
(٢) حاشية الدرة المضية (١٢٣-١٢٤).
(٣) المصدر السابق (١٢٤).
(٤) المصدر السابق (١٢٤).

وأسبابه وعاينوا الأنوار المشرقة من الكتاب والسنة، فهم أسعد الأمة بالفضل وإصابة الصواب وأجدر بفقه السنة والكتاب»[١].

٣. جهادهم مع رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «جاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله حتى ظهر دين الإسلام الذي به الهدى والدلالة والفوز والفلاح، وقد علا على سائر الأديان، فسائر الأديان غيره منسوخة، وكل عبادة لم يأت بها فباطل، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]»[٢].

وهذا ما قرره أهل العلم، قال الإمام اللالكائي[٣]: «فهؤلاء الذين تعهدت بنقلهم الشريعة، وانحفظت بهم أصول السنة، فوجبت لهم بذلك المنة على جميع الأمة، والدعوة لهم من الله بالمغفرة، فهم حملة علمه، ونقله دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه فحرى أن يكونوا أولى الناس به في حياته ووفاته.

وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه ومعولها عليهم فيما يختلف فيه من أموره»[٤]، وقال الإمام القرطبي: «الصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة»[٥]، ومن«تأمل أعظم فضائلهم ومناقبهم التي نوه بها ﷺ حيث جعل محبتهم محبة له وبغضهم بغضاً له وناهيك بذلك جلالة لهم وشرفاً فحبهم عنوان محبته وبغضهم عنوان بغضه...

وإنما يعرف فضائل الصحابة من تدبر سيرهم معه ﷺ وآثارهم الحميدة في

---

(١) المصدر السابق (١٢٤).

(٢) المصدر السابق (١٢٤).

(٣) هو: هبة الله بن الحسن الطبري، أبو القاسم اللالكائي، الحافظ الفقيه الشافعي، توفي سنة٤١٩هـ انظر: العبر في خبر من غبر (٣/ ١٣٢)، طبقات الحفاظ (١/ ٤٢١)

(٤) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٢٣)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٢)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٢٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٧٩-٣٨٠).

(٥) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٩٩).

الإسلام في حياته، وبعد مماته فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأكمله وأفضله فقد جاهدوا في الله حق جهاده حتى نشروا الدين وأظهروا شرائع الإسلام ولولا ذلك منهم ما وصل إلينا قرآن ولا سنة ولا أصل ولا فرع»[(١)].

الثاني: الإمساك عن مساوئهم وما شجر بينهم:

ذكر ابن قاسم ﵀ أن «عقيدة أهل السنة والجماعة الإمساك عما شجر بينهم[أي الصحابة] ويقولون: إن الآثار المروية في مساوي بعضهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، والخطأ مغفور لهم، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم.

وإذا كان قد صدر من أحد منهم ذنب، فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء كفر به عنه، والذي ينكر من فعل بعضهم، قليل نزر، مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، فإنهم صفوة هذه الأمة وأكرمها على الله»[(٢)]، ثم حذر من الخوض فيما شجر بينهم، وبين خطورته، فقال: «لو كنت تدري غب ذلك الخوض المفضي إلى الحقد على أصحاب رسول الله ﷺ وليس في ذلك ما ينتفع به في الدين وإنما ذلك من أعظم الذنوب، فإنهم خير القرون، وهم السابقون الأولون، وذلك فيما جرى بين علي ومعاوية وقبلهما وبعدهما فإن النزاع والقتال الذي جرى بينهما كان عن اجتهاد قد صدر من كل من الفريقين»[(٣)].

وأن الخوض في أعراضهم هي طريقة الروافض والنواصب، التي حذر السلف

---

(١) الزواجر، لابن حجر الهيتمي (٢/ ٩٤٤).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٢٦)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٤٠٦).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢٥ -١٢٦)، انظر (٥١٥) من هذا البحث.

منها، فقال رحمه الله: «والسلف ﷺ تبرؤوا من طريقة الروافض الذين يبغضونهم ويسبونهم، ومن طريقة النواصب[١]، الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل»[٢]، وبه قال السلف[٣]، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «ومن الحجة الواضحة الثابتة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين والكف عن ذكر مساويهم، والخلاف الذي شجر بينهم»[٤].

---

(١) النواصب هم: الذين نصبوا العداء لأهل البيت، ومن والاهم، ويسبونهم ويقدحون فيهم، وهم الذين استحلوا قتل علي ﷺ، وجعلوه كافرا، وقتله أحد رؤوسهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، فهؤلاء النواصب الخوارج من المعتزلة والمروانية وغيرهم المارقون، إذ قالوا إن عثمان وعلي بن أبي طالب ومن معهما كانوا كفاراً مرتدين، فهم على النقيض من الروافض الذين غلوا في أهل البيت حتى ادعوا أن عليًا ﷺ إله، وأبغضوا الصحابة، وقدحوا فيهم، وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ.
انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٨)، (٤/ ٥١٨)، منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٨٦)، شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (٢/ ٢٨٣).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٢٦-١٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٢٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠).

المبحث الثالث

ترتيب الصحابة في الفضل

الصحابة كلهم أفضل الأمة على الإطلاق، وأفضلهم العشرة المبشرون بالجنة، وهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير ابن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين، وأفضل العشرة الخلفاء الأربعة وهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فأفضل الصحابة أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم على بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ثم يأتي بقية العشرة ثم يأتي بعدهم في الفضل أهل بدر، ثم بعدهم أصحاب الشجرة ثم أصحاب أحد، وقد قيل: إن أصحاب أحد أفضل ثم يأتي بقية المهاجرين، ثم بقية الأنصار، هذا ترتيبهم إجمالاً[1]، وقد فصل ابن قاسم رحمه الله ترتيبهم على النحو التالي:

١. أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

أبو بكر رضي الله عنه أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم السلام، قال ابن قاسم: «ليس في هذه الأمة بالتحقيق الثابت المنصوص في الفضل بجميع أنواع الفضائل والشجاعة والعلم وكمال العقل وبذل المعروف وغير ذلك من مكارم الأخلاق، كأبي بكر بن عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة، الصديق رضي الله عنه أول الناس إيماناً بالنبي ﷺ وتصديقاً له، صحبه من حين أسلم إلى أن توفي، وشهد معه المشاهد كلها، وكان خليفته الراشد، ومناقبه أشهر من أن تذكر.

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٢-١٥٣)، فتح الباري (٧/ ٥٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣١٢).

فهو أفضل الناس بعد الأنبياء بإجماع أهل السنة والجماعة[١]، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ١٨]، حكى ابن الجوزي الإجماع، أنها نزلت في حقه، [٢]، وأنفق ماله على رسول الله ﷺ، ولما قيل له ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: أبو بكر[٣]، وقال: لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً»[٤]، توفي ﷺ، وله ثلاث وستون، وكانت خلافته سنتين وأشهراً، دفن بجنب النبي ﷺ »[٥].

٢. عمر بن الخطاب ﷺ:

قال ابن قاسم ﷺ: «وبعد أبي بكر في الأفضلية المحدث الملهم عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب الفاروق ﷺ، سمي فاروقاً؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل، أو لأنه أعلن بالإسلام والناس يخفونه، أسلم في السادسة من البعثة، وله سبع وعشرون سنة، قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[٦]، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «إن يكن في أمتي محدَّث فعمر»[٧]، وقال: «لو لم أبعث فيكم لبعث عمر»[١]، وفي فضله

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣١٢).

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي(٩/ ١٥٢).

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، وصححه في كتاب معرفة الصحابة، في ذكر الصحابيات من أزواج رسول الله ﷺ وغيرهن رضي الله تعالى عنهن (٤/ ١٣)، برقم(٦٧٣٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب في الخلافة والإمارة، ذكر الإباحة للإمام تخويف رعيته بما ليس في خلده إمضاؤه (١٠/ ٤٠٤)، برقم(٤٥٤٠)، الترمذي في سننه، وحسنه كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب من فضل عائشة رضي الله عنها (٥/ ٧٠٦)، برقم(٣٨٨٦) ولكن بلفظ "أبوها".

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً (٣/ ١٣٣٨)، برقم (٣٤٥٦).

(٥) حاشية الدرة المضية (١١٣)، انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٦٣) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣١٣-٣١٧).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، (٣/ ١٤٠٣)، برقم(٣٦٥٠).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي =

أحاديث كثيرة[٢].

ولي الخلافة بعد الصديق، سنة ثلاث عشرة، وقام بها أتم قيام، وفي أيامه كانت فتوح الأمصار، وكان أفضل هذه الأمة بعد الصديق بإجماع السلف...، مات شهيدا طعنه أبو لؤلؤة[٣] في المسجد النبوي، سنة ثلاث وعشرين، ودفن في الحجرة النبوية، بجنب أبي بكر، مع النبي ﷺ»[٤].

٣. عثمان بن عفان رضي الله عنه:

قال ابن قاسم رحمه الله: «وبعد أمير المؤمنين عمر في الأفضلية عثمان بن عفان بن الحارث بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف، ولد في السادسة من الفيل، وأسلم قديماً وهاجر الهجرتين وتزوج بنتي رسول الله ﷺ فسمي ذا النورين، وجمع القرآن وجهز جيش العسرة.

ولي الخلافة بعد عمر بإجماع الصحابة...، وفضائله أكثر من أن تحصر، استشهد في داره سنة خمس وثلاثين، وله بضع وثمانون»[٥].

= العدوي رضي الله عنه (٣/ ١٣٤٩، برقم(٣٤٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٤)، برقم(٢٣٩٨).

(١) أخرجه ابن رجب في فضائل الصحابة، ومن فضائل عمر بن الخطاب، (١/ ٤٢٨)، برقم (٦٧٦)، وضعفه ابن الجوزي في الموضوعات، (١/ ٢٣٨)، ولكن المعروف «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»، أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٥/ ٦١٩)، برقم (٣٦٨٦).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب...، (٣/ ١٣٤٦-١٣٥١)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٥٨-١٨٦٦).

(٣) هو: فيروز أبو لؤلؤة الديلمي غلام المغيرة بن شعبة، وكان مجوسياً، وقيل نصرانيا وبعد طعنه لعمر رضي الله عنه قتل نفسه سنة ٢٣هـ. انظر: الوافي بالوفيات (٢٤/ ٧٢-٧٣)، الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤٦).

(٤) حاشية الدرة المضية(١١٤)، انظر: الاستيعاب، لابن عبد البر(٣/ ١١٤٤) لوامع الأنوار البهية(٢/ ٣١٧-٣٢٨).

(٥) حاشية الدرة المضية (١١٤)، انظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٣٧-١٠٣٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٢٨-٣٣٤).

٤. علي بن أبي طالب ﷺ:

قال ابن قاسم ﷺ: «وبعد عثمان فالفضل الشامخ باتفاق السلف...، لعلي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء...، وكان ﷺ أنزع الشعر[١]، له بطن، مجدل الأبطال...، وكان قتل من الأبطال عدة، منهم الوليد ومرحب[٢]، وغيرهما، ماضي العزم»[٣]، «كثير السخاء مظهر العلوم والفهوم مهلك أعدائه ومتلفهم»[٤].

ثم ذكر مبايعة الصحابة لعلي ﷺ فقال ﷺ: «بايعه الناس بالمدينة بعد قتل عثمان رضي الله عنهما، واتفق السلف على فضله وخلافته بعد عثمان، وأقروا بأن معاوية ﷺ ليس كفؤاً لعلي في الخلافة، ولا يجوز أن يكون معاوية خليفة مع إمكان استخلاف علي، لسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله، ولما قتل عثمان لم يبق لها معين إلا علي»[٥].

* الخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما:

الخلاف بين الأمة شر، وغير مرغوب فيه، ولكن قد يقع لسبب، أو لآخر، والأصل في الخلاف بين الصحابة أنه مبنى على اجتهاد كل منهم، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، ونحن مأمورون بالكف عما حصل بينهم، وقد بين ابن قاسم، سبب الخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فقال ﷺ: «وإنما وقع ما وقع بسبب قتل عثمان، فرأى علي: أن لهؤلاء شوكة وهم

---

(١) أنزع الشعر: انحسار مقدم شعر الرأس عند جانبي الجبهة انظر: لسان العرب (٢/ ٤٢٤)، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (١/ ٥٢٧).

(٢) مرحب اليهودي. من أهل خيبر، وكان صاحب حصن، قتله علي بن أبي طالب بعد مبارزته. انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٨٧) تاريخ الطبري (٢/ ١٣٥)، السيرة النبوية (٤/ ٣٠٣).

(٣) حاشية الدرة المضية (١١٥).

(٤) حاشية الدرة المضية (١١٥)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٣٤-٣٣٧).

(٥) حاشية الدرة المضية (١١٥-١١٦)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٣٩).

خارجون عن طاعته...، وهم رأوا: أن عثمان قتل مظلوماً وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، وعلي يحلف -وهو البار الراشد، بلا يمين -أنه لم يقتله، ولا رضي بقتله، ولم يمالئ على قتله، وهذا معلوم بلا ريب.

ثم إن طلحة والزبير رضي الله عنهما خرجا إلى مكة وسارا بعائشة رضي الله عنها إلى البصرة، فخرج علي ﷺ إلى العراق، ولم يقصدوا القتال ابتداء، وإنما صارت وقعة الجمل بغير اختيار، وكانوا قد اتفقوا على المصلحة وإقامة الحدود على قتلة عثمان ﷺ.

فتواطأت القتلة على إقامة الفتنة فحملوا على طلحة والزبير وأصحابهما، فحملوهم دفعا عنهم، وأشعروا عليًّا إنما حمل عليه، فحمل علي دفعاً عن نفسه وكان كل منهم قصده دفع الصيال، لا ابتداء القتال.

وكذلك خرج معاوية ﷺ ومن معه من أهل الشام فالتقوا بصفين، وقتل عمار وكان مع علي، وقد قال فيه النبي ﷺ: «**تقتلك الفئة الباغية**»(١)، وإن كانوا لم يقصدوا القتال ابتداء، وإنما أثاره أهل الفتنة، وعلي ومعاوية رضي الله عنهما أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غلبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها »(٢)، وابن قاسم يرى أن علياً هو أحق بالخلافة، ولذلك قال عن معاوية ﷺ: «ومعاوية ﷺ مجتهد مخطئ، وسابقته وفضائله مشهورة»(٣)، واستمرت خلافة علي ﷺ خمس سنوات إلا شهرين، ثم استشهد على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، (٤/ ٢٢٣٦)، برقم(٢٩١٦).

(٢) حاشية الدرة المضية (١١٦-١١٧)، انظر: الاستيعاب(٣/ ١٠٨٩-١١٣٣)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٤٠-٣٤٤).

(٣) حاشية الدرة المضية (١١٧).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٦/ ١٩٨)، مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٨)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٤٥).

ثم بين ابن قاسم مذهب السلف في ترتيب خلافة الخلفاء الراشدين، فقال ﷺ: «واتفق السلف أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ»[(١)]، هذا ما قرره ابن قدامة في بيان عقيدة السلف فقال عن أبي بكر: «وهو أحق خلق الله بالخلافة بعد النبي ﷺ لفضله وسابقته وتقديم النبي ﷺ له في الصلاة على جميع الصحابة ﷺ، وإجماع الصحابة على تقديمه ومبايعته، ولم يكن الله ليجمعهم على ضلالة، ثم من بعده عمر ﷺ لفضله، وعهد أبي بكر إليه، ثم عثمان ﷺ لتقديم أهل الشورى له، ثم علي ﷺ لفضله، وإجماع أهل عصره عليه»[(٢)].

ثم قال ابن قاسم ﷺ: «فحب أمير المؤمنين علي ﷺ كحب الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان حتماً وجب على جميع الأمة باتفاق الأئمة، ومن تعدى في حبه أو لم يقل بفضل الخلفاء على ترتيب الخلافة أو قلاهم، أي: أبغضهم، أو واحداً منهم فقد كذب في كل واحدة من الخصلتين، من تعديه في الحب، أو بغضه لهم أو لأحدهم، رضي الله عنهم أجمعين »[(٣)]، وهذا قول عامة أهل السنة[(٤)].

ثم يأتي بعد الخلفاء الراشدين في الفضل: العشرة المبشرون لهم بالجنة، قال ابن قاسم ﷺ: «وبعد الخلفاء الراشدين فالأفضل من سائر الصحابة باقي العشرة المشهود لهم بالجنة، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وروى الترمذي وأبو داوود وغيرهما أنه ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة ابن

---

(١) حاشية الدرة المضية (١١٧)، انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٣)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٥٣٣).

(٢) لمعة الاعتقاد (١/ ٣٠).

(٣) حاشية الدرة المضية (١١٧).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٣)، فتح الباري (٧/ ١٦-٣٤)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٤٣).

الجراح في الجنة»[١]، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وأحد الستة: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، أسلم قديماً وشهد المشاهد كلها غير بدر، وثبت مع النبي ﷺ يوم أحد ووقاه بيده، وشلت أصبعه، وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جراحة، وسماه النبي ﷺ طلحة الخير، وقتل في وقعة الجمل، وله أربع وستون[٢].

الثاني: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، حواري رسول الله ﷺ وأمه صفية عمة رسول الله ﷺ، أسلم قديما وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، أول من سل السيف في سبيل الله، وثبت يوم أحد، وقتل في وقعة الجمل وله أربع وستون[٣].

الثالث: سعد بن أبي وقاص، مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، أسلم قديماً، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وشهد المشاهد كلها، قال له النبي ﷺ يوم أحد: « ارم فداك أبي وأمي»[٤]، مات بقصره في العقيق ودفن بالبقيع سنة إحدى وخمسين وله بضع وسبعون[٥].

الرابع: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، أسلم قديماً وشهد المشاهد كلها غير بدر، فإنه كان مع طلحة يطلبان خبر عير قريش، وضرب لهما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ، (٥/ ٦٤٧)، برقم (٣٧٤٧)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الخلفاء، (٤/ ٢١١)، برقم(٤٦٤٩)، وأحمد بن حنبل في مسنده (١/ ١٩٣)، برقم(١٦٧٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح(٣/ ٣٣٤).

(٢) انظر: الاستيعاب (٢/ ٧٦٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ٥١٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الرجل: فداك أبي وأمي (٥/ ٢٢٨٧)، برقم (٥٨٣٠)، مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص (٤/ ١٨٧٦)، برقم(٢٤١١).

(٥) انظر: الاستيعاب (٢/ ٦٠٦-٦١٠).

بسهميهما، مات بالعقيق ودفن بالمدينة سنة إحدى وخمسين، وله بضع وسبعون[١].

الخامس: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة، أسلم قديماً وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها وثبت يوم أحد وجرح عشرين جراحة أو أكثر وعرج، مات سنة اثنتين وثلاثين، وله اثنتان وسبعون[٢].

السادس: أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث ابن فهر، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وشهد المشاهد كلها، وثبت يوم أحد، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله ﷺ من حلق المغفر، فوقعت ثناياه، مات في طاعون عمواس[٣] بالأردن سنة ثماني عشرة»[٤].

ثم يأتي بعد العشرة المبشرين بالجنة: أهل غزوة بدر، وذلك بقوله: «وبعد العشرة الذين يلونهم في الأفضلية أهل غزوة بدر العظمى، وهي البطشة الكبرى، ويوم الفرقان؛ أن الله فرق فيها بين الحق والباطل، وأعز فيها أهل الإسلام، وقمع عبدة الأصنام، وبدر قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة، وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

وكان عدة المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ألف وزيادة، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، وقتل من الكفار سبعون وأسر سبعون، وفي الصحيح: «**إن الله اطلع على أهل بدر ، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٥]، وأخرج أحمد بسند صحيح من حديث جابر: «**لن يدخل النار رجل شهد**

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ٦١٤-٦٢٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (/ ٨٤٤).

(٣) عمواس: بلدة في فلسطين على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس. انظر: معجم البلدان (٤/ ١٥٧).

(٤) حاشية الدرة المضية (١١٨-١١٩)، انظر: الاستيعاب (٢/ ٧٩٢)، لوامع الأنوار البهية (٢/٣٥٧-٣٦١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مغازي، باب غزوة الفتح وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة...(٤/١٥٥٧)، برقم (٤٠٢٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة، باب =

بدراً أو الحديبية»[(١)]»[(٢)].

ثم يأتي بعد أهل غزوة بدر: **أهل الشجرة**، وذلك بقوله: «ثم أهل الشجرة، أي: ثم بعد أهل بدر في الأفضلية: أهل بيعة الرضوان تحت الشجرة سمرة بالحديبية، سميت ببئر هناك على مرحلة من مكة، وأمر عمر ﷺ بقطع تلك الشجرة، وإخفاء مكانها، خشية الافتتان بها، لما بلغه أن أناساً يذهبون إليها فيصلون تحتها، ويتبركون بها، وقال: كان رحمة من الله، يعني إخفاؤها.

وسبب البيعة: أن قريشاً لما منعت رسول الله ﷺ من دخول المسجد الحرام، بعث عثمان لهم ليخبرهم أنهم إنما جاؤوا للعمرة، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، ثم بلغه أنهم قتلوه، فدعا الناس إلى البيعة وقال: لا نبرح حتى نناجز القوم. فبايعوه، وكانوا ألفاً وأربعمائة، ثم تبين كذب الخبر، وقدم عليه عثمان ووقع الصلح على أن يرجع، ويعتمر من العام المقبل، وذلك سنة ست، فرجع ثم اعتمر عمرة القضية»[(٣)].

*** ترجيح فضيلة أهل الشجرة على أهل غزوة أحد:**

تنازع أهل العلم أيهم أفضل أهل بيعة الرضوان أم أهل عزوة أحد على قولين، ورجح ابن قاسم القول بأفضلية أهل البيعة على عزوة بدر؛ لأن أهل بيعة الرضوان

= من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، (٤/ ١٩٤١)، برقم(٢٤٩٤).، والحاكم في مستدركه على الصحيحين، ذكر أهل بدر، (٤/ ٨٨)، برقم(٦٩٦٨) ولفظ له، فقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذا اللفظ على اليقين أن الله اطلع عليهم فغفر لهم، إنما أخرجاه على الظن وما يدريك لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٣/ ٣٩٦)، برقم(١٥٢٩٧) جاء بحرف العطف الواو من دون أو الحديبية.

(٢) حاشية الدرة المضية (١١٩)، انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٠)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٦١-٣٦٦).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢٠)، انظر: فتح الباري(٧/ ٤٤٣)، مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٤)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٦٦).

استحقوا الرضا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، أما أهل أحد فاستحقوا العفو، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ففرق بين من استحق وصف الرضوان، ومن استحق وصف العفو[١]، ويدل على ذلك حديث جابر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[٢]، قال ﷺ: «وقيل: أهل غزوة جبل أحد المقدمة في الزمن، وفي الأفضلية على أهل البيعة. والأول: وهو تقديم أهل البيعة في الأفضلية على أهل غزوة أحد أولى وأحق، لورود النصوص المحكمة، من الكتاب والسنة.

وكانت غزوة أحد سنة ثلاث، سمي أحداً؛ لتوحده عن الجبال بينه وبين المدينة أقل من فرسخ في شماليها إلى الشرق، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة: «أحد جبل يحبنا ونحبه»[٣].

وسبب الغزوة: لما قتل الله من قتل من الكفار يوم بدر، سارت قريش ومن تابعها حتى وصلوا إلى أحد، وخرج عليهم رسول الله ﷺ واقتتل الفريقان، وهزم المشركون، ثم وقع في المسلمين هزيمة، بسبب مخالفة أمر رسول الله ﷺ لبعضهم أن لا يبرحوا، وقد عفا الله عنهم بنص القرآن.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٣١)، تفسير القرطبي (٤/ ٢٣٧)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٦٦-٣٦٧)، شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين (٦١٥-٦١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل من بايع تحت الشجرة، (٥/ ذ٦٩٥)، برقم (٣٨٦٠)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.، صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب التقليد والجرس للدواب، ذكر البيان بأن شهود الحديبية إنما كان البيعة تحت الشجرة (١١/ ١٢٧)، برقم(٤٨٠٢)، ومسند أحمد بن حنبل (٣/ ٣٥٠)، برقم(١٤٨٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب خرص التمر(٢/ ٥٣٩)، برقم(١٤١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، (٢/ ١٠١١)، برقم(١٣٩٣).

واستشهد من المسلمين سبعون، منهم حمزة، وفيهم أنزل الله، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ كان إذا زارهم يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[(١)]، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون.

وأما أهل الشجرة فقد وردت النصوص المحكمة في فضلهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] وبذلك حصل الفتح، والخير الكثير، والمراد بالفتح: صلح الحديبية، والذين بايعوه هم الذين فتحوا خيبر، ثم حصل فتح مكة في السنة الثامنة»[(٢)].

---

(١) بحثت عن هذا الحديث في صحيح مسلم ولم أجده فيه، ولا في غيره.

(٢) حاشية الدرة المضية (١٢٠-١٢١). انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٦٦-٣٧٢).

المبحث الرابع

فضل زوجات النبي ﷺ

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن أفضل الصحابة عموماً، زوجات النبي ﷺ رضي الله عنهن؛ لأنهن أمهات المؤمنين، وزوجات النبي ﷺ اختارهن الله له في الدنيا والآخرة، فيجب محبتهن، والترضي عنهن، واعتقاد فضلهن، وأنهن الطاهرات المطهرات، المبرآت من كل سوء، أفضلهن خديجة بنت خويلد، وعائشة الصديقة بنت الصديق، وفضل عائشة في العلم أما خديجة ففي السبق(١)، وقد خص ابن قاسم بالبيان فضل عائشة وخديجة لأنهن أفضل زوجات النبي ﷺ، وذلك بقوله: «وعائشة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين وحبيبة رسول رب العالمين، عقد عليها وهي بنت ست أو سبع، وبنى بها وهي بنت تسع، وتوفيت بالمدينة سنة ثمان وخمسين، رضي الله عنها وأرضاها(٢)، وهي أفضل نسائه ﷺ في العلم، والفقه، وحمل الدين، وتبليغه إلى الأمة، فلها من الفضل في ذلك ما ليس لغيرها من سائر أزواجه، مع أن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى تزوجها ﷺ وهو ابن خمس وعشرين، وآمنت به وصدقته ونصرته، وكانت له وزير صدق، وتأثيرها في أول الإسلام وقيامها في الدين لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، فهي أفضل نساء النبي ﷺ في السبق إلى الإسلام وموازرة رسول الله ﷺ(٣).

...فخديجة أفضل بحسب السبق والموازرة، وعائشة: بالعلم ومحبة الرسول ﷺ، وتفضيلها على سائر أزواجه، وفي الصحيحين: «إن الله بعث إلى خديجة

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤)، لمعة الاعتقاد (١/ ٣٣).

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/ ص١٨٨١-١٨٨٥).

(٣) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٨١٧-١٨٢٥).

بالسلام، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»(١) وعائشة: سلم عليها جبرئيل على لسان رسول الله ﷺ ولم يتزوج بكراً غيرها، وقال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(٢)، وأنزل في براءتها آيات تتلى إلى يوم القيامة، وشهد بأنها من الطيبات، ومناقبهما وسائر أزواج النبي ﷺ كثيرة شهيرة»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣/ ١٣٨٩)، برقم (٣٦٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (٤/ ١٨٨٧)، برقم(٢٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها (٣/ ١٣٧٤)، برقم(٣٥٥٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها صحيح مسلم (٤/ ١٨٩٥)، برقم (٢٤٤٦).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٢٢)، انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٧٣-٣٧٦).

المبحث الخامس

حكم سب الصحابة

من أصول أهل السنة والجماعة في الصحابة، سلامة قلوبهم نحوهم، وذكر محاسنهم وإثبات عدالتهم، والترضي عنهم، والثناء عليهم، والكف عن الطعن فيهم أو سبهم، وتجنب ما يقدح في عدالتهم، وهذا من علامات المؤمنين المتبعين لهم بإحسان، قال ابن قاسم رحمه الله: «ومن أصولهم سلامة قلوبهم وألسنتهم لهم عملا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة للنبي ﷺ بقوله: «لا تسبوا أصحابي»[(١)]، وأجمعوا على أنه يجب على كل أحد تزكية جميع الصحابة والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم، ولا يعاديهم إلا عدو الله ورسوله، وروى الترمذي وغيره أنه عليه الصلاة والسلام، قال: «**الله الله في أصحابي لا تتخذوهم بعدي غرضا، من أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه**»[(٢)]»[(٣)].

وبعد تقريره رحمه الله وتنبيهه على تحريم سبهم، أو تنقصهم، أو الطعن فيهم، مستدلا بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع[(٤)]، بين أن حكم سبهم يتفاوت وليس على مرتبة واحدة، فمن كفرهم، أو فسقهم، أو طعن في عدالتهم فهو كافر خارج

---

(١) سبق تخريجه (٥٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، (٥/ ٦٩٦)، برقم(٣٨٦٢)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ٥٤)، برقم(٢٠٥٦٨)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ٥٤)، برقم(٢٠٥٦٨)، وضعفه الألباني في ظلال الجنة، (٢/ ٢٠١)، برقم(٩٩٢).

(٣) حاشية الدرة المضية (٢٧).

(٤) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية (٣/ ١١٢١).

عن الإسلام، ومن وصفهم بالبخل وغيره، فهو مبتدع خبيث يستحق التعزير والتأديب، وذلك من خلال نقله لقول شيخ الإسلام ابن تيمية، قال ﵀: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وتفصيل القول في سبهم أن من اقترن بسببه دعوى: أن عليًّا إله، أو أنه كان هو النبي، وإنما غلط جبرئيل في الرسالة، فهذا لا شك في كفره، وأما من سبهم سبًّا لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم الزهد ونحو ذلك، فهذا يستحق التأديب والتعزير، ولا يحكم بكفره.

وأما من لعن وقبح مطلقاً، فهذا محل الخلاف فيهم لتردد الأمرين لعن الغيظ ولعن الاعتقاد، وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفراً قليلاً، لا يبلغون بضعة عشر، أو أن عامتهم فسقوا، فهذا لا ريب في كفره، لأنه مكذب لما نص عليه القرآن من الرضا عنهم والثناء عليهم[1]»[2]، وعليه فإن حكم سب الصحابة يختلف باختلاف اعتقاده، ومتعلق سببه.

ومن العلماء من لا يفصل في هذه المسألة، فيجعل حكمهم واحداً، فهذا الإمام أحمد بن حنبل حكم على من سب صحابة النبي ﷺ بالمبتدع الرافضي الخبيث، فقال: «فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو أحداً منهم، أو تنقصه أو طعن عليهم، أو عرض بعيبهم، أو عاب أحداً منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً؛ بل حبهم سنة والدعاء لهم قربة والاقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة.

... لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه؛ بل يعاقبه ويستتيبه فإن تاب قبل منه وإن ثبت عاد عليه بالعقوبة، وخلده

(١) انظر: المصدر السابق (٣/ ١١٠٨-١١١٠).
(٢) حاشية الدرة المضية (٢٧).

بالحبس حتى يموت، أو يتراجع»[١]، وذلك«لأن الطعن فيهم يؤدي إلى انطماس نور الشريعة ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وإلى عدم الطمأنينة والإذعان لثناء الله ورسوله عليهم وإلى الطعن في الله وفي رسوله؛ إذ هم الوسائط بيننا وبين رسول الله ﷺ، والطعن في الوسائط طعن في الأصل، والإزراء بالناقل إزراء بالمنقول عنه وهذا ظاهر لمن تدبره، ... فالواجب على من أحب الله ورسوله حب من قام بما أمر الله ورسوله به وأوضحه وبلغه لمن بعده وأداء جميع حقوقه، والصحابة هم القائمون بأعباء ذلك كله»[٢].

***

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠).

(٢) الزواجر، لابن حجر الهيتمي(٢/ ٩٤٤) بتصرف يسير.

الفصل الثالث عشر

جهوده في تقرير مسائل الإمامة

المبحث الأول

تعريف الإمامة لغة، واصطلاحا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الإمامة لغة:

الإمامة مصدر من أمّ يؤم، تقول: «أمَّهُ، وأم القوم، وأم بهم تقدمهم، وهي: الإمامة، والإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المسقيم، أو كانوا ضالين»[١].

«والإمام كل من اقتدي به، وقدم في الأمور، والنبي ﷺ إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين»[٢].

المطلب الثاني: تعريف الإمامة اصطلاحاً:

الإمامة اصطلاحاً هي: رياسة عامة في أمور الدين والدنيا[٣].

ومن أجمل من عرفت به الإمامة تعريف ابن خلدون[٤]، بقوله: «والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[٥].

---

(١) لسان العرب (١٢/ ٢٥، انظر: القاموس المحيط (١/ ١٣٩٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٨)، انظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٤٥٧).

(٣) المواقف، للإيجي (٣/ ٥٧٤).

(٤) هو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن، ولي الدين الإشبيلي الأصل التونسي، ثم القاهري المالكي المعروف بابن خلدون، ولد في أول رمضان سنة ٧٣٢ بتونس، وحفظ القرآن، والشاطبيتين، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، والتسهيل في النحو، وتفقه على يد جماعة من أهل بلده، وقرأ في كثير من الفنون، ومهر في جميع ذلك لاسيما الأدب، وفن الكتابة، توفي سنة ٧٠٧هـ. انظر: البدر الطالع (١/ ٣٣٧).

(٥) المقدمة، لابن خلدون (١٩٠).

المبحث الثاني

حكم الإمامة

نصب الإمام واجب بدلالة الكتاب، والسنة المطهرة، وإجماع الأمة.

فمن الكتاب: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فأمر الله بطاعة أولي الأمر، وهم: العلماء والأمراء، والله سبحانه لا يأمر بطاعة من لا وجود له، فدل على وجوب نصبه.

ومن السنة: قوله ﷺ: «من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[١]، والخلع لا يكون إلا مع وجود الإمام، فدل على وجوب نصبه.

أما الإجماع: فقال الإمام النووي: «وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة»[٢]، وقد نقل ابن حزم اتفاق أهل السنة والجماعة على وجوب الإمامة[٣]

فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كطلب العلم وغيره، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط فرضها على البقية وإن لم يقم بها أحد أثموا جميعاً؛ لقيام مصلحة الأمة عليها والحاجة إليها، هذا ما بينه ابن قاسم بقوله: «لابد لأمة الإسلام، ... في كل عصر وزمان؛ ... من إمام، بل نصبه فرض كفاية لازم واجب، بالسنة والإجماع[٤]، لمسيس الحاجة إليه واستدل القرطبي[٥]، وغيره بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، (٣/ ١٤٧٨)، برقم (١٨٥١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٠٥).

(٣) الفصل في الملل (٤/ ٧٢).

(٤) انظر: الفصل في الملل (٤/ ٧٢)، فتح الباري (١٣/ ٢٠٨).

(٥) تفسير القرطبي(١/ ٢٦٤).

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، على وجوب نصب الخليفة، ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه: قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[ص: ٢٦]»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم**»[٢]، فأوجب تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ...ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان...

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات»[٣].

---

(١) حاشية الدرة المضية (١٣٣).

(٢) أخرجه احمد في مسنده(٢/ ١٧٦)، برقم (٦٦٤٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ١٦٦)، برقم (٥٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩٠-٣٩١).

المبحث الثالث

الطرق التي تنعقد بها الإمامة

بين ابن قاسم رحمه الله أن الإمامة تنعقد بأحد ثلاثة أشياء:

الأول: الاستخلاف، وهو أن ينص الإمام السابق على تولية اللاحق، وبهذه تمت خلافة عمر رضي الله عنه، فقال: «يثبت نصب الإمام الأعظم بالنص من الإمام على استخلاف واحد من أهلها، بأن يعهد إلى إنسان ينص عليه بعده، ولا يحتاج في ذلك إلى موافقة أهل الحل والعقد، كما عهد أبو بكر إلى عمر رضي الله عنهما»(١).

الثاني: اختيار أهل الحل والعقد، وهم: العلماء، والأمراء، ووجهاء الناس وأهل الرأي على مبايعة شخص معين، بشرط أن لا يكون الإمام السابق نص على شخص معين، ولا يشترط أن يبايعه كل فرد من الأمة؛ لأنه غير ممكن، ولهذا لم يبايع أبا بكر رضي الله عنه إلا أهل الحل والعقد من الصحابة، فقال رحمه الله: «ويثبت أيضاً نصبه بالإجماع، من أهل الحل والعقد من المسلمين، كإمامة الصديق»(٢)، وكذلك الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد بويع بإجماع أهل الحل والعقد، وهم الذين نصبهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه دون غيرهم؛ وبهذا يظهر جهالة بعض العامة، بقوله أنا لم أبايع، وأن بعض ضعاف طلبة العلم وجهالهم يقولون بهذا القول، ويجعلون ذلك ذريعة للقدح في الإمام ويذمونه، ويبغضونه ويشهرون به في المجالس، كل ذلك خلاف منهج أهل السنة والجماعة.

الثالث: أن يغلب الإمام بسيفه، وأخضع الناس له، فإنه تلزم طاعته لما في مخالفته من المفاسد، فقال: «ويثبت أيضاً: نصبه بقهره الناس بسيفه حتى يذعنوا له ويدعوه إماماً، لأن عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير فقتله، واستولى

---

(١) حاشية الدرة المضية (١٣٤-١٣٥).

(٢) المصدر السابق (١٣٥).

على البلاد وأهلها، وبايعوه طوعاً وكرهاً، ودعوه إماماً، ولما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين»[١].

وبهذه الطرق تنعقد الإمامة أولاً: استخلاف، ثانياً: العهد، ثالثاً: التغلب بالسيف على الناس حتى يخضعوا له، وإذا تمت الإمامة بأحد هذه الطرق الثلاثة، فإنها تصبح ملزمة لطاعته، وعدم الخروج عليه؛ لما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين، وإخلال بالأمن، وسفك دماء المسلمين، وإضاعة للحقوق، وبه قال السلف[٢]، قال الإمام النووي: «وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف وعلى انعقادها بعقد أهل الحل والعقد لإنسان إذا لم يستخلف الخليفة، وأجمعوا على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين جماعة كما فعل عمر بالستة»[٣]، وقال ابن قدامة: «من ثبتت إمامته حرم الخروج عليه وقتاله، سواء ثبتت بإجماع المسلمين عليه كإمامة أبي بكر الصديق ﷺ أو بعهد الإمام الذي قبله إليه كعهد أبي بكر إلى عمر رضي الله عنهما، أو بقهره الناس حتى أذعنوا له ودعوه إماماً كعبد الملك بن مروان لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وروى أبو ذر وأبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتة جاهلية رواه مسلم من حديث أبي هريرة**»[٤]»[٥].

---

(١) المصدر السابق (١٣٥).

(٢) انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٠٨)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٠٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين(٣/ ١٤٧٦)، برقم (١٨٤٨).

(٥) الكافي في فقه ابن حنبل، للمقدسي (٤/ ١٤٦).

المبحث الرابع

الشروط الواجب توفرها في الإمام عند اختياره

ثم بين ابن قاسم ﷺ الشروط والصفات التي يجب أن تتوفر في الإمام عند اختياره الإمام ابتداءً، وهي:

الأول: الإسلام، فقال: «يشترط في الإمام الأعظم: الإسلام، لأن غير المسلم لا يكون له على المسلمين سبيل»[١]، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؛ لأن غير المسلم لا يطبق أحكام الإسلام.

الثاني: الحرية، فقال: «الحرية؛ لأن الرقيق عليه الولاية، فلا يكون والياً على غيره، فضلا عن عامة المسلمين»[٢].

الثالث: العدالة، فقال: الـ «عدالة لاشتراط ذلك في ولاية القضاء، وهي دون الإمامة العظمى، فإن قهر الناس غير عدل، فهو إمام، نص عليه أحمد وغيره»[٣]، والعدالة هي الاستقامة في الدين والمروءة، بحيث يكون مؤدياً للفرائض، مجتنباً للكبائر.

الرابع: سلامة الحواس، فقال: «بأن يكون سميعًا، بصيراً، ناطقًا، لأن غير المتصف بهذه الأوصاف لا تصلح سياسته الخلق»[٤]، ولا يكمن أن يقضي حوائج الرعية كما ينبغي.

الخامس: الدراية، فقال: «وهي العلم والخبرة، بأن يكون عالماً بالأحكام المتعلقة بالسياسة والحروب، بصيراً بأحوال الناس ومكرهم»[٥]، بخلاف المغفل الغبي، فإنه لا يصلح للإمامة، وقال ﷺ: «وأن يكون ذا خبرة بتدبير الأمور المذكورة، في البلاد والعباد»[٢].

---

(١) - (٥) حاشية الدرة المضية (١٣٥).

(٢) المصدر السابق (١٣٦).

السادس: أن يكون قرشيًا، فقال: «أن يكون الإمام من قريش، وهو ما كان من نسل فهر بن مالك بن النضر، لما روى أحمد وغيره: «الأئمة من قريش»(١)، «الخلافة في قريش»(٢)، وللترمذي بسند صحيح: «الملك في قريش »(٣)...

وفي الصحيحين: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان»(٤)، وفيهما أيضاً: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»(٥)، وفي البخاري: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين**»(٦)، وكون الخلافة في قريش ومن شرعه ودينه، كانت النصوص بذلك مأثورة معروفة متواترة، بخلاف كونها في بطن منهم، أو من غيرهم»(٧).

قال الإمام النووي: «هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة فكذلك بعدهم، ... وقد احتج به أبو بكر وعمر ﷺ على الأنصار يوم السقيفة فلم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٩)، برقم (١٢٣٢٩)، والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢٦٠)، برقم(٤٢٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢ / ٢٩٨)، برقم(٥٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٨٥)، برقم (١٧٦٩٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٢١)، برقم(٢٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٥٠)، برقم(١٨٥١)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل اليمن (٥/ ٧٢٧)، برقم(٣٩٣٦)، أحمد بن حنبل في مسنده(٢/ ٣٦٤)، برقم، (٨٧٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش (٦/ ٢٦١٢) بر قم(٦٧٢١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش (٣/ ١٤٥٢)، برقم (١٨٢٠)، ولفظ له.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، (٣/ ١٢٨٨)، برقم (٣٣٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش (٣/ ١٤٥١)، برقم (١٨١٨).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب قريش (٣/ ١٢٨٩)، برقم (٣٣٠٩).

(٧) حاشية الدرة المضية (١٣٥-١٣٦).

ينكره أحد...؛ لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وأصحاب حرم الله، وأهل حج بيت الله، وكانت العرب تنظر إسلامهم فلما أسلموا وفتحت مكة تبعهم الناس وجاءت وفود العرب من كل جهة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخلافة، والناس تبع لهم، وبين ﷺ أن هذا الحكم مستمر إلى آخر الدنيا ما بقي من الناس اثنان وقد ظهر»[(١)]، وهذا الذي ينبغي أن تكون عليه خلافة المسلمين، ومع هذا قد تؤخذ منهم الخلافة غلبة وقهراً، كما قال ﷺ: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين**»[(٢)]، قال ابن حجر: «وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش، ويحتمل أن يحمل المطلق على المقيد في الحديث الأول، ويكون التقدير لا يزال هذا الأمر، أي: لا يسمى بالخليفة إلا من يكون من قريش إلا أن يسمى به أحد من غيرهم غلبة وقهراً، وإما أن يكون المراد بلفظه الأمر وإن كان لفظه لفظ الخبر، ويحتمل أن يكون بقاء الأمر في قريش في بعض الأقطار دون بعض»[(٣)].

الثامن: العلم، فقال: «ويعتبر أيضاً أن يكون عالماً بأحكام الشريعة لاحتياجه إلى مراعاتها في أمره ونهيه»[(٤)].

التاسع: مكلفاً، قال ابن قاسم: «وأن يكون مكلفاً، أي: بالغاً عاقلاً؛ لأن غير البالغ العاقل يحتاج لمن يلي أمره، فلا يكون والياً على المسلمين»[(٥)].

عاشراً: حاكماً، وهذا يعني أنه ذو قوة شخصية وقوة في تنفيذ حكمه، قال ابن قاسم: «وأن يكون حاكماً، أي: قادراً على إيصال الحق إلى مستحقه، وكف ظلم

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٠٠)، انظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٣٩٩).

(٢) سبق تخرجه (٤٦٥).

(٣) فتح الباري (١٣/ ١١٧).

(٤) حاشية الدرة المضية (١٣٦).

(٥) المصدر السابق (١٣٦).

المعتدي، وقمع أهل الافتراء والاعتداء، وقادراً على إقامة الحدود، وقمع أهل الضلال، لا تأخذه في الله لومة لائم»[١].

فهذه الشروط العشرة للإمامة، التي ينبغي توفرها عند اختياره[٢]، ولا يلزم توفرها كلها، ولكن يختار من لديه صفات أكثر من غيره، وخاصة إذا تغلب الإمام ففي هذه الحالة لا يشترط جميع هذه الشروط؛ لأنه سيؤدي إلى فتن عظيمة، وهي للابتداء لا الاستمرار، إلا شرط الإسلام، والتكليف فهما للابتداء والاستمرار، فمتى تخلف واحد منهما وجب عزله[٣].

(١) المصدر السابق (١٣٦).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤٢٣-٤٢٥).

(٣) انظر: شرح العقيدة السفارينية (٦٨٨)، شرح الدرة المضية، للفوزان (٢٦٢-٢٦٣)، الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، للدميجي (٢٣٣).

المبحث الخامس

مصالح نصب الإمام

مصلحة الأمة لا تتم إلا باجتماعها، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من نصب إمام لهم؛ لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة(١)، ولهذا كان لنصب الإمام مصالح عظيمة ذكر ابن قاسم بعضها، وهي:

الأول: الذب عن المسلمين، ومنع كل معتدي على بلاد المسلمين، وكل متلاعب بالعقيدة وغير ذلك، هذا ما بينه بقوله: «يدفع عن أمة الإسلام وبيضة الدين كل جبار وظلوم كفار، صاحب جحود للدين القويم»(٢).

الثاني: الجهاد في سبيل في الله وغزو الكفار، وقتالهم، ورد البغاة والخارجين على الأمة الإسلامية، فهذه الأمور من صلاحيات الإمام، فهو الذي يأمر به، ويقدر مصلحة قيامه من عدمه، فيختار القائد، أو يقود الجيش بنفسه، كما كان يفعله ﷺ، قال رحمه الله: «**ويهتم ويقوم بغزو الكفار، وقهر البغاة**»(٣).

الثالث: إقامة الحدود؛ ففي إقامتها كفارة لصاحبها، وردع لغيره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وتقام على الشريف والوضيع، ولا تقبل فيها الشفاعات، اقتداء بنبي الرحمة حين شُفِعَ عنده في حد من حدود الله فغضب فقام وخطب الناس، فقال ﷺ: «**يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد وأيم الله**

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩٠-٣٩١) بتصرف. انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤١٩-٤٢١).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٣٣).

(٣) المصدر السابق (١٣٣).

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[١]، وبهذا تصان محارم الله عن الانتهاك، ويسود الأمن في ربوع البلاد، قال ﵀: «ويعتني بإقامة الحدود، وهي: العقوبات المقدرة، وكذا التعزيرات، لتصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد»[٢].

الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لما في ذلك من المحافظة على الدين وتطهير البلاد من المنكرات، ولهذا قال ﵀: «ويعتني أيضاً: بالأمر بفعل المعروف، وهو: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، وندب إليه الشرع، ويعتني بترك المنكر، وهو ضد المعروف، وكل ما حرم الشرع فهو منكر»[٣].

الخامس: نصر المظلوم، وقمع الظالم من المسئوليات المنوطة بالإمام؛ لأنه هو الذي يستطيع أكثر من غيره أن يدفع الظلم إذا وقع أو يدفعه عنه إن كان متوقعاً، لأنه إذا لم يكن هناك إمام؛ لأكل القوي الضعيف قال ﵀: «ويعتني بنصر مظلوم بتخليصه من ظالمه، وأخذ حقه، وقمع أهل الكفر، وقهرهم»[٤].

السادس: أخذ الفيء والجزية والخراج والعشر، وصرفُها في مصارفها الشرعية، قال ﵀: «ويعتني أيضاً: بأخذ مال الفيء، مصدر فاء يفيء، إذا رجع، وهو: المال الحاصل من جهاته المعروفة، كالذي أخذ من مال كافر بغير قتال، كجزية، سمي فيئاً لأن الله أفاءه على المسلمين، أي: رده عليهم من الكفار، الذين لم يعبدوه، فأباحه لعابديه، لأنه إنما خلقه إعانة على عبادته فأفاء عليهم ما يستحقونه.

ويعتني بأخذ مال الخراج، وعشر مال تجارة حربي، ونصفه من ذمي، ونحوه، أي: نحو ما ذكر، كالذي تركه الكفار فزعاً وهربوا، أو بذلوه فزعاً، وخمس خمس

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦/ ٢٤٩١)، برقم (٦٤٠٦).

(٢) حاشية الدرة المضية (١٣٣).

(٣) المصدر السابق (١٣٣-١٣٤).

(٤) المصدر السابق (١٣٣ - ١٣٤).

الغنيمة، ومال من مات من الكفار، ولا وارث له، ومال المرتد إذا مات على ردته، أو لحق بدار الحرب.

ويعتني أيضاً: بالصرف لذلك المال المذكور ونحوه في طريقه وجهته المعينة له شرعاً، فيصرفه في مصالح أهل الإسلام، وكل ما تقدم: من إقامة الحدود، وسد الثغور، وحفظ بيضة الإسلام واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فوجب نصب إمام لجلب تلك المصالح، ودفع تلك المضار»[1].

وهذه المصالح هي الهدف الأسمى من الإمامة في الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالمقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسراناً مبيناً ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا وإصلاح مالا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم...ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقسموا بينكم فيأكم فلما تغيرت الرعية من وجه والرعاة من وجه تناقضت الأمور؛ فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله، ... وفى الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»[2]»[3].

---

(١) المصدر السابق (١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجماعة والإمامة،، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١/ ٢٣٤)، برقم(٦٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (٢/ ٧١٥)، برقم(١٠٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٦٢)، انظر فتح الباري (١٣/ ٢٤١).

المبحث السادس

ما يجب على كل من الإمام والرعية نحو الآخر

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما يجب على الإمام نحو الرعية:

يجب على الإمام إقامة الدين، وسياسة الدنيا به، فيما يعود نفعه على الإسلام والمسلمين، والقيام بشؤون رعيته، ورعاية مصالحهم، والدفاع عنهم، وغير ذلك، وقد بينا ذلك في مصالح نصب الإمام[1]، فهي مما يجب عليه، وقد بين ابن قاسم رحمه الله أنه يجب أن يولي عليهم خيارهم، فقال: «ويجب على كل وال: أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، أو الأمثل فالأمثل، لما روى الحاكم وصححه: من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا وهو يجد أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمسلمين[2]، والولاية لها ركنان: القوة، والأمانة، والقوة في كل ولاية بحسبها»[3].

المطلب الثاني: ما يجب على الرعية نحو الإمام.

ويجب على الرعية نحو إمامهم السمع والطاعة وإن جاروا، ما لم تكن معصية؛ فلا سمع ولا طاعة، والنصح لهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم برفق، والصلاة خلفهم والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج

---

(١) انظر: (٥٣٧).

(٢) لم أجد نص الرواية التي ذكرها ابن قاسم، ولعله يكون معناها ما جاء عن يزيد بن أبي سفيان، قال: قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام. يا يزيد: إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ذلك أكثر ما أخاف عليك فقد قال رسول الله ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا حتى يدخله جهنم». أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، وصححه في كتاب الأحكام، (٤ / ١٠٤)، برقم(٧٠٢٤).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٣٧ -١٣٨)، انظر لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤٢٦).

بالسيف عليهم، ما لم يظهروا كفراً بواحاً، ولا ننزع يداً من طاعتهم، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح والتوفيق(١)، قال ابن قاسم رحمه الله: «إذا عقدت له الإمامة فصار إماماً للمسلمين، فكن مطيعاً.. أمره فيما أمر به، إن كان طاعة لله باتفاق السلف، ما لم يكن أمره بمنكر، فلا يطاع في ذلك، بل يحذر منه، ويجتنب، وتحرم طاعته؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وثبت من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»(٢)، والأحاديث في وجوب طاعة الله متواترة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلى قوله ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٨ - ٥٩]، فالأولى في الولاة أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، والثانية في الرعية: أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك، في حكمهم ومغازيهم وغير ذلك.

فإن تنازعوا في شيء، ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن لم يفعل ولاة الأمور، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله وأديت إليهم حقوقهم، وأعينوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان»(٣).

(١) انظر: أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة الحكمي (١/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، في باب السرف في المال (١/ ١٥٨)، برقم (٤٤٢)، وابن حبان في صحيحه، باب المسألة...، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من مجانبة الإكثار من السؤال (٨/ ١٨٢)، برقم (٣٣٨٨)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٧)، برقم (٨٣١٦)،، وصححه ابن تيمية في درء التعارض (٨/ ٤٥٤)، ومسلم في صحيحه، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٣/ ١٣٤٠)، برقم (١٧١٥)، من دون لفظ «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»، وبنحوه في المستدرك الحاكم على الصحيحين، وصححه في كتاب العلم، (١/ ١٧٥)، برقم (٣٣٠).

(٣) حاشية الدرة المضية (١٣٧).

وهو مذهب السلف، وهو وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية(١)، قال ابن قدامة: «ومن السنة السمع والطاعة لأئمة المسلمين وأمراء المؤمنين برهم وفاجرهم؛ ما لم يأمروا بمعصية الله؛ فإنه لا طاعة لأحد في معصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به أو غلبهم بسيفه حتى صار الخليفة، وسمي أمير المؤمنين وجبت طاعته، وحرمت مخالفته والخروج عليه وشق عصا المسلمين»(٢)؛ ولأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم؛ بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور؛ فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم(٣).

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٢٩).
(٢) لمعة الاعتقاد (١/ ٣٣).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٣٠).

المبحث السابع

حكم فسق الإمام بعد عدالته

تحدثنا عن الشروط التي يجب أن تتوفر في الإمام عند اختياره، وذكر ابن قاسم منها العدالة إلا إذا غلب وقهر الناس فإنه يجب طاعته وكذالك إذا فسق بعد عدالته، قال ابن قاسم: «فإن فسق بعد العدالة لم ينعزل»[(١)]؛ لما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين، وتفرق كلمتهم، وذهاب هيبتهم، وإراقة دمائهم، وضياع أموالهم، هذا ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، قال ابن أبي العز: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[(٢)]، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة والخوارج فجوزوا الخروج على الأئمة إذا جاروا[(٣)]، ومع هذا فقد استثنى العلماء جواز الخروج على الإمام وعزله إذا أتى بكفر بواح، قال الحافظ ابن حجر: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك؛ بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها»[(٤)]، كما جاء في حديث عبادة بن الصامت قال دعانا النبي ﷺ: «فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على

(١) حاشية الدرة المضية (١٣٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤٢٨)، انظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ٥-٩).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٤٦٦)، الملل والنحل (١/ ١١٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٤٦٦)، الملل والنحل (١/ ١١٥).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٧).

السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[١].

قال ابن حجر: «أي: نص آية، أو خبر صحيح، لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل، ...فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر»[٢].

ولهذا لا يجوز الخروج على ولي الأمر إلا بشرطين:

١. أن يقع منه كفر بواح، ومعنى كفر بواح أي: واضح وصريح، لا يحتمل تأويلا، وعندنا من الله فيه برهان.

٢. القدرة والاستطاعة على التغيير، فإن عدموا القدرة لعجزهم فليس لهم الخروج ولو رأوا كفراً بواحاً؛ لأن خروجهم فيه فساد للأمة ويضر الناس ويوجب الفتنة وهو ما يتعارض مع دوافع الخروج الشرعي وهو الإصلاح ومنفعة الناس والأمة[٣].

ونحن والحمد لله قد وفق الله هذه البلاد لولاة مسلمين تحكم بشرع الله، وهذا من نعم الله علينا، وعلى هذه البلاد، فنسأل الله أن يديم علينا نعمة الأمن والإسلام، وأن يوفق الله ولاة أمورنا لكل خير وصلاح، وأن يرزقهم البطانة الصالحة، وأن يعيذهم من شرور أنفسهم، ومن سيئات أعمالهم، وأن يرزقنا جميعاً النصح لهم والدعاء لهم، ومحبة الخير لهم، إنه على كل شيء قدير.

***

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورا تنكرونها...» (٦/ ٢٥٨٨)، برقم (٦٦٤٧).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٨).

(٣) انظر: فتح الباري (١٣/ ٨)، مجموع فتاوى ابن باز (٧/ ١١٥).

الخاتـــمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتبلغ الغايات، وتنال المكرمات، فقد تم أنجاز هذا البحث وإنهائه بحول منه سبحانه وعونه.

وإني لا أدعي فيه الكمال والإحاطة، وحسبي أني بذلت فيه قصارى جهدي، وإن أصبت فهو من فضل ربي وتوفيقه، وإن أخطأت فمن الشيطان، والله ورسوله منه براء، واستغفر الله وأتوب إليه.

وفي خاتمة هذا البحث أعرض أبرز نتائجه، وتوصياته، وهي:

١. أهمية دراسة الأعلام المشهورين، وأئمة الدين المعروفين، الذين لهم قدم صدق في نشر علوم الإسلام، ومعرفة أقوالهم، ومنهج استدلالهم فهي طريق لمعرفة العلم عن الله ورسوله.

٢. يعد الإمام ابن قاسم من الأعلام المشهورين، وأئمة الدين المعروفين، الذين لهم قدم صدق في نشر علوم الإسلام.

٣. ظهرت من خلال البحث غزارة علم الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، وكثرة كتبه، وتعدد مؤلفاته، وتنوع معارفه، وإحاطته بفنون متعددة؛ مما يدل على مكانته العلمية.

٤. تأثر ابن قاسم بشيخه ابن تيمية وابن القيم، فقد تتلمذ على كتبهما؛ مما أكسبه قوة علمية، ظهرت فيها معرفته بأقوال أهل العلم، ومذهب السلف، والراجح من الاختلافات العلمية، وهذه مزية عظيمة، ومنقبة كبيرة، لمن تصدى للتأليف والتدريس، ونشر العلم وتعليمه.

٥. قيامه بأعمال كبيرة في خدمة هذه الأمة، وهذا من خلال أعماله العملاقة: كجمعه لفتاوى شيخ الإسلام، الذي استغرق جمعه أكثر من ٤٠عام، والدرر السنية التي أستغرفت أكثر من١٢عام، وحاشية الروض المربع الذي أستغرق ٤٠ عاماً.

٦. اهتم ابن قاسم بالتأليف أكثر من التدريس لأنه يرى نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأن التعليم بالمشافهة يقتصر على عدد من المتعلمين، وأما التصنيف فينتفع به خلق كثير لا يحصون، بل لم يخلقوا بعد.

٧. موافقته والتزامه منهج السلف الصالح في تقرير عقيدة السلف، كما يظهر ذلك من خلال الآتي:

* تقريره لمسائل العقيدة حسب الكتاب والسنة، وأقوال السلف رضوان الله عليهم.

* تقريره بأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، كما قرر ﷺ أن الكبيرة لا تخرج صاحبها من الإيمان، وكما أن للذنوب أسباب تسقط عقوبتها.

* تقريره ﷺ بأن التوحيد ثلاثة أقسام:

١. توحيد الربوبية

٢. توحيد الألوهية

٣. توحيد الأسماء والصفات

وتقريره العلاقة بينها، وأنها لا ينفك بعضها عن بعض، ومن لم يأت بها جميعاً لم يعد موحداً.

* تقريره ﷺ بأن توحيد الله وإخلاص العبادة له سبب للأمن والأمان في الدنيا والآخرة، ومن حققه كان له سبباً في دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم بيانه ﷺ لتفسير لا إله إلا الله، وهو تجريد غير الله عن الألوهية، وتقريرها لله وحده، وأن لها شروطاً من لم يحققها لم يحصل له الانتفاع التام بها.

ثم بيانه ﷺ بأن للعبادة محركات ثلاثة، هي: المحبة، والخوف، والرجاء وعرف كل نوع، وبين أقسامه، كما بين أنه لا يحصل للعبد كمال العبودية إلا باجتماعهما.

* تقريره رحمه الله أهمية الوقاية من الشرك، مع بيانه لأسبابه، وأهمها الغلو في الصالحين، ثم ذكر بعض مظاهره الخطيرة محذراً منها، مع ذكره رحمه الله لبعض أنواع الشرك، كالرياء، والتبرك بالأشجار والأحجار، وطلب الشفاعة من غير الله والطيرة، وغيرها.

* عرف توحيد الأسماء والصفات بما عرفه به السلف، وأنه مبني على ثلاثة أصول، مع تقريره لبعض القواعد فيها، ثم بين أنه لم يقل أحد من السلف إن نصوص الأسماء والصفات من المتشابه الذي أستأثر الله بعلم معانيه، بل أن لها معاني حقيقة فهمها السلف على ما يليق بجلال الله وعظمته، ولكنها مجهولة الكيفية، كما بين رحمه الله أن الألفاظ المجملة لا يجوز إطلاقها على الله تعالى كلفظ الجهة والحيز أما من جهة المعنى فيستفصل عنه، فيقبل المعنى الحق، ويرد المعنى الباطل.

* تقريره رحمه الله في الإيمان بالرسل، أن رسولنا مع عظيم قدره، ورفعة مكانته، فهو عبد الله ورسوله ولا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بهاتين الصفتين، بغير غلو وتقصير، كما بين أهمية معرفة نسبه وسيرته ودعوته إلى توحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

* تقريره رحمه الله بأن أفعال العباد هي من خلق لله، ولكن الله سبحانه أثبت أن للعبد فعلاً حقيقيًّا أكتسبه بإرادته واختياره ومشيئته، فالعبد هو الذي يقدم على فعل الخير والشر بإرادته واختياره، ثم بين أن الله ﷻ قد يريد أمراً وفي الوقت نفسه لا يرضاه ولا يحبه؛ لأن مراد الله سبحانه نوعان: مراد لنفسه ومقصود لذاته، ومراد لغيره ومقصود لغيره، ولذلك قد يأمر الله بشيء ولا يعينه عليه، ولا يلزم من ذلك أن أمره إن يعينه، وذلك لوجود مفسدة تترتب على إعانته عليه، أو فوات مصلحة أعظم من فعل ذلك المأمور.

* تقريره رحمه الله لأشراط الساعة، ونعيم القبر وعذابه، وأحوال اليوم الآخر، وأن

الجنة والنار موجودتان مخلوقتان، وأنهما باقيتان لا تفنيان.

* دفاعه رحمه الله عن الصحابة مع بيان فضلهم، وعلو قدرهم، وبين المنهج الحق فيما وقع بينهم.

* تقريره لأهمية نصب الإمام، وأنه قد دل على وجوب نصبه الكتاب والسنة الإجماع، كما بين طرق انعقاد الإمامة، وما يجب تجاه من وليها، من إقامة الدين، وسياسة الدنيا به فيما يعود نفعه على الإسلام والمسلمين، والقيام بشؤونهم، ورعاية مصالحهم، كما يجب على الرعية السمع والطاعة للأئمة وإن جاوروا ما لم تكن في معصية الله، كما بين أنه لا يعزل الإمام لفسقه، إلا إذا أتى بكفر بواح.

وأما التوصيات:

أولاً: من خلال البحث وجدت للشيخ ثروة علمية قيمة، فلو جُعل للشيخ مجموع لكل مؤلفاته كسلسلة يجد بها طالب العلم كل ما يتعلق بآثار الشيخ العلمية، أسوة بغيره من العلماء الذين جمعت آثارهم العلمية.

ثانياً: الاستفادة من علمه، ومؤلفاته، التي كانت في شتى العلوم تحقيقاً، ودراسة.

ثالثاً: أوصي بأبراز جهوده رحمه الله في الفقه في رسالة علمية.

وأخيراً: فقد عشت مع الشيخ رحمه الله خلال فترة البحث أبانت لي أني أبحث في شخصية عظيمة تتسم بعلو الهمة، والإرادة، وقوة الشخصية، وجمال الأسلوب، ورونق العلم، فأسأل الله أن يرحمه رحمةً واسعة.

وهذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن فريان بين القرآن والدعوة، جمع/ إبراهيم بن عبد الله العيد، دار الطيبة بالرياض طبعة الأولى عام ١٤٢٨هـ.
٣. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى.
٤. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: الأولى.
٥. آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة: بدون.
٦. إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر - بيروت - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد سعيد البدري أبو مصعب.
٧. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، دار الفكر - ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٨. أصول السنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار المنار - الخرج - السعودية - ١٤١١هـ، الطبعة: الأولى.
٩. اعتقاد أئمة الحديث، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، دار العاصمة - الرياض - ١٤١٢هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس.
١٠. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، محمد بن عمر بن الحسين الرازي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية - بيروت -١٤٠٢هـ، تحقيق: علي سامي النشار.

١١. أعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣م، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.
١٢. أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.
١٣. اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.
١٤. الإبانة عن أصول الديانة، علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري أبو الحسن، دار النشر: دار الأنصار - القاهرة - هـ١٣٩٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. فوقية حسين محمود.
١٥. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، دار النشر: دار الراية للنشر - السعودية - ١٤١٨هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: عثمان عبد الله آدم الأثيوبي
١٦. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سعيد المندوب.
١٧. الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. سيد الجميلي.
١٨. الآداب الشرعية والمنح المرعية، الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام.
١٩. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، دار الجيل - بيروت - ١٤١٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي.

٢٠. الإشاعة لأشراط الساعة، محمد بن بن رسول البرزنجي الحسيني، دار المنهاج، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ، مع تعليقات المحدث العلامة محمد زكريا الكاندهلوي، تقديم حسين محمد علي الشكري.
٢١. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العليمة، بيروت، طبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٢٢. الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى – مصر.
٢٣. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين -بيروت -، عام ١٩٩٠م.
٢٤. الأم، محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٣هـ، الطبعة: الثانية.
٢٥. الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الطيبة، الرياض، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٩هـ.
٢٦. الأنساب، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني، دار الفكر - بيروت - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.
٢٧. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، علي بن سليمان المرداوي أبو الحسن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٢٨. الإيمان أركانه، حقيقته، نواقضه، محمد نعيم ياسين، دار الفرقان للنشر والتوزيع، طبعة عام ١٤٢٤هـ
٢٩. الإيمان باليوم الآخر، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٣هـ
٣٠. الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٦هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.
٣١. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف – بيروت.

٣٢. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، العلامة محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة – بيروت.
٣٣. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، دار المعرفة - بيروت – ١٣٩١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
٣٤. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
٣٥. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار الفكر، تحقيق: السيد هاشم الندوي.
٣٦. التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد أبو المظفر الإسفراييني، عالم الكتب - لبنان - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت
٣٧. التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير، بكر بن عبد الله أبو زيد دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ
٣٨. التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان - دمشق - ١٣٩٩، الطبعة: الأولى
٣٩. التعرف لمذهب أهل التصوف، محمد الكلاباذي أبو بكر، دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤٠٠
٤٠. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
٤١. التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، د صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ.
٤٢. التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.
٤٣. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي

الشافع، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى
٤٤. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - ١٣٨٧، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري
٤٥. التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي، المكتبة الأزهرية للتراث - مصر - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري
٤٦. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
٤٧. الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت -، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرون.
٤٨. الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار النشر: دار الشعب – القاهرة
٤٩. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أبو العباس أحمد عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، مطبعة المدني - مصر، تحقيق: علي سيد صبح المدني
٥٠. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، دار الراية - السعودية / الرياض - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي.
٥١. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، دار الفكر المعاصر - بيروت - ١٤١١، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. مازن المبارك.
٥٢. الخصائص الكبرى، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي،

دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٥٣. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، الطبعة السادسة ١٤١٧هـ
٥٤. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد/ الهند - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان
٥٥. الديباج على مسلم، عبدالرحمن بن أبي بكر أبو الفضل السيوطي، دار ابن عفان - الخبر-السعودية - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: أبي إسحاق الحويني الأثري.
٥٦. الرد على الجهمية، عثمان بن سعيد الدارمي أبو سعيد، دار ابن الأثير - الكويت - ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، الطبعة: الثانية، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.
٥٧. الرد على المنطقيين، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار المعرفة - بيروت
٥٨. الرسل والرسالات، أ.د / عمر سليمان بن عبد الله الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع -الأردن، طبعة الثانية عشرة، عام ١٤٢٣هـ.
٥٩. الروض الداني (المعجم الصغير)، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار النشر: المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير.
٦٠. الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: تم التحقيق والاعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز
٦١. الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيثمي، دار النشر: المكتبة العصرية -

لبنان - صيدا - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تم التحقيق والاعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز.

٦٢. السنة، عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، دار ابن القيم - الدمام - ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

٦٣. السنة، عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني

٦٤. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩١، الطبعة: الأولى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن

٦٥. السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها، أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني، دار العاصمة - الرياض - ١٤١٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. ضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

٦٦. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٠هـ

٦٧. السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، دار الجيل - بيروت - ١٤١١، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد

٦٨. السيف المسلول على عابد الرسول، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة الثانية.

٦٩. الشيخ عبد الرحمن بن قاسم حياته وسيرته ومؤلفاته، د. عبد الملك القاسم، دار القاسم ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٧٠. الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وأثر مدرسته في النهضة العلمية والأدبية في البلاد السعودية، محمد بن عبد الرحمن آل إسماعيل، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ.

٧١. الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري.
٧٢. الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي من حين كان يكبر إلى أن يفرغ منها، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، الجفان والجوابي - دار ابن حزم - قبرص - بيروت - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي
٧٣. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار العاصمة - الرياض - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨هـ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله
٧٤. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، دار النشر: دار صادر - بيروت.
٧٥. العبر في خبر من غبر، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ١٩٨٤م، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد.
٧٦. العظمة، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، دار العاصمة - الرياض - ١٤٠٨هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.
٧٧. العقيدة الإسلامية ومذاهبها، د قحطان بن عبد الرحمن الدوري، دار العلوم للنشر والتوزيع، طبعة الأولى.، عام ١٤١٠ هـ
٧٨. العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيد بن سعيد عبد العني، دار طيبة الخضراء، الطبعة السادسة، عام ١٤٢٧هـ.
٧٩. العين والأثر في عقائد أهل الأثر، عبد الباقي المواهبي الحنبلي، دار المأمون للتراث - لبنان - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عصام رواس

قلعجي.
٨٠. الغنية في أصول الدين، أبو سعيد عبد الرحمن النيسابوري المتولي، مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر.
٨١. الغنية في أصول الدين، أبو سعيد عبد الرحمن النيسابوري المتولي، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر.
٨٢. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٧٧م، الطبعة: الثانية.
٨٣. الفروع وتصحيح الفروع، محمد بن مفلح المقدسي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: أبو الزهراء حازم القاضي.
٨٤. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
٨٥. القدر وما ورد في ذلك من الآثار، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، دار السلطان - مكة المكرمة - ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم.
٨٦. القضاء والقدر، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، مكتبة العبيكان - الرياض / السعودية - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر
٨٧. القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد بين الصالح العثيمين، أضواء السلف وأصداء المجتمع، طبعة جديدة، عام ١٤١٦هـ.
٨٨. القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة عام ١٤١٩هـ.
٨٩. القيامة الكبرى، د. عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة

الحادي عشرة، عام ١٤٢١هـ.
٩٠. الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل، عبد الله بن قدامة المقدسي أبو محمد، المكتب الإسلامي – بيروت.
٩١. الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل، عبد الله بن قدامة المقدسي أبو محمد، دار النشر: المكتب الاسلامي – بيروت.
٩٢. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد الله القاضي.
٩٣. الكبائر، محمد بن عثمان الذهبي، دار الندوة الجديدة – بيروت.
٩٤. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت.
٩٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد
٩٦. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
٩٧. المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ، عز الدين بن جماعة الكناني، دار البشير - عمان - ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سامي مكي العاني.
٩٨. المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم االفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٩٩. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق:

مصطفى عبد القادر عطا.
١٠٠. المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١٠١. المستطرف في كل فن مستظرف مجلدين، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مفيد محمد قميحة.
١٠٢. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت.
١٠٣. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة/ دار الغيث - السعودية - ١٤١٩هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشتري.
١٠٤. المطلع على أبواب المقنع، محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي أبو عبد الله، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، تحقيق: محمد بشير الأدلبي.
١٠٥. المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار النشر: دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.
١٠٦. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار النشر: مكتبة الزهراء - الموصل - ١٤٠٤ - ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
١٠٧. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني
١٠٨. المفيد في مهمات التوحيد، د عبد القادر بن محمد عطا صوفي، أضواء السلف، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٨هـ

١٠٩. المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ، الإمام المؤرخ الأديب الحسن بن عمر بن حبيب، دار الحديث - القاهرة - مصر - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د مصطفى محمد حسين الذهبي

١١٠. المقدمة، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، طبعة الرابعة ١٣٩٨هـ، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة مكرمة.

١١١. المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، الإمام برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح، مكتبة الرشد - الرياض - السعودية - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.

١١٢. المكتبات في عهد الملك عبد العزيز، أ.د سالم بن محمد السالم، الأمانة العامة الاحتفال، الطبعة ١٤١٩هـ

١١٣. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٤، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

١١٤. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية، الطبعة الرابعة، عام ١٤١٨هـ

١١٥. الموضوعات، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥ هـ -١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: توفيق حمدان

١١٦. النبوات، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٨٦

١١٧. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي

١١٨. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار إحياء التراث -

بيروت - ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى
١١٩. أمالي المحاملي - رواية ابن يحيى البيع، الحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي أبو عبد الله، المكتبة الإسلامية، دار ابن القيم - عمان - الأردن، الدمام - ١٤١٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. إبراهيم القيسي.
١٢٠. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا عادل وعبد الحميد العدوي وأشرف أحمد.
١٢١. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري.
١٢٢. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
١٢٣. بلغة السالك لأقرب المسالك، أحمد الصاوي، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: ضبطه وصححه: محمد عبد السلام شاهين
١٢٤. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مطبعة الحكومة - مكة المكرمة - ١٣٩٢هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم.
١٢٥. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.
١٢٦. تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٢٧. تاريخ من لا ينساه التاريخ، محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، وإسماعيل بن سعد بن عتيق، دار الهداية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ

١٢٨. تحريم النظر في كتب الكلام، موفق الدين ابن قدامة المقدسي، عالم الكتب - السعودية - الرياض - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد سعيد دمشقية.

١٢٩. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٣٠. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣١. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

١٣٢. تراجم لتعسة من الأعلام، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٨هـ.

١٣٣. تفسير البغوي، البغوي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك

١٣٤. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ.

١٣٥. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، أبو الفداء، دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٠١هـ

١٣٦. تفسير القيم لابن القيم، جمع محمد بن إويس الندوي، لجنة التراث العربي، بيروت، عام ١٣٦٧هـ، تحقيق، حامد محمد.

١٣٧. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن بن يصل الأزدي الحميدي، مكتبة السنة - القاهرة - مصر - ١٤١٥ - ١٩٩٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتورة: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز.

١٣٨. تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار

النشر: دار الرشيد - سوريا - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة.

١٣٩. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، مطبعة المدني - القاهرة، تحقيق: محمود محمد شاكر

١٤٠. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوض مرعب

١٤١. توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، مكتبة النهضة الحديثة، الطبعة الرابعة، عام ١٤١٧هـ.

١٤٢. توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٦هـ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: زهير الشاويش

١٤٣. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تأليف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، دار النشر: عالم الكتب - بيروت - ١٩٩٩م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي

١٤٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- تفسير السعدي-، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين

١٤٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن(تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥هـ.

١٤٦. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: السابعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط / إبراهيم باجس.

١٤٧. جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد البر النمري، دار الكتب العلمية -

بيروت – ١٣٩٨هـ.
١٤٨. جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، لدكتور شمس الدين الأفغاني السلفي، دار الصميعي للنشر، الرياض، طبعة الأولى، عام ١٤١٦هـ.
١٤٩. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية – بيروت.
١٥٠. حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، أبي بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت.
١٥١. حاشية الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة الثانية عام ١٤١٦هـ.
١٥٢. حاشية الرحبية في علم الفرائض، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة السادسة عام ١٤٢٧هـ.
١٥٣. حاشية الروض المربع شرح زاد االمستقنع، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة الثامنة عام ١٤١٩هـ.
١٥٤. حاشية ثلاثة الأصول، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة السابعة عام ١٤١٧هـ.
١٥٥. حاشية كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة....
١٥٦. حاشية مقدمة التفسير، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، الطبعة الثانية عام ١٤١٠هـ.
١٥٧. حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي، دار الحاوي - بيروت - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول.
١٥٨. حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول، عبد الله بن صالح الفوزان، مكتبة

الرشد-الرياض-، الطبعة الأولى عام ١٤٢٧هـ.
١٥٩. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥هـ، الطبعة: الرابعة.
١٦٠. حلية طالب العلم، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية.
١٦١. خريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، دار ابن خزيمة - الرياض - ١٤١٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد.
١٦٢. خلاصة سير سيد البشر، محب الدين أبي جعفر بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - السعودية - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي.
١٦٣. درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن
١٦٤. دراسات في علوم القرآن الكريم، أ.د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد، الطبعة الحادية عشرة، عام ١٤٢٣هـ.
١٦٥. دلائل النبوة، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد محمد الحداد
١٦٦. ذم التأويل، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، دار النشر: الدار السلفية - الكويت - ١٤٠٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.
١٦٧. رسائل في العقيدة، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مكتبة المعارف الرياض الثانية عام ١٤٠٤ هـ.
١٦٨. رسائل في العقيدة، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى عام ١٤٢٣هـ
١٦٩. روضة الناظر وجنة المناظر، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي،

جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض - ١٣٩٩هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن السعيد

١٧٠. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ

١٧١. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة.

١٧٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، الطبعة: الرابعة عشر، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط.

١٧٣. زاهي الأزهار في مليح الأشعار، محمد بن عبد العزيز بن هليل، اسم الناشر: بدون، طبعة ١٤١٢هـ.

١٧٤. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٧هـ.

١٧٥. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل المرادي، دار البشائر، بيروت، طبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ.

١٧٦. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

١٧٧. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر - بيروت-، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد

١٧٨. سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي

١٧٩. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله،

مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣هـ، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي

١٨٠. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣هـ، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي

١٨١. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، دار بن كثير - دمشق - ١٤٠٦هـ، الطبعة: ط١، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط

١٨٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، دار طيبة - الرياض - ١٤٠٢هـ، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.

١٨٣. شرح الأصول الثلاثة، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٠هـ

١٨٤. شرح العقيدة الأصفهانية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم سعيداي

١٨٥. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩١، الطبعة: الرابعة.

١٨٦. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن خليل هراس، راجعه عبد الرزاق عفيفي، دار الآثار للنشر والتوزيع بالقاهرة، طبعة الأولى ١٤٢٤هـ

١٨٧. شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، عام ١٤٢٤هـ

١٨٨. شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، دار المعارف النعمانية - باكستان - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، الطبعة: الأولى

١٨٩. شرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنن، أبي حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين، مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل بن محمد

١٩٠. شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول

١٩١. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الفكر -بيروت - ١٣٩٨هـ، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي.

١٩٢. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الخامسة.

١٩٣. صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢هـ، الطبعة: الثانية.

١٩٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

١٩٥. صفة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي

١٩٦. صيانة مجموع الفتاوى من السقط والتصحيف، ناصر بن حمد الفهد، أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

١٩٧. صيد الخاطر، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، دار القلم - دمشق الطبعة: الطبعة الأولى١٤٢٥هـ.

١٩٨. ضعيف الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض.

١٩٩. طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٣هـ، الطبعة: الأولى
٢٠٠. طبقات الحنابلة، محمد بن أبي يعلى أبو الحسين، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٢٠١. طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان.
٢٠٢. طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا
٢٠٣. طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، مكتبة العلوم والحكم - السعودية - ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.
٢٠٤. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار ابن القيم - الدمام - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.
٢٠٥. ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي -بيروت-الطبعة: الثالثة، ١٤١٣هـ.
٢٠٦. العالم العابد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم حياته سيرته مؤلفاته، د. عبد الملك القاسم. دار القاسم الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
٢٠٧. عقيدة المؤمن، أبو بكر بن جابر الجزائري، دار السلام للطباعة والنشر، طبعة: بدون.
٢٠٨. عقيدة أهل السنة والجماعة على ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن مسفر بن مفرج القحطاني دار طيبة الخضراء مكة مكرمة، الطبعة الثانية عام ١٤٢٦هـ.

٢٠٩. علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، دار العاصمة الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٢١٠. علوم الحديث، [مقدمة ابن الصلاح]، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، دار الفكر المعاصر - بيروت - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، تحقيق: نور الدين عتر.

٢١١. عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥م، الطبعة: الثانية.

٢١٢. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٢١٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٢١٤. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، دار الكتب العلمية، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز.

٢١٥. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس.

٢١٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، .الطبعة الأولى، عام١٣٥٦هـ.

٢١٧. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، تحقيق: زهير الشاويش.

٢١٨. قصيدة عبد الله بن سليمان الأشعث، عبد الله بن سليمان الأشعث أبو بكر، دار طيبة - الرياض - ١٤٠٨هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود محمد الحداد.

٢١٩. كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة -إعداد نخبة من العلماء - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام ١٤٢١هـ.
٢٢٠. كتاب أصول الدين، جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي، دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان - ١٤١٩ - ١٩٩٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتور عمر وفيق الداعوق
٢٢١. كتاب المواقف، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، دار الجيل - لبنان - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الرحمن عميرة.
٢٢٢. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٥هـ، تحقيق: أحمد القلاش.
٢٢٣. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود عمر الدمياطي.
٢٢٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر - بيروت-، الطبعة: الأولى.
٢٢٥. لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند.
٢٢٦. لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، الدار السلفية - الكويت - ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.
٢٢٧. لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الدرة المرضية، العلامة الشيخ محمد بن السفاريني الحنبلي، الكتب الإسلامي -دار الخلاني بيروت، طبعة الثالثة عام ١٤١١هـ.

٢٢٨. ماذا يعنى انتمائي لأهل السنة والجماعة، أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغزازي، مؤسسة قرطبة، طبعة الأولى عام ١٤٢٣هـ.
٢٢٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث/ دار الكتاب العربي - القاهرة، بيروت - ١٤٠٧هـ.
٢٣٠. مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، طبعت هذه الفتاوي في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، عام ١٤٢٥هـ.
٢٣١. مجموع فتاوى ومقاولات متنوعة، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز، دار العاصمة، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ.
٢٣٢. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.
٢٣٣. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، اختصار محمد بن الموصلي، أضواء السلف، الطبعة الأولى عام ١٤٢٥هـ.
٢٣٤. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٢٣٥. مسند ابن الجعد، علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي، مؤسسة نادر - بيروت - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عامر أحمد حيدر.
٢٣٦. مسند أبي عوانة، الإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الاسفرائني، دار المعرفة - بيروت.
٢٣٧. مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق:

حسين سليم أسد.

٢٣٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة – مصر.

٢٣٩. مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٥، الطبعة: الثالثة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

٢٤٠. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد حكمي، دار ابن القيم - الدمام - ١٤١٠ - ١٩٩٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

٢٤١. معالم في طريق طلب العلم، عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السدحان، دار العاصمة، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٠هـ.

٢٤٢. معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، د محمد بن خليفة التميمي، أضواء السلف، الطبعة الأولى عام ١٤١٩هـ.

٢٤٣. معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، د.محمد بن خليفة التميمي، أضواء السلف، الطبعة الأولى، عام ١٤١٩هـ.

٢٤٤. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر، بيروت.

٢٤٥. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٤٦. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، تحقيق: هلموت ريتر.

٢٤٧. منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مؤسسة قرطبة – ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٢٤٨. منهج الأمام الشوكاني في العقيدة، د عبد الله نومسوك، مؤسسة الرسالة طبعة: الثانية ١٤١٤ هـ.

٢٤٩. منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، محمد الأمين الشنقيطي، الدار السلفية - الكويت - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: الرابعة.

٢٥٠. منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، تأليف: محمد الأمين الشنقيطي، دار النشر: الدار السلفية - الكويت - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: الرابعة.

٢٥١. مواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات، د محمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٥٢. موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، د.سليمان الغصن، دار العاصمة، الرياض، طبعة الأولى، عام ١٤١٦هـ.

٢٥٣. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

٢٥٤. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار الثقافة - لبنان، تحقيق: احسان عباس.

***

فهرس الموضوعات

المقدمة: ٥
أهمية الموضوع، وأسباب اختياره.. ٥
الدراسات السابقة.. ٧
منهج البحث.. ٧
التمهيد: التعريف بالشيخ عبد الرحمن ابن قاسم: ١١
المبحث الأول: حياته الشخصية.. ١١
المطلب الأول: نسبه، ونشأته.. ١١
المطلب الثاني: صفاته الخَلقية، والخُلقية.. ١٣
المطلب الثالث: علاقته بالعلماء.. ٢٥
المطلب الرابع: أعماله.. ٢٦
المطلب الخامس: مرضه ووفاته.. ٣٠
المبحث الثاني: حياته العلمية.. ٣٣
المطلب الأول: طلبه العلم ورحلاته.. ٣٣
المطلب الثاني: شيوخه.. ٣٥
المطلب الثالث: تلامذته.. ٣٧
المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه.. ٣٩
المطلب الخامس: مؤلفاته.. ٤١
المطلب السادس: بعض ما ذكر حول مؤلفاته.. ٤٢
المطلب السابع: منهج ابن قاسم في التصنيف.. ٥٣
المطلب الثامن: قيمة مؤلفاته والحاجة إليها.. ٥٨

الفصل الأول: مصادر التلقي والاستدلال عند الشيخ ابن قاسم: ٥٩
المبحث الأول: مصدر التلقي والاستدلال عند الشيخ ابن قاسم............ ٥٩
المبحث الثاني: موقفه من التقليد في مسائل الاعتقاد.................... ٦٦
المبحث الثالث: موقفه من الدليل العقلي................................ ٦٨
المبحث الرابع: موقفه من القياس في مسائل الاعتقاد.................... ٧٠
المبحث الخامس: موقفه من أقوال أهل العلم............................ ٧٣
المبحث السادس: موقفه من التعصب.................................... ٧٤
الفصل الثاني: جهوده في مسائل الإيمان: ٧٥
المبحث الأول: تعريف الإيمان لغة، واصطلاحا........................... ٧٥
المبحث الثاني: الفرق بين الإسلام والإيمان............................. ٧٩
العلاقة بين الإيمان والإسلام... ٨٢
الإحسان وعلاقته بالإيمان والإسلام.................................... ٨٣
المبحث الثالث: مسألة زيادة الإيمان، ونقصانه.......................... ٨٦
أسباب زيادة الإيمان.. ٨٧
أسباب نقص الإيمان.. ٨٨
المبحث الرابع: مسألة الاستثناء في الإيمان............................. ٩٠
المبحث الخامس: حكم مرتكب الكبيرة.................................. ٩٣
المطلب الأول: تعريف الكبيرة لغة واصطلاحا............................ ٩٣
المطلب الثاني: حكم مرتكب الكبيرة.................................... ٩٤
المطلب الثالث: فسوق المسلم بالإصرار على الصغيرة.................... ٩٧
المطلب الرابع: حكم التوبة من الكبيرة.................................. ٩٨
المطلب الخامس: شروط التوبة.. ١٠٠
المطلب السادس: أسباب سقوط العقوبة................................ ١٠١

الفصل الثالث: جهوده المتعلقة بأنواع التوحيد: ١٠٤
التمهيد: تعريف التوحيد لغة واصطلاحا................................ ١٠٤
المبحث الأول: بيان الشيخ لأنواع التوحيد................................ ١٠٦
النوع الأول: توحيد الإلهية.. ١٠٦
النوع الثاني: توحيد الربوبية.. ١٠٦
النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات................................ ١٠٦
وللتوحيد نوعان: ١٠٦
١. توحيد في المعرفة والإثبات.. ١٠٦
٢. توحيد في الطلب والقصد.. ١٠٧
وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تقسيم التوحيد إلى قسمين: ١٠٧
١. التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي................................ ١٠٧
٢. التوحيد الإرادي الطلبي.. ١٠٧
شبهه، والجواب عليها: ١٠٨
المبحث الثاني: بيان الشيخ العلاقة بين أنواع التوحيد........................ ١١٠
المبحث الثالث: بيان الشيخ ركني التوحيد: ١١٣
الفصل الرابع: جهوده في توحيد الربوبية: ١١٥
المبحث الأول: تعريف توحيد الربوبية لغة، واصطلاحا........................ ١١٥
المبحث الثاني: القلوب مفطورة على الإقرار بهذا التوحيد........................ ١١٩
المبحث الثالث: الإقرار بهذا التوحيد لا يكفي في الدخول في الإسلام........ ١٢١
المبحث الرابع: أدلة توحيد الربوبية................................ ١٢٣
الأول: دلالة الآفاق.. ١٢٣
١. دلالة الليل والنهار.. ١٢٤
٢. دلالة الشمس والقمر.. ١٢٤

٣. دلالة السماوات السبع والأرضيين السبع.................. ١٢٥
الثاني: دلالة العقل.................................... ١٢٦
الوجود نوعان.. ١٢٧
دلالة الحوادث... ١٢٨
ثالثاً: دلالة الفطرة..................................... ١٣٠
الفصل الخامس: جهوده في توحيد الألوهية:.................. ١٣٤
التمهيد:... ١٣٤
المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية لغة، واصطلاحا.......... ١٣٦
المبحث الثاني: أهمية توحيد الألوهية وثمراته................. ١٣٨
المطلب الأول: أهمية توحيد الألوهية........................ ١٣٨
المطلب الثاني: ثمرات توحيد الألوهية........................ ١٤٠
١- أنه سبب الأمن والاهتداء التام في الدنيا والآخرة........... ١٤٠
٢- دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب لمن حقق التوحيد......... ١٤٢
٣- أن من مات على التوحيد كان مصيره إلى الجنة، إما ابتداء أو انتهاء....... ١٤٩
٤- أنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله مخلصا لله.......... ١٥١
المبحث الثالث: معنى شهادة لا إله إلا الله، وأركانها، وشروطها، والدعوة إليها........ ١٥٤
المطلب الأول: معنى شهادة أن لا إله إلا الله لغة واصطلاحا...... ١٥٤
المطلب الثاني: معنى وأدلة تفسير شهادة لا إله إلا الله.......... ١٥٥
المطلب الثالث: أركان شهادة لا إله إلا الله.................. ١٥٩
المطلب الرابع: شروط شهادة لا إله إلا الله.................. ١٦٠
المطلب الخامس: الدعوة إلى توحيد الألوهية.................. ١٦٣
مراتب الدعوة.. ١٦٤

شروط الدعوة.. ١٦٤

المبحث الرابع: تعريف العبادة، وشروطها، وأركانها، وأنواعها، وحكم صرفها لغير لله.. ١٦٦

المطلب الأول: تعريف العبادة لغة واصطلاحا.. ١٦٦

المطلب الثاني: أدلة وجوب صرف جميع العبادة لله وحده.. ١٦٧

المطلب الثالث: شروط العبادة.. ١٦٩

المطلب الرابع: محركات القلوب:.. ١٧٠

الأول: المحبة.. ١٧١

أقسام المحبة.. ١٧٢

ومن لوازم محبة الله سبحانه الحب والبغض فيه.. ١٧٥

الثاني: الخوف.. ١٧٦

أقسام الخوف.. ١٧٧

الخشية.. ١٧٨

الثالث: الرجاء.. ١٧٩

الفرق بين الرجاء والتمني.. ١٨٠

أقسام الرجاء.. ١٨٠

الجمع بين المحبة، والخوف، والرجاء.. ١٨١

المطلب الخامس: بيان بعض أنواع العبادات.. ١٨٣

الأولى: الدعاء.. ١٨٣

أقسام الدعاء.. ١٨٣

الاستغاثة.. ١٨٥

الفرق بين الاستغاثة والدعاء.. ١٨٦

الثاني: التوكل.. ١٨٧

أقسام التوكل.. ١٨٨
الثالث: الإنابة ١٨٩
الرابع: الاستعانة ١٩٠
الخامس: الذبح.. ١٩١
الذبح يقع على جوه.. ١٩٢
المطلب السادس: موقفه ممن صرف شيئا من العبادة من دون الله سبحانه.. ١٩٣
المبحث الخامس: موقفه مما ينافي توحيد الإلوهية، أو ما يقدح في كماله.... ١٩٤
المطلب الأول: الوقاية والتحذير مما ينافي التوحيد، وهو الشرك............ ١٩٤
المسألة الأول: تعريف الشرك، وأقسامه.. ١٩٤
المسألة الثانية: التحذير من الشرك.. ١٩٦
المسألة الثالثة: سبب الشرك، ومظاهره.. ١٩٩
التميد.. ١٩٩
من أسباب الشرك: الغلو في الصالحين.. ٢٠٠
الغلو شامل لجميع أمور الدين.. ٢٠١
الأول: الغلو في الأعمال.. ٢٠١
ومن مظاهر الغلو في الأعمال.. ٢٠٢
أ- عبادة الله عند قبور الأولياء والصالحين.. ٢٠٢
أبطل من زعم أن النهي في الصلاة في المقبرة لأجل النجاسة............ ٢٠٣
ب- البناء على القبور، واتخاذها مساجد.. ٢٠٥
ت - زيارة القبور البدعية.. ٢٠٧
الثاني: الغلو في الاعتقادات.. ٢١٠
الثالث: الغلو في الأقوال.. ٢١٢
المطلب الثاني: ما ينافي توحيد الألوهية أو يقدح في كاله من الأعمال........ ٢١٣

المسألة الأول: عبادة الأوثـان.. ٢١٤
المسألة الثانيـة: الريــاء.. ٢١٦
حكم العبادة إذا خالطهـا الريـاء.. ٢١٨
المسألة الثالثة: التبرك بالأشجار والأحجـار ونحوهـا..................... ٢٢٠
التبرك بالأشخاص الصالحين، له حـالان................................ ٢٢٣
المسألة الرابعة: طلب الشفاعة من غيـر الله............................. ٢٢٣
أولاً: تعريف الشفاعة لغـة، واصـطلاحا................................. ٢٢٥
ثانيًا: تقسيمه الـشفاعة إلى قـسمين..................................... ٢٢٥
الشفاعة المثبتة مقيـدة بـأمرين.. ٢٢٦
ثالثًا: أقسام النـاس في الـشفاعة.. ٢٢٦
رابعًا: أدلة الـشفاعة.. ٢٢٨
خامسًا: قطع الله طمع المشركين من الشفاعة من غيـره.................. ٢٢٨
سادسًا: أسعد الناس بشفاعة النبـي ﷺ................................. ٢٣٠
سابعًا: ذكر بعض أدلة المخالفين، والرد عليهـا.......................... ٢٣١
المسألة الخامـسة: الطيـرة... ٢٣٤
أولاً: تعريف الطيـرة... ٢٣٤
ثانيًا: حد الطيرة.. ٢٣٥
ثالثًا: تحريم الطيرة، والأدلة عليها....................................... ٢٣٦
أمثلة على التطير كانت عنـد العـرب.................................... ٢٣٩
إشكال وجوابـه... ٢٤١
ثالثًا: حصول التطير عند بعض المسلمين، وكيفية علاجه................. ٢٤٢
رابعًا: استحباب الفأل، وأنه مضاد للطيـرة.............................. ٢٤٤
أدلة مـشروعية الفـأل.. ٢٤٥

المسألة السادسة: الاستسقاء بالأنواء............ ٢٤٦
المسألة السابعة: النياحة على الميت............ ٢٤٩
المطلب الثالث: ما ينافي توحيد الألوهية أو يقدح في كماله من الأقوال.... ٢٥١
المسألة الأولى: قول: ما شاء الله وشئت ونحو ذلك............ ٢٥٢
المسألة الثانية: الرقى............ ٢٥٤
أنواع الرقية............ ٢٥٥
شرط الرقية............ ٢٥٦
المسألة الثالثة: الاستعاذة بغير الله............ ٢٥٧
الفصل السادس: جهوده في توحيد الأسماء والصفات............ ٢٦٠
المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات لغة واصطلاحا............ ٢٦٠
إشارات فيما يتعلق بالتعريف............ ٢٦٣
الأولى: إن التعبير بنفي لفظ التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه............ ٢٦٣
الثانية: أن التعبير بنفي التحريف أولى من التعبير بنفي التأويل............ ٢٦٤
المبحث الثاني: الأصول التي بني عليها السلف مذهبهم في الأسماء والصفات............ ٢٦٦
الأصل الأول: تنزيه الله ﷻ عن أن يماثله شيء في ذاته أو في أسمائه أو في صفاته أو في أفعاله شيئا من صفات المخلوقين............ ٢٦٦
الأصل الثاني: الإيمان بما سمى الله ووصف به نفسه، وبما سماه ووصفه به رسوله ﷺ، على الوجه اللائق بكمال الله، وجلاله............ ٢٦٧
الأصل الثالث: قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله ﷻ............ ٢٦٨
المبحث الثالث: القواعد في أسماء الله وصفاته............ ٢٧١
القاعدة الأولى: أسماء الله كلها حسنى............ ٢٧١
القاعدة الثانية: أسماء الله أعلام وأوصاف............ ٢٧٣

القاعدة الثالثة: أن أسماء الله وصفاته توقيفية.......................... ٢٧٣
القاعدة الرابعة: القول في الصفات كالقول في الذات.......................... ٢٧٥
القاعدة الخامسة: لا يستعمل في حق الله تعالى إلا قياس الأولى.......................... ٢٧٦
القاعدة السادسة: أن أثبات صفات الله ﷻ - المتضمنة كل كمال له سبحانه - تنفي عنه أضدادها، من صفات النقص.......................... ٢٧٧
القاعدة السابعة: صفات الله الفعلية تتعلق بمشيئته واختياره.......................... ٢٧٨
القاعدة الثامنة: المضافات إلى الله إن كانت أعيانا فهي من جملة المخلوقات، وإن كانت أوصافا فهي من صفات الله.......................... ٢٨١
المبحث الرابع: أقسام الصفات.......................... ٢٨٢
المطلب الأول: تقسيم الصفات بحسب تعلقها بذات الله ﷻ ومشيئته إلى قسمين:.......................... ٢٨٢
١. صفات ذاتية.......................... ٢٨٢
٢. صفات فعلية.......................... ٢٨٢
المطلب الثاني: تقسيم الصفات الفعلية إلى قسمين:.......................... ٢٨٢
٣. أفعال لازمة.......................... ٢٨٢
٤. أفعال متعدية.......................... ٢٨٢
المطلب الثالث: تقسيم الصفات بحسب ورودها في النصوص إلى قسمين.. ٢٨٣
٣. صفات مثبتة.......................... ٢٨٣
٤. صفات منفية.......................... ٢٨٣
المبحث الخامس: ذكر جملة من أسماء الله الحسنى التي ذكرها الشيخ ابن قاسم.......................... ٢٨٤
المبحث السادس: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشيخ ابن قاسم...... ٢٨٧
المطلب الأول: الصفات الذاتية التي ذكرها ابن قاسم:.......................... ٢٨٧

المطلب الثاني: الصفات الفعلية التي ذكرها ابن قاسم........................ ٢٩٠
المبحث السابع: حكم من جحد شيئا من أسماء الله تعالى وصفاته........ ٢٩٣
المبحث الثامن: هل نصوص الأسماء والصفات من المحكم أم من المتشابه؟.. ٢٩٥
المبحث التاسع: بطلان مذهب التفويض.................................. ٢٩٧
المبحث العاشر: موقفه من الألفاظ المجملة.............................. ٢٩٩
الفصل السابع: جهوده في تقرير الإيمان بالكتب: ٣٠٤
المبحث الأول: تعريف الكتب لغة، واصطلاحًا............................ ٣٠٤
المبحث الثاني: منزلة الإيمان بالكتب: ٣٠٥
الكتب المنزلة من الله قسمان: ٣٠٦
تحريف الكتب السابقة: ٣٠٧
المبحث الثالث: القرآن الكريم.. ٣٠٨
المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم ومكانته............................. ٣٠٨
المسألة الأول: تعريف القرآن... ٣٠٨
المسألة الثانية: مكانة القرآن... ٣٠٨
المسالة الثالثة: عقيدة السلف في القرآن.................................. ٣١١
المسألة الرابعة: أوجه إعجاز القرآن...................................... ٣١٤
شروط الإعجاز في القرآن الكريم: ٣١٥
أوجه إعجاز القرآن: ٣١٧
المسالة الخامسة: معنى إضافة القرآن إلى الرسول البشري أو الملكي..... ٣٢٠
المطلب الثاني: إنكار من قال أن القرآن مخلوق............................ ٣٢١
المطلب الثالث: موقفه من المحكم والمتشابه............................... ٣٢٣
١. تعريف المحكم.. ٣٢٣

٢. تعريف المتشابه..٣٢٣
وصف القران كله بالمحكم، وكله بالمتشابه، وأن بعضه محكم، وبعضه متشابه، وتفصيل ذلك..٣٢٣
أولا: المحكم الذي وصف به القرآن يطلق ويراد به معنيان..............٣٢٣
١. الإحكام العام..٣٢٣
٢. الإحكام الخاص..٣٢٤
ثانياً: المتشابه الذي وصف به القرآن يطلق، ويراد به معنيان.............٣٢٤
١. التشابه العام..٣٢٤
٢. التشابه الخاص..٣٢٤
تنقسم معرفة المتشابه الخاص إلى قسمين..............................٣٢٥
١. تشابه حقيقي..٣٢٥
٢. تشابه نسبي..٣٢٧
تنقسم الناس في معرفته إلى قسمين....................................٣٢٧
أ. الراسخون في العلم..٣٢٧
ب. أهل الزيغ والضلال..٣٢٨
المطلب الرابع: موقفه من التأويل في القرآن............................٣٣٠
المطلب الخامس: موقفه من المجاز....................................٣٣٤
تعريف الحقيقة والمجاز..٣٣٤
الأدلة بمنع المجاز..٣٣٥
الفصل الثامن: جهوده في تقرير الإيمان بالملائكة:..........................٣٤٠
المبحث الأول: تعريف الملائكة لغة، واصطلاحا..........................٣٤٠
المبحث الثاني: منزلة الإيمان بالملائكة..................................٣٤٢
الإيمان بالملائكة يتضمن عدة أمور....................................٣٤٣

المبحث الثالث: المفاضلة بين صالي البشر والملائكة.................. ٣٤٧
المبحث الرابع: موت الملائكة ومصيرهم:.................. ٣٥٠
الفصل التاسع: جهوده في الإيمان بالرسل:.................. ٣٥١
المبحث الأول: تعريف النبي والرسول لغة، واصطلاحاً.................. ٣٥١
مآخذ على التعريف.................. ٣٥٢
المبحث الثاني: منزلة الإيمان بالرسل.................. ٣٥٣
المبحث الثالث: أولو العزم من الرسل.................. ٣٥٤
لمبحث الرابع: مذهب أهل السنة والجماعة في النبوة.................. ٣٥٥
صفات الأنبياء التي تحقق فيهم الكمال البشري إجمالا.................. ٣٥٦
المبحث الخامس: حاجة الخلق إلى الرسل والحكمة من إرسالهم:.................. ٣٥٩
١. الدعوة إلى توحيده وعبادته سبحانه وحده.................. ٣٦٠
٢. قيام الحجة على العباد.................. ٣٦٠
٣. تبليغ شرع الله عز وجل.................. ٣٦١
المبحث السادس: ترتيب الرسل عليهم الصلاة والسلام في الفضل.................. ٣٦٣
المبحث السابع: عصمة الأنبياء.................. ٣٦٦
المطلب الأول: ما يستحيل في حقهم.................. ٣٦٦
المطلب الثاني: ما يجوز في حقهم عليهم السلام.................. ٣٦٨
المبحث الثامن: الإيمان بنبينا محمد.................. ٣٧٠
تمهيد:.................. ٣٧٠
المطلب الأول: معنى شهادة أن محمدا عبد الله ورسوله.................. ٣٧١
المطلب الثاني: أهمية معرفة نبينا محمد ﷺ.................. ٣٧٢
١. نسبه وسيرته باختصار.................. ٣٧٣
٢. بداية نبوته ورسالته ﷺ.................. ٣٧٥

٣. دعوتـه ﷺ..٣٧٧
٤. حياتـه النبويـة.......................................٣٧٧
العبر والدروس العقدية من هجرتـه.......................٣٧٨
المطلب الثالث: خصائص نبينـا ﷺ........................٣٨٠
المطلب الرابع: آيات نبينا محمـدﷺ:......................٣٨٥
تعريف المعجزة لغة واصـطلاحاً.........................٣٨٦
التعبير بالآيات أو إعلام النبوة أولى من المعجـزة.........٣٨٧
تفصيل في بعض معجزات نبينـاﷺ.........................٣٨٨
ذكر بعض معجزاته إجمـالا...............................٣٩٢
المطلب الخامس: كرامات الأولياء وإثباتهـا...............٣٩٣
تعريف الكرامـة...٣٩٣
محتـرزات التعريـف.......................................٣٩٣
حكم نفي كرامـات الأوليـاء...............................٣٩٥
الفرق بين المعجزة والكرامـة.............................٣٩٥
الفرق بين كرامات الأولياء والأحـوال الـشيطانية..........٣٩٦
المطلب الـسادس: وفاتـه ﷺ..............................٣٩٦
أثبات موت النبـيﷺ.......................................٣٩٨
المطلب السابع: فضل أمة محمـدﷺ.........................٣٩٨
الفصل العاشر: جهوده في الإيمان بـاليوم الآخـر:..........٤٠٠
المبحث الأول: التعريف اليـوم الآخـر.......................٤٠٠
المبحث الثاني: منزلة الإيمان باليوم الآخـر................٤٠١
المبحث الثالث: أشـراط الـساعة...........................٤٠٢
المطلب الأول: تعريف أشـراط الـساعة....................٤٠٢

المطلب الثاني: أقسام أشراط الساعة........................ ٤٠٣
المطلب الثالث: أشراط الساعة الصغرى........................ ٤٠٤
المطلب الرابع: أشراط الساعة الكبرى........................ ٤٠٤
١. ظهور المهدي........................ ٤٠٥
٢. المسيح الدجال:........................ ٤٠٦
٣. نزول المسيح عليه السلام........................ ٤١٠
٤. خروج يأجوج ومأجوج........................ ٤١٢
٥. الدخان:........................ ٤١٤
٦. طلوع الشمس من المغرب:........................ ٤١٥
٧. خروج الدابة:........................ ٤١٧
٨. النار تحشر الناس إلى المغرب........................ ٤١٩
هدم الكعبة:........................ ٤٢١
رفع القرآن:........................ ٤٢٣
تقوم الساعة على شرار الناس:........................ ٤٢٤
المبحث الرابع: الحياة البرزخية........................ ٤٢٦
المطلب الأول: تعريف البرزخ لغة، واصطلاحا........................ ٤٢٦
المطلب الثاني: الإيمان بالحياة البرزخية........................ ٤٢٦
المطلب الثالث: القبر وفتنته........................ ٤٢٨
المطلب الرابع: الروح........................ ٤٣١
المبحث الخامس: أهوال يوم القيامة........................ ٤٣٣
المطلب الأول: النفخ بالصور........................ ٤٣٣
عدد النفخات........................ ٤٣٤
النفخة الأولى: نفخة الفزع........................ ٤٣٤

النفخة الثانية: نفخة الصعق........................... ٤٣٤
النفخة الثالثة: نفخة البعث والنشور........................... ٤٣٥
ذهب بعض أهل العلم إلى أنها نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث....... ٤٣٥
الرد على من قال إن النفخات ثلاث........................... ٤٣٦
المطلب الثاني: البعث: ٤٣٧
المسألة الأول: تعريف البعث: ٤٣٧
المسألة الثانية: وجوب الإيمان بالبعث........................... ٤٣٨
المسالة الثالثة: حكم إنكار البعث: ٤٣٩
المطلب الثالث: العرض للحساب: ٤٤٠
تعريف الحساب........................... ٤٤٠
الحساب ينقسم إلى نوعين: ٤٤٠
الأول: حساب المسلمين: وينقسم إلى ثلاثة أقسام........................... ٤٤٠
الثاني: حساب الكفار........................... ٤٤٢
المطلب الرابع: نشر الصحف........................... ٤٤٣
المطلب الخامس: الميزان........................... ٤٤٤
المطلب السادس: الصراط........................... ٤٤٦
المطلب السابع: حوض المصطفى ﷺ........................... ٤٤٨
الكوثـــــر........................... ٤٥٠
المطلب الثامن: الشفاعة........................... ٤٥١
المسألة الأولى: الإيمان بالشفاعة........................... ٤٥١
المسألة الثانية: شروط الشفاعة........................... ٤٥٢
المسألة الثالثة: أنواع الشفاعات........................... ٤٥٢
المبحث السادس: الجنة، والنار: ٤٥٥

المطلب الأول: الإيمان بهما ٤٥٥
المطلب الثاني: النار ٤٥٧
المطلب الثالث: الجنة ٤٥٨
المطلب الرابع: وجود الجنة والنار وأبديتهما ٤٥٩
المطلب الخامس: رؤية رب العالمين ٤٦١
الفصل الحادي عشر: جهوده في الإيمان بالقضاء والقدر: ٤٦٤
المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر لغة، واصطلاحاً ٤٦٤
الفرق بين القضاء والقدر: ٤٦٥
المبحث الثاني: منزلة الإيمان بالقضاء، والقدر ٤٦٧
المبحث الثالث: مراتب القدر ٤٦٨
المبحث الرابع: أنواع الإرادة الإلهية: ٤٧١
١. إرادة كونية قدرية ٤٧١
٢. إرادة شرعية دينية ٤٧١
الفروق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية: ٤٧٢
المبحث الخامس: إرادة الله الكونية لا تستلزم رضاه ٤٧٤
مراد الله نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره ٤٧٤
المبحث السادس: أفعال العباد ٤٧٦
أفعال العباد قسمان: ٤٧٦
المبحث السابع: الرضا بالقضاء والرضا بالمقضي، والفرق بينهما ٤٧٩
١. أن القضاء يكون من الله ٤٧٩
٢. أن المقضي يكون من فعل العبد ٤٧٩
المقضي ينقسم إلى نوعين: ٤٨٠
الأول: أن يكون المقضي في شرعي ديني ٤٨٠

الثاني: إن يكون المقضي في فعل العبد كوني قدري، وله ثلاث حالات: ٤٨٠
المبحث الثامن: الأمر بالشيء لا يلزم منه الإعانة عليه..........٤٨٤
المبحث التاسع: الاحتجاج بالقضاء والقدر..........٤٨٦
المبحث العاشر: الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى..........٤٨٩
الحكمة تتضمن شيئين: ٤٩٠
الحكمة العائدة إلى الله سبحانه، والمتعلقة بأفعاله نوعان: ٤٩٠
هل لله أن يفعل لمجرد المشيئة لا لحكمة؟..........٤٩٣
المبحث الحادي عشر: فعل الأصلح بين الوجوب وعدمه..........٤٩٦
ميزان معرفة الأصلح، أو عدمه للعبد؟..........٤٩٧
المبحث الثاني عشر: الهدي والضلال..........٥٠٠
الهداية على قسمين: ٥٠٠
المبحث الثالث عشر: الثواب والعقاب..........٥٠٣
فضله سبحانه على عبده من جهة فعله نوعان: ٥٠٣
الفصل الثاني عشر: جهوده فيما يجب لصحابة:..........٥٠٦
المبحث الأول: تعريف الصحابي لغة، واصطلاحاً..........٥٠٦
المبحث الثاني: مذهب أهل السنة في الصحابة..........٥٠٧
أهل السنة والجماعة في الصحابة قائم على أصلين..........٥٠٧
الأول: فضيلتهم على الأمم بعد أنبيائها عليهم السلام..........٥٠٧
أدلة فضل الصحابة رضي الله عنهم النقلية والعقلية: ٥٠٨
الثاني: الإمساك عن مساوئهم وما شجر بينهم..........٥١٠
المبحث الثالث: ترتيب الصحابة في الفضل..........٥١٢
الخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما: ٥١٥
مذهب السلف في ترتيب خلافة الخلفاء الراشدين..........٥١٧

ثم يأتي بعد العشرة المبشرين بالجنة أهل غـزوة بـدر........... ٥١٩
ثم يأتي بعد أهل غزوة بدر: أهل الـشجرة........... ٥٢٠
ترجيح فضيلة أهل الشجرة على أهل غزوة أحـد: ٥٢٠
المبحث الرابع: فضل زوجـات النبـيﷺ........... ٥٢٣
المبحث الخامس: حكم سـب الـصحابة........... ٥٢٥
الفصل الثالث عشر: جهوده في مسائل الإمامـة:........... ٥٢٨
المبحث الأول: تعريف الإمامة لغـة، واصـطلاحا........... ٥٢٨
المبحث الثاني: حكـم الإمامـة........... ٥٢٩
المبحث الثالث: الطرق التي تنعقد بهـا الإمامـة........... ٥٣١
المبحث الرابع: الشروط الواجب توفرها في الإمام عند اختيـاره........... ٥٣٣
المبحث الخامس: مصالح نـصب الإمـام: ٥٣٧
المبحث السادس: ما يجب على الإمام والرعية نحو الآخـر: ٥٤٠
المطلب الأول: ما يجب على الإمام نحو الرعية: ٥٤٠
المطلب الثاني: ما يجب على الرعية نحو الإمـام........... ٥٤٠
المبحث السابع: حكم فسق الإمام بعـد عدالتـه. ٥٤٣
لا يجوز الخروج على ولي الأمر إلا بـشرطين: ٥٤٤
الخاتمـــة: ٥٤٥
فهرس المـصادر والمراجـع........... ٥٤٩
فهرس الموضـوعات........... ٥٧٥

❁❁❁